



عناصر الموضوع

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الطعام

أولًا: المعنى اللّغوي:

لفظ الطّعام مصدر مشتق من مادة (طعم)، بمعنى أكل، قال ابن فارس: «الطاء والعين والميم أصلٌ مطّردٌ منقاسٌ في تذوّق الشّيء، يقال: طعمت الشيء طعمًا، والطّعام هو المأكول» [1]، فالطعام اسم جامع لكل ما يؤكل، ويأتي الطعام مجازًا بمعنى الشبع؛ يقال: ما يطعم آكل هذا الطّعام، أي: ما يشبع، ويقال: إنّ هذا الطّعام طعمٌ، أي: يطعم من أكله، أي: يشبع، وفي الحديث عن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال في زمزم: (إنّها طعام طعم) [2]، أي: يشبع الإنسان إذا شرب ماءها، كما يشبع من الطّعام [3]، وقال الراغب: «إنّه يغذي بخلاف سائر المياه» [4]، وقد يطلق لفظ (الطعام) ويراد به صنفًا معينًا دون غيره، كالبر مثلًا؛ فإنّ أهل الحجاز إذا أطلقوا لفظ (الطعام) عنوا به البرّ خاصّةً [5].

والخلاصة أنّ الطعام في اللغة يطلق على كلّ ما يؤكل ويتغذّى عليه مما خلقه الله عز وجل.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للطعام عن معناه اللغوي؛ إذ الطعام في الاصطلاح يطلق على: كلّ ما يتناول من الغذاء [6].

وكلّ شيء يأكله الإنسان أو غير الإنسان يسمى طعامًا، فالطعام «اسم لكل ما يؤكل ويطعم» [7]؛ فلا يختص لفظ الطعام بأصناف معيّنة مما يؤكل؛ بل كلّ ما يؤكل فهو طعام، سواء كان مما أحلّه الله عز وجل لعباده أو مما لم يحلّه لهم.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه، رقم ٦٥١٣، ٧/ ١٥٢.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٢٥.
(٤) المفردات ص٣٠٤.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٦٧٣.
(٦) انظر: المفردات، الراغب ص٣٠٤.
(٧) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٣٩١.



الطعام في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طعم) في القرآن (٤٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش:٤]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨]
فعل الأمر	٢	﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج:٢٨]
المصدر	٢٨	﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ [البلد:١٤]
اسم الفاعل	١	﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ [الأنعام:١٤٥]

وجاء الطعام في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: كل ما يطعم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش:٤].

الثاني: السمك، ومنه قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦].

الثالث: الذبائح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة:٥] أي: ذبائحهم.

الرابع: الشراب، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي: ومن لم يشربه.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٤٢٥-٤٢٦.

(٢) انظر: والوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ١٩٤-١٩، نزهة الأعين، ابن الجوزي ص ٤١٢-٤١٣، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٢٢-٣٢٣.

ألفاظ ذات صلة

١ الأكل:

الأكل لغةً:

من أكل الطعام يأكله أكلًا، فهو آكلٌ، والإكلة -بالكسر- الحال التي يأكل عليها؛ متكئًا أو قاعدًا، يقال: إنه لحسن الإكلة، والأكلة - بالفتح - المرة الواحدة المشبعة، والأُكلة -بالضم- اسم للّقمة [١].

الأكل اصطلاحًا:

ليس هناك تعريفٌ اصطلاحيٌّ للأكل يختلف عن تعريفه اللغوي، فالأكل معروف ولا يحتاج إلى تعريف، ويطلق لفظ الأكل ويراد به فعل الأكل، أي: تناول الطعام، وقد يطلق ويراد به الطعام نفسه.

الصّلة بين الأكل والطعام:

يغلب استعمال لفظ الأكل في التعبير عن عمليّة الأكل، وقد يستعمل للدلالة على ما يؤكل، أمّا الطعام فيراد به دائمًا ما يؤكل؛ لذا يقال: تناولت طعامي، ويندر أن يقال: تناولت أكلي.

٢ الغذاء:

الغذاء لغة:

من الفعل غذا بمعنى: نما، والغذاء كل ما يتغذّى به، وقيل: ما يكون به نماء الجسم وقوامه؛ من الطّعام والشّراب واللّبن، وقيل: اللّبن غذاء الصغير وتحفة الكبير [٢].

الغذاء اصطلاحًا:

يعرّف علماء التغذية الغذاء بأنّه: «موادٌّ تؤخذ عن طريق الفم؛ للإبقاء على الحياة والنمو، حيث تمد الجسم بالطاقة، وتبني الأنسجة، وتعوض التالف منها» [٣].

الصّلة بين الغذاء والطعام:

من خلال التعريفات السابقة يظهر أنّ الغذاء والطعام لهما نفس المعنى، ولا يكاد يظهر

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٠٠.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٣٢٢٣.
(٣) معجم الصناعات الغذائية والتغذية، محمد فهمي صديق ص٢٠٧.



فرق بين اللفظين؛ إلا أنّ لفظ الغذاء فيه تركيز على معنى التغذية والنمو المستفاد من تناول الغذاء، أمّا لفظ الطعام ففيه تركيز على الطعم الذي يجده الإنسان عند تناول طعامه، ولفظ الطعام أعمّ من لفظ الغذاء.

٣ الشراب:

الشراب لغة:

مشتق من الفعل: شرب، يقال: شربت الماء أشربه شربًا، والشّرب الاسم، وكذا الشّراب، والشّرب: الحظّ من الماء[(١)].

الشراب اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للشراب نفس المعنى اللغوي؛ إذ الشراب في الاصطلاح من الشّرب، والشرب «تناول كل مائع؛ ماء كان أو غيره»[(٢)]، فالشراب كل مائع يشرب؛ سواء كان ماءً أو غير الماء.

الصّلة بين الشراب والطعام:

الفرق بين الشراب والطعام ظاهرٌ بيّنٌ؛ إذ الشراب ما كان مائعًا كالماء، ويتناوله الإنسان شربًا، أمّا الطعام فيشمل كل ما يتناول من الأكل، فهو بذلك قد يطلق على الشراب أيضًا.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٦٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٥٧.

الله تعالى هو المطعم لخلقه

لقد خلق الله عز وجل الخلق، وتكفّل سبحانه برزقهم والعناية بهم؛ فهو وحده سبحانه يطعمهم ويسقيهم، وهو سبحانه يرزقهم ويهديهم، لم يخلق سبحانه الخلق لحاجةٍ لهم، ولم يرد منهم أن ينفعوه بشيءٍ؛ فهو سبحانه وتعالى الغنيّ عن خلقه؛ فالخلق خلقه، والملك ملكه، والكلّ تحت سلطانه وحكمه، قال عز وجل: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ – ١٧].

وهو سبحانه الواحد الأحد، الفرد الصمد، كلّ الخلق محتاج إليه، وهو غير محتاج لأحد.

ولقد أخبر الله سبحانه عن غاية خلقه للعباد، وبيّن أنّه ما يريد منهم رزقًا ولا طعامًا؛ وإنّما خلقهم سبحانه لعبادته وطاعته، قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨].

فعبادة الله هي الغاية العظمى لخلق الجنّ والإنس؛ فما خلقوا إلا ليستجيبوا لربّهم، وليذعنوا له سبحانه بالطاعة والعبادة؛ وذلك من خلال طاعة رسله، والتزام أمره، واجتناب نهيه، والخضوع لشرعه عز وجل[(١)].

أولًا: تنزيه الله تعالى عن الحاجة للطعام:

إنّ الله عز وجل ليس محتاجًا من عباده أن يطعموه، أو أن يرزقوه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا، وليس محتاجًا من عباده أن يرزقوا خلقه؛ بل ليس محتاجًا إليهم ليرزقوا أنفسهم؛ فهو سبحانه قد تكفّل برزقهم ومعاشهم، وبرزق الخلق أجمعين، وهو سبحانه الغني الحميد، والخلق كلهم فقراء إليه[(٢)]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابّة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، وهو سبحانه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحدٌ، ومن قوته سبحانه أنّه أوصل رزقه إلى جميع خلقه[(٣)].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١٣.

إنّ من كملت صفاته، وكمل غناه عن خلقه، وعظم ملكه وسلطانه هو وحده من يجب أن يتّخذه العباد وليًّا؛ ولا يتّخذ وليٌّ سواه؛ فهو سبحانه الخالق الرازق، فاطر السماوات والأرض، يسدي لعباده النفع، ويدفع عنهم الضّر، وهو غير محتاج لغيره، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

فلا ينبغي للعبد أن يتّخذ وليًّا إلا الله وحده لا شريك له؛ فإنّه فاطر السموات والأرض؛ خلقهما وأبدعهما على غير مثال سبق، وهو سبحانه ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو من يطعم الخلق ويرزقهم، وهو الرزاق المتفضّل على الخلق أجمعين، وهو سبحانه منزّه عن الطعام والشراب؛ فلا يحتاج لطعام ولا لشراب، ولا يحتاج لأحدٍ من خلقه، ومن كانت هذه صفاته فهو الإله الحقّ، الذي لا إله غيره، ولا معبود بحقٍ سواه[(١)].

ولقد ردّ الله عز وجل على الضالين المفترين الذين اتخذوا عيسى عليه السلام وأمّه إلهين من دون الله عز وجل بأنهما كانا محتاجين إلى الطعام والشراب، وكيف لمن كان محتاجًا لطعامه فقيرًا لغيره أن يكون إلهًا يعبد؟! قال الله عز وجل: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

قال البغوي: «أي: كانا يعيشان بالطعام والغذاء كسائر الآدميين، فكيف يكون إلهًا من لا يقيمه إلا أكل الطعام؟!»[(٢)].

وإنّ حقيقة رزق الله عز وجل لعباده وإطعامه لهم حقيقة لا ينكرها أيّ عاقل، ولا يستطيع أن يتجاهلها حتى المشرك الكافر؛ فالمشركون يقرون بأنّ الخالق الرازق هو الله سبحانه، قال الله عز وجل عنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٣].

فسبحان من يرزق العباد ويطعمهم، وسبحان من تنزّه عن الحاجة للطعام والشراب، وسبحان الغني عن كل العباد.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣٥.

(٢) معالم التنزيل ٣/ ٨٣.

ثانيًا: الطعام نعمة إلهية تستوجب الشكر:

لا شكّ بأنّ إطعام الله عز وجل لخلقه ولعباده نعمة عظيمة منه سبحانه عليهم، ولولا إطعام الله عز وجل للخلق ورزقه لهم لفنيت حياتهم، وانعدم وجودهم؛ فحياة الخلق أجمعين إنّما هي من الحيّ القيوم، ومعاشهم وقوام أمرهم إنما هو بإطعام الله عز وجل ورزقه لهم.

والعبد الشاكر لربّه عز وجل يستشعر دائمًا نعم الله عز وجل عليه، ويقابل تلك النعم بالشكر والثناء على المنعم سبحانه، وقد أخبر الله عز وجل عن نبيه إبراهيم عليه السلام كيف حاجّ قومه، وقدم بين يديهم الأدلة والبراهين على أنّ الله وحده هو الإله الحق الذي يجب على العباد أن يعبدوه دون سواه؛ لأنّه سبحانه وحده المنفرد بالإنعام على خلقه وعباده بأصناف النعم والعطايا، قال الله عز وجل مخبرًا عن إبراهيم عليه السلام وهو يحاجّ قومه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢].

فالله سبحانه هو المنفرد بالإنعام على العباد؛ فهو وحده المنفرد بنعمة الخلق، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، وهو وحده المنفرد بإطعام العباد ورزقهم، وهو وحده الذي بيده الشفاء من الأمراض والأسقام، وهو وحده الذي بيده الموت والحياة؛ فيجب أن يفرد وحده بالعبادة والطاعة، ويترك ما سواه من الأصنام والآلهة التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم ولا تسقي، ولا تميت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب[(١)].

إنّ من أنعم على عباده بالخلق والهداية، وتفضّل عليهم بالإطعام وبأصناف الرزق هو وحده من يعبد، وهو وحده من يطاع، قال سبحانه آمرًا قريشًا خاصةً والناس عامةً: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣ - ٤].

فقد علل سبحانه أمره لهم بالعبادة له بأنّه سبحانه قد أسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وجمع لهم أعظم نعمتين؛ حيث أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وفي الجمع بين هاتين النعمتين نعمة عظمى؛ لأنّ الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين معًا؛ إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٢.

مع الخوف، وتكمل النعمة باجتماعهما [(١)].

فمن الواجب على العباد الذين يتمتعون بنعمة إطعام الله عز وجل لهم أن يقابلوا تلك النعم بالشكر الجميل والثناء الحسن على المنعم المتفضل على خلقه وعباده، ولا ينبغي أن يشركوا به سواه؛ فإنّ غاية الظلم أن يشرك العبد بربّه، وأن يعبد معه سواه، ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ۝١٩٣ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩٤﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٤].

ثالثًا: التحليل والتحريم لا ينبغي إلا لله عز وجل:

إنّ من عقيدة أهل الإيمان أنّهم يؤمنون بأنّ التحليل والتحريم والتشريع لا ينبغي إلا لله عز وجل؛ فلا يحلل ولا يحرّم إلا هو سبحانه، وليس لأحد من الخلق أن يصدر حكمًا على أمر من الأمور أو على طعام أو شراب بالحلّ أو الحرمة من غير دليل ثابت من شرع الله عز وجل؛ فالتحليل والتحريم حقّ خالصٌ لله عز وجل، فهو سبحانه خالق الخلق، ربّ العالمين، يعلم ما يصلح عباده، وهو أحكم الحاكمين، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولقد أنكر الله عز وجل على عباده أن يتخذوا مشرّعًا غيره سبحانه فقال عز وجل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[الشورى: ٢١].

وأنكر عز وجل على من يحلّلون ويحرّمون بأهوائهم فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال جل ذكره ناهيًا عباده عن التحليل والتحريم من غير علم من الله عز وجل، ومبينًا جزاء من فعل ذلك الذنب العظيم: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝١١٦ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦ - ١١٧].

فهذه الآية خطاب للمشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم وأهوائهم مما كان شرعًا لهم، ابتدعوه في جاهليتهم، قال ابن كثير: «ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلّل شيئًا مما حرم الله، أو حرّم شيئًا مما أباح الله عز

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١١٢.

وجل بمجرد رأيه وتشهّيه»[(١)].

ولقد قرن الله تعالى القول عليه سبحانه في التحليل والتحريم بلا علم بالشرك به فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قال الشيخ الفوزان: «وكذلك التحليل والتحريم حق لله تعالى، لا يجوز لأحدٍ أن يشاركه فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فجعل سبحانه طاعة الشياطين وأوليائهم في تحليل ما حرّم الله شركًا»[(٢)].

وعلى هذا فلا ينبغي للعباد أن يحللوا أو يحرموا إلا بما جاء في شرع الله عز وجل، فالحلال ما أحله الله عز وجل، والحرام ما حرّمه الله تعالى، وليس لأحد في هذا الأمر من شيء، حتى النبي صلى الله عليه وسلم قال عن نفسه حين أكل الصحابة رضي الله عنهم من الثوم عام فتح خيبر وكانوا جياعًا ثم راحوا إلى المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئًا فلا يقربنا في المسجد)**، فقال الناس: حرّمت، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **(يا أيها الناس إنّه ليس بي تحريم ما أحل الله لي؛ ولكنها شجرةٌ أكره ريحها)**[(٣)].

ولقد أبطل الله عز وجل ما افتراه المشركون على الله عز وجل من تحريم بعض أصناف الأنعام التي أحلها الله عز وجل، وما ذلك إلا افتراءً وكذبًا منهم على الله سبحانه، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وهذه الآية الكريمة ردٌّ وإنكارٌ لما ابتدعه هؤلاء المشركون الجاهلون من تحريم ما أحلّ الله عز وجل؛ حيث كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها -أي: شقوها-، وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحلب، وكان الرجل منهم يقول: إن شفيت فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لألهتهم، وإن ولدتهما قالوا: وصلت الأنثى أخاها؛ فلا يذبح لها الذكر، وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره، ولم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٦٤.
(٢) كتاب التوحيد ص١٢٤.
(٣) أخرجه الإمام مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهى من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها عن حضور المسجد، رقم ١٢٨٤، ٢/ ٨٠.

يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا: قد حمي ظهره، وكلّ ذلك ما أنزل الله به من سلطان، وما هو إلا افتراء على الله عز وجل، وما هو إلا من أهوائهم ورغباتهم، يجعلون من أنفسهم مشرعين من دون الله عز وجل [(١)].

إنّ الإله الحق الذي يطعم عباده ويرزقهم هو وحده من يحلل لهم ما يشاء، ويحرّم عليهم ما يشاء، ومن ادعى تحليلًا أو تحريمًا من غير هدًى من الله عز وجل فقد افترى على الله الكذب، وحمّل نفسه إثمًا مبينًا.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ١١٦.

الرسل بشر يأكلون الطعام

إنّ الله عز وجل قد أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، يدعونهم إلى عبادة ربّهم، مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وكان من حكمة الله عز وجل ورحمته بعباده أن اصطفى هؤلاء الرسل والأنبياء من بين البشر، ولم يجعلهم من الملائكة أو خلقًا آخر؛ وذلك لأنّ الرّسول إذا كان من جنس من أرسل إليهم كان أقدر على حمل الرسالة، وأعلم بحال المرسل إليهم، وكان أدعى لقبول دعوته، وهذا أمر بدهي واضح، لا يحتاج إلى حجة وبرهان، وهذا ما يقتضيه العقل، وتوجبه الفطرة؛ بل إنّ من حكمة الله عز وجل أن يبعث الرسول من نفس القوم المرسل إليهم، يعرفهم ويعرفونه؛ يعرف حالهم، ويعرفون حسبه ونسبه وخلقه وصدقه، ليكون أدعى إلى إيمانهم به، وأسرع لاستجابتهم له.

فكلّ من بعث الله عز وجل من الرسل والأنبياء كانوا رجالًا من البشر، قال الله عز

وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وكانوا جميعًا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويسعون في قضاء حوائجهم كغيرهم من البشر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذا كلّه لا ينقص من قدرهم، ولا يقلل من شأنهم، ولا يخدش رسالتهم التي بعثهم الله عز وجل بها؛ إذ الرّسل والأنبياء بشر كسائر البشر، إلا أنّ الله عز وجل قد اصطفاهم بإنزال وحيه عليهم، وبتكليفهم بحمل رسالته، وتبليغ دعوته.

ولقد أنكر الله عز وجل على الكافرين المعاندين -من مشركي مكة- حينما عجبوا من كون الرسول المرسل إليهم بشر مثلهم، وأنكروا أن يرسل الله عز وجل إليهم محمدًا وهو بشرٌ يأكل الطعام كما يأكلون، ويمشي في الأسواق للبيع والشراء وابتغاء المعاش كما يمشون[(١)]، وليس لهؤلاء المكذبين في دعواهم تلك من حجّةٍ أو دليل، وما أرادوا بذلك إلا أن يلبسوا الحق بالباطل، ويضلوا العباد عن الصراط المستقيم، قال الله عز وجل مخبرًا عن أولئك المكذبين الجاحدين: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

فهؤلاء المشركون المكذبون الذين كفروا بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وكذبوا بها، وجحدوها مع علمهم بصدقه فيما يخبر به عن ربّه عز وجل اعتمدوا في تكذيبهم هذا على شبهة واهية، وهي كون النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم بشرًا مثلهم؛ يأكل الطعام، ويمشي في الطرق والأسواق كما يمشي سائر الناس؛ يطلب المعيشة، فهو ليس بملك ولا بملك؛ لأنّ الملائكة لا تأكل، والملوك لا تتبذّل في الأسواق، فعجب -أولئك المكذبون- أن يكون الرسول مساويًا للبشر، لا يتميز عليهم بشيء[(٢)].

وشبهتهم تلك مردودة عليهم، إذ لا يقبلها عقل، ولا يرتضيها منطق؛ فما العجيب في كون الرسول بشرًا؟!، وإنّما جعله الله بشرًا ليكون قريبًا ممن أرسل إليهم، مجانسًا لهم، ولم يجعله الله عز وجل ملكًا من الملوك المتكبرين، الذين يمتنعون من المشي في الأسواق؛ لأنّ ذلك من فعل الجبابرة، ولأنّه أمر بدعائهم فاحتاج أن يمشي بينهم يبلغهم دعوة ربهم عز وجل[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠/ ٢٨٧.

(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٧٣.

ولقد بيّن الله عز وجل أنّ هذا القول الباطل من أولئك المكذبين قد سبقهم به إخوانهم الذين سبقوهم بالكفر والتكذيب ممن كذبوا رسل الله عز وجل على مر العصور؛ فقد قالت عاد عن نبيّهم هود عليه السلام: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣- ٣٤]، وقالت ثمود عن نبيّهم صالح عليه السلام: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

وقال فرعون وقومه عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ولذا قال الله عز وجل مخاطبًا كفار قريش: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٥-٦].

فهذا ديدن المكذبين المعاندين، يثيرون الشّبه والأباطيل، ويجعلون منها سببًا يحرمهم من الإيمان بالله عز وجل وبرسله، ويصدّون بها الناس عن سبيل الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

ولقد ردّ الله عز وجل على تلك الشبهة الباطلة، وكذّب من قال بها، «وبيّن سبحانه أنّ الرسل يأكلون، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويولد لهم، وأنّهم من جملة البشر؛ إلا أنّه فضلهم بوحيه ورسالته، وأنّه سبحانه لو أرسل للبشر ملكًا لجعله رجلًا، وأنّه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزّل عليهم ملكًا رسولًا؛ لأنّ المرسل من جنس المرسل إليهم»[(١)]، وقد جاء بيان ذلك في كثير من آيات الكتاب العزيز؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدًا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ [الأنبياء: ٧ - ٨].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلًا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقد أمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يصدع أمام قومه بأنّه بشرٌ مثلهم، ليس غريبًا عنهم، وما يميّزه عنهم أنّ الله عز وجل قد أوحى إليه، واصطفاه ليكون

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ١٨.

مرسلًا إليهم -والبشرية لا تنافي الرسالة-، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وأخبر سبحانه وتعالى أنّ الرسل السابقين قد قالوا مثل ذلك لأقوامهم ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

فهذه من سنّة الله عز وجل، أن يبعث الرسول من جنس المرسل إليهم، وما ينبغي أن يقال: لم لم يبعث الله عز وجل ملكًا رسولًا؟، إذ كيف للبشر أن يستفيدوا من ملك يغايرهم في أصل الخلقة؟، ويخالفهم في الحقيقة والصفات؟ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

«فلو كان في الأرض ملائكة يسكنوها مطمئنين لكان الرسول إليهم من الملائكة؛ ليقع الإفهام، وأمّا البشر فلو بعث إليهم ملكٌ لنفرت طبائعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلدت له قلوبهم»[(١)].

ولقد ردّ الله عز وجل على الذين غالوا في عيسى عليه السلام، وقالوا بأنّه إله من دون الله عز وجل، وبيّن سبحانه أنّ عيسى عليه السلام ما هو إلا بشر اصطفاه الله عز وجل بالرسالة، له صفات البشر؛ يأكل الطعام، ويبتغي المعاش، وهذا حال الرسل أجمعين، ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ وبهذا فإنّ أكل الرسل عليهم السّلام للطعام ليس نقصًا فيهم ولا عيبًا؛ بل هذه طبيعتهم كغيرهم من البشر، ولا يعتبر أكلهم للطعام متناقضًا مع كونهم رسلٌ من الله عز وجل.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٧٩.

أنواع الأطعمة في القرآن الكريم

لقد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز أصنافًا عديدةً من الأطعمة؛ حيث ذكر سبحانه أصنافًا من الفاكهة؛ كالأعناب، والرمان، والنخيل، والتين، والثمرات، وذكر سبحانه الحبّ، والزيتون، والأبّ[1]، والعسل، واللّبن، وأصنافًا من اللحوم، كلحوم الطير، والأنعام، ولحوم ما أخرج من البحر، وغير ذلك من الأطعمة.

ومن تأمل فيما ذكر من الأطعمة في كتاب الله عز وجل يجد أنّ الله عز وجل قد ذكر تلك الأطعمة إمّا على سبيل تعداد نعمه سبحانه على عباده، والتنبيه على منافع بعض الأطعمة، ودعوة الإنسان إلى التفكر والتأمل كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤- ٣٢].

وإمّا على سبيل بيان قدرة الله عز وجل في خلقه وبديع صنعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وإمّا على سبيل التشريع، وبيان ما أباح سبحانه لعباده، وما حرّم عليهم من الأطعمة، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وإمّا على سبيل بيان طعام أهل الجنّة، وما أعد الله عز وجل لهم من نعيم مقيم، وذلك كثيرٌ في القرآن المجيد، منه قول الله سبحانه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٢٧ - ٣٣].

وقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢٠- ٢١].

ونقف في هذا المبحث بإذن الله تعالى على أنواع الأطعمة في القرآن الكريم من حيث الحلّ والحرمة، والتعرف على شيء من حكمة الباري سبحانه في التحليل والتحريم.

(١) الأب هو كل ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس.
انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٢٥٢

أولًا: الأطعمة المباحة:

إنّ من رحمة الله عز وجل بعباده، وعظيم فضله عليهم أن خلق لهم أصنافًا متنوعةً من الأطعمة والأغذية والأشربة؛ فمنها الجامد ومنها اللّين، ومنها الحلو ومنها المالح، ومنها الحار ومنها البارد، ومنها ما ينبت في الصيف ومنها ما ينبت في الشتاء، ومنها غير ذلك؛ ولم يجعل سبحانه طعام العباد شيئًا واحدًا؛ تسأم منه النفوس، وتملّه الأجساد.

ومن كرمه سبحانه أن جعل عامّة ما خلق لعباده من الطعام حلالًا طيبًا، ولم يحرّم عليهم إلا قليلًا من ذلك، وجعل سبحانه كلّ ما كان طيبًا رزقًا حلالًا للعباد، وأمر سبحانه عباده أن يأكلوا منه، ويشكروا ربّهم عليه.

قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وهذا الأمر قد أمر الله عز وجل به من قبل رسله عليهم السلام ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

والطيبات يراد بها: كلّ ما أحلّ الله عز وجل لعباده من الطعام والشراب، فطاب بتحليل الله عز وجل له[١]، والطيبات أيضًا هي ما يستطاب ويستلذ من مباحات المأكل والفواكه[٢].

فما أعظم نعم الله عز وجل على العباد؛ إذ أباح لهم الطيبات؛ يأكلون منها، ويستلذون بطعمها وريحها، وتتقوى أجسامهم بالتغذي عليها، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤].

قال الفخر الرازي: «واعلم أنّ الطيب في اللغة هو المستلذ، والحلال المأذون فيه يسمى أيضًا طيبًا تشبيهًا بما هو مستلذ؛ لأنّهما اجتمعا في انتفاء المضرة؛ فلا يمكن أن يكون المراد بالطيبات هاهنا المحللات، وإلا لصار تقدير الآية: قل أحلّ لكم المحللات، ومعلومٌ أنّ هذا ركيك؛ فوجب حمل الطيبات على المستلذ المشتهى، فصار التقدير: أحلّ لكم كلّ ما يستلذ ويشتهى»، ثم قال: «ثم اعلم أنّ العبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة»[٣].

وقد امتنّ الله عز وجل على عباده بأن أحلّ لهم الطيبات، وذلك في سياق تذكير العباد بعظيم نعم الله عز وجل عليهم، وسعة رحمته بهم، وجزيل عطائه لهم، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٣١٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٨/ ٤٠.

(٣) مفاتيح الغيب ١١/ ٢٩٠.

﴿٦١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٦٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦١ – ٦٤].

يقول السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: «وهذا شامل لكل طيب؛ من مأكل، ومشرب، ومنكح، وملبس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسّرها الله عز وجل لعباده، ويسر لهم أسبابها»[(١)].

فالطعام الحلال هو كل طعام طيب، أحلّه الله عز وجل لعباده، وغالب الأطعمة طيبة محللة، ولا ينبغي أن يقال عن طعام: إنّه حرام إلا إذا ثبت تحريمه في كتال الله عز وجل، أو في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والقاعدة في ذلك أنّ الأصل في الأطعمة الحل إلا ما ثبتت حرمته.

وقد ذكر الله عز وجل أنّ من خصائص النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنّه يحلّ لمن اتبعه الطيبات، ويحرّم عليهم الخبائث، فقال تعالى مادحًا من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب، ومبيّنًا بعض أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمما جاء به هذا النبي الكريم أنّه يحلّ الطيبات.

ولما أحلّ الله عز وجل لعباده الطيبات؛ فإنّه سبحانه نهاهم أن يحرّموا على أنفسهم شيئًا من تلك الطيبات التي أحلّها سبحانه وتعالى لهم؛ فإنّ الله عز وجل أراد من عباده أن يتمتعوا بنعمه، وأن يأكلوا مما أحلّه لهم، ولا ينبغي أن يحرّم العبد على نفسه شيئًا أحلّه الله عز وجل له، فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٨٧ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧- ٨٨].

فليس لأحد من المسلمين أن يتعدّ حدود الله عز وجل، بتحريم شيء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح، ولا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وإنّما الفضل والبر في فعل ما ندب الله عز وجل عباده إليه، وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنه لأمته، واتبعه على منهاجه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤١.

الأئمة الراشدون[1].

ويفهم من هاتين الآيتين أنّ الأكل من الحلال، والتلذذ بالطيبات لا يتنافي مع تقوى الله عز وجل؛ بل العبد التقي ينعم بما أحلّ الله له، ويشكر المنعم سبحانه على عطائه ونعمه، وليس من التقوى تحريم الطيبات، وهجر المباحات، وقد أكل النبي صلى الله عليه وسلم ثريد اللحم ومدحه، وكان يحب الحلوى، ويحب الطيب، ويتزوج النساء[2].

قال القرطبي: «قال علماؤنا: في هذه الآية وما شابهها، والأحاديث الواردة في معناها ردٌّ على غلاة المتزهدين، وعلى كل أهل البطالة من المتصوفين؛ إذ كل فريقٍ منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه»[3].

فالعبد التقي ينعم بما أحلّ الله من الطيبات، ولا يعتدي بالإسراف أو التقتير، ولا يتعدّى الحلال إلى الحرام، ولا يحرّم ما أحل الله سبحانه وتعالى[4].

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[5].

ومن نعمته سبحانه على عباده أنّه أباح لهم التمتع بالحلال الطيب من الأطعمة وغيرها، قال الصنعاني: «في هذه الأحاديث دلالة أنّ الله تعالى يحب من العبد إظهار نعمته في مأكله وملبسه؛ فإنّه شكر للنعمة فعليّ، ولأنّه إذا رآه المحتاج في هيئة حسنة قصده ليتصدق عليه»[6].

ثانيًا: الأطعمة المحرّمة:

لقد حرّم الله عز وجل بعض الأطعمة وبعض الأشربة على عباده، ولا شكّ أنّ لهذا التحريم حكمًا عظيمةً أرادها الله عز وجل؛ قد يظهر للعباد بعضها، ويخفى عليهم بعضها الآخر، والله عز وجل يحل ما يشاء، ويحرّم ما يشاء، والعبد يسمع ويطيع مولاه، ولا يتجاوز حدوده، فالعبد عبدٌ، والرّب ربٌّ.

وإنّ من رحمة الله عز وجل بعباده أن جعل الأطعمة المحرمة قليلةً محصورةً، يسهل على العباد معرفتها، ويسهل عليهم تجنبها، ولا يتضررون بالامتناع عنها؛ بل الخير كلّه في التزام أمر الله عز وجل، وعدم مجاوزة حدوده؛ فإنّه سبحانه يشرع لعباده ما يصلحهم، وهو سبحانه أعلم بما ينفعهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٢٢.

(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٦٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٢.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٧٤.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، رقم ٢٨١٩، ٤/ ٥١٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
والحديث صححه الألباني في غاية المرام، رقم ٧٥.

(٦) سبل السلام ٢/ ٨٦.

وقد بيّن الله عز وجل المحرمات من الأطعمة منذ العهد المكي، حيث أنزل الله عز وجل قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

فهذه الآية المكية جاءت في سياق الردّ على المشركين الذين كانوا يحرّمون على أنفسهم بعض الأطعمة، ويفترون على الله عز وجل الكذب بأنّه قد حرّمها، قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

ثمّ جاءت هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ لتبين أنّ الحرام ليس ما حرّمه أولئك الجهال على أنفسهم، ونسبوا التحريم إلى الله كذبًا وافتراءً عليه؛ وإنّما الحرام ما حرّم الله عز وجل، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم(١).

فالمحرمات الواردة في هذه الآية ليست جميع المحرمات؛ لأنّ هذه الآية مكيّة، وقد نزل بعدها تحريم بعض الأطعمة في العهد المدني؛ كما في سورة المائدة، في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقد ورد في السّنة تحريم بعض الأطعمة أيضًا؛ كلحوم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

والحصر الوارد في آية الأنعام محمول على أنّه لم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرّمٌ غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة «المائدة» بالمدينة. وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والخمر وغير ذلك، وكذلك فقد حرّم الله عز وجل على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكل كلّ ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير، وعلى هذا فلا تعارض بين الآيتين، وليست آية الأنعام منسوخة بآية المائدة -وقد ذهب بعض المفسرين إلى القول بذلك-؛ بل كلتا الآيتين محكمتين(٢).

ونلاحظ في الأطعمة المحرّمة أنّها إمّا محرمة لذاتها؛ كلحم الخنزير، والدم المسفوح، وكل ذي ناب من السباع وغيرها، وهذه المحرمات مستقذرة في ذاتها، وإمّا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١١٥، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٤٣.

أن تكون تلك الأطعمة في الأصل حلالًا، ثم عرض عليها ما جعلها محرّمة؛ كالميتة، والمنخنقة، والموقوذة..، فهذه المحرمات إنّما حرّمت لما طرأ عليها من الموت دون تذكية شرعية.

ثالثًا: حكمة التحليل والتحريم:

إنّ ممّا لا شك فيه أنّ تحليل الله عز وجل لكثيرٍ من الأطعمة، وتحريمه لبعضها ينطوي على كثيرٍ من الحكم التي أرادها الله عز وجل؛ وقد يظهر للعباد بعض هذه الحكم، ويخفى عليهم بعضها، والذي يجب أن يقال أولًا: إنّ الله عز وجل يتصرّف في ملكه كيف شاء، ويشرع لعباده ما يريد، وهو سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولا ينبغي للعبد أن يقول: لم أحلّ الله هذا الطعام وحرّم ذاك؟ بل الواجب على العبد أن يسلم لأمر الله عز وجل وهو مطمئن البال، واثق بربّه العليم الحكيم سبحانه وتعالى، وبعد ذلك إن ظهر له شيء من حكم التحليل والتحريم فحسن، وإن لم يظهر له فإنّه لا يعترض على أمر الله عز وجل؛ بل يسلّم ويطيع.

والمسلم يعلم أولًا أنّ الله عز وجل يبتلي العباد ويختبرهم؛ يبتليهم بما شرع لهم من الأحكام، وبما فرض عليهم من الواجبات، يبتليهم بالحلال والحرام، يبتليهم بالأوامر والنواهي ليميز سبحانه المطيع من غيره، وليعلم الله -وهو سبحانه أعلم بعباده- من يسلّم ويستجيب لربّه ممن يعترض وينقلب على عقبيه، وقد أخبر الله عز وجل بهذه الحكمة من التشريع في الآيات التي أمر فيها المؤمنين بتحويل قبلتهم إلى المسجد الحرام، حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال السعدي عن هذه الآية: «دلّت الآية على أنّه لا يعترض على أحكام الله عز وجل إلا سفيهٌ جاهلٌ معاندٌ؛ وأمّا الرشيد المؤمن العاقل فيتلقى أحكام ربّه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]»[1].

ولا شكّ بأنّ فيما أحلّ الله عز وجل لعباده منافع جمّة، ومصالح عظيمة؛ ففي تغذي الإنسان على الطعام الحلال سلامة بدنه، وقوام صلبه، واستقامة صحته، ووفرة قوته، وتقويه على القيام بما أمره الله عز

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٠.

وجل من العبادة وعمارة الأرض.

وبتغذي الإنسان بالأطعمة الحلال يشعر العبد بنعم الله الوفيرة عليه، ويتلذذه بالطيبات تزيد محبته لمن خلق تلك الطيبات، وأحلّها للعباد، ولا شكّ بأنّ المؤمن كلما ازداد شعورًا بنعمة الله عز وجل عليه زاد لربّه شكرًا، وامتلأ قلبه محبّة للمنعم سبحانه وتعالى، وازداد علمًا ومعرفة بفضل الله عز وجل عليه، ولا شك أنّ ذلك كله من مقاصد الدين.

وإنّ الله عز وجل ما خلق الطيبات ليحرّمها على العباد؛ وما خلقها ليتخذها العباد وسيلة للمعصية والفساد؛ بل خلقها سبحانه ليتنعموا بها، ولتكون وسيلة يصلون بها إلى مرضاة ربّهم جل وعلا، وتحصيل النعيم الأكبر بالفوز بدار النعيم في الآخرة.

هذه بعض الحكم من تحليل الطيبات؛ أمّا عن حكم تحريم الخبائث فلا شكّ بأنّ في تحريم الله عز وجل لتلك الأطعمة المحرّمة نفعٌ للعباد، ومصلحة عظيمة لهم؛ فإنّ تلك الأطعمة المحرّمة إنّما هي ممّا تأباه الفطر السليمة، وتستقذره النفوس الرشيدة، ولا يمكن لعبدٍ عاقلٍ أن يجد في تلك المحرمات أمرًا طيبًا، أو فائدة مرجوّة؛ فالحرام ضررٌ محض، وفي اجتنابه السلامة والمعافاة.

ومن الحكم التفصيليّة لتحريم بعض الأطعمة والأشربة:

أولًا: الحفاظ على العقل الذي به تتم عبادة الله عز وجل، وعمارة الأرض؛ وذلك بتحريم كلّ ما يعطل العقل كالخمر والمسكرات والمخدرات.

ثانيًا: الحفاظ على النفس؛ وذلك بتحريم كلّ ما يحدث الضرر بها، أو يشكّل خطرًا عليها.

ثالثًا: حفظ المال بعدم إضاعته فيما لا نفع فيه.

رابعًا: الوقاية من الأمراض الناتجة عن تلك الأطعمة المحرمة؛ كالدم المسفوح الذي يعد أنسب مكان لانتشار الجراثيم ونموها.

خامسًا: من حكم تحريم لحم الخنزير أنّه قد اكتشف أنّ له قابلية كبرى لجميع الأمراض الميكروبية المعدية؛ أمّا الميتة فينحبس الدم فيها في الشرايين، مما يؤدي إلى التعفن وتجمع الجراثيم والميكروبات الضارة والسامة.

وهناك حكمٌ خاصة بتحريم أصناف معينة من الأطعمة ذكرها العلماء، ولا زال العلماء يكتشفون في الأطعمة المحرمة أضرارًا وأمراضًا خطيرة، وكلما اكتشفوا شيئًا علموا عظمة شرع الله عز وجل في تحريم تلك الخبائث.

والعبد المؤمن لا ينتظر العلماء وأهل

الطب ليكشفوا له عن أسرار التحريم؛ لأنّه يعلم أنّ ذاك التحريم إنّما هو من عند العليم الحكيم، ولا يشرع لعباده إلا الشرع الحكيم، الذي فيه استقامة الحياة، والسعادة والسرور، يقول الشيخ القرضاوي: «وليس من اللازم أن يكون المسلم على علمٍ تفصيليٍّ بالخبث أو الضرر الذي حرّم الله من أجله شيئًا من الأشياء، وقد لا ينكشف خبث الشيء في عصره، ويتجلى في عصر لاحق، وعلى المؤمن أن يقول دائمًا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ألا ترى أنّ الله حرّم لحم الخنزير فلم يفهم المسلم من علة لتحريمه غير أنّه مستقذر، ثم تقدم الزمن فكشف العلم فيه من الديدان والجراثيم القاتلة ما فيه، ولو لم يكشف العلم شيئًا في الخنزير، أو كشف ما هو أكثر من ذلك فإنّ المسلم سيظل على عقيدته بأنّه رجس»[(١)].

ولا بدّ من الإشارة -أخيرًا- إلى أنّ من رحمة الله عز وجل، وعظيم كرمه على عباده أنّه سبحانه إذا حرّم على العباد شيئًا عوضهم خيرًا منه، وأبدلهم ما هو أجلّ وأنفع[(٢)]، فيعلم العبد أنّ الله عز وجل ما يريد أن يحرم عباده؛ وإنّما شرع لهم ما تستقيم به حياتهم، وتسعد به أنفسهم، وفي الحلال كفاية للعباد عن الحرام، قال ابن القيم: «فما حرّم الله على عباده شيئًا إلا عوضهم خيرًا منه؛ كما حرّم عليهم الاستقسام بالأزلام، وعوضهم منه دعاء الاستخارة، وحرّم عليهم الرّبا، وعوضهم منه التجارة الرابحة..، وحرّم عليهم الحرير، وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة؛ من الصوف والكتان والقطن، وحرّم عليهم الزنا واللواط، وأعاضهم منهما بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرّم عليهم شرب المسكر، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن..، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات، ومن تلمّح هذا وتأمّله هان عليه ترك الهوى المردي، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتمام نعمته على عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وفيما أباحه لهم، وأنّه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم، ولا نهاهم عنه بخلًا منه تعالى عليهم؛ بل أمرهم بما أمرهم إحسانًا منه ورحمةً، ونهاهم عمّا نهاهم عنه صيانةً لهم وحميةً»[(٣)].

[انظر: الأكل: أنواع المأكولات من حيث الطيب والخبث]

(١) الحلال والحرام في الإسلام ص٢٩.
(٢) انظر: المصدر السابق ص٣٠.
(٣) روضة المحبين، ابن القيم ص١١.



الإطعام في القرآن الكريم

إنّ الحديث عن الإطعام ممّا لا ينبغي أن يغفل عنه في سياق الحديث عن الطعام في كتاب الله عز وجل؛ فلقد ذكر الإطعام في القرآن الكريم -مكيّه ومدنيّه- مرارًا، وبيّن الله عز وجل قيمة الإطعام وأهميته، وبيّن فضل المطعمين، وأنواع الإطعام، وفي ذلك تنبيه على أهمية الإطعام في دين الله عز وجل.

ومن تأمّل في الآيات التي تحدّثت عن الإطعام يجد أنّ الإطعام له مكانةٌ عظيمة في الإسلام، فهو شعيرةٌ من شعائر الدين، وقربةٌ من أجلّ القربات إلى العلي الكبير، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حينما سأله رجلٌ: أيّ الإسلام خير؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[1].

لقد أخبر القرآن الكريم بأنّ إطعام الطعام للمساكين والفقراء والأسرى المحتاجين من خصال عباد الله المخلصين، فقال عز وجل مادحًا لهم، ومبينًا لفضلهم: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٦ – ٩].

وكيف لا يكون للإطعام تلك المكانة الرفيعة في دين الله عز وجل ؟! وقد جعله الله سبحانه من الأمور التي بها يجوز العبد العقبة الكبرى يوم القيامة، فهو سبب للنجاة، وموصل للفلاح، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد: ١١ – ١٨].

وإنّ ممّا يدلّ على أهمية الإطعام في الإسلام أنّ القرآن الكريم أخبر بأنّ عدم إطعام الفقراء والمساكين سيكون سببًا للوقوع في عذاب الله عز وجل يوم القيامة، قال الله عز وجل مخبرًا عن أصحاب النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٤].

بل إنّ الله عز وجل قد ذمّ الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ – ٣].

فقد قرن الله عز وجل عدم الحضّ على طعام المسكين مع الكفر بالله، والتكذيب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، رقم ١٦٩، ١/ ٤٧، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

بالدين، والتهاون في الصلاة، ولا شكّ بأنّ في ذلك تشنيع على الذي لا يحضّ على طعام المسكين، فلا هو يطعم، ولا هو يحضّ غيره على الإطعام.

ولقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية الإطعام، وعظيم أجره عند الله عز وجل، وقد قرنه مع فضائل الأعمال، فقال صلى الله عليه وسلم: (أيها النّاس؛ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)[1]

وحذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من البخل بالطعام والشراب عن الفقراء والمساكين؛ من الأقارب والجيران وغيرهم، وبيّن أنّ ذلك ليس من شيم الإيمان، ولا من أخلاق الإسلام، فقال صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن الذي يشبع و جاره جائع إلى جنبه)[2].

وفي النقاط الآتية بإذن الله تعالى بيان لأصناف المطعمين، وأنواع الإطعام وشروطه.

أولًا: أصناف المُطْعَمين:

لقد بيّن الله عز وجل أنّ في المجتمع أصنافًا من الناس يستحقون الإطعام، ويقدمون على غيرهم في ذلك؛ لأنّهم أشدّ حاجة للطعام، بسبب ما ابتلاهم الله عز وجل من فقرٍ أو يتمٍ أو حاجةٍ، ومعلومٌ أنّ العمل الصالح يكونُ أعظم إذا ما كان نفعه أكبر.

ومن تتبع آيات الكتاب العزيز يجد أنّ الله عز وجل وجّه المطعمين إلى توجيه إطعامهم إلى الأصناف الآتين من الناس:

١ . المساكين.

وهم أكثر من أمر الله عز وجل بإطعامهم في القرآن الكريم، وأغلب الآيات التي ذكرت الإطعام إنّما جعلته للمساكين، والمساكين جمع مسكين، والمسكين هو الذي لا شيء له، وقيل: هو الذي له بعض الشيء؛ ولكن لا يسدّ حاجته، ولا يكفيه[3]، وقد اختلف أهل اللغة والمفسرون والفقهاء في تحديد الفرق بين المسكين والفقير، ومن منهم أشدّ حاجة، فقال البعض:

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، رقم ٢٤٨٥، ٤/ ٢٦٤، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٦٩ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب البيوع، رقم ٢١٢٦، ٢/ ١٢، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
وأخرجه الطبراني في الكبير عن أنس رضي الله عنه، بلفظ (ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره جائع إلى جنبه)، رقم ٧٥١، ١/ ٢٥٩.
والحديث صححه الألباني في الصحيحة، رقم ١٤٩.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ٤/ ٢٧٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٨٥.

هما مترادفان[1]، وقال بعضهم: الفقير أشدّ حاجة، وقال آخرون: المسكين أشدّ حاجة[2]، والذي يعنينا هنا أنّ المسكين هو من كان في عوز وحاجة، ويدخل الفقير في هذه الصفة.

ولعلّ الحكمة في الإكثار من الوصية بإطعام المساكين أنّ هذا النوع من الناس في حاجة شديدة إلى العناية والرعاية؛ لأنّهم -في الغالب- يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة ماء وجوههم بالسؤال، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن المسكين: (ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان؛ ولكنّ المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن به فيتصدّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس)[3][4].

وقد أخبر الله عز وجل أنّ في إطعام هؤلاء المساكين منفعة كبيرة للعبد يوم القيامة؛ إذ بهذا العمل الصالح تقتحم العقبة، وتنال الجنة، قال الله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

والمسكين ذو المتربة هو صاحب الفقر الشديد؛ كأنّه لصق بالتراب لشدّة حاجته، وقال ابن عباس رضي الله عنه: هو المطروح في التراب لا يقيه شيء[5].

وقد جعل الله عز وجل للمساكين حظًّا وافرًا من الإطعام، إذ إنّ كثيرًا من الكفارات إنّما هي طعامٌ يصرف للمساكين، ففي كفارة اليمين أمر الله عز وجل بإطعام عشرة مساكين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومن ظاهر من زوجته، ولم يستطع تحرير رقبة ولا صيام ستين يومًا فعليه إطعام ستين مسكينًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ [المجادلة: ٣- ٤].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٤٨.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٦٧، وقد فصل القرطبي القول في المسألة، فذكر تسعة أقوال لأهل اللغة والمفسرين والفقهاء انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٦٨.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (لا يسألون الناس إلحافًا)، رقم ١٤٧٩، ٢/ ١٢٥.
(٤) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١/ ٣٦٣.
(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٩/ ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٣٦١.

وكذلك فقد جعل الله عز وجل فدية الإفطار في رمضان بسبب كبر سنٍّ، أو مرضٍ لا يرجى برؤه فدية طعام مسكين، قال تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ومن قتل صيد البر وهو محرم فعليه كفارة طعام مساكين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٩٥].

٢ . اليتامى.

ولا يخفى حال اليتيم من ضعف وعوز، وفقدان للمعيل؛ فكانت الوصية باليتامى عظيمة في كتاب الله عز وجل، ومن الوصية بهم أنّ الله عز وجل حثّ على إطعامهم ورعايتهم؛ بل وجعل ذلك من عظيم القربات، وأجلّ الطاعات، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

فإطعام اليتامى في أيام المجاعات من خير ما تجتاز به العقبة، وتنال به الرحمة، وإنّما خص الإطعام في يوم المسغبة والمجاعة لأنّ الحاجة إليه أشدّ، ويكون الطعام في مثل تلك الأوقات عزيزًا، قال الفخر الرازي: «واعلم أنّ إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس، وأوجب للأجر»[(١)].

ولا شكّ بأنّ في إطعام اليتامى مصلحة عظيمة للمجتمع، وخير كبير للأمة، إذ في إطعامه سدٌّ لحاجته، ومواساة لحاله، ومن ثمّ صلاح لأمره، قال ابن عاشور: «ووجه تخصيصه بالإطعام أنّه مظنة قلة الشبع؛ لصغر سنّه، وضعف عمله، وفقد من يعوله، ولحيائه من التعرض لطلب ما يحتاجه؛ فلذلك رغّب في إطعامه، وإن لم يصل حدّ المسكنة»[(٢)].

٣ . الأسرى.

ولقد ذكر الله عز وجل إطعامهم رفقًا بحالهم، فالأسير محبوس، ممنوع من أهله وماله، وهو في ضعف وحاجة، فكان في إطعامه الفضل والطاعة، وقد مدح الله عز وجل من يطعمون الأسرى بقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان: ٦ - ٨].

وقد ذكر المفسرون أقوالًا في المراد

(١) مفاتيح الغيب ٣١/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٨.

بالأسرى في الآية؛ فقالوا: هو الأسير المشرك، وقالوا: المحبوس بحق من المسلمين، وقالوا: هو العبد؛ إذ هو أسير عند سيده، وقالوا: المرأة؛ فهي أسيرة عن زوجها، وقد رجح القرطبي أنّ جميع من ذكروا داخلون في الآية [(١)].

والراجح -والله أعلم- أنّ المعنيين في الآية الأسرى المحبوسين؛ من المسلمين والمشركين؛ أمّا العبيد عند أسيادهم، والنساء عند أزواجهنّ فهم ليسوا بأسرى على الحقيقة، وقد جاء الحثّ على إطعامهم والإحسان إليهم -في غير هذه الآية- في نصوصٍ كثيرةٍ من الشرع الحكيم.

٤ . البائس الفقير.

لقد أمر الله عز وجل بإطعام هذا الصّنف من الناس من بهيمة الأنعام التي تذبح أو تنحر تقربًا إلى الله عز وجل من الهدي والأضاحي، قال الله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

والمراد بالبائس الفقير في الآية: من كان شديد الفقر، عظيم الحاجة، وقد وصفه الله بالفقير بعد وصفه بالبائس لمزيد إيضاح وبيان [(٢)].

٥ . القانع والمعتر.

وقد أمر الله عز وجل بإطعامهم من البدن التي تذبح هديًا أو أضحية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦].

وللمفسرين أقوال كثيرة في معنى القانع والمعتر:

منها: أنّ القانع هو الذي يسأل الناس، والمعتر هو الذي لا يسأل.

ومنها: أنّ القانع هو المتعفف، والمعتر هو السائل.

ومنها: أنّ القانع هو السائل، والمعتر هو الذي يعتريك ولا يسأل.

وغير ذلك من أقوال [(٣)].

والجامع بين تلك الأقوال جميعًا أنّ القانع والمعتر من أصناف الناس الفقراء في المجتمع، ولا شكّ بأنّ الشرع قد أوصى بالعناية بهم وإطعامهم.

---

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٤٣٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٢٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٤٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٣٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٣٣.

فهؤلاء هم الذين حثّ القرآن الكريم على إطعامهم، ورغّب في ذلك ترغيبًا عظيمًا؛ بل أوجب إطعامهم في الكفارات والفدية، ولا شكّ بأنّ في ذلك تنبيهٌ على فضل الإطعام وأهميته.

ثانيًا: شروط الإطعام:

إنّ الإطعام عبادة لله عز وجل، يتقرب بها العبد لربّه سبحانه وتعالى، ومن المعلوم أنّ لأيّ عبادة من العبادات التي ينال بها رضا الله عز وجل شرطين:

الأول: الإخلاص لله عز وجل.

والثاني: مطابقة العمل لشرع الله عز وجل، وموافقته لما في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغى به وجهه)** [(١)].

وقد بيّن الله عز وجل أنّ الإطعام الذي ينال صاحبه الأجر والمثوبة هو ما كان خالصًا لوجهه الكريم، ولم يكن فيه شرك أو رياء، فلقد مدح الله عز وجل من يطعمون المساكين واليتامى ابتغاء وجه الله عز وجل، لا يطعمونهم طلبًا للشكر والثناء من الناس، قال الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨-٩].

وإنّما يريدون بهذا العمل الصالح وجه الله عز وجل، وابتغاء مرضاته، فهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، مؤمنون بالجزاء في الآخرة، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

ولمّا كانت نيتهم خالصة، وأعمالهم صافية، كان لهم الثواب الجزيل، والأجر الكريم، ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١١ – ١٤].

ومعلوم أنّ العمل الصالح لا بدّ أن يكون مقرونًا بالإيمان؛ إذ العمل الصالح من غير المؤمن لا ينفع، ولا يقبل الله عز وجل من الكافرين عملًا صالحًا، وكثيرًا ما قرن الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح في كتابه العزيز [(٢)]، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢].

(١) أخرجه النسائي في سننه، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، رقم ٣١٤٠، ٦/ ٣٣٢.
وصححه الألباني في الصحيحة، رقم ٥٢.

(٢) ورد قول الله عز وجل: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في القرآن الكريم خمسين مرة.
انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤١١– ٤١٢.

ولمّا بيّن الله عز وجل أنّ إطعام اليتامى والمساكين في أيام الجوع والشدة من أفضل الأعمال الصالحات، فقال سبحانه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ – ١٦]. أتبع ذلك ببيان أنّ تلك الصالحات لا تنفع العبد إذا لم يكن معها إيمان بالله عز وجل. قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٧ – ١٨].

قال البغوي: «بيّن أنّ هذه القرب إنّما تنفع مع الإيمان»[1].

ثالثًا: أنواع الإطعام:

لقد ذكر القرآن الكريم أصنافًا من الإطعام، فذكر الإطعام المطلق للفقراء والمساكين والأسرى، وذكر الإطعام من الهدي والأضاحي، وذكر الإطعام في الفدية والكفارات، وذكر الإطعام ضيافة، وفيما يأتي بيان أنواع الإطعام في القرآن الكريم:

١ . الإطعام المطلق.

والمراد بذلك الإطعام في أيّ وقت، ولأيّ صنف من أصناف الناس الذين سبقت الإشارة إليهم في المطلب الأول من هذا المبحث؛ بل ويدخل في ذلك أيضًا إطعام ذوي القربى، والجيران، والأصحاب، وحتى الزوجة والأهل، فقد ورد في الشرع الحنيف ما يدلّ على فضل ذلك جميعًا.

ولا شكّ أنّ هذا الإطعام المطلق مراتب ودرجات؛ فكلّما كانت حاجة المطعم للطعام أشدّ، كان ذلك الإطعام أفضل وأجلّ، وقد مدح الله المطعمين في وقت الجوع والمسغبة، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-٩]. فمعنى على حبّه: أي في حال محبتهم لهذا الطعام وشهوتهم له[2].

وهذا النوع من الإطعام -الإطعام المطلق- قد ذمّ الله عز وجل الممتنعين عنه، وأخبر سبحانه أنّ الامتناع عنه سبب من أسباب الوقوع في العذاب يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤١ – ٤٤].

وذمّ الله عز وجل من لا يحضّ على هذا الإطعام فقال سبحانه: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧ – ١٨].

٢ . الإطعام في الكفارات.

وهو إطعام واجب على من وجب عليه ذلك، كمن حنث في يمينه ولم يشأ أن يعتق

(١) معالم التنزيل ٨/ ٤٤٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ٢٠٩.

رقبة، أو أن يكسو عشرة مساكين، فهذا يجب عليه أن يطعم عشرة مساكين إلا أن يكون عاجزًا عن ذلك فعليه صيام ثلاثة أيام.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وغير ذلك من الكفارات، وقد أشرنا إلى ذلك في المطلب الأول من هذا المبحث.

٣. الإطعام في الفدية.

وقد جعل الله عز وجل هذا النوع من الإطعام واجبًا أيضًا، فمن أفطر في رمضان لكبر سنٍّ أو مرض لا يرجى برؤه، وجب عليه إخراج الفدية؛ طعام مسكين عن كلّ يوم أفطره.

قال الله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وكذلك الحال فيمن أحرم بالحج، ثمّ أحصر وأصبح مريضًا أو به أذى من رأسه جاز له أن يحلق رأسه قبل أن يذبح الهدي، ووجبت عليه الفدية: صيام أو صدقة أو نسك، قال الله عز وجل: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

والمراد بالصدقة في الآية: إطعام ستّة مساكين[1].

٤. الإطعام ضيافة.

فإنّ من شعائر الإسلام إكرام الضيف، ومن أهم صور الإكرام تقديم الطعام والشراب، وقد أخبر الله عز وجل عن كرم ضيافة إبراهيم عليه السلام لضيفه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٦٩- ٧٠].

لقد ظنّ إبراهيم عليه السلام أنّ رسل الله عز وجل من الملائكة الكرام ضيفان من البشر، فما كان منه إلا الإسراع في إكرامهم، والتعجل في إعداد الطعام لهم، وقد ذكر الله عز وجل ذلك في كتابه مدحًا لإبراهيم الخليل عليه السلام، وبيانًا لمناقبه وفضله، وحثًّا للعباد على التأسي به، والسير على خلقه.

ويؤخذ من قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه هؤلاء أشياء كثيرة من آداب الضيافة؛ منها: تعجيل القرى والطعام، ومنها: أن يقدم

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ١/ ١٧٧.

للضيف أحسن الموجود، ومنها: تقريب الطعام إلى الضيف، ومنها: ملاطفته بالكلام بغاية الرفق[1].

وفي مقابل مدح إبراهيم عليه السلام في إكرامه لضيف، أخبر الله عز وجل عن قرية تخلق أهلها باللؤم والبخل وسوء معاملة الضيفان، وبلغ بهم الحدّ في البخل أن طلب منهم عابرا سبيل -موسى عليه السلام والرجل الصالح- أن يطعموهما فأبوا وبخلوا، قال الله عز وجل مخبرًا عن حال موسى عليه السلام والعبد الصالح مع أهل تلك القرية: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧].

لقد بلغ البخل واللؤم بأهل تلك القرية أن منعوا طعامهم عن عابر السبيل، وقد طلب منهم عابر السبيل الطعام فأبوا، مع أنّ الضيافة كانت شائعة في الأمم من عهد إبراهيم عليه السلام، وهي من العادات الفاضلة المتعارف عليها بين الناس[2].

وقد أكّد النبي صلى الله عليه وسلم على أهمية إكرام الضيف، وبيّن عليه السلام أنّ ذلك من الإيمان؛ ولا ينفك إكرام الضيف عن المؤمنين، قال صلى الله عليه وسلم: **(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه)**[3].

وفي ختام ذلك المبحث تبيّن مدى اهتمام القرآن الكريم بفضيلة إطعام الطعام، وأنّ تلك الفضيلة يشترط لها الإخلاص لله عز وجل، وأن تكون مقرونة بالإيمان -كغيرها من الأعمال الصالحة-، وبيّن القرآن أصناف المطعمين، وأكّد على حقّ المساكين واليتامى، وبيّن أنّ الإطعام له أنواع وصور متعددة، وكلّما كان الطعام المقدم محتاجًا إليه، كان جزاؤه أعظم.

والناس اليوم يحتاجون إلى تلك الشعائر الربانية، وتلك الرحمات الإلاهية، من إطعام الطعام، والسعي على المساكين والأيتام، فكم من بيوت لا يجد أهلها كسرة خبز، وكم من دول يموت شعبها جوعًا، وكم من طفل بات باكيًا لم تجد أمّه ما تسد به رمقه، وفي جانب آخر من حياة الناس نرى أكوامًا من الطعام قد ألقيت، وأصنافًا من الخيرات قد أتلفت، والله المستعان.

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٨٦.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحثّ على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم ١٨٢، ١/ ٤٩، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

طعام الآخرة

إنّ المتتبع لآيات القرآن الكريم التي تحدّثت عن الطعام يجد أنّ كثيرًا من هذه الآيات قد تحدّثت عن طعام الآخرة؛ حيث يخبر الله عز وجل في آيات عدّة من كتابه العزيز عن طعام أهل الجنة، ويصف لعباده ما أعدّ للمتقين منهم من طعام ناعم، وأكلٍ دائم، ويخبر سبحانه عن طعام أهل النار، ويصف لعباده ما أعدّ للمجرمين من طعام أثيم، وشراب من حميم.

أولًا: طعام أهل الجنة:

لقد أخبر الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه العزيز عمّا أعدّ لعباده المتقين من نعيم مقيم في الجنّة، وأخبر سبحانه عن ظلال الجنة وأنهارها، وأخبر عن أشجارها وثمارها، وأسهب سبحانه في الحديث عن تنعّم أهل الجنة بما فيها من أصناف النعيم؛ فأخبر سبحانه عن طعامهم وشرابهم، وأخبر عن مساكنهم وبيوتهم، وأخبر عن أزواجهم وخدمهم، وأخبر عن لباسهم وحليّهم، وأخبر حتى عن كؤوسهم وصحافهم، وفي هذا كلّه ترغيب للعباد في جنّة الرحمن، وتشويق لهم للدار الآخرة، وتحفيز لهم على الجد والاجتهاد في الطاعة والعبادة لنيل ذلك الجزاء العظيم، والفوز بذلك الفوز الكبير.

فمن إخبار الله عز وجل عن طعام الجنّة أنّه سبحانه ذكر دوام ذلك الطعام، وأنّه لا ينقطع، ولا يمنع؛ بل هو يسير المنال، قريبٌ ممن اشتهاه.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ [الرعد: ٣٥].

ومعنى دوام طعام أهل الجنة في هذه الآية: أنّه لا ينقطع أبدًا، ولا تنقطع لذته؛ فلا تزيد بجوع، ولا تملّ من شبع[(١)].

وقد قال سبحانه عن فاكهة الجنة: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢-٣٣].

فثمار الجنة وفاكهتها دائمة؛ لا تنقطع في حين دون حين، ولا تمنع بالحيطان والنواطير، ولا تنقطع إذا جنيت ولا تمنع من أحد إذا أريدت؛ إنّما هي مطلقة لمن أرادها، قريبة لمن اشتهاها[(٢)].

قال ابن كثير: «أي: لا تنقطع شتاءً ولا صيفًا؛ بل أُكُلُها دائمٌ مستمرٌ أبدًا، مهما طلبوا وجدوا، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء، وقال قتادة: لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بعدٌ»[(٣)].

وهذا الحال لطعام الجنّة وفاكهتها على خلاف ثمار الدنيا التي تنقطع وتمنع؛ فحتى

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيّان ٥/ ٣٨٦.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٤١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ١٣/ ٣٧٠.

ملوك الدنيا وأغنياؤها قد يشتهون ثمرًا، ويجدون قيمته، ولكنّهم قد لا يحصلون عليه؛ لأنّه في غير وقته، أو لأنّه بعيد مكانه، وقد يشتهون طعامًا أو شرابًا موجودًا؛ ولكنه يحتاج إلى وقتٍ في صنعه وإعداده؛ فلا يأتيهم في وقت مرادهم؛ فتنقطع شهوتهم أثناء انتظاره، ولا شكّ بأنّ أعظم لذة بالطعام والشراب في وقت اشتهائه وطلبه.

ولقد أخبر الله عز وجل عن ثمار الجنّة وقطوفها، فبيّن سبحانه أنّ قطوفها دانية مذللة لأهلها في كل وقت ومكان، وشرابها جاهز على الدوام، وعيونها تتفجر في الحال، كي لا يظنن ظانٌّ أنّ ثمار الجنة في الحصول عليها كثمار الدنيا، تحتاج إلى من يجلبها من سوقها، أو يصعد شجرها ليقطفها؛ بل هي ثمار لصاحبها تأتيه حيث كان، وتدنو منه متى أراد، وما عليه إلا أن يشتهيها لينالها.

قال الله عز وجل: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾ [الحاقة: ٢٢-٢٣].

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: «أي: قريبة، يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره»[(١)].

إنّها ثمار في رؤوس أشجارها؛ ولكنها مذللة لأصحابها؛ يقطفونها يانعة ناضجة متى اشتهوها.

قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ [الإنسان: ١٤].

قال مجاهد رحمه الله: «إن قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت له حتى ينالها، فذلك قوله: ﴿تَذۡلِيلٗا﴾»[(٢)].

لقد أخبر الله عز وجل أنّ لأهل الجنّة فيها ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب، وأصناف الأطعمة والفواكه.

قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٤٢ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله عز وجل لأهل الجنّة أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤][(٣)].

ولا شكّ بأنّ أعظم شيء في الطعام والشراب لذته، وكلما كان طيبًا شهيًّا عظم الفرح به، وزاد التلذذ بأكله، وأقبل الآكل والشارب عليه؛ ولذا يعطى أهل الجنة قوةً

(١) انظر: المصدر السابق ١٤/ ١١٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٣، الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٣٧٤.

(٣) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر ص٢٢٩.

عظيمةً لتكمل لذتهم بما يجدون من مآكلها ومشاربها؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ الرّجل من أهل الجنّة ليعطى قوّة مائة رجلٍ في الأكل والشّرب والجماع والشّهوة، فقال رجلٌ من اليهود: إن الذي يأكل ويشرب تكون منه الحاجة، فقال: يفيض من جلده عرقٌ فإذا بطنه قد ضمر)[1].

لقد أخبر الله عز وجل أنّ ثمار الجنّة كثيرة عظيمة، فقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

ومن كثرة ثمار الجنة يظنّ أهلها -كلما رزقوا منها رزقًا- أنّهم قد رأوها من قبل، فإذا هي أنواعٌ جديدةٌ متشابهةٌ في شكلها ولونها، مختلفةٌ في طعمها وريحها.

قال الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[البقرة: ٢٥][2].

وعلى كثرة ثمار الجنة وفاكهتها إلا أنّها لا تشبه ما في الدنيا من ثمار، وليس بين ثمار الجنّة وثمار الدنيا من الشبه إلا في الاسم، أمّا الحقيقة والطعم والرائحة فثمار الجنة تعظم ثمار الدنيا بما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

قال ابن القيم بعد أن ذكر الآيات والأحاديث في طعام الجنّة: «قد تضمنت هذه النصوص أنّ لهم فيها الخبز واللحم والفاكهة والحلوى وأنواع الأشربة من الماء واللبن والخمر؛ وليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء؛ وأمّا المسميات فبينها من التفاوت ما لا يعلمه البشر»[3].

ومن خصائص ثمار الجنة أنّ لكلّ فاكهةٍ منها نوعين ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

وذلك من جميع أصناف الفواكه، كلّ صنف له لذة ولون ليس للنوع الآخر، أو يكون فيها من كل نوع ما يؤكل رطبًا وما يؤكل يابسًا؛ كالعنب والزبيب، والرطب والتمر، ونحو ذلك[4].

وأكثر شيءٍ ينغّص على أهل الدنيا عيشهم القلة بعد الجدة، وفقد الشيء بعد نيله، واشتهاء الشيء مع عدم القدرة عليه، ومن الناس من يشتهي طعامًا فيأكل من الطعام ما يضره؛ لمرض فيه، ومنهم من يرى الطعام فيحبس نفسه عنه وإن كان يشتهيه؛ خوفًا من عاقبته، ومن الناس من يسرف في مأكله فيضر نفسه، ويحبس نفسه.. وأمّا أهل الجنة فيتنعمون بأنواع المآكل والمشارب وهم آمنون من كل هذا التنغيص.

(١) أخرجه الدارمي في سننه، باب في أهل الجنة ونعيمها، رقم ٢٨٦٧، ٣/ ١٨٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٢١.
(٣) حادي الأرواح ص١٣٠.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ١٢٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٧٩.

قال الله عز وجل عنهم: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

فهم آمنون من فقدها وقلتها، وآمنون من ضررها وعاقبتها، وآمنون من حبس نفوسهم عنها لعلة من العلل؛ فالجنة ليس فيها مرض ولا قلة، ولا فقر ولا ضرر على أهلها مما يأكلون ويشربون[1].

ومن تمام نعمة الله عز وجل على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم أنّ سبحانه جعل تصريف الطعام والشراب في الجنّة ليس كما هو في الدنيا؛ فليس في تصريفه شيء من الأذى أو الخبث؛ بل هو جشاء ورشح يفيض مسكًا؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**يأكل أهل الجنّة فيها ويشربون، ولا يتغوّطون ولا يمتخطون ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاءٌ كرشح المسك**)[2].

إنّ كلّ هذا النعيم من الطعام والشراب جعله الله عز وجل لأهل الجنة؛ يتنعمون به، ويتلذذون به، وليس طعامهم هذا وشرابه عن شعور بالجوع أو العطش؛ بل هو نعيم وسرور ما بعده سرور، قال القرطبي في التذكرة: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم؛ فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن؛ وإنّما هي لذاتٌ متواليةٌ، ونعمٌ متتابعةٌ، ألا ترى قوله تعالى لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨ - ١١٩].

وحكمة ذلك أنّ الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل»[3].

ثانيًا: طعام أهل النار:

وكما أخبر الله سبحانه عن نعيم الجنّة وطعامها؛ فإنّه سبحانه قد أخبر عن عذاب النار وأهوالها، وبيّن سبحانه ما فيها من سموم وحميم، وطعام الأثيم، وخزي وعذاب أليم؛ ليكون العباد على بيّنة، وليجنّب العقّال منهم أنفسهم عن ذلك العذاب قبل أن يأتي وقت لا ينفع فيه الندم.

لقد بيّنت آيات الكتاب العزيز أنّ لأهل النار أصنافًا من العذاب؛ فلا يقتصر عذابهم على حرّها وإحراقها؛ بل فيها مع ذلك الإحراق عذاب الحسرة والندم، وعذاب السلاسل والأغلال، وعذاب الصّراخ والفزع، وألم الجوع والعطش، وعذاب الريح الخبيثة والنتن، وأصنافًا غير ذلك من

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، رقم ٧٣٣٣، ٨/ ١٤٧.

(٣) التذكرة ص٤٧٥.

العذاب المهين.

فأمّا طعام أهل النار فقد أخبر الله عز وجل بأنّه ليس لهم طعام إلا الضريع، فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦].

وفي موضع آخر من الكتاب العزيز أخبر سبحانه أنّه ليس لأهل النار طعام غير الغسلين، فقال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧].

فهذا هو طعامهم: الغسلين والضريع، وليس لهم طعام سوى ذلك.

والمتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين يجد أنّ كلّ آية منهما حصرت طعام أهل النار بنوع من الطعام غير النوع الآخر؛ فذكرت الآية الأولى أنّ الكافر لا طعام له يوم القيامة إلا من ضريع، وذكرت الآية الثانية أنّ الكافر لا طعام له يوم القيامة إلا من غسلين، وهذا الحصر في كلا الآيتين قد يفهم منه البعض أنّ فيه تعارضًا وتناقضًا؛ وقد جمع المفسرون بين الآيتين بما لا يبقي تعارضًا؛ ولكن قبل بيان ذلك لا بدّ من بيان معنى الضريع، ومعنى الغسلين.

فأصل الغسلين في اللغة: ما يخرج من الثوب ونحوه بالغسل؛ ثمّ استعمل في كل جرح غسل فخرج منه شيء، فهو غسلين، واستعمل القرآن لفظ الغسلين في كل ما يسيل من جلود أهل النار؛ كالقيح والصديد وغيرهما، كأنه يغسل عنهم[(١)].

وللمفسرين أقوال متعددة في المقصود بالغسلين في القرآن الكريم؛ والمنقول عن ابن عباس رضي الله عنه أنّه: الصديد والدم والماء يسيل من لحوم أهل النّار، والمنقول عن قتادة أنّ الغسلين: شر الطعام وأخبثه وأبشعه[(٢)].

أمّا الضريع: فهو نبت يقال له: الشبرق، ويسمّيه أهل الحجاز: الضريع إذا يبس، وهو نبات ذو شوك، لا تقربه دابّة إذا يبس، وهذا المعنى في الضريع مروي عن ابن عباس رضي الله عنه، وعن عكرمة، وعن مجاهد وقتادة، وقال بعض المفسرين: الضريع شوك من النار[(٣)].

وعلى ضوء معنى الغسلين ومعنى الضريع يتبين أنّهما ليسا شيئًا واحدًا، وأنهما ليسا اسمين لمسمى واحد؛ بل هما شيئان مختلفان، وقد جمع المفسرون بين الآيتين بما بعدة أقوال:

الأول: أنّ العذاب يوم القيامة ألوان وأشكال، والمعذبون طبقات ودرجات؛

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٢٤، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٢٥٧.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨/ ٣٥٤، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٢٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٤، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٠٨.

فمنهم من لا طعام له إلا من غسلين، ومنهم من لا طعام له إلا من ضريع؛ يرشد لهذا التنوع في العذاب قوله تعالى في وصف النار: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]؛ فكلّ باب من هذه الأبواب اختص بفريق من أهل الكفر، وكل باب من هذه الأبواب داخله مغاير لما في داخل الباب الآخر، فإذا تعددت الأبواب، وتنوعت المقامات دلّ ذلك على تنوع أنواع العذاب والطعام.

وبحسب هذا التوجيه، يكون كل نوع من الطعام مخصصًا لفريق من أهل النار؛ ففريق يكون طعامه الغسلين، وفريق آخر يكون طعامه الضريع، وفريق ثالث يكون طعامه الزقوم، وهكذا؛ فغاية ما في الأمر أنّ كلّ آيةٍ تحدثت عن نوع من الطعام المخصص لهذا الفريق أو ذاك[(١)].

الثاني: أنّ المعنى في الآيتين أنّهم لا طعام لهم أصلًا؛ لأنّ الضريع لا يصدق عليه اسم الطعام، ولا تأكله البهائم -فضلًا عن الآدميين-، وكذلك الغسلين ليس من الطعام في شيء؛ فمن طعامه الضريع لا طعام له، ومن طعامه الغسلين كذلك، ويكون التعبير بهذا الأسلوب من باب المبالغة. ومنه قولهم: فلان لا ظل له إلا الشمس، ومرادهم. لا ظل له أصلًا[(٢)].

الثالث: أن تحمل الآيتان على حالتين، حالة يكون فيها طعامهم الضريع دون غيره، وحالة ثانية يكون طعامهم الغسلين، ولا شيء غيره. ويستنبط هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤].

أي: تارة يعذّبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وعلى هذا يكون طعامهم الضريع في وقت، وفي وقت آخر يكون طعامهم الغسلين، والله أعلم.

وقد وصف الله عز وجل طعام الضريع الذي أعدّه سبحانه لأهل الجنّة بأنه: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧].

وذلك لبيان أنّ ذلك الطعام كلّه ضرر، لا نفع فيه أبدًا؛ «فلا يعود على آكليه بسمنٍ يصلح بعض ما التفح من أجسادهم، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع»[(٣)].

وهناك طعام ثالث لأهل النار، وهو شجرة الزقوم، وقد أخبر الله عز وجل عنها في غير موضع من كتابه العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٣١.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣٠/ ١١٣، دفع إيهام الاضطراب، الشنقيطي ص٢٤٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٩٧.

رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

إنها لشجرة شنيعة المنظر، فظيعة المظهر، مرّة المذاق، وهي شجرة خلقها الله في نار جهنم، وسمّاها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغلت في بطونهم كما يغلي المهل، وهو النحاس المذاب[1]، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن شدّة مرارة تلك الشجرة فقال: (ولو أنّ قطرةً من الزقوم قطرت؛ لأمرّت على أهل الأرض عيشهم؛ فكيف من ليس لهم طعام إلا الزقوم؟!)[2].

وكل طعامٍ يأكله أهل النار يجمع عليهم مرارة الطعام وغصته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٢ - ١٣].

والغصة هي التي يعلق بها الطعام في الحلق؛ فلا يسهل عليه دخوله إلى الجوف، ولا يسهل خروجه عنه للتخلص منه، وفي هذا غاية الألم وغاية العذاب[3].

والخلاصة أنّه لا طعام لأهل النار إلا الضريع والغسلين والزقوم، وكلّ ذلك ما هو إلا عذاب فوق العذاب، ليس فيه من خصال الطعام الطيّب شيء؛ فيا قبح طعم ما يأكلون! ويا بشاعة ما يطعمون؛ لا تستسيغه أذواقهم، ولا تقبله ألسنتهم، ومن شدّة ما هم فيه من آلام الجوع ومرارة الطعم يتمنّون الموت فلا يموتون، بل يزدادون عذابًا فوق عذابهم، قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

نعوذ بالله العظيم من النار وما فيها من طعام ذي غصة وعذاب أليم.

وبعد الحديث عن طعام أهل الجنّة وطعام أهل النّار فإنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ إخبار الله عز وجل عن ذلك في سياق الحديث عن نعيم الجنّة وعذاب النّار فيه أعظم النفع للعباد؛ إذ فيه الترغيب العظيم في نعيم الجنّة، والتنفير الشديد من عذاب النّار، وإذا ما علم العبد ما أعدّ الله سبحانه

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٩.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٧٣٥، ١/ ٣٠٠.

والحديث ضعفه الألباني في الضعيفة، رقم ٦٧٨٢، ١٤/ ٦٣٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٤/ ١٦٩.

لعباده الطائعين من النعيم، وعلم ما أعدّ الله عز وجل للعصاة من العذاب الأليم فإنّه سيسعى سعيًا حثيثًا للفوز بذلك النعيم، وللنجاة من ذلك العذاب الأليم.

الطعام وعبادة التفكر

إنّ التفكر في خلق الله عز وجل، وفي آياته وآلائه عبادة قلبية عظيمة؛ يزيد بها الإيمان، وينشرح بها الصدر، وتطمئن بها النفس، ويستنير بها القلب، ولقد حثّ الله عز وجل عباده بأن ينظروا في آياته، ويتفكروا في خلقه، وذلك في مواضع عديدة من الكتاب العزيز، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

ولقد مدح الله عز وجل عباده الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

وختمت آيات عديدة من كتاب الله عز وجل بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقد ذم الله عز وجل من لا يعتبر بمخلوقاته وآياته الدالّة على ربوبيته وألوهيته، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

فالتفكر في آيات الله عز وجل مستحبٌّ، مندوبٌ إليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «النظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه»[١]، والتفكر في آيات الله عز وجل «من أفضل أعمال القلب وأنفعها»[٢].

وآيات الله عز وجل مبثوثة في مخلوقاته؛ في أرضه وسمائه؛ فالكون كلّه كتاب مفتوح، جعله الله تبارك وتعالى دليلًا قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا على وحدانيته وعظمته، يقف العاقل فيه على صنع الله ﴿الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

والذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

قال الله عز وجل منبهًا عباده إلى بعض آياته وعظيم مخلوقاته: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وإنّ في الطعام الذي خلقه الله عز وجل، وجعله غذاءً نافعًا للإنسان لآياتٍ باهراتٍ تدلّ على عظمة الخالق سبحانه، وبديع صنعه، وعظيم فضله على عباده، والعبد المؤمن كلّما أكل طعامًا أذهب جوعه، وأقام صلبه، وأمدّه بالقوة والنشاط زاد شعوره بعظيم نعم الله عز وجل عليه، وكلّما تأمّل في أصناف الأطعمة، وألوان الطيبات التي أحلّها الله عز وجل لعباده زاد يقينه بالله، وزادت معرفته لربّه، وازدادت خشيته ومهابته للخالق بديع السماوات والأرض.

ولقد أمر الله عز وجل الإنسان أمرًا صريحًا بأن يتفكر ويتأمل في طعامه؛ ليصل بهذا التفكر إلى الإيمان الراسخ بعظمة الخالق وألوهيته، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

فليتأمل الإنسان أولًا في الماء النازل من السماء، من الذي خلقه وأنزله؟ وهل يقدر أحدٌ غير الله أن ينزله إلى الأرض على هذا الوجه الذي يحصل به النفع؛ رشًا صغيرًا رقيقًا حتى تروى به تدريجًا، من غير أن يحصل به هدم ولا غرق، وهل يقدر أحدٌ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٣٤٣.
(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٨٣.

غير الله أن يشق الأرض، ويخرج منها النبات؟ وهل يقدر أحدٌ غير الله أن يخرج السنابل والثمار من ذلك النبات؟ وهل يقدر أحد غير الله أن ينمي حبّه وينقله من طور إلى طور حتى ينضج ويكون صالحًا للغذاء والقوت؟ ومن يقدر على إنبات الثمار والعنب والزيتون والنخيل؟ ومن خلق الحدائق وجعل فيها أصناف الفواكه؟ لا يقدر على شيء من ذلك إلا الله، الواحد الأحد، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩][1].

ولينظر الإنسان إلى الحبّة إذا وضعت في الأرض؛ ينشق أعلاها وأسفلها؛ فيخرج من أعلاها النبتة الصاعدة، ويخرج من أسفلها الجذور الضاربة في الأرض، والحبّة واحدة، والتربة واحدة، والماء واحد.

فمن الذي سيّرها؟ ومن الذي يرعاها ؟ ومن الذي جعل منها غذاءً للإنسان والدّواب ؟

إنّه الله عز وجل ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٣- ٥٤].

ومن عجيب آيات الله عز وجل في خلق الطعام والغذاء أنّه سبحانه يخرج من التربة الواحدة، والتي تسقى بماء واحد، يخرج منها سبحانه أصناف الثمار، وألوان الطعام، فلينظر الإنسان وليتأمل فيما يخرج من قطع الأرض المتجاورة، ليرى زروعًا مختلفةً، وزهورًا يانعةً، وفاكهةً كثيرةً متنوعةً، وثمارًا عديدة، ولكلّ صنف منها طعمٌ مختلفٌ، ولونٌ متباينٌ، وحجمٌ متفاوتٌ، ولكلّ صنف منها خصائصه ومنافعه وفوائده، فسبحان من أبدعها، وسبحان من يرعاها.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤][2].

إنّ من تأمّل في تلك الآيات، وتفكّر في تلك الجنات وتنوع ثمارها وأكلها علم بأنّ لها صانعًا حكيمًا، قادرًا مدبرًا، لا يعجزه شيء، ولا تخفى عليه خافيه، له سبحانه آياتٌ بيناتٌ في خلقه تدلّ على ربوبيته

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٢.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢١٧،

وقدرته، وتشهد بوحدانيته[(١)].

ومن آيات القرآن الكريم التي تدعو العباد للتفكر فيما خلق الله عز وجل لهم من خيرات وطيبات قول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٥ - ٦٧].

إنها آياتٌ عظيمةٌ من آيات الله عز وجل؛ يخرج سبحانه اللبن الخالص، ناصع البياض، طيّب الرائحة من بين الفرث والدم؛ فليس عليه لون الدم، ولا رائحة الفرث؛ بل هو خالصٌ من الكدر، سائغٌ للشاربين، يروى من العطش، ويشبع من الجوع، ويشهد بعظمة الخالق سبحانه[(٢)].

إنّ الطعام الذي يأكله الإنسان مليء بالآيات والعبر؛ فلو تأمل الإنسان في تنوع الأطعمة واختلافها لوجد منها الرطب ومنها اليابس، ومنها الحلو ومنها المالح، ومنها ما ينبت صيفًا ومنها ما ينبت شتاءً، ومنها الكبير ومنها الصغير، ومنها اللين ومنها القاسي، ومنها ما يؤكل نيًا ومنها ما يحتاج للطبخ، ومنها ما يؤكل للغذاء ومنها ما يؤكل للتفكه، ومنها ما يناسب الإنسان في الصيف فينبته الله عز وجل صيفًا، ومنها ما يحتاجه الإنسان في الشتاء فينبته الله عز وجل شتاءً، فسبحان الخالق ما أعظمه، وما أعظم منّه وفضله على عباده، ولا يسع المؤمن حين يتأمل في تلك الآيات البيّنات إلا أن يقول كما قال ربّ العالمين: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١١].

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٠٣.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٣.

موضوعات ذات صلة

الأكل، الحلال، الحرام، الحيوان، الخبيث، الشرب، الطير، الطيبات



عناصر الموضوع

مفهوم الطغيان

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطّاء والغين والحرف المعتلّ أصلٌ صحيحٌ منقاسٌ، وهو مجاوزة الحدّ في العصيان. يقال: هو طاغ. وطغى السّيل، إذا جاء بماءٍ كثيرٍ»[(١)]. والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، يكون واحدًا والجمع الطواغيت[(٢)]. «والطاغية: الجبار العنيد»[(٣)]. وقيل: الذي لا يبالي بما أتى، يأكل الناس ويقهرهم، لا يثنيه تحرّج ولا فرق[(٤)]. وقيل: «الأحمق المستكبر الظّالم»[(٥)].

والخلاصة: أن كل شيء جاوز الحد فقد طغى، ذكر ذلك أبو منصور الثعالبي، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»[(٦)].

وقال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[(٧)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله»[(٨)].

والواقع أن الطغيان في الشرع يقوم على أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز الإنسان حدّه وقدره، وحدّ الإنسان هو ما حدّ الله له من حدود لا يجوز أن يتجاوزها.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٢.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص١٩١.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٤.
(٥) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٤.
(٦) التعريفات ص١٤١.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٥.
(٨) إعلام الموقعين ١/ ٤٠.



الطغيان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طغى) في الاستعمال القرآني (٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧﴾ [النازعات:٣٧]
الفعل المضارع	٥	﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه:٤٥]
اسم فاعل	٧	﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٣]
اسم تفضيل	١	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم:٥٢]
مصدر	١٠	﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤]
الاسم	٨	﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٧٦]

وجاء (الطغيان) في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الضلالة والعصيان، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ [البقرة:١٥] يعني: في ضلالتهم.

وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه:٢٤] يعني: إنه عصى الله عز وجل.

الثاني: الارتفاع والكثرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ [الحاقة:١١] يعني: لمّا ارتفع وكثر.

الثالث: الظلم، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ [الرحمن:٨]. يعني: لا تظلموا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٦، ٤٢٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص٢١٤. الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٣- ٣٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا إذا تعدى وظلم.[١]

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه[٢].

الصلة بين الطغيان والبغي:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل. والبغي: طلب تجاوز قدر الاستحقاق، تجاوزه أو لم يتجاوزه، وهو ضربان: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشّبه[٣].

٢ العدوان:

العدوان لغة:

التعدّي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه[٤].

العدوان اصطلاحًا:

التّجاوز ومنافاة الالتئام، والإخلال بالعدالة في المعاملة[٥].

الصلة بين الطغيان العدوان:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل، والعدوان: تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده.

٣ العتو:

العتو لغة:

التجبّر والتكبّر[٦].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧ .
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣٦ .
(٣) الكليات، ص٥٨٤ .
(٤) العين، الفراهيدي ٢/ ٢١٣ .
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٥٣ .
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٨ .



العتو اصطلاحًا:

عبارة عن الإباء والعصيان[1]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

الصلة بين الطغيان والعتو:

قال العسكري: «أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر، يقال: طغى الماء إذا جاوز الحد في الظلم، والعتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان»[2].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٤٥٤.
(٢) الفروق اللغوية ص ٢٣٠.

التحذير من الطغيان

تنوعت أساليب القرآن في التحذير من الطغيان، وسنتناولها فيما يأتي:

أولًا: النهي الصريح:

ورد النهي الصريح في كتاب الله محذّرًا من ارتكاب الطغيان، فقال تعالى آمرًا نبيّه وأهل الإيمان بالاستقامة على الدين، ونهاهم عن الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢-١١٣].

«فأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة؛ وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»[(١)].

قال سيد رحمه الله: «وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهيًا عن القصور والتقصير، إنما كان نهيًا عن الطغيان والمجاوزة؛ وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرّج، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحوّل هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير، وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو، أو الإهمال على السواء»[(٢)].

وأمر الله سبحانه عباده بأكل الحلال الطيب، ونهاهم عن الطغيان بالسرف والبطر، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

أي: ولا تطغوا في رزقي بالإخلال بشكره وتعدي حدودي فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على المعاصي، ومنع الحقوق الواجبة فيه، فينزل عليكم غضبي، وتجب عليكم عقوبتي[(٣)].

وقال ابن كثير: «أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به»[(٤)].

ونهى عن الطغيان في الميزان، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣١.

(٣) تفسير المراغي ١٦/ ١٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٠٨.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد اختلف علماء التفسير في معنى الميزان، فقيل: هو العدل، وقيل: المراد آلة الوزن التي يتوصّل بها إلى الإنصاف والانتصاف، وقيل: الميزان هو القرآن؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وقيل: إن الميزان هو الحكم[(١)].

وليس هناك تعارض بين هذه الأقوال، ولا مانع أنه يعم الجميع، فالمطلوب من الإنسان ألا يطغى سواء في آلة الوزن، أو في تجاوز حدود الله، أو في ظلم الناس.

ثانيًا: التعليل بسوء المصير:

من أساليب القرآن الكريم في التحذير من الطغيان: ذكر الوعيد الشديد بسوء مصير الطغاة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى مبينًا مصير الطغاة: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥].

«وهم الذين تمرّدوا على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم، لشر مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا؛ لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم»[(٢)].

والمراد بالطاغين هنا: «عظماء أهل الشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل وأمية ابن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل وأضرابهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢].

أي: أنها كانت في حكم الله تعالى وقضائه موضع رصدٍ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذّبوهم فيها[(٤)]. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم[(٥)].

ولما كان من صور الطغيان الطغيان بالظلم بيّن الله مصيرهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وأخبر سبحانه أنه لا يغفل عما يفعله الطغاة الظلمة من الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٥٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٧٧.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٩٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٧٧.

أي: «لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عدًّا»[1].

قال سيد رحمه الله: «ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتّعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعًا بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهدًا للقوم في زحمة الهول، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة، ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكًا، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئًا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء»[2].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا﴾ [مريم: ٨٤].

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، إنما نؤخّرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله[3].

«فيا ويل من يعدّ الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير، إن الذي يحسّ أن رئيسه في الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان، فكيف بالله المنتقم الجبار؟!»[4].

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][5].

وحينما يتسلل الإحباط واليأس في نفس المؤمن وهو يرى ما عليه الطغاة وأهل الكفر من التمكين في الأرض، وما يملكونه من القوة والهيمنة، فليتذكر قول الله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

«وهذه الآية المقصود منها التسلية

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٢.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦.

عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعّمهم فيها، وتقلّبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذّبون عليه طويلًا، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه»[1].

ويسلّي الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبيّن له مصير الطغاة المجرمين، فيقول سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فهذا الوعيد الشديد بذكر مصير أهل الفسق والطغيان يجعل من الإنسان المسلم شخصية خائفة من ربها تبارك وتعالى، مجتنبًا كل الأسباب الموصلة إلى الطغيان؛ لأن الله قد حذّر منه، وذكر مصير أهله.

ثالثًا: الحث على الاعتبار بالسابقين:

يقصّ الله تبارك وتعالى علينا قصص الطغاة، وما حلّ بهم النكال والعذاب لا لأجل التسلية، وإنما لأجل أخذ العبرة من هذه القصص، وحتى لا نقع في طغيانهم وضلالهم، وسأتناول شيئًا من قصص الأمم السابقة التي طغت وتكبّرت على الخالق والخلق:

فالطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، ولكن الله لهم بالمرصاد.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

«فربك راصد لهم، ومسجّل لأعمالهم، فلما أن كثر الفساد، وزاد صبّ عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصّبّ، حيث يجتمع الألم اللاذع، والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد»[2].

وذكر الله سبحانه إهلاك الأمم السابقة بسبب طغيانهم وعتوهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

فأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا هم أشد ظلمًا لأنفسهم، وأعظم كفرًا بربهم، وأشد طغيانًا وتمردًا على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٤.

طغيانهم أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم[1].

وكان عاقبتهم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٢].

وأخبر تبارك وتعالى عن مصير الطغاة المكذّبين بأنبيائهم، فقال سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ۝ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

«هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة، قد أخذهم الله جميعًا بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلًا.

فعاد أخذهم حاصب، وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض، فتضربهم وتقتلهم، وثمود أخذتهم الصيحة، وقارون خسف به وبداره الأرض، وفرعون وهامان غرقًا في اليم، ذهبوا جميعًا مأخوذين بظلمهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾»[2].

وذكر لنا تبارك وتعالى طغيان قوم صالح عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

قال الطبري: «الطاغية طغيانهم الذي طغوا في معاصي الله، وخلاف كتاب الله»[3].

وقصّ الله علينا قصة أصحاب الجنة لما طغوا وتغطرسوا على عباد الله الضعفاء، ومنعوهم حقهم من الصدقات، ولم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم، جاء العذاب، ونزعت النعمة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥-٢٧٣٦.

(٣) جامع البيان ٢٣/ ٢٠٨.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

فالله تبارك وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين، وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم[(١)].

ولما طغى قوم عاد وتكبروا، وقالوا لنبيهم استهزاء واستهتارًا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص ٣٨-٤٠].

ويصف لنا ربنا -جل جلاله- هذا الطاغية المتجبر، وإذلاله لموسى عليه السلام ولقومه، وعدم مبالاته بهم، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

فكانت النتيجة: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٥٧-٦٢].

فهذه القصص وغيرها في كتاب الله تبارك وتعالى لم يقصها الله علينا إلا لأخذ العظة والعبرة منها، فنبتعد عن الطغيان وصفات الطغاة.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٦٦.

أسباب الطغيان

لوقوع الطغيان من الإنسان أسباب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الحسد:

مما يوقع الإنسان في الطغيان فيتجاوز الحدود: إصابته بداء الحسد، فهو الداء العضال -إن أصاب الإنسان- وهو «مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...، ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل»[(١)].

ومن هنا فقد ذمّه الله تعالى في كتابه في غير موضع، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال القرطبي: «وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذي ذمّه الله تعالى»[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

«فنهى اللّه سبحانه المؤمنين عن التمني؛ لأن فيه تعلق البال، ونسيان الأجل، والمراد النهي عن الحسد: وهو تمني زوال نعمة الغير، وصيرورتها إليه، أو لا تصير إليه»[(٣)].

وورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[(٤)].

فالحسد الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره منّة، أو أسبغ عليه نعمة؛ فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود، ورفضهم قبول رسالة النبي مع أنه مكتوب عندهم في التوراة، فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله على الرسالة، وحسدهم لأصحابه على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ١٦٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ٨/ ١٩، رقم ٦٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ٤/ ١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣.

﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله»(١).

ولاشك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بالطغيان: الغلو في إنكار ما قد علموا صحته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتمادي في ذلك»(٢).

«فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانًا وكفرًا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان لابد أن يشتطوا في الجانب المقابل، ولابد أن يزيدوا تبجّحًا ونكرًا، وطغيانًا وكفرًا، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين، ووبالًا على المنكرين»(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٢.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٤٥٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٩.

والخلاصة: أن الحسد يدفع بصاحبه إلى الطغيان، وتجاوز الحدود، وقد يصل به الأمر إلى الكفر بالله سبحانه، وتكذيب الرسالة، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: العجب والغرور:

العجب والغرور هو آفة الطغاة في عتوّهم وتجبّرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له؛ ولذلك قال الله عز وجل ذاكرًا حال قوم عاد لما طغوا وتكبّروا على ربهم، ثم على نبيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

«أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله»(٤).

قال سيد رحمه الله: «إن الحق أن يخضع العباد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، استكبروا واغتروا ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنها بديهة أولية، إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة؛ لأنه

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩.

هو الذي مكّن لهم في هذا القدر المحدود من القوة، ولكن الطغاة لا يذكرون: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]»[1].

«ويبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]»[2].

ولم يكتف بهذا العجب، بل زاد عليه احتقارًا لموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

يقول تعالى مخبرًا عن قول فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه، وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟[3].

ويستعرض قارون ملكه وقوته أمام الجماهير المنبهرين بزينة الحياة الدنيا، ويخرج على قومه في أبّهة، يقول سبحانه مبيّنًا ما كان عليه من العجب والغرور: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

«أي: فخرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمّلٍ باهر من مراكب وخدم وحشم، مريدًا بذلك التعالي على الناس، وإظهار العظمة؛ وذلك من الصفات البغيضة، والافتخار الممقوت، والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع، وتفسد نظمه، وتفرّق شمل الأمة، وتقسمها طبقات، وفي ذلك تخاذلها، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها»[4].

ثالثًا: العناد والكبر:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: العناد، فالطاغية يعرف تمام المعرفة أنه على باطل، غير أنه يترك الحق ويكابر عنادًا وكبرًا وعلوًّا، وقد قصّ الله سبحانه علينا في كتابه ما يدل على هذه الحقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٧.
(٤) تفسير المراغي ٢٠/ ٩٧-٩٨.

«أي: تيقّنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحرًا، ولكنهم كفروا بها، وتكبّروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين»[(١)].

وفي تفسير المنار: «أي: عاندوا موسى عليه السلام عنادًا بإظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض»[(٢)].

وبيّن تبارك وتعالى أن التخويف للطغاة لا يزيدهم إلا طغيانًا على طغيانهم، وعنادًا على عنادهم، وكبرًا على كبرهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

«أي: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانًا متجاوزًا للحد، متماديًا غاية التمادي، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة»[(٣)].

وأخبر سبحانه أن كفار قريش لم يكونوا يكذّبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

«بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا، عنادًا وحسدًا»[(٤)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي ومقاتل: هذا في المعاندين الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه غير كاذب فيما يقول، ولكنهم عاندوا وجحدوا[(٥)].

وإن من أبرز الشخصيات التي تمثّل هذا الكبر والعلو شخصية الطاغية فرعون، فقد مارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

«أي: تكبّر وتجبّر وطغى»[(٦)].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص ٣٩].

«المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار: التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات»[(٧)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٣.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٤٧١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣١.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٠.
(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٠٠.

رابعًا: الرفاهية والإسراف في الشهوات:

لم يرد الإسراف في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم، فقد نهانا المولى سبحانه عن الإسراف، وأخبرنا أنه لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]. [الأعراف: ٣١].

وأمرنا سبحانه بعصيان أمر المسرفين، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

فأهل الإسراف في بعد عن الهداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي قرب من الضلال ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ومن كان هذا حاله فمصيره إلى العذاب في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

والإسراف صفة ملازمة للطغاة، ومسلكهم في الحياة دليل شاهد، وهو ملازم للعلو؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: «وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل؛ وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[(١)].

وقال الألوسي: «أي: المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام»[(٢)]. «ومن هذه حالته لا يزعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع»[(٣)].

«أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه»[(٤)].

ويقول جل وعلا: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقد أخبر تبارك وتعالى عن صفات الطغاة من أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[الواقعة: ٤٥].

أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذّات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل[(٥)]. فالترف والتنعّم هو السبب الذي أقحمهم ابتداء في الطغيان والاستكبار، ومن ثمّ إلى نار جهنم، وبئس المصير.

---

(١) جامع البيان، ١٥/ ١٦٧.
(٢) روح المعاني، ٦/ ١٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٥.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥٣٨.

وذكر تبارك وتعالى أن من صفات الطغاة المستكبرين الاستمتاع بالحياة الدنيا ولذتها دون النظر إلى أمور الآخرة، والعمل لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

«فقد كانوا يملكون الطيبات إذن، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئًا، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابًا، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورّعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثمّ كانت لهم دنيا، ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله! ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق، فالكبرياء لله وحده، وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض، فجزاء الاستكبار الهوان، وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضًا، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين»[1].

خامسًا: الاستغناء:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: الغنى، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما بسطت الدنيا لعبد إلا طغى كائنًا من كان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

فأخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله[2].

وكان سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفّرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)** قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾(١).

«والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان، والتعريف في الإنسان للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه...، والطغيان: التعاظم والكبر، والاستغناء: شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

و﴿أَن رَّءَاهُ﴾ متعلق بـ(يطغى) بحذف لام التعليل؛ لأن حذف الجار مع (أن) كثير شائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنيًا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدّث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا حيث لا وازع يزعه من دين، أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس»(٢).

ومن أبرز قصص القرآن التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالمال، قصة قارون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

«هكذا تبدأ القصة فتعيّن اسم بطلها (قارون) وتحدّد قومه (قوم موسى) وتقرّر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (كلا إن الإنسان ليطغى)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤-٤٤٥.

مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالًا كثيرًا، يصوّر كثرته بأنه كنوز، والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول، وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال، من أجل هذا بغى قارون على قومه، ولا يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم، كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال»(1).

ومن أبرز قصص الطغيان في القرآن قصة صاحب الجنتين.

قال سبحانه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾[الكهف: ٣٢-٣٦].

فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج، والحيوية الدافقة، والمتاع والمال.

﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ ويختار التعبير كلمة ﴿تَظۡلِم﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا، فلابد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة!

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٤٤٢.

مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

«إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!»[1].

ومن القصص التي تبيّن أن الاستغناء سبب من أسباب الطغيان قصة أصحاب الجنة ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٢].

ومن القصص التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالقوة الجسدية قصة عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ قوم هود ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ على ربهم وتجبّروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله، يقول: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون[2].

سادسًا: الأولاد:

حذّر الله تبارك وتعالى في كتابه من فتنة المال والولد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فهذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده وحذّرهم أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغّبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب

(١) المصدر السابق ٥/ ٦٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية[1].

وأخبر تبارك وتعالى أن الولد قد يكون سببًا في الكفر، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قال الألوسي: «فخفنا خوفًا شديدًا أن يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حيًّا طغيانًا مجاوزة للحدود الإلهية، وكفرًا بالله تعالى؛ وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته، كما روي عن ابن جبير، ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أن يدنس إيمانهما أولًا، ويزيله آخرًا، ويلتزم على هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من إزالته بدون سابقية تدنيس، وفسّر بعض شراح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما طغيانًا عليهما، وكفرًا لنعمتهما عليه من تربيتهما إياه، وكونهما سببًا لوجوده بسبب عقوقه، وسوء صنيعه، فيلحقهما شر وبلاء، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافر»[2].

وقال القرطبي: «والمعنى: أن يلقيهما حبه في اتباعه، فيضلا، ويتدينا بدينه»[3].

وقال ابن كثير: «أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب»[4].

وقال سيد رحمه الله: «فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغٍ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزًا وتحققًا، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفًا خيرًا منه، وأرحم بوالديه، ولو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري الظاهر لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٥.

يحكم على الطبيعة المغيبة لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد»[(١)].

سابعًا: الاستخفاف وغفلة الناس:

يمارس الطغاة على مر العصور وسيلة الاستخفاف بالجماهير.

يقول تبارك وتعالى عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له»[(٢)].

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي: حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله، وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذّبوا موسى»[(٣)].

وقال سيد رحمه الله: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين، وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾»[(٤)].

وقد بلغ بفرعون من الخفة والاستخفاف بقومه أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

«قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانًا، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجرا! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم.

فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٣٢.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئًا! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًّا ولا رشدًا! فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذّلة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئًا لا يستنقذ من الذباب شيئًا!»[1].

يقول الكواكبي رحمه الله: «فالعوام هم قوت المستبدّ وقوّته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه: إنه كريم، وإذا قتل ولم يمثّل يعتبرونه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة، قاتلوهم كأنهم بغاة، والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل»[2].

«والطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية»[3].

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨١٥.

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣.

مظاهر الطغيان وآثاره

للطغيان مظاهر وآثار نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الضلال والعمى:

أهل الطغيان «يدعهم الله سبحانه يخبطون على غير هدى، في طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ، غافلة عن المقبض المكين، وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير»[1].

قال الله سبحانه عن أهل النفاق والطغيان: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يزيدهم ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويترددون في الضلالة[2].

«والصواب: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]»[3].

«ومن يكتب الله عليه الضلال -وفق سنته تلك- يظل في طغيانه عن الحق، وعماه عنه أبدًا ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطّلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق، وأسرار الوجود، وشهادة الأشياء -التي يوجههم إليها في الآية السابقة- وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة، وحيثما فتحت العين وقعت على آية، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به لمس الإعجاز في تكوينه، وفيما حوله من شيء، فإذا عمه -أي: عمي- عن هذا كله ترك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار»[4].

وقال عز وجل: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

«يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم، فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٠٧.

لهم من عقوبته، وأليم نكاله»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: فنترك الذين لا يرجون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه، متحيّرين لا يهتدون سبيلًا للخروج منه[(٢)].

ثانيًا: محاربة الحق، وتكذيب الأنبياء والدعاة:

مجرد ما يسمع أهل الطغيان الرسالة الربانية حتى يهرعوا لاستخدام الحجة التي طالما استخدمها من قبلهم، وهي اتهام الدعاة المخلصين بالكذب والدجل؛ ليبرّروا لأنفسهم قمعهم ومحاربتهم وقتلهم.

وليس غريبًا أن يتعرّض الأنبياء الصّادقون، أصحاب المنهج الرباني السليم للتكذيب والمعاداة، يقول سيد قطب رحمه الله: «فأمّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم...، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! إن مصارع المكذبين -كما يعرضها هذا القصص- تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده، والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء، واستهزاء بالإنذار، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ!»[(٣)].

وقد بلغ بأهل الطغيان والباطل في محاربة الحق أن أوصى بعضهم بعضًا بعدم السماع لهذا القرآن، واقترحوا وسيلة لمحاربة كتاب الله، وهي التشويش واللغو. قال سبحانه وبحمده: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

«أي: لا تسمعوه ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة، وكان الكفّار يوصي بعضهم بعضًا: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تلبّسوا عليهم قولهم، وقال مجاهد: ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: المنار، رشيد رضا ١١/ ٢٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٦.

الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيسكتون»[1].

وقريبًا من هذا المعنى قوله جل وعلا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عن قوم عاد: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال عن أصحاب القرية: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال عن قوم ثمود: ﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فرغم اختلاف هؤلاء الأقوام واختلاف الأنبياء إلا أنّ الموقف واحد، هو التكذيب والرفض الواضح للدّعوة، رغم ما حمله كلّ نبي من الأنبياء لأدلة تثبت صدق دعوته وربانيتها.

والخلاصة: أن أهل الطغيان يتهمون دعاة الإصلاح بالكذب والدجل، وأن دعوتهم وإن كانت في خارجها صالحة فإنها في باطنها خبيثة باطلة.

ثالثًا: إيثار الدنيا على الآخرة:

من أبرز مظاهر الطغيان نسيان الدار الآخرة، وإيثار الدنيا عليها، فيشعر الطاغية أنه خالد مخلّد في هذه الحياة، وينسى الآخرة والبعث والنشور والجنة والنار، يقول تبارك وتعالى مذكّرًا بمصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فإذا اجتمع الغنى مع نسيان الآخرة، وإيثار الحياة الدنيا، فإن الثمرة لهذا الاجتماع المشئوم هو الطغيان، قال سيد رحمه الله: «والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠.

وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[1].

وليس معنى هذا أن الإسلام يرفض الحياة الدنيا بالكلية، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح بمتاعها ولذاتها وشهواتها وإمكاناتها إلهًا معبودًا من دون الله؛ لهذا ذمّ الله من قدم الحياة الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وانظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبهم الإيمان كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدّدهم بما هدّدهم، فـ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه (٧٢-٧٣)].

فالمطلوب من المسلم أن يحرّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مجرد مريد للحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أمر الله بالإعراض عمن طغى وتعلّق بهذه الحياة وآثرها على الحياة الباقية، فقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قال سيد رحمه الله: «هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله، ولم يؤمن بالآخرة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا موجّه ابتداء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم، وعدم إيمانهم بالآخرة.

وهو موجّه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله، ويعرض عن الإيمان به، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها، لا ينظر إلى شيء وراءها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يحسب حسابها، ويرى أن حياة

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.

الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله -فضلًا على أن يعامل أو يعايش- من يعرض عن ذكر الله، وينفي الآخرة من حسابه؛ لأن لكل منهما منهجًا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته، ولا في نقطة واحدة من نقاطه، وجميع مقاييس الحياة، وجميع قيمها، وجميع أهدافها، تختلف في تصور كل منهما، فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض، مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها، وغاية هذا النشاط، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين، فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا، وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

على أن للإعراض اتجاهًا آخر هو التهوين من شأن هذه الفئة، فئة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يبتغون شيئًا وراء الحياة الدنيا، فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة، قاصرون عن إدراكها، واقفون وراء الأسوار، أسوار الحياة الدنيا»[(١)].

والخلاصة: أن إيثار الحياة الدنيا أساس كل بلوى، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، والطغيان على أوامر الله تعالى، وعباد الله الصالحين.

رابعًا: الإفساد في الأرض:

إن الهدف الأسمى والأبرز للطاغية هو أن يحافظ على منصبه، دون أن ينازعه أو يعترض على حكمه أحد، وهو لذلك يدرك تمامًا أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا في بيئة فاسدة، فالطغيان كالفيروس لا ينمو ولا يتكاثر إلا في البيئات العفنة.

فـ«الحكام الطغاة كالحشرات القذرة، لا تعيش أبدًا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة، والجهالة القاتمة»[(٢)].

يقول الكواكبي رحمه الله: «لا يخفى على المستبدّ أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيرًا لكان خفاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٠.
(٢) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٨٢.

ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل»[1].

فالطاغية لا يرضى إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئًا روحانيًا له في أعصاب الناس أثر من الوقار[2].

وكأن بين الطاغية وبين الرذيلة عهد وميثاق: أن يقوم هو بحمايتها مقابل أن تعرف له صنيعه فتحميه[3].

«فالطاغية في نسبته إلى رعيته كالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[4].

ومن هنا نفهم سر وصف القرآن الكريم للطغاة بالمفسدين.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢].

فالفساد نتيجة طبيعة ومباشرة للطغيان، يقول سيد رحمه الله معلقًا على الآيات السابقة: «هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد»[5].

وقد وصف تبارك وتعالى رأس الطغيان -فرعون- في أكثر من آية بأنه من المفسدين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: «إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبّره في الأرض على أهلها،

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٢) انظر: وحي القلم، الرافعي ٢/ ٢١٨.
(٣) وحي القلم ٢/ ٢٣٧.
(٤) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

وتكبره على عبادة ربه»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك[2].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض، يعني: فرعون وملأه؛ إذ ظلموا بآيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٧.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٣.

أساليب الطغاة

للطغاة في محاربة الحق أساليب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: إلباس الحق بالباطل:

من طبائع الطغاة وأساليبهم إلباس الحق بالباطل، وقلب الحقائق الواضحة الجلية وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصفة فيهم إيضاحًا كافيًا شافيًا.

فنرى الطغاة يحيلون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، وإذا بالرسول المرسل ساحر، وإذا بالمجرم الظالم الطاغية إمام عادل.

قال تبارك وتعالى مبيّنًا حقيقة هؤلاء القوم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

«فكلمة الحق، وتوحيد الله، والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني، ولا أن يرفع

أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات[(٢)].

وهذه الوسيلة قد استخدمها الطغاة.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد قال الطاغية فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فأراد قتل موسى تحت مبرر الخوف على تبديل الدين، والخوف على البلاد من الفساد والدمار الذي سيحدثه موسى -بزعمه- «أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان، واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»[(٣)].

«وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»[(٤)].

ثانيًا: تعليل ما هم عليه من الغنى والجاه لأسباب ذاتية:

من طبيعة الطاغية أن ينسب النعم التي امتن الله بها عليه إلى أسباب ذاتية، فيزعم أنه حصل عليها بحذقه وذكائه، وورثها كابر عن كابر.

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قال سيد رحمه الله: «إنما أوتيت هذا المال استحقاقًا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٦.

في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصّلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء.

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهوّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجًا معينًا للتصرف في الملكية الفردية -كما يفرض منهجًا لتحصيلها وتنميتها- وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم.

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردًّا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالًا كانت أشد منه قوة، وأكثر مالًا، وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي، فليعلم؛ وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد!»[1].

وأخبر تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ الْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١].

فأخبر سبحانه عن فرعون وطغيانه وعناده أنه نادى في قومه متبجّحًا مفتخرًا مغرورًا بملك مصر وتصرفه فيها: أليس لي ملك مصر لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني فيه مخالف، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أنهار النيل وفروعه، وهي تجري من تحت قصري، أو بين يدي في جناني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وما يظنّ فرعون

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

أن تبيد هذه أبدًا، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده، وحول منه وقوة، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، وهذا أشدّ الوهم من فرعون؛ إذ خيّل إليه أن ما قاله حجة مقنعة لقومه، وهذا هو حال الطغاة المجرمين.

ثالثًا: كل من خالفهم فهو على الباطل:

قد يظهر الطاغية حرصه على المشورة في الأمور، ويستشير ملأه المقربين منه؛ لتمام معرفته أنهم لن يخالفوا له رأي، فهذا فرعون يستشير قومه في قتل موسى، وهو الذي قتل في بني إسرائيل وأثخن، قال الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يخطر على باله على الإطلاق أن أحدًا سيعترض عليه في قتل موسى، فلسان حاله: أنا لم أجعلكم في هذه المنزلة، وأمنحكم هذه الرتبة لتعترضوا علي، بل لتأمّنوا على ما أقول، أنسيتم أني ربكم الأعلى؟

فاعترض عليه أحد الحاضرين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فلما سمع فرعون هذا الكلام أفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، من خالفني فهو على باطل.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإذا تأملنا هذه الكلمات التي قالها فرعون وجدناها تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي الذي كان يحمله الطاغية فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ﴾ فلا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يمكن لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا نظر إلا نظره، فهو على الصواب وغيره على الخطأ، وهو المبصر، وهم العميان.

ولا هداية إلا ما يراه هو، كلامه رشاد، وكلام غيره غي، هو كل شيء، وغيره لا شيء، يقول سيد رحمه الله: «إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠.

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «رأى أن يستخفّ قومه فيتابعوه؛ ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به، مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشر أهون؛ ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال»[(١)].

«فالطاغية يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها من النطق بالحق والتعدي لمطالبته»[(٢)].

«إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته»[(٣)].

«فالحاكم المجرم يريد جوًّا يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خباه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى؛ لذلك من خصائص الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه»[(٤)].

رابعًا: الاستهزاء:

من وسائل الطغاة الاستهزاء، واحتقار الصالحين، وقد حكى الله تبارك وتعالى لنا في كتابه ما كان عليه أهل الطغيان من استهزاء بالأنبياء المرسلين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

فعلى هذا النحو الذي تلقّى به المكذّبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم، يتلقّى المكذّبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به[(٥)].

وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

واستهزأ قوم نوح عليه السلام به: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٣٧.
(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٣٣.
(٣) فرعون والطغيان السياسي، أحمد بهجت ص٨.
(٤) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص١٤٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٢٩.

وقالوا لنبيهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

واحتقر فرعون موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقال عن قوم موسى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[الشعراء: ٥٤-٥٦].

والمتأمل يدرك أن فرعون كاذب في دعواه؛ إذ لو كان الأمر كذلك فلم جمع لهم خيله ورجله، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، ويقوة موسى ومن معه، وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله -بزعمه!- إلى التعبئة العامة، ولابد إذن من التهوين من شأن المؤمنين ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!»[1].

وقد احتقر كفار قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستبعدوا أن تكون الرسالة نزلت على رجل مثله، واقترحوا أن تكون الرسالة ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

«والواقع أن السخرية والاستهزاء من أمضى أدوات النفوذ والتأثير على الآخرين؛ ذلك أنها من أشد الأمور إيلامًا لأصحاب المروءة، فتحجزهم عن كثير من المواقف تحاشيًا أن يقعوا في مثار سخرية أو موضع استخفاف؛ ولذلك نبّه الله الرسل والمصلحين على استغلال خصوم الدعوات الإلهية لهذه السلطة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]»[2].

خامسًا: اتهام المصلحين بالتهم الكاذبة، والتحريض عليهم:

الملاحظ على الطاغية قيامه بحملة تحريضية كاذبة واسعة النطاق ضد المصلحين، فهذا فرعون وقومه اتهموا موسى عليه السلام بسعيه إلى الاستيلاء على الأرض والوطن، قال سبحانه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝﴾

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٨.

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص١٦٣.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠].

وقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

فهم «يصرّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة، إنها الخروج من الأرض، إنها ذهاب السلطان، إنها إبطال شرعية الحكم، أو محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث»[1].

كما أن الطاغية يسعى جاهدًا إلى اتهام كل مصلح بالتآمر على البلاد والعباد، قال سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

«أي: إن هذا الصنيع الذي صنعتموه أنتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكرًا مكرتموه في المدينة؛ بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه، مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته، زاد في سورة طه ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة؛ لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم -وهو ما كان اتهم به موسى وحده- ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء»[2].

كما أن الطاغية يحرص غاية الحرص على إظهار المخالفين له بمظهر الحريصين على النفوذ والسلطة.

قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

وهذه الوسيلة التي استخدمها فرعون للتشكيك في دعوة موسى عليه السلام استخدمتها قريش لصرف الناس عن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

أي: «إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك»[3].

سادسًا: الترغيب:

قد يستعمل الطاغية أسلوب الإغواء ويمارسه على ضعاف النفوس؛ وذلك أن الطاغية يملك المال والمنصب والجاه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٨.

(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٦٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٥٢.

فيغريهم بالمال الوفير، وقد بيّن لنا القرآن الكريم كيف استخدم الطغاة هذه الوسيلة.

قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣- ١١٤].

فأكّد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القربى منه؛ زيادة في الإغراء، وتشجيعًا على بذل غاية الجهد[١].

وربما سعى الطغاة جاهدين لشغل الناس بأمور تافهة، وقضايا جانبية، وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام الطغاة لهذا الأسلوب في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

كما أن الطاغية يدرك تمامًا أن الضغط على الناس يولّد الانفجار، فيسعى جاهدًا إلى طريقة لينفّس بها عن الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة في قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

«يعني: يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه»[٢].

فرغم جبروت فرعون وطغيانه إلا أنه جعل للناس يوم عيد يتفرغون فيه من أشاغلهم، ويلبسون أجمل ثيابهم، وفيه يلهون ويمرحون «والجماهير دائمًا تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس»[٣].

وقد يلجأ الطاغية إلى التواضع للناس، فهذا فرعون الطاغية يستشير الناس في أمر فرعون، فيقول: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

«فيبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذٍ يلينون في القول بعد التجبر.

ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٤.

جبابرة مستبدون ظالمون!»[1].

الترهيب:

من أبرز وسائل الطغاة وتضليلهم على الناس: إرهاب كل من تسوّل له نفسه المساس بمناصبهم، فيحاول الطاغية أن يظهر بمظهر القوة، ويعرض بضعف خصومه، يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قال سيد رحمه الله: «وهو الشعور الكاذب الذي يحسّه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾»[2].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي: «لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة»[3].

وقد يمارس الطاغية أساليب قهرية أخرى، يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

«فالطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزّون الضمائر الغافية، ومن ثمّ ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم، وتخذلهم البراهين ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

هذه هي الحجة، وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه، وكيف وهو رسول الله؟»[4].

ولما لم يستجب يوسف عليه السلام لنزوات امرأة العزيز أودع في سجون الطغاة عددًا من السنين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

وأول ما فكّر فيه طغاة مكة بالمكر بنبينا

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٣.

محمد صلى الله عليه وسلم هو السجن، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويلجأ الطغاة إلى التعذيب إن لم ينفع السجن والتهديد، قال سبحانه: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

«أي: صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه»[1].

وقد يلجأ الطغاة لوسيلة القتل، قال سبحانه وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وهناك وسيلة قديمة استخدمها معظم طغاة الأرض ضد أهل الحق والدعوة، ألا وهي النفي من الأرض والإقصاء، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

والخلاصة: أن الطاغية لا يتحرج من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير[2].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٤٠.

جزاء أهل الطغيان

بيّن القرآن الكريم جزاء أهل الطغيان في الدنيا والآخرة، ونتناولها فيما يأتي:

أولًا: جزاء أهل الطغيان في الدنيا:

إن الشر مهما استعلى وطغى وبغى فلابد له من نهاية مريرة، والطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، فيهلكهم الله عز وجل، ويهيئ الله المستضعفين المعتدى عليهم أن يسحقوا هذا الباطل الأشر، كما حكى الله عن بني إسرائيل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

يقول سيد رحمه الله: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدّون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدّون هذه الضريبة إلا ذُلًّا واستكانة وخوفًا، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس، يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخّلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب»[1].

والله سبحانه يهيّئ الأسباب لإهلاك الطاغية، وهكذا كانت نهاية فرعون ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣-١٤].

وهذا هو مصير الطغاة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

وبيّن تبارك وتعالى أن هذا الإهلاك كان على سبيل الانتقام، فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويصف هذا الانتقام فيقول تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

أي: أخذًا شديدًا[2].

ثم يبيّن لنا كيفية هذا الأخذ والإهلاك، فيقول تبارك وتعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ويقول: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٣.

﴿فَأَغْرَقْنَهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾[الإسراء: ١٠٣].

وذكر تبارك وتعالى ما ترتّب على هذا الإهلاك من صنوف العذاب، منها: أن الله سبحانه دمّر ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، قال تبارك وتعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولًا، وبالذات ما له تعلّق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام...، ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه ليرقى به إلى السماء فيطّلع إلى إله موسى، والثاني: كالمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة؛ لإبطال آياته، أو التشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]»[1].

ثم إن الله تبارك وتعالى حرمهم من النعمة والكنوز والمقام الكريم ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وورّث تلك النعمة والكنوز والمقام الكريم لأعدائهم ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وجعلهم الله أئمة يدعون إلى النار، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتّبعهم حتى يكون عقابهم أكثر»[2].

وقد جعلهم الله عز وجل محلًّا للعن في الدنيا، قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

أي: «وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم، فختمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيئ»[3].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ويوم القيامة هم من المقبوحين»[4].

وقد انتقم الله من الأمم المكذبة بأنبيائهم، قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

(١) المنار ٩/ ٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٨٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٣٨.

﴿أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والقرآن الكريم يزخر بالآيات البيّنات التي تتحدث عن المصير الثابت للطغاة المتجبرين بالهلاك المحتوم في الدنيا، والخزي الدائم يوم القيامة، وجزاء لما اقترفته أيديهم الآثمة من ظلم وطغيان، والله لا يحب الظالمين، ونهاية قارون التي سجّلها القرآن خير شاهد على ذلك؛ وذلك إنه عندما يبلغ الظلم والطغيان مداه، وتبلغ الفتة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس، تتدخّل القدرة الإلهية الجبارة لتضع حدًّا للفتنة، وتقرر النهاية المحتومة للظلم والطغيان ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فهذا مصير أهل الطغيان في الدنيا، أما عقابهم في الآخرة فهو أشد وأنكى وأعظم من عقاب الدنيا.

ثانيًا: جزاء أهل الطغيان في الآخرة:

أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وفرعون وجنوده كما كان يأخذ المكذّبين والطغاة، ولكن الجزاء الأخير سيكون عنده سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فقد يعذّب الله تبارك وتعالى الطاغية في الدنيا، وقد يمهله، أما في الآخرة فلا إمهال، فعذاب الطغاة متحقق الحصول، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٧].

قال الرازي في تفسيره: «اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين؛ ليكون الوعيد مذكورًا عقيب الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعًا، فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥].

وهذا في مقابلة قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩].

فبيّن تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال

المتقين»[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٣].

والمآب: المرجع، يقال: آب يؤوب إذا رجع[2].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدّقين بها، ومعنى الكلام: إن جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصدهم»[3].

فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله؛ ولهذا قال: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[5].

موضوعات ذات صلة

الاستكبار، الظلم، فرعون، الفساد، الفتنة، القتل

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٤٠٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٤٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٥٨.
(٤) تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص ٣٠.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٨.



عناصر الموضوع

مفهوم الطغيان

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطّاء والغين والحرف المعتلّ أصلٌ صحيحٌ منقاسٌ، وهو مجاوزة الحدّ في العصيان. يقال: هو طاغٍ. وطغى السّيل، إذا جاء بماءٍ كثيرٍ»[(١)]. والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، يكون واحدًا والجمع الطواغيت[(٢)]. «والطاغية: الجبار العنيد»[(٣)]. وقيل: الذي لا يبالي بما أتى، يأكل الناس ويقهرهم، لا يثنيه تحرّج ولا فرق[(٤)].

وقيل: «الأحمق المستكبر الظّالم»[(٥)].

والخلاصة: أن كل شيء جاوز الحد فقد طغى، ذكر ذلك أبو منصور الثعالبي، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الطغيان: مجاوزة الحد في العصيان»[(٦)].

وقال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[(٧)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله»[(٨)].

والواقع أن الطغيان في الشرع يقوم على أساس معناه في اللغة، فيراد به تجاوز الإنسان حدّه وقدره، وحدّ الإنسان هو ما حدّ الله له من حدود لا يجوز أن يتجاوزها.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤١٢.
(٢) مختار الصحاح، الرازي ص١٩١.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٥.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٤.
(٥) تهذيب اللغة ٨/ ١٥٤.
(٦) التعريفات ص١٤١.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٥.
(٨) إعلام الموقعين ١/ ٤٠.

الطغيان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طغى) في الاستعمال القرآني(٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النازعات:٣٧]
الفعل المضارع	٥	﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه:٤٥]
اسم فاعل	٧	﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٣]
اسم تفضيل	١	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢]
مصدر	١٠	﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤]
الاسم	٨	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٧٦]

وجاء (الطغيان) في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الضلالة والعصيان، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٥] يعني: في ضلالتهم.

وقال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٤] يعني: إنه عصى الله عز وجل.

الثاني: الارتفاع والكثرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١] يعني: لمّا ارتفع وكثر.

الثالث: الظلم، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ [الرحمن:٨]. يعني: لا تظلموا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٦، ٤٢٧.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن العظيم، مقاتل بن سليمان، ص٢١٤. الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٣- ٣٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا إذا تعدى وظلم.[(١)].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه[(٢)].

الصلة بين الطغيان والبغي:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل. والبغي: طلب تجاوز قدر الاستحقاق، تجاوزه أو لم يتجاوزه، وهو ضربان: أحدهما محمود، وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع. والثاني مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشّبه[(٣)].

٢ العدوان:

العدوان لغة:

التعدّي في الأمر، وتجاوز ما ينبغي له أن يقتصر عليه[(٤)].

العدوان اصطلاحًا:

التّجاوز ومنافاة الالتئام، والإخلال بالعدالة في المعاملة[(٥)].

الصلة بين الطغيان العدوان:

الطغيان: هو تجاوز الحد الذي كان عليه من قبل، والعدوان: تجاوز المقدار المأمور بالانتهاء إليه والوقوف عنده.

٣ العتو:

العتو لغة:

التجبّر والتكبّر[(٦)].

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٣٦.
(٣) الكليات، ص٥٨٤.
(٤) العين، الفراهيدي ٢/ ٢١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٥٣.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٢٨.



العتو اصطلاحًا:

عبارة عن الإباء والعصيان[1]، ومجاوزة الحد فيه بحيث لا يتأثر معه القلب بالموعظة ولا يقبل النصيحة.

الصلة بين الطغيان والعتو:

قال العسكري: «أن الطغيان مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر، يقال: طغى الماء إذا جاوز الحد في الظلم، والعتو: المبالغة في المكروه، فهو دون الطغيان»[2].

(١) مفاتح الغيب، الرازي ٤/ ٤٥٤.
(٢) الفروق اللغوية ص٢٣٠.

التحذير من الطغيان

تنوعت أساليب القرآن في التحذير من الطغيان، وسنتناولها فيما يأتي:

أولًا: النهي الصريح:

ورد النهي الصريح في كتاب الله محذّرًا من ارتكاب الطغيان، فقال تعالى آمرًا نبيّه وأهل الإيمان بالاستقامة على الدين، ونهاهم عن الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢-١١٣].

«فأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة؛ وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهى عن الطغيان، وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد، لا يغفل عن شيء، ولا يخفى عليه شيء»(١).

قال سيد رحمه الله: «وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة لم يكن نهيًا عن القصور والتقصير، إنما كان نهيًا عن الطغيان والمجاوزة؛ وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرّج، قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحوّل هذا الدين من يسر إلى عسر، والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير، وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو، أو الإهمال على السواء»(٢).

وأمر الله سبحانه عباده بأكل الحلال الطيب، ونهاهم عن الطغيان بالسرف والبطر، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

أي: ولا تطغوا في رزقي بالإخلال بشكره وتعدي حدودي فيه بالسرف والبطر، والاستعانة به على المعاصي، ومنع الحقوق الواجبة فيه، فينزل عليكم غضبي، وتجب عليكم عقوبتي(٣).

وقال ابن كثير: «أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به»(٤).

ونهى عن الطغيان في الميزان، فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٥٤.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٣١.

(٣) تفسير المراغي ١٦/ ١٣٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٣٠٨.

﴿تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

وقد اختلف علماء التفسير في معنى الميزان، فقيل: هو العدل، وقيل: المراد آلة الوزن التي يتوصّل بها إلى الإنصاف والانتصاف، وقيل: الميزان هو القرآن؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه، وقيل: إن الميزان هو الحكم[(١)].

وليس هناك تعارض بين هذه الأقوال، ولا مانع أنه يعم الجميع، فالمطلوب من الإنسان ألا يطغى سواء في آلة الوزن، أو في تجاوز حدود الله، أو في ظلم الناس.

ثانيًا: التعليل بسوء المصير:

من أساليب القرآن الكريم في التحذير من الطغيان: ذكر الوعيد الشديد بسوء مصير الطغاة في الدنيا والآخرة، قال سبحانه وتعالى مبينًا مصير الطغاة: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥].

«وهم الذين تمرّدوا على ربهم، فعصوا أمره مع إحسانه إليهم، لشر مرجع ومصير يصيرون إليه في الآخرة بعد خروجهم من الدنيا؛ لأن مصيرهم إلى جهنم، وإليها منقلبهم بعد وفاتهم، فبئس الفراش الذي افترشوه لأنفسهم جهنم»[(٢)].

والمراد بالطاغين هنا: «عظماء أهل الشرك؛ لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكبر واستهزاء، وحكموا على عامة قومهم بالابتعاد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين وعن سماع القرآن، وهم: أبو جهل وأمية ابن خلف، وعتبة ابن ربيعة، والوليد بن عتبة، والعاصي بن وائل وأضرابهم»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٢].

أي: أنّها كانت في حكم الله تعالى وقضائه موضع رصدٍ يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذّبوهم فيها[(٤)]. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر، أو في دنياه بالظلم[(٥)].

ولما كان من صور الطغيان الطغيان بالظلم بيّن الله مصيرهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وأخبر سبحانه أنه لا يغفل عما يفعله الطغاة الظلمة من الظلم والطغيان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ١٥٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٦.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٧٧.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٩٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٧٧.

أي: «لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجّلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عدًّا»[(١)].

قال سيد رحمه الله: «ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتّعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعًا بهم في هذه الحياة الدنيا، فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة التي لا إمهال بعدها، ولا فكاك منها، أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك، ثم يرسم مشهدًا للقوم في زحمة الهول، مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم لا عن إرادة، ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكًا، يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب، فلا يطرف ولا يرتد إليهم، وقلوبهم من الفزع خاوية خالية، لا تضم شيئًا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء»[(٢)].

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

أي: لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، إنما نؤخّرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله[(٣)].

«فيا ويل من يعدّ الله عليه ذنوبه وأعماله وأنفاسه، ويتتبعها ليحاسبه الحساب العسير، إن الذي يحسّ أن رئيسه في الأرض يتتبع أعماله وأخطاءه يفزع ويخاف ويعيش في قلق وحسبان، فكيف بالله المنتقم الجبار؟!»[(٤)].

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(٥)].

وحينما يتسلل الإحباط واليأس في نفس المؤمن وهو يرى ما عليه الطغاة وأهل الكفر من التمكين في الأرض، وما يملكونه من القوة والهيمنة، فليتذكر قول الله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

«وهذه الآية المقصود منها التسلية

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥١٥.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١١١.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٢.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (وكذلك أخذ ربك)، ٦/ ٧٤، رقم ٤٦٨٦.

عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعّمهم فيها، وتقلّبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذّبون عليه طويلًا، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه»[(١)].

ويسلّي الله نبيه صلى الله عليه وسلم، ويبيّن له مصير الطغاة المجرمين، فيقول سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

فهذا الوعيد الشديد بذكر مصير أهل الفسق والطغيان يجعل من الإنسان المسلم شخصية خائفة من ربها تبارك وتعالى، مجتنبًا كل الأسباب الموصلة إلى الطغيان؛ لأن الله قد حذّر منه، وذكر مصير أهله.

ثالثًا: الحث على الاعتبار بالسابقين:

يقصّ الله تبارك وتعالى علينا قصص الطغاة، وما حلّ بهم النكال والعذاب لا لأجل التسلية، وإنما لأجل أخذ العبرة من هذه القصص، وحتى لا نقع في طغيانهم وضلالهم، وسأتناول شيئًا من قصص الأمم السابقة التي طغت وتكبّرت على الخالق والخلق:

فالطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، ولكن الله لهم بالمرصاد.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

«فربك راصد لهم، ومسجّل لأعمالهم، فلما أن كثر الفساد، وزاد صبّ عليهم سوط عذاب، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصّبّ، حيث يجتمع الألم اللاذع، والغمرة الطاغية، على الطغاة الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد»[(٢)].

وذكر الله سبحانه إهلاك الأمم السابقة بسبب طغيانهم وعتوهم، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

فأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود، وكانوا هم أشد ظلمًا لأنفسهم، وأعظم كفرًا بربهم، وأشد طغيانًا وتمردًا على الله من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٠٤.

طغيانهم أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم[1].

وكان عاقبتهم: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١- ١٢].

وأخبر تبارك وتعالى عن مصير الطغاة المكذّبين بأنبيائهم، فقال سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

«هؤلاء الذين ملكوا القوة والمال وأسباب البقاء والغلبة، قد أخذهم الله جميعًا بعد ما فتنوا الناس وآذوهم طويلًا.

فعاد أخذهم حاصب، وهو الريح الصرصر التي تتطاير معها حصباء الأرض، فتضربهم وتقتلهم، وثمود أخذتهم الصيحة، وقارون خسف به وبداره الأرض، وفرعون وهامان غرقًا في اليم، ذهبوا جميعًا مأخوذين بظلمهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾»[2].

وذكر لنا تبارك وتعالى طغيان قوم صالح عليه السلام.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

قال الطبري: «الطاغية طغيانهم الذي طغوا في معاصي الله، وخلاف كتاب الله»[3].

وقصّ الله علينا قصة أصحاب الجنة لما طغوا وتغطرسوا على عباد الله الضعفاء، ومنعوهم حقهم من الصدقات، ولم يشكروا الله تعالى على نعمه عليهم، جاء العذاب، ونزعت النعمة.

قال سبحانه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٥٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٥-٢٧٣٦.

(٣) جامع البيان ٢٣/ ٢٠٨.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

فالله تبارك وتعالى يسوق إلى قريش هذه التجربة من واقع البيئة، ومما هو متداول بينهم من القصص، فيربط بين سنته في الغابرين، وسنته في الحاضرين، ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم[1].

ولما طغى قوم عاد وتكبروا، وقالوا لنبيهم استهزاء واستهتارًا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص ٣٨-٤٠].

ويصف لنا ربنا -جل جلاله- هذا الطاغية المتجبر، وإذلاله لموسى عليه السلام ولقومه، وعدم مبالاته بهم، فقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣-٥٦].

فكانت النتيجة: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٥٧-٦٢].

فهذه القصص وغيرها في كتاب الله تبارك وتعالى لم يقصها الله علينا إلا لأخذ العظة والعبرة منها، فنبتعد عن الطغيان وصفات الطغاة.

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٦٦.

أسباب الطغيان

لوقوع الطغيان من الإنسان أسباب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الحسد:

مما يوقع الإنسان في الطغيان فيتجاوز الحدود: إصابته بداء الحسد، فهو الداء العضال -إن أصاب الإنسان- وهو «مذموم وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب...، ويقال: الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فأما في السماء فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل»[(١)].

ومن هنا فقد ذمّه الله تعالى في كتابه في غير موضع، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال القرطبي: «وهذا هو الحسد بعينه، وهو الذي ذمّه الله تعالى»[(٢)].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

«فنهى اللّه سبحانه المؤمنين عن التمني؛ لأن فيه تعلق البال، ونسيان الأجل، والمراد النهي عن الحسد: وهو تمني زوال نعمة الغير، وصيرورتها إليه، أو لا تصير إليه»[(٣)].

وورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[(٤)].

فالحسد الداء الذي يحرق قلب صاحبه إذا ما رأى لله على غيره منّة، أو أسبغ عليه نعمة؛ فيدفعه ذلك إلى ممارسة الطغيان، وهذا كان سبب طغيان اليهود، ورفضهم قبول رسالة النبي مع أنه مكتوب عندهم في التوراة، فقد أنكر الله عليهم حسدهم لرسوله على الرسالة، وحسدهم لأصحابه على الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٥١.
(٢) المصدر السابق ٥/ ١٦٣.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ٨/ ١٩، رقم ٦٠٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، ٤/ ١٩٨٥، رقم ٢٥٦٣.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

قال السعدي رحمه الله: «وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله»(١).

ولاشك أن ذلك ناتج عن الحقد والحسد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بالطغيان: الغلو في إنكار ما قد علموا صحته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والتمادي في ذلك»(٢).

«فبسبب من الحقد والحسد، وبسبب من افتضاح أمرهم فيما أنزل الله إلى رسوله، سيزيد الكثيرون منهم طغيانًا وكفرًا؛ لأنهم وقد أبوا الإيمان لابد أن يشتطوا في الجانب المقابل، ولابد أن يزيدوا تبجّحًا ونكرًا، وطغيانًا وكفرًا، فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للمؤمنين، ووبالًا على المنكرين»(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص١٨٢.
(٢) جامع البيان، ١٠/ ٤٥٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٢٩.

والخلاصة: أن الحسد يدفع بصاحبه إلى الطغيان، وتجاوز الحدود، وقد يصل به الأمر إلى الكفر بالله سبحانه، وتكذيب الرسالة، كما فعل اليهود مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: العجب والغرور:

العجب والغرور هو آفة الطغاة في عتوّهم وتجبّرهم وعدم قبولهم الحق والانصياع له؛ ولذلك قال الله عز وجل ذاكرًا حال قوم عاد لما طغوا وتكبّروا على ربهم، ثم على نبيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

«أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله»(٤).

قال سيد رحمه الله: «إن الحق أن يخضع العباد لله، وألا يستكبروا في الأرض، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله، فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق، استكبروا واغتروا ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ إنها بديهة أولية، إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة؛ لأنه

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩.

هو الذي مكّن لهم في هذا القدر المحدود من القوة، ولكن الطغاة لا يذكرون: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]»[1].

«ويبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهود الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]»[2].

ولم يكتف بهذا العجب، بل زاد عليه احتقارًا لموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

يقول تعالى مخبرًا عن قول فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه، وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟[3].

ويستعرض قارون ملكه وقوته أمام الجماهير المنبهرين بزينة الحياة الدنيا، ويخرج على قومه في أبّهة، يقول سبحانه مبيّنًا ما كان عليه من العجب والغرور: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

«أي: فخرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة، وتجمّلٍ باهر من مراكب وخدم وحشم، مريدًا بذلك التعالي على الناس، وإظهار العظمة؛ وذلك من الصفات البغيضة، والافتخار الممقوت، والخيلاء المذمومة لدى عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع، وتفسد نظمه، وتفرّق شمل الأمة، وتقسمها طبقات، وفي ذلك تخاذلها، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها»[4].

ثالثًا: العناد والكبر:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: العناد، فالطاغية يعرف تمام المعرفة أنه على باطل، غير أنه يترك الحق ويكابر عنادًا وكبرًا وعلوًّا، وقد قصّ الله سبحانه علينا في كتابه ما يدل على هذه الحقيقة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٧.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٧.
(٤) تفسير المراغي ٢٠/ ٩٧-٩٨.

«أي: تيقّنوا أنها من عند الله، وأنها ليست سحرًا، ولكنهم كفروا بها، وتكبّروا أن يؤمنوا بموسى، وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين»[1].

وفي تفسير المنار: «أي: عاندوا موسى عليه السلام عنادًا بإظهار الكفر بها في الظاهر مع استيقانها في الباطن، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء في الأرض»[2].

وبيّن تبارك وتعالى أن التخويف للطغاة لا يزيدهم إلا طغيانًا على طغيانهم، وعنادًا على عنادهم، وكبرًا على كبرهم، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

«أي: نخوّفهم بالآيات فما يزيدهم التخويف إلا طغيانًا متجاوزًا للحد، متماديًا غاية التمادي، فما يفيدهم إرسال الآيات إلا الزيادة في الكفر، فعند ذلك نفعل بهم ما فعلناه بمن قبلهم من الكفار، وهو عذاب الاستئصال، ولكنا قد قضينا بتأخير العقوبة»[3].

وأخبر سبحانه أن كفار قريش لم يكونوا يكذّبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام: ٣٣].

«بمعنى: أنهم لا يكذبونك علمًا، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولًا، عنادًا وحسدًا»[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي ومقاتل: هذا في المعاندين الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه غير كاذب فيما يقول، ولكنهم عاندوا وجحدوا[5].

وإن من أبرز الشخصيات التي تمثّل هذا الكبر والعلو شخصية الطاغية فرعون، فقد مارس كل صنوف الطغيان بحق قومه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤].

«أي: تكبّر وتجبّر وطغى»[6].

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص ٣٩].

«المراد بالأرض: أرض مصر، والاستكبار: التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات»[7].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٣.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٤٧١.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٨٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٣١.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٦٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٠.
(٧) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٠٠.

رابعًا: الرفاهية والإسراف في الشهوات:

لم يرد الإسراف في القرآن الكريم إلا على سبيل الذم، فقد نهانا المولى سبحانه عن الإسراف، وأخبرنا أنه لا يحب المسرفين، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]. [الأعراف: ٣١].

وأمرنا سبحانه بعصيان أمر المسرفين، فقال: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الشعراء: ١٥١].

فأهل الإسراف في بعد عن الهداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

وفي قرب من الضلال ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

ومن كان هذا حاله فمصيره إلى العذاب في الدنيا ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩].

والنار في الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

والإسراف صفة ملازمة للطغاة، ومسلكهم في الحياة دليل شاهد، وهو ملازم للعلو؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

قال الطبري: «وإنه لمن المتجاوزين الحق إلى الباطل؛ وذلك كفره بالله، وتركه الإيمان به، وجحوده وحدانية الله، وادعاؤه لنفسه الألوهة، وسفكه الدماء بغير حلها»[(١)].

وقال الألوسي: «أي: المتجاوز الحد في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء أو في الكبر والعتو حتى ادعى الربوبية، واسترق أسباط الأنبياء عليهم السلام»[(٢)]. «ومن هذه حالته لا يزعه عن إلحاق الضر بأضداده وازع»[(٣)].

«أي: مسرف في أمره، سخيف الرأي على نفسه»[(٤)].

ويقول جل وعلا: ﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١].

وقد أخبر تبارك وتعالى عن صفات الطغاة من أهل النار ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

أي: كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذّات أنفسهم، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل[(٥)]. فالترف والتنعّم هو السبب الذي أقحمهم ابتداء في الطغيان والاستكبار، ومن ثمّ إلى نار جهنم، وبئس المصير.

(١) جامع البيان، ١٥/ ١٦٧.
(٢) روح المعاني، ٦/ ١٥٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٢٦٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٥.
(٥) المصدر السابق ٧/ ٥٣٨.

وذكر تبارك وتعالى أن من صفات الطغاة المستكبرين الاستمتاع بالحياة الدنيا ولذتها دون النظر إلى أمور الآخرة، والعمل لها، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

«فقد كانوا يملكون الطيبات إذن، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا، فلم يدّخروا للآخرة منها شيئًا، واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حسابًا، استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع، غير ناظرين فيها للآخرة، ولا شاكرين لله نعمته، ولا متورّعين فيها عن فاحش أو حرام، ومن ثمّ كانت لهم دنيا، ولم تكن لهم آخرة، واشتروا تلك اللمحة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله! ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق، فالكبرياء لله وحده، وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل، وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض، فجزاء الاستكبار الهوان، وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضًا، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين»[1].

خامسًا: الاستغناء:

من أبرز الأسباب الحاملة على الطغيان: الغنى، قال الحسن البصري رحمه الله: والله ما بسطت الدنيا لعبد إلا طغى كائنًا من كان، ثم تلا قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

فأخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى، وكثر ماله[2].

وكان سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفّرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار، وهولًا وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا)** قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٤-٣٢٦٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٧.

﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾[1].

«والمعنى: أن ما قاله أبو جهل ناشئ عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإنسان، والتعريف في الإنسان للجنس، أي: من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي: أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه...، والطغيان: التعاظم والكبر، والاستغناء: شدة الغنى، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر.

و﴿أَن رَّءَاهُ﴾ متعلق بـ(يطغى) بحذف لام التعليل؛ لأن حذف الجار مع (أن) كثير شائع، والتقدير: إن الإنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنيًا.

وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدّث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا حيث لا وازع يزعه من دين، أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم؛ لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمة سلاح وخدم وأعوان وعفاة ومتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء فهو في عزة عند نفسه.

فقد بيّنت هذه الآية حقيقة نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس، ونبّهت على الحذر من تغلغلها في النفس»[2].

ومن أبرز قصص القرآن التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالمال، قصة قارون.

قال تعالى: ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٨١].

«هكذا تبدأ القصة فتعيّن اسم بطلها (قارون) وتحدّد قومه (قوم موسى) وتقرّر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (كلا إن الإنسان ليطغى)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤-٤٤٥.

مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالًا كثيرًا، يصوّر كثرته بأنه كنوز، والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول، وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال، من أجل هذا بغى قارون على قومه، ولا يذكر فيم كان البغي ليدعه مجهولًا يشمل شتى الصور، فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم، كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان، وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال»[1].

ومن أبرز قصص الطغيان في القرآن قصة صاحب الجنتين.

قال سبحانه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٢-٣٦].

فهما جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج، والحيوية الدافقة، والمتاع والمال.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ويختار التعبير كلمة ﴿تَظْلِم﴾ في معنى تنقص وتمنع، لتقابل بين الجنتين وصاحبهما الذي ظلم نفسه فبطر ولم يشكر، وازدهى وتكبر.

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحسّ بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور؛ وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه؛ وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا، فلابد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة!

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٤٤٢.

مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

«إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض، فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ!»[(١)].

ومن القصص التي تبيّن أن الاستغناء سبب من أسباب الطغيان قصة أصحاب الجنة ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٢].

ومن القصص التي تبرز الطغيان بسبب الاستغناء بالقوة الجسدية قصة عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ قوم هود ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ على ربهم وتجبّروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تكبرًا وعتوًّا بغير ما أذن الله لهم به ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ﴾ وأعطاهم ما أعطاهم من عظم الخلق، وشدة البطش ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيحذروا عقابه، ويتقوا سطوته لكفرهم به، وتكذيبهم رسله، يقول: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وكانوا بأدلتنا وحججنا عليهم يجحدون[(٢)].

سادسًا: الأولاد:

حذّر الله تبارك وتعالى في كتابه من فتنة المال والولد، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فهذا تحذير من الله للمؤمنين من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده وحذّرهم أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي، ورغّبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب

(١) المصدر السابق ٥/ ٦٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٤٤٤.

العالية، والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية»[1].

وأخبر تبارك وتعالى أن الولد قد يكون سببًا في الكفر، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

قال الألوسي: «فخفنا خوفًا شديدًا أن يغشى الوالدين المؤمنين لو بقي حيًّا طغيانًا مجاوزة للحدود الإلهية، وكفرًا بالله تعالى؛ وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته، كما روي عن ابن جبير، ولعل عطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره، ولعل ذكر الطغيان مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر ليتأتى هذا التفظيع، أو ليكون المعنى: فخشينا أن يدنس إيمانهما أولًا، ويزيله آخرًا، ويلتزم على هذا القول بأن ذلك أشنع وأقبح من إزالته بدون سابقية تدنيس، وفسّر بعض شراح البخاري الخشية بالعلم، فقال: أي: علمنا أنه لو أدرك وبلغ لدعا أبويه إلى الكفر، فيجيبانه، ويدخلان معه في دينه لفرط حبهما إياه، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما طغيانًا عليهما، وكفرًا لنعمتهما عليه من تربيتهما إياه، وكونهما سببًا لوجوده بسبب عقوقه، وسوء صنيعه، فيلحقهما شر وبلاء، وقيل: المعنى خشينا أن يغشيهما ويقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر»[2].

وقال القرطبي: «والمعنى: أن يلقيهما حبه في اتباعه، فيضلا، ويتدينا بدينه»[3].

وقال ابن كثير: «أي: يحملهما حبه على متابعته على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب»[4].

وقال سيد رحمه الله: «فهذا الغلام الذي لا يبدو في حاضره ومظهره أنه يستحق القتل، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح، فإذا هو في طبيعته كافر طاغ، تكمن في نفسه بذور الكفر والطغيان، وتزيد على الزمن بروزًا وتحققًا، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه في طريقه، فأراد الله ووجه إرادة عبده الصالح إلى قتل هذا الغلام الذي يحمل طبيعة كافرة طاغية، وأن يبدلهما الله خلفًا خيرًا منه، وأرحم بوالديه، ولو كان الأمر موكولًا إلى العلم البشري الظاهر لما كان له إلا الظاهر من أمر الغلام، ولما كان له عليه من سلطان، وهو لم يرتكب بعد ما يستحق عليه القتل شرعًا، وليس لغير الله ولمن يطلعه من عباده على شيء من غيبه أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٨.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٣-٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٣٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ١٨٥.

يحكم على الطبيعة المغبية لفرد من الناس، ولا أن يرتب على هذا العلم حكمًا غير حكم الظاهر الذي تأخذ به الشريعة، ولكنه أمر الله القائم على علمه بالغيب البعيد»[1].

سابعًا: الاستخفاف وغفلة الناس:

يمارس الطغاة على مر العصور وسيلة الاستخفاف بالجماهير.

يقول تبارك وتعالى عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي: استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة، فاستجابوا له»[2].

وقال الشوكاني رحمه الله: «أي: حملهم على خفة الجهل والسفه بقوله، وكيده وغروره، فأطاعوه فيما أمرهم به، وقبلوا قوله، وكذّبوا موسى»[3].

وقال سيد رحمه الله: «واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين، وذات الشمال مطمئنين! ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح، ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾»[4].

وقد بلغ بفرعون من الخفة والاستخفاف بقومه أن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

«قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها، فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها، وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطانًا، إنما هي الجماهير الغافلة الذلول، تمطي له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها فيجرا! وتحني له رؤوسها فيستعلي! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى! والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى، وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم.

فالطاغية -وهو فرد- لا يمكن أن يكون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٣٢.
(٣) فتح القدير، ٤/ ٦٤١.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٩٤.

أقوى من الألوف والملايين، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزّتها وحريتها، وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئًا! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها، وتؤمن به، وتأبى أن تتعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًا ولا رشدًا! فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذّلة ومن خواء القلب من الإيمان ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ وما كان ليقولها أبدًا لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء، وإن يسلبه الذباب شيئًا لا يستنقذ من الذباب شيئًا!»[(١)].

يقول الكواكبي رحمه الله: «فالعوام هم قوت المستبدّ وقوّته، بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول، يأسرهم فيتهللون لشوكته، ويغصب أموالهم فيحمدونه على إبقاء الحياة، ويهينهم فيثنون على رفعته، ويغري بعضهم ببعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف بأموالهم يقولون عنه: إنه كريم، وإذا قتل ولم يمثّل يعتبرونه رحيمًا، ويسوقهم إلى خطر الموت فيطيعونه حذر التأديب، وإن نقم عليه منهم بعض الأباة، قاتلوهم كأنهم بغاة، والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل»[(٢)].

«والطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب؛ ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة؛ ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية»[(٣)].

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨١٥.

(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٢.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٤٣.

مظاهر الطغيان وآثاره

للطغيان مظاهر وآثار نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الضلال والعمى:

أهل الطغيان «يدعهم الله سبحانه يخبطون على غير هدى، في طريق لا يعرفون غايته، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته، كالفئران الهزيلة تتواثب في الفخ، غافلة عن المقبض المكين، وهذا هو الاستهزاء الرعيب، لا كاستهزائهم الهزيل الصغير»[(١)].

قال الله سبحانه عن أهل النفاق والطغيان: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥].

عن مجاهد في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ قال: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: يلعبون ويترددون في الضلالة[(٢)].

«والصواب: يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]»[(٣)].

«ومن يكتب الله عليه الضلال -وفق سنته تلك- يظل في طغيانه عن الحق، وعماه عنه أبدًا ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وما في تركهم في عماهم من ظلم، فهم الذين أغلقوا بصائرهم وأبصارهم، وهم الذين عطّلوا قلوبهم وجوارحهم، وهم الذين غفلوا عن بدائع الخلق، وأسرار الوجود، وشهادة الأشياء -التي يوجههم إليها في الآية السابقة- وحيثما امتد البصر في هذا الكون وجد عجيبة، وحيثما فتحت العين وقعت على آية، وحيثما التفت الإنسان إلى نفسه أو إلى ما يحيط به لمس الإعجاز في تكوينه، وفيما حوله من شيء، فإذا عمه -أي: عمي- عن هذا كله ترك في عماه، وإذا طغى بعد هذا كله وتجاوز الحق ترك في طغيانه حتى يسلمه إلى البوار»[(٤)].

وقال عز وجل: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

«يقول تعالى ذكره: إن إعراض هؤلاء الذين كذبوا بآياتنا، التاركي النظر في حجج الله والفكر فيها لإضلال الله إياهم، ولو هداهم الله لاعتبروا وتدبروا، فأبصروا رشدهم، ولكن الله أضلهم، فلا يبصرون رشدًا، ولا يهتدون سبيلًا، ومن أضله عن الرشاد فلا هادي له، ولكن الله يدعهم في تماديهم في كفرهم وتمردهم في شركهم يترددون؛ ليستوجبوا الغاية التي كتبها الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٥.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي ١/ ١٦٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٠٧.

لهم من عقوبته، وأليم نكاله»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

والمعنى: فنترك الذين لا يرجون لقاءنا فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه، متحيّرين لا يهتدون سبيلًا للخروج منه[2].

ثانيًا: محاربة الحق، وتكذيب الأنبياء والدعاة:

مجرد ما يسمع أهل الطغيان الرسالة الربانية حتى يهرعوا لاستخدام الحجة التي طالما استخدمها من قبلهم، وهي اتهام الدعاة المخلصين بالكذب والدجل؛ ليبرّروا لأنفسهم قمعهم ومحاربتهم وقتلهم.

وليس غريبًا أن يتعرّض الأنبياء الصّادقون، أصحاب المنهج الرباني السليم للتكذيب والمعاداة، يقول سيد قطب رحمه الله: «فأمّا الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالإثم، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب في أيديهم لله صاحب الخلق والأمر، وأن يسمعوا لواحد منهم...، وقد بلغ من عقدة السلطان في نفوسهم ألا ينتفع اللاحق منهم بالغابر، وأن يسلك طريقه إلى الهلاك، كما يسلك طريقه إلى جهنم كذلك! إن مصارع المكذبين -كما يعرضها هذا القصص- تجري على سنة لا تتبدل: نسيان لآيات الله، وانحراف عن طريقه، إنذار من الله للغافلين على يد رسول، استكبار عن العبودية لله وحده، والخضوع لرب العالمين، اغترار بالرخاء، واستهزاء بالإنذار، واستعجال للعذاب، طغيان وتهديد وإيذاء للمؤمنين، ثبات من المؤمنين، ومفاصلة على العقيدة، ثم المصرع الذي يأتي وفق سنة الله على مدار التاريخ!»[3].

وقد بلغ بأهل الطغيان والباطل في محاربة الحق أن أوصى بعضهم بعضًا بعدم السماع لهذا القرآن، واقترحوا وسيلة لمحاربة كتاب الله، وهي التشويش واللغو. قال سبحانه وبحمده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

«أي: لا تسمعوه ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ أي: عارضوه باللّغو، وهو الكلام الخالي عن فائدة، وكان الكفّار يوصي بعضهم بعضًا: إذا سمعتم القرآن من محمد وأصحابه فارفعوا أصواتكم حتى تلبّسوا عليهم قولهم، وقال مجاهد: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾ فيه بالمكاء والصفير والتخليط من القول على رسول الله صلى

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٩١.
(٢) انظر: المنار، رشيد رضا ١١/ ٢٥٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٠٦.

الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فيسكتون»[1].

وقريبًا من هذا المعنى قوله جل وعلا على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

وقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

وقال عن قوم عاد: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال عن قوم شعيب: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦].

وقال عن أصحاب القرية: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال عن قوم ثمود: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥].

فرغم اختلاف هؤلاء الأقوام واختلاف الأنبياء إلا أنّ الموقف واحد، هو التكذيب والرفض الواضح للدّعوة، رغم ما حمله كلّ نبي من الأنبياء لأدلة تثبت صدق دعوته وربانيتها.

والخلاصة: أن أهل الطغيان يتهمون دعاة الإصلاح بالكذب والدجل، وأن دعوتهم وإن كانت في خارجها صالحة فإنها في باطنها خبيثة باطلة.

ثالثًا: إيثار الدنيا على الآخرة:

من أبرز مظاهر الطغيان نسيان الدار الآخرة، وإيثار الدنيا عليها، فيشعر الطاغية أنه خالد مخلّد في هذه الحياة، وينسى الآخرة والبعث والنشور والجنة والنار، يقول تبارك وتعالى مذكّرًا بمصير الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

فإذا اجتمع الغنى مع نسيان الآخرة، وإيثار الحياة الدنيا، فإن الثمرة لهذا الاجتماع المشؤوم هو الطغيان، قال سيد رحمه الله: «والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٥٠.

وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[1].

وليس معنى هذا أن الإسلام يرفض الحياة الدنيا بالكلية، ولكن الإسلام لا يريد لهذه الحياة أن تصبح بمتاعها ولذاتها وشهواتها وإمكاناتها إلهًا معبودًا من دون الله؛ لهذا ذمّ الله من قدم الحياة الدنيا، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

وانظر إلى سحرة فرعون حين دخل قلوبهم الإيمان كيف نظروا إلى قومه وملكه وجنده ودنياه، وقد هدّدهم بما هدّدهم، فـ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه (٧٢-٧٣)].

فالمطلوب من المسلم أن يحرّر إرادته، فلا يصبح ويمسي مجرد مريد للحياة الدنيا.

يقول تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

ويقول تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ويقول عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقد أمر الله بالإعراض عمن طغى وتعلّق بهذه الحياة وآثرها على الحياة الباقية، فقال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

قال سيد رحمه الله: «هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله، ولم يؤمن بالآخرة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا موجّه ابتداء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم، وعدم إيمانهم بالآخرة.

وهو موجّه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله، ويعرض عن الإيمان به، ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها، لا ينظر إلى شيء وراءها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يحسب حسابها، ويرى أن حياة

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٨.

الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده، لا غاية بعدها، ويقيم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبّر أمره، ويحاسبه على عمله، بعد رحلة الأرض المحدودة، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية.

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله -فضلًا على أن يعامل أو يعايش- من يعرض عن ذكر الله، وينفي الآخرة من حسابه؛ لأن لكل منهما منهجًا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته، ولا في نقطة واحدة من نقاطه، وجميع مقاييس الحياة، وجميع قيمها، وجميع أهدافها، تختلف في تصور كل منهما، فلا يمكن إذن أن يتعاونا في الحياة أي تعاون، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض، مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها، وغاية هذا النشاط، وما دام التعاون والمشاركة متعذرين، فما داعي الاهتمام والاحتفال؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا، وينفق طاقته التي وهبه الله إياها في غير موضعها.

على أن للإعراض اتجاهًا آخر هو التهوين من شأن هذه الفئة، فئة الذين لا يؤمنون بالله، ولا يبتغون شيئًا وراء الحياة الدنيا، فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة، قاصرون عن إدراكها، واقفون وراء الأسوار، أسوار الحياة الدنيا»[(١)].

والخلاصة: أن إيثار الحياة الدنيا أساس كل بلوى، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، والطغيان على أوامر الله تعالى، وعباد الله الصالحين.

رابعًا: الإفساد في الأرض:

إن الهدف الأسمى والأبرز للطاغية هو أن يحافظ على منصبه، دون أن ينازعه أو يعترض على حكمه أحد، وهو لذلك يدرك تمامًا أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقق إلا في بيئة فاسدة، فالطغيان كالفيروس لا ينمو ولا يتكاثر إلا في البيئات العفنة.

فـ«الحكام الطغاة كالحشرات القذرة، لا تعيش أبدًا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة، والجهالة القاتمة»[(٢)].

يقول الكواكبي رحمه الله: «لا يخفى على المستبدّ أن لا استعباد ولا اعتساف ما لم تكن الرعية حمقاء تتخبط في ظلامة جهل وتيه عماء، فلو كان المستبد طيرًا لكان خفاشًا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٠.
(٢) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص٨٢.

ولو كان وحشًا لكان ابن آوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل»[1].

فالطاغية لا يرضى إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئًا روحانيًا له في أعصاب الناس أثر من الوقار[2].

وكأن بين الطاغية وبين الرذيلة عهد وميثاق: أن يقوم هو بحمايتها مقابل أن تعرف له صنيعه فتحميه[3].

«فالطاغية في نسبته إلى رعيته كالوصي الخائن القوي على أيتام أغنياء، يتصرف في أموالهم وأنفسهم كما يهوى ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم»[4].

ومن هنا نفهم سر وصف القرآن الكريم للطغاة بالمفسدين.

قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢].

فالفساد نتيجة طبيعة ومباشرة للطغيان، يقول سيد رحمه الله معلقًا على الآيات السابقة: «هؤلاء هم ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وليس وراء الطغيان إلا الفساد، فالطغيان يفسد الطاغية، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء، كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة، ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف، المعمر الباني إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال.

إنه يجعل الطاغية أسير هواه؛ لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت، ولا يقف عند حد ظاهر، فيفسد هو أول من يفسد، ويتخذ له مكانًا في الأرض غير مكان العبد المستخلف، وكذلك قال فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

عند ما أفسده طغيانه، فتجاوز به مكان العبد المخلوق، وتطاول به إلى هذا الادعاء المقبوح، وهو فساد أي فساد»[5].

وقد وصف تبارك وتعالى رأس الطغيان -فرعون- في أكثر من آية بأنه من المفسدين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

أي: «إنه كان ممن يفسد في الأرض بقتله من لا يستحق منه القتل، واستعباده من ليس له استعباده، وتجبّره في الأرض على أهلها،

(١) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٢) انظر: وحي القلم، الرافعي ٢/ ٢١٨.
(٣) وحي القلم ٢/ ٢٣٧.
(٤) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٥٠.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٠٤.

وتكبره على عبادة ربه»[1].

وقال سبحانه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١].

أي: كنت من المفسدين في الأرض بضلالك عن الحق، وإضلالك لغيرك[2].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

«يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض، يعني: فرعون وملأه؛ إذ ظلموا بآيات الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أغرقوا جميعًا في البحر»[3].

أساليب الطغاة

للطغاة في محاربة الحق أساليب نتناولها فيما يأتي:

أولًا: إلباس الحق بالباطل:

من طبائع الطغاة وأساليبهم إلباس الحق بالباطل، وقلب الحقائق الواضحة الجلية وضوح الشمس في رابعة النهار، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصفة فيهم إيضاحًا كافيًا شافيًا.

فنرى الطغاة يحيلون الحق باطلًا، والباطل حقًّا، وإذا بالرسول المرسل ساحر، وإذا بالمجرم الظالم الطاغية إمام عادل.

قال تبارك وتعالى مبيِّنًا حقيقة هؤلاء القوم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٦-٧٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١].

«فكلمة الحق، وتوحيد الله، والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول! فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني، ولا أن يرفع

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥١٧.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٣.

أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية!»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فجعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات[(٢)].

وهذه الوسيلة قد استخدمها الطغاة.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فقد قال الطاغية فرعون لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

فأراد قتل موسى تحت مبرر الخوف على تبديل الدين، والخوف على البلاد من الفساد والدمار الذي سيحدثه موسى -بزعمه- «أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان، واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»[(٣)].

«وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]»[(٤)].

ثانيًا: تعليل ما هم عليه من الغنى والجاه لأسباب ذاتية:

من طبيعة الطاغية أن ينسب النعم التي امتن الله بها عليه إلى أسباب ذاتية، فيزعم أنه حصل عليها بحذقه وذكائه، وورثها كابر عن كابر.

يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

قال سيد رحمه الله: «إنما أوتيت هذا المال استحقاقًا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله، فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٥٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٧.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٦.

في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصّلت هذا المال بجهدي الخاص، واستحققته بعلمي الخاص؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال، ويعميه الثراء.

وهو نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثم فهو غير مسئول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابًا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها، ولا يهوّن من شأن الجهد الفردي أو يلغيه، ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجًا معينًا للتصرف في الملكية الفردية -كما يفرض منهجًا لتحصيلها وتنميتها- وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف، ولا في إمساكه حتى التقتير، ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال، ورقابتها على طرق تحصيله، وطرق تنميته، وطرق إنفاقه والاستمتاع به، وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات.

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم، وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم، وفي بطر ذميم.

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، ردًّا على قولته الفاجرة المغرورة: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[القصص: ٧٨].

فإن كان ذا قوة وذا مال فقد أهلك الله من قبله أجيالًا كانت أشد منه قوة، وأكثر مالًا، وكان عليه أن يعلم هذا، فهذا هو العلم المنجي، فليعلم؛ وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم، فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد!»(١).

وأخبر تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف:٥١].

فأخبر سبحانه عن فرعون وطغيانه وعناده أنه نادى في قومه متبجّحًا مفتخرًا مغرورًا بملك مصر وتصرفه فيها: أليس لي ملك مصر لا ينازعني فيه أحد، ولا يخالفني فيه مخالف، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أنهار النيل وفروعه، وهي تجري من تحت قصري، أو بين يدي في جناني، أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، وما يظنّ فرعون

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧١٢.

أن تبيد هذه أبدًا، وما قد مكّن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده، وحول منه وقوة، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة، وهذا أشدّ الوهم من فرعون؛ إذ خيّل إليه أن ما قاله حجة مقنعة لقومه، وهذا هو حال الطغاة المجرمين.

ثالثًا: كل من خالفهم فهو على الباطل:

قد يظهر الطاغية حرصه على المشورة في الأمور، ويستشير ملأه المقربين منه؛ لتمام معرفته أنهم لن يخالفوا له رأي، فهذا فرعون يستشير قومه في قتل موسى، وهو الذي قتل في بني إسرائيل وأثخن، قال الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولم يخطر على باله على الإطلاق أن أحدًا سيعترض عليه في قتل موسى، فلسان حاله: أنا لم أجعلكم في هذه المنزلة، وأمنحكم هذه الرتبة لتعترضوا علي، بل لتأمّنوا على ما أقول، أنسيتم أني ربكم الأعلى؟

فاعترض عليه أحد الحاضرين ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

فلما سمع فرعون هذا الكلام أفصح عما في نفسه من غطرسة، ولسان حاله: من ليس معنا فهو عدونا، من خالفني فهو على باطل. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإذا تأملنا هذه الكلمات التي قالها فرعون وجدناها تدل دلالة واضحة على الفكر الإقصائي الذي كان يحمله الطاغية فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ فلا ينبغي أن يرى الناس إلا ما رآه، ولا يمكن لهم أن يفكروا إلا بتفكيره، ولا نظر إلا نظره، فهو على الصواب وغيره على الخطأ، وهو المبصر، وهم العميان.

ولا هداية إلا ما يراه هو، كلامه رشاد، وكلام غيره غي، هو كل شيء، وغيره لا شيء، يقول سيد رحمه الله: «إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا، وأعتقده نافعًا، وإنه لهو الصواب والرشد بلاشك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟ وإلا فلم كانوا طغاة؟»[1].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٨٠.

ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: «رأى أن يستخفّ قومه فيتابعوه؛ ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به، مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله لكان الشر أهون؛ ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال»[(١)].

«فالطاغية يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها من النطق بالحق والتعدي لمطالبته»[(٢)].

«إنه يعدم إرادة الناس، ويجهز عليها، ويدمر حرية الإنسان التي هي أهم جزء من كرامته»[(٣)].

«فالحاكم المجرم يريد جوًّا يسوده الصمت الرهيب؛ لأنه يدري أن الأفواه لو نطقت فستفضح خباه، وتكشف سره، وهنا الطامة الكبرى؛ لذلك من خصائص الاستبداد السياسي في كل زمان ومكان كرهه الشديد لحرية النقد والتوجيه»[(٤)].

رابعًا: الاستهزاء:

من وسائل الطغاة الاستهزاء، واحتقار الصالحين، وقد حكى الله تبارك وتعالى لنا في كتابه ما كان عليه أهل الطغيان من استهزاء بالأنبياء المرسلين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

فعلى هذا النحو الذي تلقّى به المكذّبون أتباع الرسل ما جاءهم به رسلهم، يتلقّى المكذّبون المجرمون من أتباعك ما جئتهم به[(٥)].

وقال جل في علاه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٦ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٤٧].

واستهزأ قوم نوح عليه السلام به: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود: ٣٨].

واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٣٧.
(٢) طبائع الاستبداد، الكواكبي ص٣٣.
(٣) فرعون والطغيان السياسي، أحمد بهجت ص٨.
(٤) الإسلام والاستبداد السياسي، محمد الغزالي ص١٤٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٢٩.

وقالوا لنبيهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[الأعراف: ٦٦].

واستهزؤوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

واحتقر فرعون موسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

وقال عن قوم موسى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾[الشعراء: ٥٤-٥٦].

والمتأمل يدرك أن فرعون كاذب في دعواه؛ إذ لو كان الأمر كذلك فلم جمع لهم خيله ورجله، يقول سيد قطب رحمه الله: «ولكن هذا الجمع قد يشي بانزعاج فرعون، وبقوة موسى ومن معه، وعظم خطرهم، حتى ليحتاج الملك الإله -بزعمه!- إلى التعبئة العامة، ولابد إذن من التهوين من شأن المؤمنين ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ ففيم إذن ذلك الاهتمام بأمرهم، والاحتشاد لهم، وهم شرذمة قليلون!»[1].

وقد احتقر كفار قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، واستبعدوا أن تكون الرسالة نزلت على رجل مثله، واقترحوا أن تكون الرسالة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١].

«والواقع أن السخرية والاستهزاء من أمضى أدوات النفوذ والتأثير على الآخرين؛ ذلك أنها من أشد الأمور إيلامًا لأصحاب المروءة، فتحجزهم عن كثير من المواقف تحاشيًا أن يقعوا في مثار سخرية أو موضع استخفاف؛ ولذلك نبّه الله الرسل والمصلحين على استغلال خصوم الدعوات الإلهية لهذه السلطة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]»[2].

خامسًا: اتهام المصلحين بالتهم الكاذبة، والتحريض عليهم:

الملاحظ على الطاغية قيامه بحملة تحريضية كاذبة واسعة النطاق ضد المصلحين، فهذا فرعون وقومه اتهموا موسى عليه السلام بسعيه إلى الاستيلاء على الأرض والوطن، قال سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٩٨.

(٢) مآلات الخطاب المدني، إبراهيم السكران ص١٦٣.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠].

وقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

فهم «يصرّحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة، إنها الخروج من الأرض، إنها ذهاب السلطان، إنها إبطال شرعية الحكم، أو محاولة قلب نظام الحكم بالتعبير العصري الحديث»[(١)].

كما أن الطاغية يسعى جاهدًا إلى اتهام كل مصلح بالتآمر على البلاد والعباد، قال سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

«أي: إن هذا الصنيع الذي صنعتموه أنتم وموسى وهارون بالتواطؤ والاتفاق ليس إلا مكرًا مكرتموه في المدينة؛ بما أظهرتم من المعارضة والرغبة في الغلب عليه، مع إسرار اتباعه بعد ادعاء ظهور حجته، زاد في سورة طه ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

فأجمعتم كيدكم لنا في هذه المدينة؛ لأجل أن تخرجوا منها أهلها المصريين بسحركم -وهو ما كان اتهم به موسى وحده- ويكون لكم فيها مع بني إسرائيل ما هو لنا الآن من الملك والكبرياء»[(٢)].

كما أن الطاغية يحرص غاية الحرص على إظهار المخالفين له بمظهر الحريصين على النفوذ والسلطة.

قال سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٧-٧٨].

وهذه الوسيلة التي استخدمها فرعون للتشكيك في دعوة موسى عليه السلام استخدمتها قريش لصرف الناس عن دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال سبحانه: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

أي: «إن هذا القول الذي يقول محمد، ويدعونا إليه، من قول لا إله إلا الله، شيء يريده منا محمد يطلب به الاستعلاء علينا، وأن نكون له فيه أتباعًا، ولسنا مجيبيه إلى ذلك»[(٣)].

سادسًا: الترغيب:

قد يستعمل الطاغية أسلوب الإغواء ويمارسه على ضعاف النفوس؛ وذلك أن الطاغية يملك المال والمنصب والجاه،

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٨.

(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٦٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٥٢.

فيغريهم بالمال الوفير، وقد بيّن لنا القرآن الكريم كيف استخدم الطغاة هذه الوسيلة.

قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣- ١١٤].

فأكّد لهم فرعون أنهم مأجورون على حرفتهم، ووعدهم مع الأجر القربى منه؛ زيادة في الإغراء، وتشجيعًا على بذل غاية الجهد[١].

وربما سعى الطغاة جاهدين لشغل الناس بأمور تافهة، وقضايا جانبية، وقد أشار القرآن الكريم إلى استخدام الطغاة لهذا الأسلوب في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

كما أن الطاغية يدرك تمامًا أن الضغط على الناس يولّد الانفجار، فيسعى جاهدًا إلى طريقة لينفّس بها عن الناس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوسيلة في قوله سبحانه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

«يعني: يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه»[٢].

فرغم جبروت فرعون وطغيانه إلا أنه جعل للناس يوم عيد يتفرغون فيه من أشاغلهم، ويلبسون أجمل ثيابهم، وفيه يلهون ويمرحون «والجماهير دائمًا تتجمع لمثل هذه الأمور، دون أن تفطن إلى أن حكامها الطغاة يلهون بها ويعبثون، ويشغلونها بهذه المباريات والاحتفالات والتجمعات، ليلهوها عما تعاني من ظلم وكبت وبؤس»[٣].

وقد يلجأ الطاغية إلى التواضع للناس، فهذا فرعون الطاغية يستشير الناس في أمر فرعون، فيقول: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥].

«فيبدو تضعضعه وتهاويه وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلهًا، فيطلب أمرهم ومشورتهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون! وتلك شنشنة الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذٍ يلينون في القول بعد التجبر.

ويلجأون إلى الشعوب وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر وهم كانوا يستبدون بالهوى، ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٢٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٤.

جبابرة مستبدون ظالمون!»[1].

الترهيب:

من أبرز وسائل الطغاة وتضليلهم على الناس: إرهاب كل من تسوّل له نفسه المساس بمناصبهم، فيحاول الطاغية أن يظهر بمظهر القوة، ويعرض بضعف خصومه، يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

قال سيد رحمه الله: «وهو الشعور الكاذب الذي يحسّه الطغاة، الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم، وينسون ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾»[2].

وقال تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي: «لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة»[3].

وقد يمارس الطاغية أساليب قهرية أخرى، يقول تبارك وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

«فالطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب، وصحوة القلوب، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحد كما ينقم على من يهزّون الضمائر الغافية، ومن ثمّ ترى فرعون يهيج على موسى ويثور، عند ما يمس بقوله هذا أوتار القلوب، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح، الذي يعتمد عليه الطغاة عند ما يسقط في أيديهم، وتخذلهم البراهين ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

هذه هي الحجة، وهذا هو الدليل: التهديد بأن يسلكه في عداد المسجونين، فليس السجن عليه ببعيد، وما هو بالإجراء الجديد! وهذا هو دليل العجز، وعلامة الشعور بضعف الباطل أمام الحق الدافع، وتلك سمة الطغاة وطريقهم في القديم والجديد! غير أن التهديد لم يفقد موسى رباطة جأشه، وكيف وهو رسول الله؟»[4].

ولما لم يستجب يوسف عليه السلام لنزوات امرأة العزيز أودع في سجون الطغاة عددًا من السنين، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥].

وأول ما فكّر فيه طغاة مكة بالمكر بنبينا

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٠.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٩٣.

محمد صلى الله عليه وسلم هو السجن، يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويلجأ الطغاة إلى التعذيب إن لم ينفع السجن والتهديد، قال سبحانه: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

ويقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

«أي: صاحب أوتاد أربعة يشد إليها من أراد تعذيبه» [1].

وقد يلجأ الطغاة لوسيلة القتل، قال سبحانه وتعالى مخبرًا عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وهناك وسيلة قديمة استخدمها معظم طغاة الأرض ضد أهل الحق والدعوة، ألا وهي النفي من الأرض والإقصاء، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

والخلاصة: أن الطاغية لا يتحرج من ارتكاب أشد الجرائم وحشية، وأشنعها بربرية، وأبعدها عن كل معاني الإنسانية، وعن الخلق والشرف والضمير [2].

(١) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٤٣٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٤٠.

جزاء أهل الطغيان

بيّن القرآن الكريم جزاء أهل الطغيان في الدنيا والآخرة، ونتناولها فيما يأتي:

أولًا: جزاء أهل الطغيان في الدنيا:

إن الشر مهما استعلى وطغى وبغى فلابد له من نهاية مريرة، والطغاة قد تخدعهم قوتهم وسطوتهم المادية، فينسون قوة الله وجبروته، فيهلكهم الله عز وجل، ويهيئ الله المستضعفين المعتدى عليهم أن يسحقوا هذا الباطل الأشر، كما حكى الله عن بني إسرائيل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

يقول سيد رحمه الله: «إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدّون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة، فهم لم يكونوا يؤدّون هذه الضريبة إلا ذُلًّا واستكانة وخوفًا، فأما حين استعلن الإيمان في قلوب الذين آمنوا بموسى، واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس، يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب، فأما عند ذلك فقد تدخّلت يد القدرة لإدارة المعركة، وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب»[(١)].

والله سبحانه يهيّئ الأسباب لإهلاك الطاغية، وهكذا كانت نهاية فرعون ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣-١٤].

وهذا هو مصير الطغاة.

ويقول الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٤٥ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

وبيّن تبارك وتعالى أن هذا الإهلاك كان على سبيل الانتقام، فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ويصف هذا الانتقام فيقول تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

أي: أخذًا شديدًا[(٢)].

ثم يبيّن لنا كيفية هذا الأخذ والإهلاك، فيقول تبارك وتعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ويقول: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٩٣.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

وذكر تبارك وتعالى ما ترتّب على هذا الإهلاك من صنوف العذاب، منها: أن الله سبحانه دمّر ما كان يصنع فرعون وقومه، وما كانوا يعرشون، قال تبارك وتعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولًا، وبالذات ما له تعلّق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام...، ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه ليرقى به إلى السماء فيطّلع إلى إله موسى، والثاني: كالمكايد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرة؛ لإبطال آياته، أو التشكيك فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [طه: ٦٩]»[١].

ثم إن الله تبارك وتعالى حرمهم من النعمة والكنوز والمقام الكريم ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٨].

وورّث تلك النعمة والكنوز والمقام الكريم لأعدائهم ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨].

وجعلهم الله أئمة يدعون إلى النار، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «أي: جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتّبعهم حتى يكون عقابهم أكثر»[٢].

وقد جعلهم الله عز وجل محلًّا للعن في الدنيا، قال تبارك وتعال: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

أي: «وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خزيًا وغضبًا منا عليهم، فختمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيئ»[٣].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك ويوم القيامة هم من المقبوحين»[٤].

وقد انتقم الله من الأمم المكذبة بأنبيائهم، قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ

(١) المنار ٩/ ٨٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٣٨.

﴿أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

والقرآن الكريم يزخر بالآيات البيّنات التي تتحدث عن المصير الثابت للطغاة المتجبرين بالهلاك المحتوم في الدنيا، والخزي الدائم يوم القيامة، وجزاء لما اقترفته أيديهم الآثمة من ظلم وطغيان، والله لا يحب الظالمين، ونهاية قارون التي سجّلها القرآن خير شاهد على ذلك؛ وذلك إنه عندما يبلغ الظلم والطغيان مداه، وتبلغ الفتة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس، تتدخّل القدرة الإلهية الجبارة لتضع حدًّا للفتنة، وتقرر النهاية المحتومة للظلم والطغيان ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

فهذا مصير أهل الطغيان في الدنيا، أما عقابهم في الآخرة فهو أشد وأنكى وأعظم من عقاب الدنيا.

ثانيًا: جزاء أهل الطغيان في الآخرة:

أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط وفرعون وجنوده كما كان يأخذ المكذّبين والطغاة، ولكن الجزاء الأخير سيكون عنده سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

فقد يعذّب الله تبارك وتعالى الطاغية في الدنيا، وقد يمهله، أما في الآخرة فلا إمهال، فعذاب الطغاة متحقق الحصول، قال سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۝٥٥ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٥٦ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٥-٥٧].

قال الرازي في تفسيره: «اعلم أنه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين؛ ليكون الوعيد مذكورًا عقيب الوعد، والترهيب عقيب الترغيب.

واعلم أنه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعًا، فالأول: مرجعهم ومآبهم، فقال: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥].

وهذا في مقابلة قوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٩].

فبيّن تعالى أن حال الطاغين مضاد لحال

المتقين»[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٢٣].

والمآب: المرجع، يقال: آب يؤوب إذا رجع[2].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني تعالى ذكره بقوله: إن جهنم كانت ذات رصد لأهلها الذين كانوا يكذّبون في الدنيا بها وبالمعاد إلى الله في الآخرة، ولغيرهم من المصدّقين بها، ومعنى الكلام: إن جهنم كانت ذات ارتقاب ترقب من يجتازها وترصدهم»[3].

فالطغاة في حقوق الله وفي حقوق العباد هم أهل النار والعياذ بالله؛ ولهذا قال: ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾[4].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧-٣٩].

«والطغيان هنا أشمل من معناه القريب، فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى، ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت، حيث يشمل كل متجاوز للهدى، وكل من آثر الحياة الدنيا، واختارها على الآخرة، فعمل لها وحدها، غير حاسب للآخرة حسابًا، واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره، فإذا أهمل حساب الآخرة، أو آثر عليها الدنيا اختلّت كل الموازين في يده، واختلّت كل القيم في تقديره، واختلّت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته، وعدّ طاغيًا وباغيًا، ومتجاوزًا للمدى»[5].

موضوعات ذات صلة

الاستكبار، الظلم، فرعون، الفساد، الفتنة، القتل

(١) مفاتيح الغيب، ٢٦/ ٤٠٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٤٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٥٨.
(٤) تفسير جزء عم، ابن عثيمين ص ٣٠.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨١٨.





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الطلاق

أولًا: المعنى اللغوي:

الطلاق لغة: الحلّ ورفع القيد، وهو اسمٌ مصدره التّطليق، ويستعمل استعمال المصدر، وأصله: طلقت المرأة تطلق فهي طالقٌ بدون هاءٍ، وروي بالهاء (طالقةٌ) إذا بانت من زوجها، والطالق من الإبل: الّتي طلقت في المرعى، وقيل: هي الّتي لا قيد عليها، ونعجةٌ طالق: مخلّاة ترعى وحدها، وحبسوه في السّجن طلقًا، أي: بغير قيدٍ ولا كبل. وأطلقه، فهو مطلق وطليق، والجمع طلقاء، والطّلقاء: الأسراء العتقاء. والطّليق: الأسير الّذي أطلق عنه إساره وخلّي سبيله. وطلاق النّساء لمعنيين:

أحدهما: حلّ عقدة النّكاح.

والآخر: بمعنى التّخلية والإرسال[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف كثيرًا معنى الطلاق اصطلاحًا عن معناه اللغوي إلا أن له في الاصطلاح الشرعي شروطًا وأحكامًا وصورًا يميزها عما كانت عليه في الجاهلية، ويعرّف الفقهاء الطّلاق بأنه: رفع قيد النّكاح في الحال أو المآل، بلفظٍ مخصوصٍ، أو ما يقوم مقامه[2].

(١) انظر: المحيط في اللغة، الصاحب ابن عباد ٥ / ٣٢٥، لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٢٢٥، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٩٣.

(٢) الدر المختار، ابن عابدين ٣/ ٢٢٦، وانظر: الشرح الكبير، الدسوقي ٢/ ٣٤٧، المغني، ابن قدامة ٧/ ٢٩٦، مغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٢٧٩، الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٩/ ٥.

الطلاق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طلق) في القرآن (١٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٩	﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٠]
فعل الأمر	١	﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١]
المصدر	٢	﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٢٧]
اسم المفعول	٢	﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨]

وجاء الطلاق في القرآن بمعناه الشرعي المعروف، وهو: حل عقدة النكاح، وفيه معناه اللغوي أيضًا -وهو التخلية من الوثاق-؛ لأنه تخليةٌ للمرأة من وثاق الزوج[٢]. ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى.

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٢٧-٤٢٨، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص ٧٢١-٧٢٢.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥١٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٤١٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السراح:

السراح لغةً:

قال ابن فارس: «السين والراء والحاء أصلٌ مطّرد واحد، وهو يدلّ على الانطلاق. يقال منه: أمر سريح، إذا لم يكن فيه تعويق ولا مطل، ثمّ يحمل على هذا السّراح وهو الطّلاق؛ يقال: سرّحت المرأة»[١].

السراح اصطلاحًا:

هو «إطلاق الشي على وجه لا يتهيأ للعود»[٢].

الصلة بين السراح والطلاق:

إذا كان الطلاق هو رفع قيد النكاح، وإنهاء العلاقة الزوجية بين الزوجين على وجه لا يتوقع أن يعودا إلى ما كانا عليه سابقًا، فإنه -على هذا المعنى- يرادف معنى السراح.

٢ الفراق:

الفراق لغةً:

مادة (فرق) تدلّ على تمييز وتزييلٍ بين شيئين. ومنه: فرق الشعر. يقال: فرقته فرقًا. والفرق: القطيع من الغنم. والفرق: الفلق من الشّيء إذا انفلق[٣].

الفراق اصطلاحًا:

يعني: إنهاء العلاقة الزّوجيّة بين الزّوجين بحكم القاضي بناءً على طلب أحدهما لسببٍ، كالشّقاق والضّرر وعدم الإنفاق، أو بدون طلبٍ من أحدٍ حفظًا لحقّ الشّرع، كما إذا ارتدّ أحد الزّوجين...[٤].

الصلة بين الفراق والطلاق:

بما أن الطلاق هو رفع قيد النكاح، فإنه في ذات الوقت يعني: انفصال كل من الزوجين عن بعضهما البعض، فهو يرادف الفراق على هذا المعنى.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ١٢٢.
(٢) التوقيف، المناوي ص٩٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ٤/ ٣٩٢.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٩/ ٧.



٣ النكاح:

النكاح لغةً:

يقصد به الضم والجمع، وهو مأخوذ من نكحه الدّواء إذا خامره وغلبه، أو من تناكح الأشجار، إذا انضمّ بعضها إلى بعض، أو من نكح المطر الأرض، إذا اختلط في ثراها[١].

النكاح اصطلاحًا:

هو «عقد يرد على تمليك منفعة البضع قصدًا»[٢].

الصلة بين النكاح والطلاق:

العلاقة بينهما واضحة، وهي متمثلة في التقابل، فالطلاق يقصد به التفريق بين الزوجين، والنكاح يقصد به الجمع بينهما.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٢٤٠.
(٢) التعريفات، الجرجاني ص ٢٤٦.

أنواع الطلاق

ينقسم الطلاق إلى نوعين: من جهة وقته، ومن جهة عدده، وسوف نتناولهما فيما يأتي:

أولًا: أنواعه من جهة وقته:

١ . الطلاق السني والطلاق البدعي.

شرع الإسلام الطلاق وقرنه بأحكامٍ وآدابٍ يهدف من خلالها إلى إنقاذ سفينة الحياة الزوجية، ورأب صدعها قبل فوات الأوان، وقيادتها إلى شاطئ الأمان، ومن تلك التشريعات الحكيمة: مشروعية الطلاق السّنّي، وهو أن يطلّق زوجته في طهر لم يجامعها فيه، والهدف من ذلك منح الزوجين فرصةً للمصالحة والمراجعة، كذلك من فوائد الطلاق السّنّي تقصير مدة العدة؛ تيسيرًا على المرأة، ورحمة بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١].

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: عن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أنّه طلّق امرأته وهي حائضٌ على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فسأل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (مره فليراجعها، ثمّ ليمسكها حتّى تطهر، ثمّ تحيض، ثمّ تطهر، ثمّ إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العدّة الّتي أمر اللّه أن تطلّق لها النّساء)[١].

قال مجاهد: أي: طاهرًا من غير جماع؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: (ليراجعها، ثمّ يمسكها حتّى تطهر، ثمّ تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلّقها فليطلّقها طاهرًا قبل أن يمسّها، فتلك العدّة كما أمر اللّه عز وجل)[٢].

وقال الخازن: «أي: لزمان عدتهن وهو الطهر؛ لأنها تعتد بذلك الطهر من عدتها، وتحصل في العدة عقيب الطلاق، فلا يطول عليها زمان العدة»[٣].

وإنما نهي عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتضارّ؛ ولأن حالة الحيض قد تكون سببًا في نفور الزوج، فيتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرًا، ولعل الزوج إذا تمهّل حتى يتحرّى السنة في تطليق زوجته فلربّما تنقشع سحابة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب إذا طلقت الحائض تعتد بذلك الطلاق، ٧/ ٤١، رقم ٥٢٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها، ٢/ ١٠٩٣، رقم ١٤٧١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الطلاق، ٦/ ١٥٥، رقم ٤٩٠٨.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١١٧.



الهجر والخصام، وتشرق شمس الصفا والوئام، هذا ويراعي الإسلام حالة المرأة النفسية والعضوية في فترة حيضها، فيرجئ الرجل عزمه على الطلاق لحين طهرها؛ لعلها تعود إلى حالتها وطبيعتها بعد انقضاء الحيض.

٢. الطلاق قبل الدخول.

يتضمّن حديث القرآن عن الطلاق قبل الدخول أمرين، كلاهما يفصح عن رحمة الإسلام بالمرأة، وتخفيفه عنها:

أولهما: أن المرأة لا تعتدّ منه.

وثانيهما: أن لها الحق في نصف المهر أو في المتعة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فليس على المطلقة قبل الدخول بها عدة؛ لأن الغرض من العدة استبراء الرحم.

وللمطلقة قبل الدخول حقوق مالية.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٦-٢٣٧].

رفع الله تعالى الحرج عن الرجل إذا طلق المرأة قبل الدخول، ولم يسمّ مهرًا، فلا يجب عليه مهرٌ، لكن إذا طلّقها قبل الدّخول وقد فرض لها مهرًا فلها نصف هذا المهر المسمّى.

والمطلقات أربع:

١. مطلقةٌ مدخولٌ بها مفروضٌ لها، فلها حقّها كاملًا في المهر، ولا يجوز للزوج أن يأخذ مما آتاها شيئًا، وعليها العدة.

٢. ومطلقة مدخول بها غير مفروض لها فلها مهر المثل.

٣. ومطلقة مفروض لها غير مدخول بها، وهي المذكورة بقوله سبحانه هنا: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ فلها نصف المهر المسمّى.

٤. ومطلقة غير مفروض لها، ولا مدخول بها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

والمراد بالفريضة هنا: تسمية المهر، فلا مهر لها، بل المتعة، ولا عدّة عليها، وتسمية

المهر بالفريضة تعظيمًا له، وتشديدًا على أدائه فهو حقٌّ للزوجة، يجب على زوجها الوفاء به.

وقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي: أعطوهن شيئًا يكون متاعًا لهنّ، وظاهر الأمر الوجوب، وبه قال عليٌّ وابن عمر والحسن البصريّ وسعيدٌ بن جبير والزهري وقتادة والضحاك، ومن أدلة الوجوب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وقال مالك وأبو عبيد والقاضي شريح وغيرهم: إن المتعة للمطلقة المذكورة مندوبة لا واجبة؛ لقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، ويجاب عنه بأن ذلك لا ينافي الوجوب، بل هو تأكيد له[1].

والمتعة هنا على حساب حال الزوج يسارًا أو إعسارًا، قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أن الوفاء بذلك، والقيام به شأن أهل التقوى والإحسان، وكل مسلم يجب عليه أن يتقي الله سبحانه، وأن يراعي الإحسان.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ أي: المطلقات، فيتنازلن عن حقّهن في المهر أو عن جزء منه ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: الزوج، بأن يمنحها المهر كلّه.

﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ الخطاب هنا للرجال وللنساء، ترغيبٌ للجميع في العفو والتسامح، فتقوى الله تعالى درجاتٌ، هناك التقي وهناك الأتقى، والناس يتفاوتون في القرب من تقوى الله تعالى، فإذا كان العادل يتحرّى التقوى فإن العفو أعظم درجةً في التقوى، وإن العفوّ أقرب إلى التقوى، وكون عفو الزوج أقرب للتقوى من حيث إنه كسر قلب مطلقته، فيجبرها بدفع جميع الصداق لها؛ إذ كان قد فاتها منه صحبته، فلا يفوتها منه نحلته؛ إذ لا شيء أصعب على النساء من الطلاق، فإذا بذل لها جميع المهر لم تيأس من ردّها إليه، واستشعرت من نفسها أنه مرغوب فيها، فانجبرت بذلك[2].

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ والمعنى: أن الزوجين لا ينسيان التفضّل من كل واحد منهما على الآخر، ومن جملة ذلك أن تتفضل المرأة بالعفو عن النصف، أو يتفضل

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٤٢.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٣٩.

الرجل عليها بإكمال المهر[1].

وقد تضمّنت هذه الآيات أحكامًا منها:

١. جواز طلاق المرأة قبل الدخول بها، والفرض لها، مع مراعاة حقها في المتعة.

٢. المتعة تقدّر على الرجال بحسب اليسار أو الإعسار.

٣. للمرأة المطلقة قبل الدخول بها نصف المهر المسمّى لها إلا أن تتنازل عنه، أو عن جزء منه، أو يتنازل الزوج عنه كلّه، فيوفّيها المهر كاملًا، وهذا هو الأقرب للتقوى.

٤. الترغيب في مراعاة الفضل والإحسان ومراقبة المولى عز وجل، في هذه الأحوال خاصةً، وفي سائر الأحوال.

٥. المتعة واجبةٌ لكل مطلّقة لم يسمّ لها مهر، ومندوبةٌ لغيرها من المطلقات.

٦. المطلّقة قبل الدخول لها نصف المهر إذا كان المهر مذكورًا.

ثانيًا: أنواعه من جهة عدده:

وهو نوعان: طلاق رجعي، وطلاق بائن.

١. الطلاق الرجعي.

الطلاق الرجعي: «هو: ما يجوز معه للزّوج ردّ زوجته في عدّتها من غير استئناف عقدٍ»[2].

ورد الحديث عن الطلاق الرجعي أحكامه وآدابه في سورة البقرة، وفي سورة الطلاق.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ① فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾[الطلاق: ١-٢].

عدده:

في سورة البقرة بيّن تعالى عدده، فقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ أي: مرة بعد مرة، وهو الطلاق الرّجعيّ، حيث يمكن للزوج إرجاع زوجته ما دامت في العدة، فإذا انقضت عدّتها لا ترجع إليه إلا بعقدٍ جديد

(١) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٤٢.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٩/ ٢٩. وانظر: حاشية ابن عابدين ٣/ ٢٩٣، وحاشية الدسوقي ٢/ ٣٨٥، ومغني المحتاج، الشربيني ٣/ ٣٩٦، والمغني، ابن قدامة ٧/ ٤١٧.

ومهر جديد وبرضاها ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ إمساكٌ بمعروف إذا راجعها، أي: بما هو معروفٌ عند الناس من حسن العشرة، أو تسريحٌ بإحسان إذا لم يرغب في إرجاعها، فيفارقها ويوفّيها حقّها، فهذا من الإحسان الذي أمر الله به.

حقّ الرجل في إرجاع زوجته التي طلّقها مرة أو مرتين:

للزوج أن يراجع زوجته في مدة عدتها، فإذا انتهت العدة سقط حقّه في مراجعتها، وله أن ينكحها بعقد ومهر جديدين، والأمر إليها إن شاءت قبلته أو ردّته، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ إما أن يمسكها ويراجعها بالمعروف، وإما أن يفارقها ويسرّحها بإحسان.

قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ وبعولتهن: أي أزواجهن، وإنما عبّر بالبعولة لأنها من التبعّل وهو حسن المعاشرة، وباعل الرجل أهله لاعبها، وكذلك سمي الزوج بعلًا لأنه قيّمٌ على زوجته مسئول عنها ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في خلال مدة العدة، وهذا خاصٌّ بالطلاق الرجعيّ، أما إذا طلّقها ثلاثًا فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: بالمراجعة، أي: إصلاح حاله معها وحالها معه.

فإذا اتفق الزوجان على استئناف الحياة الزوجية فلابدّ من مراعاة الحقوق الزوجية، ومعرفة كلّ زوج بما له وما عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لهنّ من الحقوق الزوجية كما عليهن من الواجبات ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بقوامة الرجل على زوجته، وإنفاقه عليها، ولزوم طاعته.

وجاء الحديث عن الطلاق الرجعي في سورة الطلاق.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: فإذا شارفت المطلقة المعتدة على انقضاء عدتها، وقاربت ذلك، فالخيار للزوج فيها إن شاء أن يمسكها بمعروف، أو يفارقها بإحسان ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فراجعوهنّ إلى عصمة النكاح مع الإحسان في صحبتهن كما أمر الله، أو اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن.

٢. الطلاق البائن.

إذا طلّق الزوج زوجته الطلقة الثالثة فقد بانت منه، وحرمت عليه، فلا تحلّ له إلا إذا نكحت غيره نكاحًا شرعيًّا، والنكاح هنا بمعنى العقد والدخول، فلا يكفي العقد عليها، بل لابدّ من الدخول بها.

قال تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رجلًا طلّق امرأته ثلاثًا فتزوجت، فطلّق، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم: أتحلّ للأوّل؟ قال: (لا حتّى يذوق عسيلتها، كما ذاق الأوّل)[(١)].

فإذا طلّقت المرأة ثلاثًا، ثم تزوجت بآخر، ثم طلّقها بعد دخوله بها فإنها تحلّ للزوج الأول إذا عقد عليها، على أن يستأنفا حياتهما الجديدة على أسسٍ متينةٍ، فكما أن الخوف من عدم إقامة حدود الله في الحياة الزوجية يعطي للمرأة الحقّ في الخلع وللرجل الحقّ في الطلاق، فإنه إن ظنّا إمكان المعاشرة والاستمتاع مع رعاية الحقوق والواجبات فيجوز لهما الرجوع ما لم تكن متزوجة بغيره، أي: إن طلّق الرجل زوجته طلقة ثالثة فقد بانت منه وحرم عليه مراجعتها إلا إذا تزوجت زواجًا شرعيًّا من غيره وطلّقت منه.

قال الإمام القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠] شرط، قال طاووس: إن ظنا أن كل واحد منهما يحسن عشرة صاحبه، وقيل: حدود الله فرائضه؛ أي: إذا علما أنه يكون بينهما الصلاح بالنكاح الثاني، فمتى علم الزوج أنه يعجز عن نفقة زوجته أو صداقها أو شيء من حقوقها الواجبة عليه، فلا يحل له أن يتزوجها حتى يبيّن لها، أو يعلم من نفسه القدرة على أداء حقوقها، وكذلك لو كانت به علةٌ تمنعه من الاستمتاع كان عليه أن يبيّن؛ كيلا يغر المرأة من نفسه.

وكذلك لا يجوز أن يغرها بنسب يدّعيه ولا مال له ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها.

وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج، أو كان بها علة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص لم يجز لها أن تغره، وعليها أن تبيّن له ما بها من ذلك، كما يجب على بائع السلعة أن يبيّن ما بسلعته من العيوب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب من أجاز طلاق الثلاث، ٧/ ٤٣، رقم٥٢٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا تحل المطلقة ثلاثًا لمطلقها حتى تنكح زوجًا غيره ويطأها ثم يفارقها وتنقضي عدتها، ٢/ ١٠٥٧، رقم ١٤٣٣.

ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيبًا فله الرد، فإن كان العيب بالرجل فلها الصداق إن كان دخل بها، وإن لم يدخل بها فلها نصفه، وإن كان العيب بالمرأة ردّها الزوج، وأخذ ما كان أعطاها من الصداق»[1].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

والإشارة إليها تنبيهٌ لها وتنويهٌ وتعظيمٌ لشأنها، وإضافتها لله تعالى لأنها شرعه، وفي الإضافة أيضًا تعظيمٌ لها ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: يعلمون ما أمرهم الله تعالى به، وفي هذا تنويهٌ بشرف العلم ومكانة العلماء، وتوجيهٌ لمعرفة الحكم من التشريعات ومقاصدها.

حكم المطلقة ثلاثًا، ومتى تحلّ للزوج الأول:

المطلقة ثلاثًا تحرم على زوجها الأول حتى تتزوج بزوج آخر، وهي التي يسمّيها الفقهاء (بائنة بينونة كبرى)، وذلك لأن الله تعالى ذكر الطلاق وبيّن أنه مرتان، ثم ذكر حكم الخلع وأعقبه بقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ فدلّ على أن المراد به: الطلاق الثالث، والنكاح في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ المراد به: الوطء لا العقد، فلا تحلّ للزوج الأول حتى يطأها الزوج الثاني.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ١٥٣.

حرمة وبطلان نكاح المحلّل:

المحلّل -بكسر اللام- هو الذي يتزوج المطلّقة ثلاثًا بقصد أن يحلّها للزوج الأول، وقد سمّاه صلى الله عليه وسلم بالتيس المستعار، ففي الحديث: (ألا أخبركم بالتّيس المستعار؟)، قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: (هو المحلّل، لعن الله المحلّل، والمحلّل له)[2].

قال السيد رشيد رضا: «ألا فليعلم كلّ مسلم أنّ الآية صريحةٌ في أنّ النّكاح الّذي تحلّ به المطلّقة ثلاثًا هو ما كان زواجًا صحيحًا عن رغبةٍ، وقد حصل به مقصود النّكاح لذاته، فمن تزوّج بامرأةٍ مطلّقةٍ ثلاثًا بقصد إحلالها للأوّل كان زواجه صوريًّا غير صحيحٍ، ولا تحلّ به المرأة للأوّل، بل هو معصيةٌ لعن الشّارع فاعلها، وهو لا يلعن من فعل فعلًا مشروعًا ولا مكروهًا فقط، بل المشهور عند جمهور العلماء أنّ اللّعن إنّما يكون على كبائر المعاصي، فإن عادت إليه كانت حرامًا، ومثال ذلك مثال من طهّر الدّم بالبول؛ وهو رجسٌ على رجسٍ، وبهذا قال مالكٌ وأحمد والثّوريّ وأهل الظّاهر وخلائق غيرهم من أهل الحديث والفقه»[3].

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له، ٣/ ١١٦، رقم ١٩٣٤. وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٠٧، رقم ٢٥٩٦.

(٣) المنار ٢/ ٣١٢.

الأحكام المتعلقة بالطلاق

للطلاق أحكام، نتناولها فيما يأتي:

أولًا: الإشهاد على الرجعة والطلاق:

قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ﴾ أي: وأشهدوا عند الطلاق أو الرجعة شخصين من أهل العدالة والاستقامة ممن تثقون في دينهما وأمانتهما، والإشهاد ليس شرطًا لصحة الفراق أو الرجعة، بل هو مندوب «احتياطًا لهما، ونفيًا للتّهمة عنهما إذا علم الطّلاق ولم يعلم الرّجعة، أو لم يعلم الطّلاق والفراق، فلا يؤمن التجاحد بينهما»[1].

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: اشهدوا بالحقّ دون تحيّزٍ لأحدٍ، مبتغين بذلك وجه الله تعالى.

ثانيًا: عدّة المطلّقات:

جعل الله تعالى للمطلقة عدةً شرعيةً، وبيّن مقدارها في كتابه، فعدة الحامل وضع الحمل، وعدة الحائل ثلاثة قروء، فإن كانت صغيرة لم تحض أو يائسة لم تعد تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، والحكمة من ذلك استبراء رحمها، ومنح الزوج فرصة لمراجعتها إذا كان الطلاق مرة أو مرتين، وتهيئتها نفسيًّا وعضويًّا، لحياة زوجية جديدة إن كانت مطلقة ثلاثًا، أو إذا كانت رجعيةً ولم يرغب الزوج في استرجاعها.

١ . الحث على إحصاء العدة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١].

قال ابن العربي رحمه الله: «والصّحيح أنّ المخاطب بهذا اللّفظ الأزواج؛ لأنّ الضّمائر كلّها من ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ ﴿وَأَحْصُوا﴾ و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ على نظام واحدٍ يرجع إلى الأزواج، ولكنّ الزّوجات داخلةٌ فيه بالإلحاق بالزّوج؛ لأنّ الزّوج يحصي ليراجع، وينفق أو يقطع، وليسكن أو يخرج، وليلحق نسبه أو يقطع، وهذه كلّها أمورٌ مشتركةٌ بينه وبين المرأة، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك، وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدّة للفتوى عليها وفصل الخصومة عند المنازعة فيها؛ وهذه فوائد الإحصاء المأمور به»[2].

٢ . عدة المطلقة الحائل.

قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ

(١) أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣٥٠.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٣٧٨.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

واللام في المطلقات لام الاستغراق، فتشمل جميع المطلقات، لكن يستثنى من ذلك الحامل، فعدّتها بوضع الحمل، أما اليائسة والتي لم تحض فعدّتها ثلاثة أشهر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ومعنى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي: ينتظرن، واللفظ ينمّ عن حرص الإسلام على اختصار هذه المدّة إلى أقلّ زمنٍ يمكن أن يؤدّى فيه الغرض من إيجاب هذه المدّة، لاستبراء الرّحم، وتهيئة نفس المرأة لحياةٍ زوجيّةٍ جديدة، وكذلك إعطاء الزوج مهلةً لمراجعة زوجته، إذا كان قد طلّقها مرةً أو مرتين، أما الثالثة فلا رجعة منها إلا بعد أن تنكح زوجًا غيره، وفي اختصار المدّة على المرأة رحمةٌ بها، وتخفيفٌ عليها، ومراعاةٌ لطبيعتها.

وجملة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ جملةٌ خبريةٌ في لفظها، طلبيةٌ في معناها؛ وذلك لتأكيد الأمر وتقريره.

والقرء: هو مدّة الطهر، وقيل: الحيضة، قال أبو عمرو بن العلاء: من العرب من يسمّي الحيض قرءًا، ومنهم من يسمّي الطّهر قرءًا، ومنهم من يجمعهما جميعًا، فيسمّي الحيض مع الطّهر قرءًا، وينبغي أن يعلم أن القرء في الأصل: الوقت، يقال: هبّت الرياح لقرئها ولقارئها، أي: لوقتها، فيقال للحيض: قرء، وللطهر: قرء؛ لأن كل واحد منهما له وقت معلوم، وقد أطلقته العرب تارة على الأطهار، وتارة على الحيض.

وفي اللسان: «والقرء والقرء الحيض والطّهر ضدّ؛ وذلك أنّ القرء الوقت؛ فقد يكون للحيض والطّهر، قال أبو عبيد: القرء يصلح للحيض والطهر، قال: وأظنّه من أقرأت النّجوم إذا غابت، والجمع أقراء، وفي الحديث: (**دعي الصلاة أيام أقرائك**)[(١)]»[(٢)].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ ولا يحلّ للمطلقات أن يكتمن الحيض أو الحمل إن وجد بقصد الإضرار بالزوج، كأن تقول: حضت، وهي لم تحض؛ لتذهب بحق الزوج من الارتجاع، أو تنفي الحيض وهي قد حاضت لتلزمه بالنفقة، وكذلك الحمل ربّما تكتمه لتقطع حقّه من الارتجاع، وربما تدّعيه لتوجب عليه النفقة، ونحو ذلك مما يضرّ بالزوج ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإن من تؤمن بالله واليوم

(١) أخرجه الدارقطني في السنن، ١/ ٣٩٤، رقم ٨٢٢، والبيهقي في السنن الصغرى، ٣/ ١٥١، رقم ٢١٦٢.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٢٨.

الآخر لا تخالف شرع الله تعالى.

٣. عدة اليائسة، والتي لم تحض، والحامل.

قال تعالى: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وهذه الآية متصلة بما قبلها من حيث بيان ما يتعلق بالطلاق من أحكام العدة، فضلًا عما ورد في هذا الشأن في سورة البقرة فهي متممةٌ لما ورد هناك، كما ترشد الآيات إلى بعض حقوق المطلقات.

وقد ورد في سبب النزول: عن أبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه أنّ ناسًا من أهل المدينة لمّا أُنزلت الآية الّتي في البقرة في عدّة النّساء، قالوا: لقد بقي من عدّة النّساء مدّةٌ لم تذكر في القرآن: الصّغار والكبار اللائي قد انقطع عنهم الحيض، وذوات الحمل، فأنزل الله الّتي في سورة النّساء القصرى: ﴿وَالَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ إلى آخر الآية[(١)].

بيّن تعالى عدة المرأة التي يئست من المحيض لكبر سنها؛ وكذلك من رابها الأمر من البالغات مبلغ اليأس، وقد نزل الدم فلا تدري أهو دم حيض أم استحاضة؟ وكذلك من لا تحيض إما لعدم بلوغها أو لطبيعةٍ فيها: فعدتهن ثلاثة أشهر ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أما الحامل فعدتها تنتهي بوضع الحمل سواء كانت مطلقة أو مات عنها زوجها ﴿وَأُوْلَٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فالحامل سواءً كانت مطلقةً أو متوفًى عنها زوجها عدتها بوضع الحمل.

وفي الصحيحين من حديث سبيعة بنت الحارث الأسلميّة أنّها كانت تحت سعد بن خولة، وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممّن شهد بدرًا، فتوفّي عنها في حجّة الوداع وهي حاملٌ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلمّا تعلّت من نفاسها تجمّلت للخطّاب، فدخل عليها أبو السّنابل بن بعككٍ -رجلٌ من بني عبد الدّار- فقال لها: ما لي أراك تجمّلت للخطّاب، ترجّين النّكاح، فإنّك والله ما أنت بناكحٍ حتّى تمرّ عليك أربعة أشهرٍ وعشرٌ، قالت سبيعة: فلمّا قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك، فأفتاني بأنّي قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتّزوّج إن بدا لي[(٢)].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ١٠/ ٣٣٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ٥/ ٨٠، رقم ٣٩٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل، ٢/ ١١٢٢، رقم ١٤٨٤.

وفي رواية لمسلم بسنده عن أمّ سلمة قالت: إنّ سبيعة الأسلميّة نفست بعد وفاة زوجها بليالٍ، وإنّها ذكرت ذلك لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأمرها أن تتزوّج[1].

وهذا من تيسير الإسلام ورحمته بالمطلقة والأرملة أن شرع لها الزواج بعد انقضاء عدتها التي قدّر لها هذه المدة اليسيرة؛ رحمةً بها، ورعايةً لها.

٤ . عدة المطلقة قبل الدخول.

ليس على المطلقة قبل الدخول عدة؛ إذ الغرض من العدة استبراء الرحم، وزوجها لم يدخل بها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

حقوق المطلقة

للمطلقة حقوق بيّنها الوحي، نذكرها فيما يأتي:

أولًا: حق المطلقة في مؤخّر الصداق:

نهى الله عز وجل عن ظلم المرأة وهضم حقوقها، وحرمانها من صداقها؛ ففي ذلك كفرانٌ للعشرة، ونسيان للمودة، ونقض لذلك الميثاق الغليظ الذي أخذه الرجل على نفسه حين عقد بها أن يحسن معاشرتها، وأن يتقي الله فيها، وأن تدوم الألفة بينهما، لكن إذا تبين للرجل بعد الصبر والتجمل استحالة العشرة مع زوجته، وأخفق في تقويمها ولم يكن بدٌّ من الفراق فعليه أن يوفّيها حقّها في الصداق، وأن يسرّحها بمعروف.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾

[النساء: ٢٠-٢١].

وهكذا تخاطب الآية الكريمة المشاعر والوجدان، وتذكّر الرجل بكلّ لحظة سعادةٍ عاشها مع زوجته، أفضى إليها وأفضت إليه، يذكّر القرآن بأوقات الصّفا التي مرّت وبقيت ذكرياتٍ جميلةٍ، ألا تستحقّ أن يوفي لتلك

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها بوضع الحمل، ٢/ ١١٢٢، رقم ١٤٨٥.

المرأة حقّها، ألا يدور في ذاكرته إلا مشاهد النّكد مع تلك الزوجة التي كرهها! إن أيّ حياةٍ زوجيةٍ لا يمكن أن تخلو من أوقات ممتعةٍ، فضلًا عن قيامها على مبدأ أساس: إمساكٌ بمعروف، أو تسريح بإحسانٍ، من هنا كان التذكير بهذه الذكريات الجميلة، والليالي الطيّبة التي جمعت بين الزوجين علّ تذكّرها يرقق قلب الزوج، وصدق من قال[1]:

أجل بيننا رسل الذكريات

وماضٍ يطيف ودمعٌ يجود

يقول القشيري رحمه الله: «يعلّمهم حسن العهد، ونعت الكرم في العشرة، فيقول: لا تجمع الفرقة، واسترداد المال عليها، فإن ذلك ترك الكرم؛ فإن خوّلت واحدة مالًا كثيرًا ثم جفوتها بالفراق، فما آتيتها يسيرٌ في جنب ما أذقتها من الفراق، قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ يعني: أن للصحبة السالفة حرمةً أكيدةً، فقفوا عند مراعاة الذّمام، وأوفوا بموجب الميثاق»[2].

وقال البيضاوي: «﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. إنكار لاسترداد المهر والحال أنه وصل إليها بالملامسة، ودخل بها، وتقرر المهر ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عهدًا وثيقًا، وهو حق الصحبة والممازجة، أو ما أوثق الله عليهم في شأنهن بقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ أو ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله)»[3].

وقال صاحب الظلال: «ويدع الفعل ﴿أَفْضَىٰ﴾ بلا مفعول محدد، يدع اللفظ مطلقًا يشع كل معانيه، ويلقي كل ظلاله، ويسكب كل إيحاءاته، ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات والأسرار والهموم والتجاوب في كل صورة من صور التجاوب، يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار، وعشرات الذكريات لتلك المؤسسة التي ضمتهما فترة من الزمان.

وفي كل اختلاجة حبٍّ إفضاء، وفي كل نظرة ودٍّ إفضاء، وفي كل لمسة جسم إفضاء، وفي كل اشتراك في ألم أو أمل إفضاء، وفي كل تفكر في حاضر أو مستقبل إفضاء، وفي كل شوق إلى خلف إفضاء، وفي كل التقاء في وليد إفضاء.

كل هذا الحشد من التصورات والظلال والأنداء والمشاعر والعواطف يرسمه

(١) البيت لأحمد شوقي في ديوانه ٢/ ٦٠.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٣٢٣.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٦٦.

ذلك التعبير الموحي العجيب ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فيتضاءل إلى جواره ذلك المعنى المادي الصغير، ويخجل الرجل أن يطلب بعض ما دفع وهو يستعرض في خياله وفي وجدانه ذلك الحشد من صور الماضي، وذكريات العشرة في لحظة الفراق الأسيف! ثم يضم إلى ذلك الحشد من الصور والذكريات والمشاعر عاملًا آخر من لون آخر ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾»(١).

ثانيًا: حق المطلقة في المتعة:

ومن الحقوق المترتّبة على الطّلاق متعة المطلقة. قال تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٤١ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤١ - ٢٤٢].

فلكلّ مطلّقةٍ متعةٌ على كلّ تقيٍّ؛ جبرًا لخاطرها، وتسليةً لفؤادها، وهذه المتعة واجبةٌ على من طلّقت قبل الدخول بها إن لم يسمّ لها مهرًا، ومندوبةٌ لمن طلّقت قبل أو بعد الدخول إن سمّي لها المهر.

ثالثًا: حق المطلقة الرجعية في البقاء ببيت الزوجية:

للمطلقة الحقّ في البقاء ببيت الزوجية، وليس للزوج أو لغيره إخراجها منه؛ حتى تنقضي عدتها، والحكمة من بقائها في بيت الزوجية حرص الإسلام على التأليف بين الزوجين، فضلًا عن حقها في السكنى؛ لأن الزوجية لا تزال قائمة بالنسبة للرجعية ما لم تنقض عدتها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١].

وقوله: ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ أي: ولا يخرجن من البيوت حتى تنقضي عدتهن، إلا إذا قارفت المطلقة عملًا قبيحًا كالزنا، فتخرج لإقامة الحد عليها، فنهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلّقة من المسكن الذي طلّقها فيه، ونهاها هي أن تخرج باختيارها، فلا يجوز لها المبيت خارجًا عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهارًا إلا لضرورة؛ وذلك لحفظ النسب، وصيانة المرأة، أما الفاحشة التي تبيح خروج المعتدة فقيل: إنها الزنا، فتخرج لإقامة الحد عليها، وقيل: إنه سوء الكلام مع الأصهار، وبذاءة اللسان، فتخرج ويسقط حقها من السكنى.

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٦.

«الفاحشة المبينة بذاءتها على أهل زوجها، فيحلّ إخراجها لسوء خلقها»[1].

وأضاف البيوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهي، وبيان كمال استحقاقهنّ للسكنى في مدّة العدّة[2].

ولا يجوز للمرأة أن تخرج ما لم تنقض عدتها، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، فإن وقعت ضرورة بأن خافت هدمًا أو غرقًا جاز لها أن تخرج إلى منزل آخر، وكذلك إذا كان لها حاجة ضرورية من بيع غزل أو شراء قطن جاز لها الخروج نهارًا ولا يجوز ليلًا، يدل على ذلك أن رجالًا استشهدوا بأحد، فقالت نساؤهم: نستوحش في بيوتنا، فأذن لهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحدثن عند إحداهنّ، فإذا كان وقت النوم تأوي كلّ امرأةٍ إلى بيتها، حيث قال صلى الله عليه وسلم: **(تحدثن عند إحداكن ما بدا لكن، فإذا أردتن النوم فلتؤب كل امرأة منكن إلى بيتها)**[3].

وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالة جابر وقد كان طلّقها زوجها أن تخرج لجذاذ نخلها.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٨/ ١٥٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١١٨.
(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ٧/ ٣٦، رقم ١٢٠٧٧، والبيهقي في السنن الكبرى، ٧/ ٧١٧، رقم ١٥٥١٢.
وضعفه الألباني في الضعيفة، ١٢/ ٢٠٦، رقم ٥٥٩٧.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: طلّقت خالتي، فأرادت أن تجدّ نخلها، فزجرها رجلٌ أن تخرج، فأتت النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: **(بلى، فجدّي نخلك، فإنّك عسى أن تصدّقي، أو تفعلي معروفًا)**[4].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: وهذه الأحكام هي شرائع الله ومحارمه **﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾** أي: ومن يخرج عن هذه الأحكام، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب، وأضرّ بها حيث فوّت على نفسه إمكان إرجاع زوجته إليه، وأضرّ بها، وأخلّ ببعض حقوقها.

وفي هذا تشديدٌ لكل من يتعدى حدود الله تعالى التي حدّها في أمر الطلاق من ذلك طلاق المرأة في حيضها، أو في طهر جامعها فيه، وإخراجها من بيتها بغير حقٍّ وفي غير ذلك من المخالفات التي نهت عنها الشريعة، فتلك حدود الله لا يتجاوزها ولا يتعدّاها إلا من ظلم نفسه فعرّضها لسخط الله تعالى، وأوردها موارد الهلاك.

أما من يقيم حدود الله، ويمتثل لأوامر الله، ويجتنب ما نهى عنه، فإنه يتعرض

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب جواز خروج المعتدة البائن، والمتوفى عنها زوجها في النهار لحاجتها، ٢/ ١١٢١، رقم ١٤٨٣.

لرحمة الله، ويحظى بلطف الله، وينال ثمرة تقواه واستقامته.

رابعًا: الحكمة من بقاء المطلقة في بيت الزوجية:

قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

لعلّ الله يحدث في قلبه ما يغيّر حاله، ويرغّبه في إبقاء زوجته وتقرّ عينه بها، ويصلح الله بالها، ولعلّ اجتماعهما تحت سقف واحد يؤلّف القلبين، وقد قيل[١]:

وأقرب ما يكون الشوق يومًا

إذا دنت الخيام من الخيام

فالأمر الذي يحدثه الله: أن يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه؛ فيراجعها، وتهبّ نسائم المودّة من جديد، وترجع طيور الحب للتغريد، في هذا البيت السعيد.

قال صاحب الظلال: «والحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة، واستثارة عواطف المودة، وذكريات الحياة المشتركة، حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين؛ فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين! فأما حين ترتكس في حمأة الزنا، وهي في بيته! أو تؤذي أهله، أو تنشز عليه، فلا محل لاستحياء المشاعر الطيبة، واستجاشة المودة الدفينة، ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة، فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحييها!»[٢].

خامسًا: حق المطلقة البائن في إرضاع ولدها:

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

الرضاعة حقٌّ للولد، والإرضاع حقٌّ للأم، فللمطلقة إرضاع ولدها حولين كاملين إذا أرادت ذلك باختيارها ما لم يتمكّن الأب من استئجار مرضع، وتجب النفقة على الوالد مدة إرضاعها الولد، قال القرطبي: «ولما ذكر الله سبحانه النكاح والطلاق ذكر الولد؛ لأن الزوجين قد يفترقان وثمّ ولد، فالآية إذا في المطلقات اللاتي لهن أولاد من أزواجهن»[٣].

(١) البيت في ديوان الصبابة، ابن أبي حجلة ص٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٣/ ١٦٠.

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ أمرٌ جاء بصيغة الخبر للمبالغة في تقريره، وهذا الأمر للندب والاستحباب وليس للوجوب؛ لأن الإرضاع ليس واجبًا على المرأة، كما قال الفقهاء، إلا إذا لم يتمكّن الأب من استجار ظئرٍ، أي: امرأةٍ ترضع ولده في مقابل أجر، أو لم يقبل ثدي غير أمه، والتعبير عنهن بلفظ (الوالدات) دون قوله: والمطلقات لبيان حقوقهن كأمهات ولاستعطافهن نحو الأولاد، فحصول الطلاق لهن لا ينبغي أن يحرمهن من عاطفة الأمومة، ولا يحرم الأبناء من حقوقهن المشروعة، قال السدي والضحاك وغيرهما: أي: هن أحقّ برضاع أولادهن من الأجنبيات لأنهن أحنى وأرقّ، وانتزاع الولد الصغير إضرار به وبها، وهذا يدل على أن الولد وإن فطم فالأمّ أحق بحضانته ما لم تتزوج؛ لفرط حنوّها وشفقتها[(١)].

﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أي: عامين على التمام ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ لبيان أن الرضاعة ليست واجبة على المرأة إلا إذا عجز الزوج عن استجار ظئر، أي: مرضع، فتعيّن على الأم إرضاع ولدها ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المطلقة لها الحق في الأجرة لإرضاعها ولدها كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وإنما عطف الكسوة على الرزق لئلا يتوهّم أن الرزق قاصر على الطعام والشراب، وهذا من مراعاة حق المرأة وإكرامها، والعدول عن قوله: (وعلى الوالد) إلى قوله: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ فيه لطيفة، وهي أن الأولاد يتبعون الأب ويلتحقون بنسبه دون الأم، وهذا مما يحفّزهم على العناية بالمولود، والتّعبير بالمولود له مقابل التّعبير بالوالدات إشارةٌ إلى أن المسئولية مشتركةٌ بين الوالدين؛ وكذلك في التعبير بالمولود له ترقيقٌ لقلب الوالد على ولده الذي قد يهمله نكايةً في أمه التي طلّقها، أو يجافيه كراهيةً لها، فهذا الولد الّذي يرضعنه ينسب إليه، ويحفظ سلسلة نسبه، فعليه أن ينفق عليهنّ ما يكفيهنّ حاجات المعاش من الطّعام واللّباس ليقمن بذلك حقّ القيام.

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا يكلّف الوالد فوق طاقته، ولا تكلّف الوالدة فوق طاقتها، كأن يطالب الرجل بالزيادة في الأجرة، وهو معسرٌ، أو يضيّق على الأم مع يسار الأب.

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ فلا ضرر ولا ضرار؛ لا يكلّف الرجل بما لا يطيق من نفقةٍ، ولا تكلّف المرأة بإرضاع ولدها وهي لا تقوى على ذلك، أو بدون الوفاء بحقها في النفقة، أو

(١) المصدر السابق ٣/ ١٦٠.

يبخس هذا الحق أو التقتير، ولا تمتنع الأم عن إرضاع ولدها نكايةً وإضرارًا بأبيه الذي طلقها؛ كذلك لا يحرم الأب الأم من حقها في إرضاع ولدها؛ حتى لا تستفيد بالنفقة.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ الوارث هو القائم مقام الوالد، عليه مثل ذلك من الواجبات، حتى وإن لم يترك الأب مالًا؛ لأن الغرم بالغنم ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الفصال والفصل: الفطام ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: قبل الحولين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي: في فصله؛ وذلك أن الله سبحانه لما جعل مدة الرضاع حولين بيّن أن فطامهما هو الفطام، وفصالهما هو الفصال ليس لأحد عنه منزع، إلا أن يتفق الأبوان على أقل من ذلك العدد من غير مضارة بالولد؛ فذلك جائز بهذا البيان، إن استقرّ أمرهما على الفصال قبل نهاية الحولين، وتراضيا على ذلك فلا حرج في ذلك، ما لم يترتب على ذلك ضررٌ للطفل، فينبغي مراعاة حق الولد، وإن أدى ذلك إلى تشاور المطلقة مع من طلّقها في شأن الولد؛ لأنهما مسئولان عنه، حريصان على صلاحه.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا﴾ أي: تطلبوا لهم من يرضعهم في حالة امتناع الأم عن الإرضاع أو مطالبتها بنفقةٍ باهظةٍ إرهاقًا للأب، أو عدم تمكّنها، فيضطرّ الأب إلى أن يستأجر لهم من ترضعه، وتسمى المرضعة المستأجرة ظئرًا ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: سلّمتم إلى الأمهات أجرهن بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع، وسلّمتم الأجرة إلى المرضعة الظئر.

وقيل: الخطاب للوالدين، والمعنى: سلّمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع، أي: سلّم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك على اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر.

والخطاب للرجال، أي: ما آتيتم من النفقة، أو للرجال وللنساء معًا، أي: سلّم كلّ واحدٍ للآخر.

وقيل: المعنى: إذا سلّمتم لمن أردتم استرضاعها أجرها، فيكون المعنى: إذا سلمتم ما أردتم إيتاءه، أي: إعطاءه إلى المرضعات بالمعروف، أي: بما يتعارفه الناس من أجر المرضعات من دون مماطلة لهنّ، أو حطّ بعض ما هو لهنّ من ذلك، فإن عدم توفير أجرهنّ يبعثهنّ على التساهل بأمر الصبيّ، والتفريط في شأنه[1].

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٣٢.

سادسًا: النفقة للبائن الحامل، والأجرة للمرضع البائن:

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٦- ٧].

يجب للمعتدة من طلاق رجعيٍّ النفقة والسكنى، أما المطلقة طلاقًا بائنًا فإن كانت حاملًا فلها النفقة والسكنى؛ حتى تضع الحمل، فإذا أرضعت ولدها استحقت الأجر على ذلك، وهذا من رحمة الإسلام بها، فالمرضع تحتاج إلى رعاية صحية وغذائية؛ لذا أوجب الله تعالى على الرجل إعطاء الأجرة لمطلقته على إرضاعها لولدهما؛ رعايةً لحقّها وحقّ الطفل.

كما أمر الله الآباء والأمهات بالتشاور في شئون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية، والخلقية، والتربوية، والتعليمية، وغيرها؛ من باب التناصح والتعاون على الخير.

قال تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: وليأمر كلٌّ منهما صاحبه بالخير، من المسامحة والرفق والإحسان، قال الخازن: «﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف، وقيل: يتراضى الأب والأم على أجرٍ مسمى، والخطاب للزوجين جميعًا أمرهم أن يأتوا بالمعروف، وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار، وقيل: المعروف هاهنا أن لا يقصّر الرجل في حق المرأة ونفقتها، ولا المرأة في حق الولد وإرضاعه»[(١)].

أما إذا لم يحصل وئامٌ واتفاقٌ بين الأبوين في تحديد الأجرة، فليس للأب إكراه الأم على الإرضاع إن أبت، بل يستأجر مرضعة أخرى، فإن لم يجد أو عجز عن إعطاء الأجرة لزم الأمّ إرضاع ولدها؛ حفاظًا على حقه في الحياة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: في حق الولد وأجرة الرضاع، فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها، وأبت الأم أن ترضعه، فليس له إكراهها على إرضاعه، بل يستأجر للصبي مرضعًا غير أمه. ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ أي: فليستأجر لولده مرضعةً غيرها، وهو خبرٌ بمعنى الأمر، أي: فليسترضع لولده مرضعةً أخرى «إلا أن لا يقبل المولود غير أمه فتجبر حينئذٍ على إرضاعه بأجرة مثلها، ومثل الزوج في حالهما وغناهما»[(٢)].

---

(١) لباب التأويل، الخازن ٦/ ١٢٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ٣٧٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٦٩.

قال أبو حيان: «وفيه عتابٌ للأم لطيفٌ كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها: سيقضيها غيرك، تريد أنها لن تبقى غير مقضية، وأنت ملوم»[1].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

بيانٌ لقدر الإنفاق، والمعنى: لينفق الأب على قدر وسعه وطاقته، فلا يكلّف ما لا يطيق، ولا يضيّع الولد أو الأم، بل لابدّ من الاعتدال والموازنة بين الحقوق.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ أي: ومن ضيّق عليه رزقه فكان دون الكفاية ﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فلينفق على مقدار طاقته، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي: لا يكلّف الله أحدًا إلا بقدر طاقته واستطاعته، فلا يكلّف الفقير مثل ما يكلف الغني، قال أبو السعود: «وفيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكد ذلك الوعد بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: سيجعل الله بعد الضيق الغنى، وبعد الشدة السعة والرخاء، وفيه بشارةٌ للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم»[2].

سابعًا: حق المطلقة في الزواج، وحرمة عضلها:

للمطلقة الرجعية بعد انقضاء عدتها الحق في الرجوع لزوجها إن شاء ذلك، بعقد جديد، ومهر جديد، ولها الحق في الزواج بغيره، أما البائن فلها أن تتزوج بعد انقضاء عدتها، ولا يجوز عضل المرأة، أي: منعها من الزواج سواء كان هذا العضل من جهة الزوج أو من جهة وليها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣١].

فنهى تعالى في هاتين الآيتين عن عضل الزوجة سواءً كان من قبل الزوج الذي يتعمّد إمساكها للإضرار بها وتعطيلها عن حقّها بإطالة مدة اعتدادها، أو من قبل وليّها الذي قد يعضلها عن الرجوع لزوجها الأول بعد انقضاء عدتها، أو يعضلها عن الزواج بغيره لشيءٍ في نفسه.

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن عضل المرأة إذا انقضت عدّتها أن تتزوج، أو شارفت على الانقضاء أن ترجع إلى زوجها إذا كان الطلاق رجعيًّا، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾

(١) البحر المحيط، ١٠/ ٢٠٥.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٦٣.

أي: أشرفن على أن يبنّ بانقضاء العدة ولم يرد حقيقة انقضاء العدة؛ لأن العدة إذا انقضت لم يكن للزوج إمساكها، فالبلوغ ها هنا بلوغ مقاربة، يقال: بلغ المدينة إذا قرب منها وإذا دخلها، والمراجعة بالمعروف أن يشهد على رجعتها وأن يراجعها بالقول لا بالوطء، والتسريح بالمعروف: أي: تركهن حتى تنقضي عدتهن.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ أي: لا تقصدوا بالرجعة المضارة بتطويل المدة عليهن ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أضرّ بنفسه بمخالفة أمر الله تعالى ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ بمخالفة شرعه، والاستهانة به، أو الاستهزاء والاستخفاف أو التلاعب.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «هو أن الرجل كان يطلّق امرأته ثم يقول: كنت لاعبًا، ويعتق ويقول: مثل ذلك، وينكح ويقول مثل ذلك»(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ثلاثٌ جدّهنّ جدٌّ، وهزلهنّ جدٌّ، النّكاح والطّلاق والرّجعة**)(٢).

وصور العضل من الزوج متعددة: منها أن يجحد الطلاق، أو يدّعي رجعةً في العدة، أو يتوعّد من يتزوّجها، أو يسيء القول فيها؛ لينفّر الناس عنها، فنهوا عن العضل مطلقًا بأيّ سببٍ كان مما ذكرناه ومن غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

وقد ورد في سبب النزول عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قوله: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ نزلت في الرّجل يطلّق امرأته تطليقةً، أو تطليقتين فتنقضي عدّتها، ثمّ يبدو له في تزويجها وأن يراجعها، وتريد المرأة فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى اللّه سبحانه أن يمنعوها»(٣).

وعن معقل بن يسارٍ رضي الله عنه أنّها نزلت فيه: قال: «زوّجت أختًا لي من رجلٍ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٢/ ٤٢٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الطلاق على الهزل، ٣/ ١١٨، والترمذي في سننه، كتاب الطلاق، باب ما جاء في الجد والهزل في الطلاق، ٢/ ٤٨١، رقم ١١٨٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب من طلق أو نكح أو راجع لاعبًا، ١/ ٦٥٨، رقم ٢٠٣٩.

قال: «هذا حديث حسن غريب».

وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٨١، رقم ٣٠٢٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٩١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤١٥.

فطلّقها، حتّى إذا انقضت عدّتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتك وأكرمتك فطلّقتها، ثمّ جئت تخطبها، لا والله لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تريد أنّ ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوّجها إيّاه»[(1)].

نهى الله تعالى عن منع الوليّ للمرأة المطلّقة إذا انقضت عدّتها من العودة إلى زوجها إذا تراضيا بالمعروف، أو الزواج بغيره، فإن المؤمن حقًّا يجتنب ما نهى الله عنه، ويمتثل ما أمر الله تعالى به، ويقدم حكم الله على هواه، فهوتعالى أعلم بما يصلح عباده في عاجلهم وآجلهم، وقد شرع لهم ما فيه صلاحهم وخيرهم.

موضوعات لها صلة بالطلاق

تحدث القرآن عن أمور لها صلة بالطلاق، نبيّنها فيما يأتي:

أولًا: الخلع:

من الحقوق التي قرّرها الإسلام للمرأة من أجل إنهاء عقدة النكاح إذا خافت من عدم الوفاء بحقوق الزوج الذي لا تطيق البقاء معه؛ سيّما إذا امتلأ قلبها بغضًا له، أو نفورًا منه؛ بسبب دمامة خلقةٍ، أو ضعفٍ أو عجزٍ ونحوه، أو بسبب سوء خلقٍ، فتضطرّ الزوجة إلى المخالعة، أو بسبب عضل الرجل لزوجته، بحيث يكرهها ولا يريد أن يطلّقها، فيجعلها كالمعلّقة، فتفتدي نفسها بمالها، وإن كان يحرم عليه فعل ذلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، ٣/ ٣٧٩، رقم ٥١٣٠.

[البقرة: ٢٢٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس رضي الله عنهما أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام![1] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أتردّين عليه حديقته؟)** قالت: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(اقبل الحديقة وطلّقها تطليقةً)**[2].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أيّما امرأةٍ سألت زوجها طلاقًا في غير ما بأسٍ، فحرامٌ عليها رائحة الجنّة)**[3].

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ الخطاب للأزواج، أي: لا يحل لهم أن يأخذوا مما دفعوه إلى نسائهم من المهر شيئًا على وجه المضارّة لهن «وخصّ ما دفعوه إليهن بعدم حلّ الأخذ منه مع كونه لا يحلّ للأزواج أن يأخذوا شيئًا من أموالهن التي يملكنها من غير المهر؛ لكون ذلك هو الذي تتعلق به نفس الزوج، وتتطلع لأخذه دون ما عداه مما هو في ملكها، على أنه إذا كان أخذ ما دفعه إليها لا يحل له كان ما عداه ممنوعًا منه بالأولى»[4].

﴿إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ يخاف الزوج أو تخاف الزوجة من التقصير في الحقوق الشرعية الواجبة، فإن خاف الزوجان أو أحدهما، واستشعر القاضي ذلك ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: خاف الحاكم أو الولي أو القاضي أو من يتوسّط بين الزوجين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: لا جناح على الرجل في الأخذ، وعلى المرأة فيما أعطت بأن تفتدي نفسها من ذلك النكاح ببذل شيء من المال يرضى به الزوج، فيطلقها لأجله، وهذا هو الخلع، وقد ذهب الجمهور إلى جواز ذلك للزوج، وأنه يحل له الأخذ.

قال البغوي: «تخاف المرأة أن تعصي الله

---

(١) قال السندي: «قوله: (أكره الكفر في الإسلام) أي: أخلاق الكفر في حال الإسلام، أو أكره الرجوع إلى الكفر بعد الدخول في الإسلام، وعدم الموافقة مع الزوج، وشدة العداوة في البين قد يفضي إلى ذلك، فلذلك أريد الخلع».
انظر: حاشية السندي على النسائي ٦/ ١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيفية الطلاق فيه، ٣/ ٤١٨، رقم ٥٢٧٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب في الخلع، ٢/ ٢٣٥، رقم ٢٢٢٨، والترمذي في سننه، أبواب الطلاق واللعان، باب ما جاء في المختلعات، ٢/ ٤٨٤، رقم ١١٨٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب كراهية الخلع للمرأة، ١/ ٦٦٢، ٢٠٥٥.
قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ».
وصححه الألباني صحيح الجامع ١/ ٥٢٦، رقم ٢٧٠٦.

(٤) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٩.

في أمر زوجها، ويخاف الزوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها، فنهى الله الرجل أن يأخذ من امرأته شيئًا مما آتاها إلا أن يكون النشوز من قبلها، فقالت: لا أطيع لك أمرًا، ولا أطأ لك مضجعًا ونحو ذلك»[1].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ما سبق من أحكام الطلاق والعدة والخلع وغيرها ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ أي: فلا تضيّعوها، ولا تنتهكوها، ولا تتجاوزوها.

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ زجرٌ لمن يتجاوز ما حدّه الله تعالى، ويضيّع فرائضه، وينتهك محارمه، فهو ظالمٌ من جملة الظالمين، ظلم نفسه، وظلم غيره.

ثانيًا: الإيلاء:

الإيلاء: حلف الرجل أن لا يطأ زوجته، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا غضب من زوجته حلف أن لا يطأها السنة والسنتين، أو أن لا يطأها الدهر كله، فتبقى كالمعلقة، فلا هي زوجة تتمتع بحقوقها الزوجية، ولا هي مطلقة تنكح زوجًا غيره، وجاء الإسلام ليرفع الظلم عن المرأة، ويضع حدًّا لهذا الأمر، فجعل للإيلاء مهلةً نهايتها أربعة أشهر، فإما أن يعود لزوجته، وإما أن يطلّقها، فلا تبقى معلقةً.

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ٢٢٦-٢٢٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان إيلاء أهل الجاهليّة السّنة والسّنتين وأكثر من ذلك، فوقّت اللّه أربعة أشهرٍ، فمن كان إيلاؤه أقلّ من أربعة أشهرٍ فليس بإيلاءٍ».

وقال سعيد بن المسيّب: «كان الإيلاء من ضرار أهل الجاهليّة، كان الرّجل لا يريد المرأة، ولا يحبّ أن يتزوّجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبدًا، وكان يتركها كذلك لا أيّمًا، ولا ذات بعلٍ، فجعل اللّه تعالى الأجل الّذي يعلم به ما عند الرّجل في المرأة أربعة أشهرٍ، وأنزل اللّه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ الآية»[2].

فإن اللّه سميع لإيلائهم وطلاقهم، عليم بنياتهم، وبما ارتكبوه مما يحرم أو يحلّ، فليراقبوه فيما يفعلون، فإن أرادوا إيذاء النساء ومضارتهن، فهو يتولى عقابهم، وإن كان لهم عذر شرعي مثل حملهن على إقامة حدود اللّه، فاللّه يغفر لهم[3].

«والحكمة في موقف الشّريعة الإسلاميّة من الإيلاء: أنّ هجر الزّوجة قد يكون من وسائل تأديبها، كما إذا أهملت في شأن بيتها، أو معاملة زوجها، أو غير ذلك من

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦٩.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٦٨.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٣١٣.

الأمور الّتي تستدعي هجرها، علّها تثوب إلى رشدها، ويستقيم حالها، فيحتاج الرّجل في مثل هذه الحالات إلى الإيلاء، يقوّي به عزمه على ترك قربان زوجته؛ تأديبًا لها، ورغبةً في إصلاحها، أو لغير ذلك من الأغراض المشروعة؛ فلهذا لم تبطل الشّريعة الإسلاميّة الإيلاء جملةً، بل أبقته مشروعًا في أصله؛ ليمكن الالتجاء إليه عند الحاجة»[1].

فالتأديب بالهجر ينبغي ألا يتجاوز هذه المدة، فالمرأة ينفد صبرها عن هجر بعلها هذه المدة، ولا تستطيع أن تصبر أكثر منها.

«عن عبد اللّه بن دينار قال: خرج عمر بن الخطّاب من اللّيل فسمع امرأة تقول[2]:

تطاول هذا اللّيل واسودّ جانبه
وأرّقني أن لا ضجيع ألاعبه
فو اللّه لولا اللّه أنّي أراقبه
لحرّك من هذا السّرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها: كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستّة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك»[3].

ثالثًا: الظهار:

هو مأخوذ من الظهر، والظهر من كل شيء خلاف البطن، وظاهر الرجل امرأته مظاهرة وظهارًا، قال لها: أنت علي كظهر ذات رحم[4].

والظهار في الاصطلاح: هو أن يشبّه امرأته أو عضوًا منها بمن تحرم عليه، ولو إلى أمد، أو بعضو منها[5].

وكان الظهار في الجاهلية أمرًا شائعًا من الأمور التي ابتدعها أهل الجاهلية، ودرجوا عليها، وألـفوها حتى صارت عندهم شرعًا، فكان الرجل منهم إذا كره زوجته أو غضب عليها قال لها: أنت عليّ كظهر أمي؛ فتصير محرمة عليه، وحدث في عهد الإسلام أن ظاهر أوس بن الصامت رضي الله عنه من زوجته خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها، ثم بدا له بعد ذلك أن يواقعها فلم تمكّنه من نفسها، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تستفتيه في هذا الأمر، وتجادله في هذا الشأن، فأنزل الله عز وجل في ذلك قرآنًا يتلى.

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ٧/ ٢٢٢.
(٢) البيتان في: الأوائل، العسكري ص ٤١٥، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٤١.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٢٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٢.

عليه وسلم، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني، وانقطع له ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ الخ الآيات[1].

وروى الإمام أبو داود في السنن عن خويلة[2] بنت مالك بن ثعلبة قالت: ظاهر مني زوجي أوس بن الصامت، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشكو إليه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلني فيه، ويقول: (اتق الله، فإنه ابن عمك) فما برحت حتى نزل القرآن ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآيات، فقال صلى الله عليه وسلم: (يعتق رقبة). قلت: لا يجد، فقال: (فيصوم شهرين متتابعين). قلت: يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: (فليطعم ستين مسكينًا). قلت: ما عنده من شيء يتصدق به، قالت: فَأُتِيَ ساعتئذٍ بِعَرَق من تمر، قلت: يا رسول الله، فإني أعينه بعرق آخر، قال: (قد أحسنت، اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك)[3].

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ سمع الله تعالى قول تلك المرأة التي جاءت تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر زوجها الذي ظاهر منها ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ تبث شكواها إلى الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: يسمع ذلك الحوار الذي دار بين خولة بنت ثعلبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ سميع لكل مسموع، بصير بكل مبصر، فعلى المؤمن أن يراقب الله عز وجل في معاملته لزوجته وفي جميع معاملاته.

حرمة الظهار:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

أي: لا تعتبر المرأة بقوله: أنت علي كظهر أمي، أو كأمي، أو مثل أمي، أو ما أشبه

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطلاق، باب الظهار، ١/ ٦٦٦، رقم ٢٠٦٣ والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المجادلة، ٢/ ٥٢٣، رقم ٣٧٩١.
وصححه الألباني بشواهده في إرواء الغليل ٧/ ١٧٥.

(٢) خويلة تصغير خولة.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب الظهار، ٢/ ٢٦٦، رقم ٢٢١٤.
وصححه الألباني بشواهده في إرواء الغليل ٧/ ١٧٥.

ذلك لا تصير أمه بذلك، إنما أمه التي ولدته.

قال ابن عاشور: «توبيخًا لهم على صنيعهم، أي: هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي: قبيح لما فيه من تعريض حرمة الأم بتخيلات شنيعة تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر: أنت علي كظهر أمي، وهي حالة يستلزمها ذكر الظهر في قوله: كظهر أمي»[1].

كما قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢].

دل هذا على تحريم الظهار؛ لأنه قول منكر وزور.

قال ابن حجر: «واستدل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ على أن الظهار حرام»[2].

وقال الإمام ابن القيم: «والظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه؛ لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرق بين جهة كونه منكرًا وجهة كونه زورًا أن قوله: أنت علي كظهر أمي، يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاء تحريمها، فهو يتضمن إخبارًا وإنشاء، فهو خبر زور وإنشاء منكر، فإن الزور هو الباطل بخلاف الحق الثابت، والمنكر بخلاف المعروف، وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عفو الله ومغفرته لأخذ به»[3].

كفارة الظهار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

بيّن المولى عز وجل في هاتين الآيتين الكريمتين كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع عما قال، ويعود إلى معاشرة زوجته بعد أن ظاهر منها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ فالعود هنا هو الرجوع عن مقولة الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عتق رقبة سليمة من العيوب صغيرة كانت أو كبيرة ذكرًا أو أنثى ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أي: من قبل حدوث أي مسيس بينهما من جماع أو تقبيل أو أي وجه من وجوه الاستمتاع،

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٧/ ٥٨٥.

(٢) فتح الباري ٩/ ٣٤٢.

(٣) زاد المعاد ٤/ ٨٢.

وهذا هو مذهب جمهور الفقهاء الحنفية والمالكية والحنابلة، وقال الشافعي في أحد قوليه: المحرم على المظاهر هو الوطء فقط[1]؛ لأن المسيس كناية عن الجماع ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تزجرون حتى تتركوا الظهار لحرمته؛ ولعظم كفارته.

قال صاحب الظلال: «﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ فالكفارة تذكرة وعظة بعدم العودة إلى الظهار الذي لا يقوم على حق ولا معروف ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ خبير بحقيقته، وخبير بوقوعه، وخبير بنيتكم فيه، وهذا التعقيب يجيء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب، وتربية النفوس، وتنبيهها إلى قيام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخفيه»[2].

قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أي: من لم يتمكن من عتق رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن عجز عن صيام الشهرين فعليه أن يطعم ستين مسكينًا ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: ذلك المشار إليه من تحريم الظهار وكفارته ﴿لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فمن لوازم الإيمان ومقتضياته أن تلتزموا بهذه الأحكام ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فلا تعتدوها ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنهم كفروا بالله، وانتهكوا محارمه، وتعدوا حدوده.

قال ابن عاشور: «الإشارة إلى ما ذكر من الأحكام، أي: ذلك المذكور لتؤمنوا بالله ورسوله، أي: لتؤمنوا إيمانًا كاملًا بالامتثال لما أمركم الله ورسوله، فلا تشوبوا أعمال الإيمان بأعمال أهل الجاهلية، وهذا زيادة في تشنيع الظهار، وتحذير للمسلمين من إيقاعه فيما بعد، أو ذلك النقل من حرج الفراق بسبب قول الظهار إلى الرخصة في عدم الاعتداد به، وفي الإخلاص منه بالكفارة، لتيسير الإيمان عليكم»[3].

وفي موقف الإسلام من الظهار: حجة ساطعة، ودلالة واضحة على تكريم الإسلام للمرأة، وصيانته وحمايته لحقوقها، وحرصه على إصلاح واستقرار الأسرة المسلمة.

وفي هذه الكفارة ما يعود بالفائدة على الفرد والمجتمع، فعتق الرقبة هو سبيل إلى تحرير الرقيق، وللإسلام موقف فريد، ومنهج رشيد في تحرير العبيد من خلال تجفيف منابع الاسترقاق، وفتح الأبواب على مصاريعها للعتق عن طريق الكفارات والقربات.

وفي صوم شهرين متتابعين تهذيب

(١) انظر: العناية شرح الهداية، البابرتي ٤/ ٢٤٨، المبسوط، السرخسي ٦/ ٢٣٠، البيان والتحصيل، ابن رشد ٥/ ١٧٧، المجموع شرح المهذب، النوور ١٧/ ٣٦٦، الكافي في فقه الإمام أحمد، ابن قدامة ٣/ ١٦٩.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٠٦-٣٥٠٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٠.

للأخلاق، وتقويم للسلوك، ورياضة للنفوس، وتزكية لها، وسمو بالأرواح، فالصوم تأديب بالجوع، وخشوع للمولى وخضوع، وكل عبادة لها حكمة، والصوم ظاهره العذاب، وباطنه فيه الرحمة، يعلم الصبر، ويعين على خصال البر، ويقدح زناد التأمل والفكر، وينشرح به الصدر، وفى إطعام ستين مسكينًا لفتة كريمة إلى الرحمة بالمساكين، والإحساس بمعاناتهم، ومعايشة أحوالهم، وفي هذا إرهاف للحس، وترقيق للمشاعر، وتطبيب للقلوب، وتزكية للنفوس، وهكذا نجد في الكفارة حكمًا رائعة، وثمرات يانعة للنفس والمجتمع، وهي مع شدتها وثقلها إلا أنها رحمة للناس ولطف بهم، وزجر عن الوقوع في هذا المنكر الزور.

منهج القرآن في تقرير أحكام الطلاق

تربية المسلم تربية راشدة، فعليه تدور الأحكام الشرعية، والقرآن كلّه كتاب تربيةٍ وتهذيبٍ وتزكيةٍ وتقويمٍ، وفي ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق نلمس هذه اللطائف التربوية من ترسيخٍ للإيمان، وتهذيبٍ للنفوس، وتزكية لها، وتحليق بها في أجواء الفضيلة، ومن تغذية للعقول، وتوعيةٍ لها، وتبصرةٍ للقلوب، وغرسٍ للقيم.

١. الهدف من وجود الأسرة المسلمة إقامة حدود الله؛ وذلك مؤشر بقائها، وغاية وجودها، ومنارة مسارها.

تأمل في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٢٩-٢٣٠].

حيث يتكرر الحديث عن حدود الله تعالى في ستّ مراتٍ؛ لبيان الأساس الذي قام عليه البناء الأسري، والحصن الذي يحميه، بل والغاية من وجوده، وهو إقامة

حدود الله تعالى التي حذّر من تعدّيها، فلا يتعداها إلا ظالمٌ، وتأتي الآية التالية لتقرر هذا الأصل الشرعي، والمقصد السامي، وهو إقامة حدود الله تعالى التي هي أساس قيام الأسرة، وهدفٌ من أهداف الزواج، والله تعالى يبيّنها لأهل العلم حتى يمتثلوا لها، ويدعوا غيرهم إلى مراعاتها.

٢. مجيء القرآن بقواعد رشيدة للحياة الزوجية السعيدة، من ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فللزوجة حقوق كما أن عليها واجبات، وللرجال على النساء درجة ليس تعاليًا على النساء، بل لتنظيم الحياة الزوجية التي لابد لها من قيّم وقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقوله جل وعلا: ﴿الرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَالصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٣٤].

أثر الإيمان بالله واليوم الآخر في امتثال ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، تأمل أهمية الإيمان ودوره في السلوك والمعاملات في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فالمرأة المؤمنة لا تخادع ولا تخفي الحقائق، وتلك أخلاق المؤمنة الصالحة صريحةٌ وواضحة وصادقةٌ وناصحة، كما ندرك أثر الإيمان بالله واليوم الآخر في الامتثال لأوامر الله، واجتناب ما نهى عنه الله، وأن هذا الطريق أزكى وأطهر، فلا يزيده التمسك به إلا سموًّا وارتقاء ورفعةً وانتصارًا على حظ النفس والتقاليد الجاهلية، وفي تقرير علمه تعالى مع نفي العلم عن الخلق ما يزيد المؤمنين يقينًا وتسليمًا لحكم الله تعالى، وتجرّدًا من الأهواء والآراء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٣. استحضار أسماء الله الحسنى، له أثر في المسارعة إلى امتثال أوامره، والفيء إلى شرائعه.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فالعزة

لمن اتبع شرع الله، وبعزته تعالى حكم، وهو الحكيم في أقداره وسننه وأحكامه، ومن تمسّك بشرعه الحكيم نال العزّة في الدارين.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وفيها تسليةٌ وبشرى لكل من قدّم عملًا صالحًا، وإن لم ينل جزاءه في الدنيا فإنه لن يضيع عند خالقه جل وعلا، فهوتعالى بصير بأعمال عباده، وإن غفل عنها الغافلون، وإن تجاهلها الناس، أو تنكّروا لفاعلها.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

يأمر الله عباده بتقواه، وأن يعلموا علم اليقين أنه العليم بما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، العليم بسرائرهم، وما تنطوي عليه نفوسهم، العليم بحاضرهم ومستقبلهم، العليم بأعمالهم وأقوالهم، وفي الآية دعوةٌ إلى اليقين بأحكام الله تعالى وسننه في عباده وأقداره، وفيها دعوة لمراقبته تعالى، فلابد من أن نؤمن ونوقن ونسلّم بإحاطة علمه تعالى بكل شيء، وهذا يزيدنا إيمانًا وتسليمًا لأحكام الله تعالى وأقداره.

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

أي: كثير الفضل واسع الرحمة، يعطي ويمنع، ويفرّق ويجمع، بعلمه تعالى وحكمته، وناسب هنا ذكر السعة، تقريرًا لما تقدّم من توسعته، قال الرازي: «... فهو تعالى واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم، فلو ذكر تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسع، وما أضافه إلى شيء معينٍ، دلّ على أنه واسعٌ في جميع الكمالات»(١).

وناسب ذكر وصف الحكمة لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره، وفي الآية وعدٌ من الله تعالى بإغناء كلٍّ من الزوجين إذا تفرقا من سعته؛ حتى لا يلتفت كل منهما لغير الله، ولا تعتلج في قلبه همومٌ على مستقبله، ولا حزنٌ وحسرةٌ على ماضيه، وكذلك وصف الحكمة فيه ما يوحي بالرضا والتسليم بأقدار الله تعالى، فهي صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ، فهذه السعة التي وعد الله به عباده سعةٌ قائمةٌ على حكمته تعالى، وفي الآية الكريمة تسليةٌ لكل من ابتلي بالفراق، بأن فرج الله قريبٌ، وفضله واسعٌ.

وقال سبحانه في ختام سورة الطلاق: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

فالإيمان بقدر الله تعالى وعلمه التام

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٦٩.

يزيد المؤمن يقينًا وثباتًا على الحق، وحرصًا على تحقيق مراد الله تعالى، فهو تعالى القادر على كل شيء، وهو العليم بما يصلح عباده في عاجلهم وآجلهم، في معاشهم ومعادهم.

٤. التسليم لأقدار الله تعالى وحكمه وأحكامه ومراعاة سننه في عباده.

قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

٥. استحضار نعم الله تعالى على عباده، والتي من أجلها نعمة الهداية، وما أنزل الله عليهم من الكتاب والسنة لصلاحهم وإرشادهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

تذكيرٌ بنعم الله التي لا تحصى، والتي من أجلّها ما أنزله في كتابه وسنة نبيه من مواعظ يسعد من ينتفع بها، ويرشد من يتبصّرها، وقال تعالى في سورة الطلاق: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فهذه التشريعات الربانية التي اشتمل عليها القرآن يتلوها المؤمن دائمًا ويستحضر معانيها ومقاصدها ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ [الطلاق: ١١].

أي: هذا الوحي يتلوه عليكم رسول الله، آياتٌ من عند الله، واضحاتٌ جليات، تبيّن الحلال والحرام، وتفرّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ليخرج المؤمنين المتقين من الضلالة إلى الهدى، ومن ظلمة الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم.

٦. العدل ضرورة شرعية، والإحسان والفضل من أخلاق الكرام في الرضا والغضب؛ سيّما في أداء حق المطلقة ترضيةً لخاطرها، وجبرا لفؤادها.

٧. الترغيب في العمل الصالح، واختيار

ما هو أزكى وأطهر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

٨. تقوى الله تعالى، والتوكل عليه، واليقين بما عنده خير ما يواجه به العبد ما يعتريه من هموم، وما يعترضه من مشكلات وأزمات، وللتقوى أثرها في حياة المسلم ومعاملاته وسلوكه؛ والأتقياء أوفى الناس وأحرصهم على أداء الحقوق، من هنا تأتي أهمية التقوى في الامتثال لشرع الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝٢٤١﴾ [البقرة: ٢٤١].

وتكرر الحثّ على التقوى في سورة الطلاق، في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

٩. الصلاة هي زاد المؤمن وسلواه وملاذه.

قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وورود الحديث عن الصلاة في سياق الحديث عن أحكام الطلاق؛ لبيان أن الإسلام منهاجٌ كامل، وتشريعٌ شاملٌ، فكما يجب الالتزام بما سبق من أحكام؛ كذلك يجب المحافظة على الصلاة.

والذي يؤدي حقّ العباد لابدّ من باب أولى أن يؤدّي حقّ الله تعالى، فإنه أعظم الحقوق، كذلك لما كانت المشكلات الزوجيّة والأزمات الأسرية ممّا قد يشغل الإنسان عن غاية وجوده ذكّره المولى بتلك الغاية الكبرى، ألا وهي عبادته تعالى التي من أجلها خلقنا، فلا ينبغي أن يشغلنا شاغلٌ عن تلك الغاية؛ لذا جاء التذكير بالصلاة في هذا السياق.

كذلك فإن الصلاة ترويحٌ للنفوس، وتطبيبٌ للقلوب، وزادٌ للأرواح إلى ظلالها يفيء أهل الإيمان، وفي رياضها يستروحون، وعلى أبواب المساجد يخلعون همومهم، فعلى المؤمن أن يستعين بالصلاة على مواجهة مشكلاته، ويفيء إلى ظلالها من بيداء همومه ورمضاء أزماته.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاة قرّةٌ للعيون، وتربيةٌ للنفوس، وتهذيبٌ لها، وتزكيةٌ للقلوب، وخليقٌ بمن

يحافظ عليها أن يحافظ على حقوق العباد، وأن تظهر ثمرات الصلاة.

حاجة المشكلات الزوجية إلى تعقّلٍ، وقد بيّن الله لنا من الآيات ما يهدينا إلى ذلك، ثم مسك الختام دعوة إلى التدبر في آيات الله، وشكر الله تعالى على هذا البيان، وأنه دعوة إلى التعقل والنظر، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ففي الختام دعوةٌ إلى التفكّر والنظر في آيات الله تعالى الشرعية والكونية؛ ليزداد المؤمن تقوى لله تعالى، بالمبادرة إلى امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومراقبته تعالى، ويزيد تبصّرًا بما حوله، ووعيًا بحاضره، وحكمةً في مواجهة مشكلاته، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ فالموعظة إنما ينتفع بها، ويمتثل لها أصحاب الإيمان الراسخ والعقول النيّرة.

النظر في أحوال الأمم الهالكة، والوقوف على أسباب هلاكها، والتي في مقدمتها التمرد والعصيان، والحذر من عاقبة تعطيل شرع الله تعالى، ومجاوزة حدوده، فكم عطّلت كثيرٌ من أحكام الإسلام في كثير من البلدان بسبب كيد الأعداء وجهل الأبناء، فضيّعت الحقوق، واختلت الموازين، وسلب الأمن، وتأججت الصراعات، وطالت النزاعات، وتعطّلت المصالح، وتفكّكت الأسر، وانفرط عقد المجتمع، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ٩-١٠].

وفي الآيات دعوةٌ إلى الاعتبار بأحوال ومصير الأمم والشعوب الناكبة عن منهج الله، المعطّلة لشرائع الله تعالى.

السعادة الأبدية في الإيمان، والعمل الصالح ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

استحضار عظمة الله تعالى وقدرته، وسعة ملكه وتدبيره لهذا الكون، وإحاطة علمه، فإن هذا يزيد العبد إيمانًا ويقينًا واطمئنانًا وتسليمًا لله تعالى في هذه الأزمات ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

التدابير الوقائية من الطلاق

تتحدث هذه السطور عن حكمة مشروعية الطلاق، والتدابير الواقية من الطلاق، والتدابير الواقية من العجلة في الطلاق:

أولًا: حكمة مشروعية الطلاق:

الطلاق كما أشرنا آنفًا دواءٌ مرٌّ، أو بمثابة جراحةٍ مؤلمة؛ لما يترتّب عليه من حرقةٍ وفرقةٍ، وشتاتٍ وحرمانٍ، وانفراط عقد الأسرة، فيحرم الولد من التربية في المحضن الطبيعيّ، وتحرم البنت من رعاية أبيها، أو من حنان أمّها، أو منهما معًا، لكنّ الإسلام أجازه مع ما فيه من ضرر إذا سدّت الأبواب، وانقطعت الأسباب، وأخفقت المساعي، واستحالت العشرة، وهنا يصبح ضرورة لا مفرّ منها، واختيارًا لا بديل له، وهو بلا شكٍّ اختيارٌ لأخفّ الضررين؛ إذ إجبار متنافرين على التآلف والعشرة، وإرغام المرأة على العيش مع زوجٍ تبغضه، أو إرغام الرجل على البقاء مع امرأةٍ يبغضها أمرٌ يتنافى مع حقّ الإنسان في حياةٍ طيّبة، ويتعارض مع الحرية التي وهبها الله للعباد، فأخرجهم من بطون أمهاتهم أحرارًا، وقد قيل[1]:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى
عدوًّا له ما من صداقته بدٌّ

فكيف بمن يؤاكله ويضاجعه ويقتسم معه اللقمة والشّربة، ويلتحف معه في ثوب واحد، ويظلّهما سقفٌ واحدٌ! ويغلق عليهما بابٌ واحدٌ، كيف تستقيم حياتهما مع ما بينهما من تنافرٍ وتضادٍّ! إن إمساك المرأة ضرارًا وقهرها وقسرها على حياةٍ لا ترتضيها، وعلى قرينٍ لا تطيق عشرته أشدّ ضررًا من تسريحها.

لقد حرص الإسلام على منع الطلاق بأن دعا إلى حسن الاختيار والتكافؤ، ومعرفة مقاصد الزواج وأحكامه، وحقوق الزوجين وواجباتهما؛ ذلك أن كثيرًا من حالات الطلاق إنما تقع بسبب الجهل بذلك، أو الغفلة عنه، أو التقصير فيه، كما أمر بالمبادرة إلى رأب الصدع، وإزالة أسباب الشقاق، وتجنب الوقوع في النشوز بالإصلاح والوعظ، وربما يصل الأمر لحد التأديب، ولكن برفق ولطف، وليس بعنف.

والحياة الأسرية لا قيمة لها، ولا ثمرة من ورائها إن قامت على الشحناء والبغضاء والتنافر والتمرّد، أو فقدان الثقة بين الطرفين، بل تحتاج لمشاعر صادقة وقلوب مؤتلفة، تحتاج لجوٍّ هادئ، وعشّ دافئ، وبيتٍ هانئ؛ كي تنتج وتخرج جيلًا سويًّا، وهل ينبت الزرع ويستوي على عوده إذا كان في أرضٍ عاصفة!

ويمنح الشرع فرصةً تلو فرصة للزوجين

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ١/ ٣٨٨.

النافرين؛ لعل الأيام تجمع بينهما، ومصلحة الأسرة والأولاد توحّد بينهما وتؤلف القلوب، ومن ثمّ كان الطلاق الرجعيّ لعل الطائرين يؤوبان إلى عشّهما ويثوبان إلى رشدهما، ويحدبان على صغارهما، ويستأنفان حياتهما الزوجية بحبٍّ وصفاء، فترفرف السعادة على البيت من جديد.

لقد وضع الإسلام حدًّا للفوضى التي كانت سائدةً في المجتمعات الجاهلية، وأوقف الظلم الذي كان على المرأة أن تتجرّعه إن نفر منها زوجها أو رغب عنها، فيذرها معلقةً، أو تبقى الحياة الزوجية متأرجحةً بسبب الطلاق الذي لا حدّ له، حيث كان للرجل أن يطلّق متى شاء وكيفما شاء، وأن يراجع حيث شاء، وتبقى المرأة هي الضحية لهذا الظلم الاجتماعي، وقد نزل القرآن ليصحح هذه الأوضاع، وليزيح هذه الحواجز، وليعيد للمرأة كرامتها وحريّتها، ويرفع عنها الظلم، ويضع عنها كلّ ما يثقل كاهلها ويرهقها من أغلال وآصار الجاهلية التي تهيض جناحها، وتكسر قلبها، وتنكّد حياتها، وتذوي عودها، وتذهب نضارتها، وتأكل شبابها.

من هنا كان الطلاق حمايةً لحق المرأة، وهو أيضًا حماية للرجل، وصيانة للأسرة؛ لئلا تقوم على أنقاضٍ متهالكةٍ، بل الهدم قد يكون مقدمةً للبناء الراسخ، والفراق قد يفضي إلى وصالٍ.

والحادثات وإن أصابك بؤسها
فهي التي تنبيك كيف نعيمها[1]

ثانيًا: التدابير الواقية من الطلاق:

من أهم التدابير الواقية للحياة الزوجية حسن الاختيار، فإذا بني الزواج على أسس متينة، ولبنات صالحة متناسقة، كان ذلك أرجى لدوامه، وأوثق لعراه، كذلك فهم الزوجين لمقاصد الزواج وأهدافه السامية، وفي القرآن آياتٌ كثيرةٌ تبيّن مباهج الزواج وثمراته، ومقاصده السامية، وأهدافه النبيلة، وضرورة معرفة الرجل بطبيعة المرأة، ومعرفة المرأة بطبيعة الرجل، فإن فهم الآخر من أسباب الانسجام والتآلف بين الزوجين، والتغاضي عن الهفوات، والصبر والتجمّل.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

إذ قد تجتمع في الزوجة كثير من خصال الخير خلا خصلة واحدة، لا تقدح في دينها ولا في عرضها وشرفها، خصلة يتأذى منها زوجها، ولا يجد سبيلًا إلي إصلاحها وتقويمها، ففي هذه الحالة يدعوه الإسلام إلى الصبر على تلك الزوجة والإحسان إليها ونصحها؛ لعلها تستجيب.

(١) البيت لأبي تمام في ديوانه ٢/ ١٣٨.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يفرك[1] مؤمنٌ مؤمنةً؛ إن كره منها خلقًا رضي منها آخر، أو قال: غيره)[2].

قال أبو السعود: «﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ خطاب للذين يسيئون العشرة معهن، والمعروف ما لا ينكره الشرع والمروءة، والمراد هاهنا: النصفة في المبيت والنفقة والإجمال في المقال، ونحو ذلك، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فاصبروا عليهن مع الكراهة، فلعل لكم فيما تكرهونه خيرًا كثيرًا ليس فيما تحبونه...، وجعل الله فيه خيرًا كثيرًا فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين وأحمد عاقبة وأدنى إلى الخير، وتحب ما هو بخلافه، فليكن نظركم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسكم»[3].

قال ابن عاشور: «أعقب النهي عن إكراه النساء والإضرار بهن بالأمر بحسن المعاشرة معهن، فهذا اعتراض فيه معنى التذييل لما تقدم من النهي؛ لأن حسن المعاشرة جامع لنفي الإضرار والإكراه، وزائد بمعاني إحسان الصحبة»[4].

وجهل طبيعة الآخر من أسباب النفور والشقاق، ومن أسباب دوام العشرة الوفاء بحقوق الزوجين، والمحبة والتفاهم بين الزوجين، والانسجام بينهما، وقيام كلٍّ بدوره المنوط به، فالرجل قيّمٌ على أهله، وللمرأة دورها العظيم كزوجة وأم، ومعالجة النشوز، والسعي إلى الإصلاح بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤-٣٥].

فحماية الحياة الزوجية يقع نصيبٌ منها على عاتق المجتمع، فعلى المجتمع أن يكون عونًا للزوجين، داعمًا لهما.

أعطى الشرع الحنيف الحق للزوج في تأديب زوجته إذا أخلّت أو قصّرت في

(١) الفرك البغض.
انظر: غريب الحديث، القاسم بن سلام ٤/ ٩١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، ٢/ ١٠٩١، رقم ١٤٦٩.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٥٨.
(٤) التحرير والتنوير، ٤/ ٧١.

حقوقه على نحو يعتبر نشوزًا منها، ويجب على الزوج التدرج في استعمال وسائل التأديب حيث يبدأ أولًا بوعظ زوجته، فإن لم ينفع معها الوعظ تحوّل إلى الوسيلة الثانية، وهي هجرها في المضاجع؛ وذلك بأن يوليها ظهره عند نومه، أو يهجر مضجعها فينام بعيدًا عنها[(١)]، فإن لم ينفع معها الهجر لجأ إلى الوسيلة الثالثة وهي الضرب.

قال الإمام الرازي: «الذي يدل عليه نص الآية أنه تعالى ابتدأ بالوعظ، ثم ترقى منه إلى الهجران في المضاجع، ثم ترقى منه إلى الضرب؛ وذلك تنبيه يجري مجرى التصريح في أنه مهما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به، ولم يجز الإقدام على الطريق الأشق»[(٢)].

على أن الزوج لا يتعجّل في اللجوء إلى وسيلة الضرب، بل يصبر على زوجته، ويتحمّل تقصيرها، ويكرّر المحاولة في إصلاحها بالوعظ وإلا فبالهجر، فإذا عيل صبره ولم يعد يتحمّل شططها، ورأى أن الضرب قد يأتي بالإصلاح المنشود باشر وسيلة الضرب كعلاج لها، وليس كانتقام منها؛ لأن بعض النساء قد لا ينفع معهن إلا الضرب.

أما عن صفة الضرب فإنه يكون غير مبرح، أي: غير شديد شائن، قال الإمام النووي: «الضرب المبرح هو الشديد الشاق»[(٣)].

وسئل ابن عباس عن الضرب غير المبرح، فقال: «بالسواك ونحوه»[(٤)].

وعلى الزوج أن يتقي ضرب الوجه، ويجتنب ضرب البطن وغيره من المواضع المخوفة.

وفي صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد، ثم يجامعها في آخر اليوم!)[(٥)].

وضرب الزوجة الناشز: القصد منه زجرها وتأديبها حين لا يجدي معها النصح «ولا يحل استعمال هذه الرخصة إذا عرف أنها لا تنفع في تهذيبها وزجرها عما هي عليه»[(٦)].

كما شرع الإسلام علاجًا حاسمًا لنشوز

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٩٠.
وانظر: الأم، الإمام الشافعي ٥/ ١١٤، بدائع الصنائع، لكاساني ٢/ ٣٣٤، المغني، ابن قدامة ٧/ ٤٦.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٧٢.

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم ٨/ ١٨٤.
وليس المراد بالفاحشة المبينة هنا: الزنا؛ لأن حد الزنا للمرأة المحصنة هو الرجم، وإنما المراد بالفاحشة المبينة هنا أن يدخلن من يكرهه أزواجهن أو أن يعصين أزواجهن.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٦/ ٧١٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء، ٧/ ٣٢، رقم ٥٢٠٤.

(٦) الخلافات الزوجية، مجدي الشهاوي ص٨٦.

الزوجة، فلقد وضع علاجًا حاسمًا لنشوز الزوج، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

والخوف لا يكون إلا بظهور بوادر وأمارات تنذر بعاقبة ما يخاف الإنسان من أجله، فخوف المرأة هنا من بعلها مبني على بوادر قد تؤدي إلى نشوز عنها، وترفّع وسوء عشرة وعدم لين في قول، أو رقة في سلوك، وقد يرافقه عبوس وتقطيب وتغيّر في المعاملة، وقد يتطور إلى عدم مؤانستها ومعاشرتها.

أما في حال الإعراض وهو أخف درجة من النشوز فتبدو أعراضه بالسكوت عن الخير والشر والجفوة والتذمر من الصغائر مع تجاهل وعدم مبالاة، فإذا ظهرت هذه العوارض على بنية الحياة الزوجية، وأفلست المرأة في إصلاح ذات البين من قبلها بطريقتها غير المباشرة فبإمكانها أن تضع حدًّا لهذه المعاناة بالمصارحة والمصالحة بينها وبين زوجها، لاسيما إذا لمست بحاستها الأنثوية أن زوجها قد لوى عنان فرسه منصرفًا عنها، أو أنها لم يعد لها في قلبه متسع[(١)].

فالزوجة العاقلة هي التي تستشعر دائمًا مدى قرب زوجها وحبه لها، فإذا حدث فإنها تبادر بمعالجة الأمور بحكمة وروية، والزوج العاقل الكريم يقدر لزوجته حرصها على استرجاع المودة والوصل «فيسمو عنده قدرها، ويرى فيها نفسًا وفيّة، وروحًا نقية»[(٢)].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية[(٣)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلًا سأله عن هذه الآية، فقال: «هي المرأة تكون عند الرجل فتنبو عيناه عنها من دمامتها، أو فقرها أو كبرها، أو سوء خلقها وتكره فراقه؟ فإن وضعت له من مهرها شيئًا حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج»[(٤)].

---

(١) انظر: الخلافات الزوجية، رعد الحيالي ص٧٧-٧٨.

(٢) انظر: الأسرة في الإسلام، مصطفى عبدالواحد ص١٠١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب إذا حلله من ظلمه فلا رجوع فيه، ٣/ ١٣٠، رقم ٢٤٥٠.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي

وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح من الرجل وامرأته في مال أو وطء أو غير ذلك[1]، والإسلام يدعو إلى بذل كل الجهود لتثبيت دعائم الحياة الزوجية وتقوية عراها؛ لأن رابطة الزوجية من أعظم الروابط وأحقها بالحفظ، وميثاقها أغلظ المواثيق، وأجدرها بالوفاء[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ فالشح طبيعة وجبلّة في الإنسان، قال ابن جبير: «هو شحّ المرأة بالنفقة من زوجها وبقسمه لها أيامها»، وقال ابن زيد: «الشح هنا منه ومنها»، وقال ابن عطية: «وهذا أحسن؛ فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إن تحسنوا وتتقوا في عشرة النساء بإقامتكم عليهن مع كراهيتكم لصحبتهن، واتقاء ظلمهن فهو أفضل لكم[4]، ثم بيّن الله تعالى أن الميل القلبي أمر لا يؤاخذ عليه الإنسان؛ لأنه لا يملكه، وإنما يؤاخذ على الميل الحسي الذي يقع باختياره؛ كميله إلى إحدى نسائه وتفضيلها على غيرها في النفقة، أو في المعاشرة، فهذا لا يجوز.

«فالإحسان والتقوى هما مناط الأمر في النهاية، ولن يضيع منهما شيءٌ على صاحبه، فإن الله خبيرٌ بما تعمله كل نفس؛ خبيرٌ ببواعثه وكوامنه، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى؛ والنداء لها باسم الله الخبير بما تعمل، هتافٌ مؤثر، ونداءٌ مستجابٌ، بل هو وحده الهتاف المؤثّر والنداء المستجاب»[5].

قال الإمام القرطبي: «وهذا خطاب للأزواج...، أي: إن تحسنوا وتتّقوا في عشرة النّساء بإقامتكم عليهنّ مع كراهيتكم لصحبتهنّ، واتّقاء ظلمهنّ، فهو أفضل لكم»[6].

وفي حاشية زاده: «وإن تحسنوا بإمساكهنّ بمعروفٍ وحسن المعاشرة، مع عدم موافقتهن لطباعكم، وتتّقوا ظلمهن بالنشوز والإعراض، فالله تعالى يثيبكم عليه»[7].

«ولا يخفى ما في خطاب الأزواج بطريق

٥/ ٤٠٤.

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٠٦.
(٢) بناء الأسرة المسلمة، خالد العك ص ٣١٤.
(٣) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٢٢٩.
(٤) المصدر السابق ٥/ ٤٠٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٢٥٢.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠٧.
(٧) حاشية محيي الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوي ٢/ ٤٥٠.

الالتفات، والتعبير عن رعاية حقوقهن بالإحسان، ولفظ التقوى المنبئ عن كون النشوز والإعراض مما يتوقّى منه، وترتيب الوعد الكريم على ذلك، من لطف الاستمالة والترغيب في حسن المعاملة»[1].

وفي الآية بيانٌ لحرص الإسلام على حماية الأسرة المسلمة، وحلّ مشكلاتها، ولـمّ شملها، وتنقية أجواء البيت المسلم؛ ليؤدي رسالته المنوطة به، وحثٌّ على إحسان العشرة والتضحية والإيثار والصبر والإحسان.

وقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

لأن الأمر ليس بمقدوركم ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ وفي هذا ظلم لها، وهضم لحقها، وجرح لكرامتها، والواجب على ذلك الزوج الظالم أن يراجع نفسه، ويتقي الله في امرأته التي أهملها ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلابد أن يحرص الزوجان على الصلح لما فيه من الاستقرار العائلي، لاسيما إذا كان لهما أولاد.

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٣٩.

مرحلة الشقاق بين الزوجين:

في حالة عجز الرجل عن علاج نشور زوجته، أو فشل الزوجة في علاج نشوز زوجها، فالحل الحاسم هنا هو اللجوء إلى التحكيم العادل بينهما عن طريق حكمين عدلين من أهل الزوج والزوجة، يجتهدان في الإصلاح بينهما، وتقويم المعوجّ منهما، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

مفترق الطريق:

وإذا تعسّرت السبل، وغلّقت الأبواب، وباءت كل محاولات الصلح بالفشل، حينئذٍ فلا سبيل إلا الفراق، قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠].

إذا استحالت العشرة، وتعذّر الوفاق، فلا بأس بالفراق ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ بطلاقٍ أو خلعٍ ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ من الزوجين ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من فضله وإحسانه، بأن يعوّض الزوج بزوجة صالحة توافقه، ويعوّض الزوجة بزوج صالحٍ يحسن صحبتها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة ﴿حَكِيمًا﴾ يعطي ويمنع، ويفرّق ويجمع، بعلمه تعالى وحكمته.

وناسب هنا ذكر السعة، تقريرًا لما تقدّم من توسعته، قال الرازي: «فهو تعالى واسع الرزق، وواسع الفضل، وواسع الرحمة، وواسع القدرة، وواسع العلم، فلو ذكر تعالى أنه واسعٌ في كذا لاختصّ ذلك بذلك المذكور، ولكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معين، دلّ على أنه واسعٌ في جميع الكمالات»[(١)].

وناسب ذكر وصف الحكمة، لبيان أنه تعالى حكيم في سعته وفضله على عباده، حكيم في أحكامه وأقداره، قال الإمام القرطبي: «وإن لم يصطلحا بل تفرقا، فليحسنا ظنهما بالله، فقد يقيّض للرجل امرأة تقرّ بها عينه، وللمرأة من يوسّع عليها»[(٢)].

وفي الآية وعدٌ من الله تعالى بإغناء كلِّ من الزوجين إذا تفرقا من سعته؛ حتى لا يلتفت كل منهما لغير الله، ولا تعتلج في قلبه همومٌ على مستقبله، ولا حزنٌ وحسرةٌ على ماضيه، وكذلك وصف الحكمة فيه ما يوحي بالرضا والتسليم بأقدار الله تعالى فهي صادرةٌ عن حكمةٍ بالغةٍ، فهذه السعة التي وعد الله به عباده سعةٌ قائمةٌ على حكمته تعالى، وتسليةٌ لكل من ابتلي بالفراق، بأن فرج الله قريبٌ، وفضله واسعٌ.

ومن مآثر حضارتنا الإسلامية الزاخرة بالمآثر والمفاخر والقيم الرائعة: أنه كانت هناك أوقاف لعلاج بعض مشكلات الأسرة، منها أوقاف لسكن الأيامى من النساء اللاتي لا مأوى لهن، حيث تخصص لهن دار يشرف عليها نسوة فضليات يقمن برعاية الأيامى، من هذه الدور: دار الدقة التي كانت بمدينة مرّاكش، وكانت ملجأً للنساء اللاتي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن، فكن يقمن في هذه الدار إلى أن يزول الخلاف الزوجي، وكان على رأس هذه الدار مرشدة تعالج أسباب الغضب، وتهيىء نفوس الزوجات لعودة العلاقة الطيبة بينهن وبين أزواجهن[(٣)].

ثالثًا: التدابير الواقية من العجلة في الطلاق:

إذا كان الطلاق مشروعًا عند استحالة الحياة الزوجية ووصولها إلى طريقٍ مسدودٍ، وتباين الطباع، وتنافر النفوس، واحتدام المشكلات، وتعذّر الحلول، فإن الإسلام يدعو إلى التريّث في اتخاذ القرار، وينهى عن العجلة؛ ذلك أن التسرّع في الطلاق زلزالٌ مفاجئٌ يهدم بنيان الأسرة، ويشتت أفرادها، من هنا شرع الرّجعة في الطلاق، فجعل الطلاق مرتين، مرة بعد

(١) مفاتيح الغيب، ١١/ ٦٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٤٠٨.
(٣) انظر: مجلة رسالة الإسلام السنة الثانية ص٤٢٧، مجلة منار الإسلام السنة الرابعة والعشرين، عدد ٧، ص٨٣.

مرة، كما رغّب في الطلاق السّني، وهو أن يطلّق الزوج زوجته في طهر لم يجامعها فيه، وشرع العدّة في الطلاق الرجعي، وأمر ببقاء المرأة في بيت الزوجية، كلّ هذه التدابير مدعاةٌ لعودة المودة والرحمة والسكن.

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنّان كلّ الظّنّ أن لا تلاقيا[(١)]

شبهات حول الطلاق

مما يشغب به أعداء الإسلام ويرددونه: أن في الإسلام يطلّق الرجل المرأة متى شاء، وليس لها الحق في إنهاء حياتها الزوجية، وأن الطلاق ضرر كبير على المرأة والأطفال، وهدم لأركان البيت.

وقصدهم الطعن في شريعة الرحمن، وصرف الناس عنها لقوانين وضعية جائرة لا تحقّق مصلحة المرأة ولا الرجل ولا البيت، وصدّ الناس عن سبيل الله.

ولاشك أن الطلاق قد يترتب عليه أضرار، لكن بقاء الحياة الزوجية بين زوجين متنافرين متباغضين كارثة كبرى، والإسلام لم يبتدع الطلاق، بل كان معروفًا ومألوفًا في كثير من التشريعات والنظم والأديان والمذاهب ولا يزال، ففي اليهودية نجد ما يدل في العهد القديم على إباحته بلا سبب منصف.

ففي العهد القديم سفر التثنية: «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فلم تجد نعمة من عينيه؛ لأنه وجد فيها عيبًا، فله أن يطلّقها، ويخرجها من بيته»[(٢)].

بل نجد نصوصًا تبيح بيع المرأة، حيث أعطت اليهودية المحرفة للأب سلطة مطلقة على جميع أولاده، فأتاحت له حق بيع

(١) البيت لمجنون ليلى في ديوانه ص١٢٢.

(٢) سفر التثنية ٢٤/ ١.

إحدى بناته إذا احتاج إلى المال.

وقديمًا في اليونان: إلى جانب احتقار المرأة وازدرائها واعتبارها رجسًا من عمل الشيطان، فلقد كانت العذارى من النساء يقدّمن قرابين في المعابد، أما البنت فإنها تابعة لأبيها، يحق له أن يبيعها أو يهبها لمن يشاء، وكذلك الزوجة تعد مملوكةً لزوجها، وكان من حق الزوج أن يطلّق زوجته، ويطردها من بيته متى شاء.

وعند الرومان: كان من حق الأب أن يبيع أي فرد من أفراد أسرته، وكان باب الطلاق مفتوحًا على مصراعيه.

أما الهنود: فلم يكن للمرأة عندهم الحق في طلب الطلاق مهما كانت الأسباب، أما الرجل فكان من حقه أن يتزوج بما شاء من النساء.

وفي الصين: لم يكن يسمح للبنت برؤية من سيتزوجها إلا في ليلة الزفاف، وللزوج الحق في بيع زوجته متى شاء كما تباع الإماء، وما كان للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها مهما كان السبب، أما الرجل فله أن يطلّقها بأي سبب[(١)].

أما الفرس فقد جعلت المزدكية المال والنساء كُلًّا مباحًا، فهتكت الأعراض، واختلطت الأنساب، وعمت الفوضى في المجتمع[(٢)].

بينما لم يرد في الإنجيل نصٌّ صريحٌ في تحريم الطلاق، بل جاء نصٌّ موهمٌ ليس صريحًا لكنه حمّل ما لا يحتمل، وأوقع فهمه الخاطئ، وتفسيره المنحرف النصارى في عنت شديد، وشقاء ونكد؛ إذ ليس من حق الرجل أن يطلّق زوجته، ولا من حق المرأة أن تطلب الطلاق، فتعيش مقهورة مكبوتة في بيت لا تطيقه، وزوج لا ترغبه، ولربما يصل بها الأمر إلى الجنون أو الانتحار، الأمر الذي دفع بعض النصارى إلى التخلي عن هذا الدين الذي يقيّد الحريات، وينتقلوا لدين آخر، أو يقلّصوا دور الدين، ويفصلوه عن الحياة، كما حدث في العلمانية، أو ينسلخوا من الأديان، حتى انتشر الإلحاد في الغرب بسبب فساد النصرانية وتناقضاتها وإفلاسها وعنتها وجمودها وإفلاسها، ومجافاتها للواقع، أو يبتدعوا مذهبًا جديدًا كما وقع في أوروبا حيث ظهرت البروتستانتية كحركة معارضة ومناهضة لكثير من تعاليم الكنيسة، وكان من نتائجها إباحة الطلاق لا بسبب الزنا فحسب، بل بسبب استحالة العشرة بين الزوجين، كذلك لما نشبت الثورة الفرنسية أباحت الكاثوليكية في فرنسا الطلاق، وفي مصر على سبيل المثال لا يزال كثير من

(١) انظر: قصة الحضارة، ديورانت ٤/ ٢٧٤.

(٢) انظر: الملل والنحل، لشهرستاني ١/ ٨٦، مركز المرأة في الشريعة اليهودية، محمد عاشور ص ٩٥ .

الأزواج النصارى يعيشون منفصلين عازبين تحت سقف واحد؛ لأن الكنيسة تحرّم الطلاق إلا في حالة الزنا، وربما كاد الرجل لزوجته ودسّ لها ليدبّر فضيحةً حتى يتخلص منها، ومن غرائب القوانين في الغرب أنه في عام ١٩٢٣م صدر تعديل يسمح للزوجة بطلب الطلاق لخيانة الزوج ولو لمرة واحدة، وأصبح ممكنًا للزوج الذي يرغب في الانفصال عن زوجته أن يقيم ليلة بفندق مع امرأة أخرى مسجلًا ذلك في فاتورة الفندق، أو أن يصوّر نفسه في وضع مخلٍّ مع عاهرة، ويرسل بالصورة إلى زوجته نكايةً فيها، وجرحًا لمشاعرها، وتخلّصًا منها!

ولقد ثار النصارى على الكنيسة، وطالبوا بتغيير هذه التشريعات الجائرة، ولم تسمع لهم الكنيسة، بل تدخلت الدولة في عهد النظام المخلوع لحل هذه المشكلة المزمنة، وسنت قوانين جديدة للنصارى تعتق الأزواج من ربقة النظام الكنسي وتعنته، واستعانت ببعض النصارى في سن هذه القوانين، ثم قدّموها للكنيسة لتطبّقها على رعاياها؛ رفعًا للحرج عنهم، فضرب رؤساء الكنيسة بها عرض الحائط، بل هددوا وتوعدوا من ينفّذ هذا القانون من القساوسة بالعزل.

لقد شرع الإسلام الطلاق لأنه تشريع واقعي متوازن، يلبي حاجة النفس البشرية، ويوازن بين المصالح ويقدّمها على المفاسد، وجعل الطلاق بيد الرجل على أن يمنح المرأة حقها بالمعروف، ويسرّحها بإحسان، فأحاط الطلاق بتشريعات حكيمة، وآداب قويمة، وقيم سامية، بينما كان الأمريكان يعزفون عن الطلاق لغلاء تكاليفه، والآن اتجه العالم الغربي بأسره إلى إباحة الطلاق، بل في دول الشرق التي كانت تحرّمه وتجرّمه كالصين واليابان والهندوس والبوذيين في الهند.

كما جعل للمرأة حق إنهاء الحياة الزوجية بالخلع، أو فسخ العقد إذا اختل فيه شيء، أو كان الزوج مصابًا بما يحول بين المعاشرة، ويحرم المرأة من حقوقها، وهناك أيضًا حق التفريق بين الزوجين، ولها ضوابطها كما في كتب الفقه.

موضوعات ذات صلة

الأسرة، الحدود، النساء، النكاح





عناصر الموضوع

مفهوم الطهارة

أولًا: المعنى اللغوي:

الطهارة لغة:

النظافة، والتنزّه عن الأدناس[(١)]، قال ابن فارس: «الطاء والهاء والراء أصل واحد يدل على نقاءٍ وزوال دنس، ومن ذلك الطّهر خلاف الدنس، والتّطهّر: التنزّه عن الذم، وكل قبيح»[(٢)].

والطّهر بالضم: نقيض النجاسة[(٣)]، والمرأة طاهرٌ من الحيض، وطاهرةٌ من النجاسة ومن العيوب[(٤)].

ممّا سبق يظهر أنّ الطهارة في اللغة إما أن تكون حسية؛ كالطهارة من النجاسة، وإما أن تكون معنوية؛ كالطهارة من العيوب.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

هي «رفع ما يمنع الصلاة من حدث أو نجاسة، بالماء أو رفع حكمه بالتراب»[(٥)]، وعرّفها الدكتور وهبة الزحيلي بأنها: «النظافة من النجاسة حقيقية كانت وهي الخبث، أو حكمية وهي الحدث»[(٦)]، وبالرجوع إلى كتب الفقه نجد تعريفاتٍ أخرى، وكلها متقاربة في المعنى، وتدور حول محور واحد وهو: رفع الحدث، وإزالة الخبث[(٧)].

العلاقة بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي:

الطهارة اصطلاحًا لها معنى خاص يختلف عن المعنى اللغوي، ويشتركان في إزالة الخبث، إلا أن رفع الحدث مما اختص به الطهارة اصطلاحًا.

(١) انظر: تهذيب الأسماء واللغات، النووي ٣/ ١١٨.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٤٢٨.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٨٩.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٥٥.
(٥) المغني، ابن قدامة ١/ ١٢.
(٦) الفقه الإسلامي وأدلته ١/ ٢٠١.
(٧) انظر: المجموع، النووي ١/ ١١، فتح باب العناية، الهروي ١/ ٤١.



الطهارة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طهر) في القرآن الكريم (٣١) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران:٤٢]
الفعل المضارع	٩	﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة:٤١]
فعل الأمر	٤	﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ [الحج:٢٦]
اسم فاعل	٣	﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران:٥٥]
اسم مفعول	٦	﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]
اسم تفضيل	٤	﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨]
مصدر	١	﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾ [الأحزاب:٣٣]
صيغة المبالغة	٢	﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ٤٨﴾ [الفرقان:٤٨]

وذكر أصحاب الوجوه والنظائر عشرة أوجه للطهارة في القرآن[٢]، وزاد بعضهم ثلاثة أوجه أخرى[٣]، لكن كل هذه الأوجه في الأغلب لا تخرج عن معنى الطهارة في اللغة الذي هو النقاء وزوال الدنس، والتنزه عن كل قبيح[٤]، وهي ضربان: حسية، ومعنوية[٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٨-٤٢٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٦٩- ٧١، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣١٨-٣١٩.
(٣) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤١٩- ٤٢٢.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٢٨.
(٥) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٠٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرجس:

الرجس لغةً:

الراء والجيم والسين أصلٌ يدلّ على اختلاطٍ، ومنه: الرِّجس: القذر؛ لأنّه لطخٌ وخلط[(١)].

الرجس اصطلاحًا:

«هو النتن والقذر، قال الفارابي: كل شيء يستقذر فهو رجس، وقيل: الرجس: النجس»[(٢)].

الصلة بين الرجس والطهارة:

إذا كان الرجس هو الشيء الذي خالطه القذر، والطهارة هي إزالة هذا القذر، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

٢ النجس:

النجس لغةً:

النّجس: الشّيء القذر من النّاس ومن كل شيء قذرته، ورجل نجسٌ، وقوم أنجاسٌ[(٣)].

النجس اصطلاحًا:

هو «صفة حكمية توجب لموصوفها منع استباحة الصلاة ونحوها»[(٤)].

الصلة بين النجس والطهارة:

إذا كان النجس وصفًا يمنع أداء العبادة على الوجه المطلوب، والطهارة هي إزالة ذلك النجس وتلك القذارة حتى يمكن أداء العبادة على الوجه المطلوب، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٧.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، ١٩/ ١٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٠/ ٣١٣.
(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية، ٨/ ٥٦.



٣ الخبث:

الخبث لغةً:

الخبيث ضد الطيب، وخبث خبثًا وخباثةً وخباثيةً، وهو النجس[١].

الخبث اصطلاحًا:

هو «العين المستقذرة شرعًا، أي: النجاسة الحقيقية»[٢].

الصلة بين الخبث والطهارة:

الخبث نجاسة حسية، وإزالة هذه النجاسة ورفع هذا الخبث يسمى طهارة، إذن فالعلاقة بينهما علاقة تقابل وتضاد.

٤ الطّيب:

الطيب لغةً:

الطيب خلاف الخبيث، إلا أنه قد تتسع معانيه حسب ما يضاف إلى الطيب، فمثلًا يقال: أرضٌ طيبة للتي تصلح للنبات، وريحٌ طيبة إذا كانت لينة، وطعمةٌ طيبة إذا كانت حلالًا[٣]، ويقال: شيء طيب إذا كان طاهرًا نظيفًا[٤]، وماء طيب إذا كان عذبًا أو طاهرًا[٥].

الطيب اصطلاحًا:

«ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعام الطّيّب في الشّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طيّبًا عاجلًا وآجلًا لا يستوخم، وإلا فإنه -وإن كان طيّبًا عاجلًا- لم يطب آجلًا»[٦].

الصلة بين الطيب والطهارة:

الطيب صورة من صور الطهارة، فالطيب طاهرٌ، سواء كان طيبه حسيًّا أو معنويًّا.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ١/ ١٦٨.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، ١٦/ ٤٧.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٥، مختار الصحاح، الجوهري ص١٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٢٨١.
(٤) المغرب، المطرزي، ص ٢٩٦.
(٥) تاج العروس، الزبيدي، ٢/ ١٩١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٧.

الحث على الطهارة

تنوّعت أساليب القرآن الكريم في الحثّ على الطهارة، وبيان منزلتها، بين الأسلوب المباشر كالأمر الصريح، وغير المباشر كالثّناء على أصحاب الطهارة، وذكر محبة الله تعالى للمتطهرين، وضرب أمثلة ممّن اتصف بالطهارة، مثل: أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن، وزوجات أهل الجنّة.

أولًا: الأمر الصريح:

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

يأمر الله تبارك وتعالى نبيّه الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم بأخذ الصدقات وجمعها؛ تطهيرًا للأموال، وتزكية للنفوس، وهذا أمر صريحٌ من الله تعالى في فعل ما هو مطهّرٌ لهذه الأموال التي بين أيدينا، بل ويطهّر النّفس من أن تتعلّق بهذا العرض الزائل.

قال سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

وهذه الآية نزلت في الصحابي أبي لبابة، ونفرٍ معه رضي الله عنهم، كانوا قد تخلّفوا عن غزوة تبوك، وهم الذين قال الله فيهم في الآية السابقة للآية التي بين أيدينا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

المراد بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيّئ: اعترافهم بذنوبهم، وتوبتهم منها، والآخر السيئ هو تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرج غازيًا، وتركهم الجهاد مع المسلمين، وكانوا قد ربطوا أنفسهم بسواري المسجد النبوي عند عودة النبي صلى الله عليه وسلم من الغزوة، وقالوا: لا نطلق أنفسنا حتى يأمر الله تعالى فينا، فنزلت الآية، فأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: جاؤوا بأموالهم -يعني: أبا لبابة وأصحابه- حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا، واستغفر لنا! قال: ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئًا! فأنزل الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾.

وهنا يتبادر إلى الذّهن سؤال: إذا كان هذا هو سبب نزول الآية فهل يكون الأمر بأخذ الصدقة خاصًّا فيمن نزلت فيهم الآية؟

الجواب: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه تحمل الآية على عمومها، فيكون الخطاب موجّها للنبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الصّدقة منهم ومن غيرهم، بل ويشمل كل إمام للمسلمين

من بعده عليه الصلاة والسلام[1].

ومعنى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ أي: تطهّرهم، ولكن ما الحكمة من ذكرها مباشرة بعد قوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾؟

يقول الرازي رحمه الله: «واعلم أن التزكية لما كانت معطوفة على التطهير وجب حصول المغايرة، فقيل: التزكية مبالغة في التطهير، وقيل: التزكية بمعنى الإنماء، والمعنى: أنه تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب إخراج قدر الزكاة سببًا للإنماء، وقيل: الصدقة تطهّرهم عن نجاسة الذنب والمعصية، والرسول عليه السلام يزكّيهم ويعظّم شأنهم، ويثني عليهم عند إخراجها إلى الفقراء»[2].

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

هذا أمر مباشر صريح في تطهير الثياب، ولكن ما المراد بالثياب في الآية؟ وما المقصود بتطهيرها؟

الثياب في اللغة تطلق ويراد بها: حقيقة الثياب، وهي الملابس التي نرتديها، وتطلق ويراد منها المعنى المجازي، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فالمراد منها في الآية: الأهل[3]، والطهارة -كما مرّ معنا- تطلق على الحقيقة والمجاز، وعليه تنوّعت أقوال المفسرين في المقصود بقوله سبحانه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤][4].

وخلاصة ما ذكروه أنها تحتمل الوجهين المجازي والحقيقي؛ المجازي بتطهير النفس من المعاصي وسيء الأخلاق، والحقيقي بتطهير الثياب من النجاسات[5].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

والمقصود من تطهير البيت في الآية: تطهيره من الأصنام، وعبادة الأوثان فيه، ومن الشرك بالله.

وقيل: تطهيره من الكفار، وقيل: تطهيره من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث[6].

قال الألوسي رحمه الله: «المراد بالطهارة ما يشمل الحسية والمعنوية»[7].

---

(١) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي ١١/ ٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٥٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٢٠٩-٢١٠.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٢-٤٥.
(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٢٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٢٩٧.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٦٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٧٧.
(٧) روح المعاني، الألوسي ٩/ ١٣٦.

ومن حكمة هذا التطهير: تعظيم بيت الله الحرام، وتهيئته ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ وهم ضيوف الرحمن، الزائرون له من حجاج ومعتمرين، والمقيمون فيه من أهله، أو غيرهم ممن يعتكف في المسجد، أو المجاورين له[1]، ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلّين: لأن الركوع والسجود هيئات المصلي، وفي سورة الحج: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦][2].

وهل يفهم من هذه الخطاب شمول جميع بيوت الله تعالى في الأمر بتطهيرها وتنزيهها؟

قال القرطبي رحمه الله: «لما قال الله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة، وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها، أو لكونها أعظم حرمة»[3].

ومن هذه الآية نستنتج:

أمر الله تبارك وتعالى بتطهير البيت الحرام من النجاسات والآفات، حسية كانت أو معنويّة، ومن دخول الكفار إليه، ومن كل مظاهر الشرك.

والأمر وإن كان لإبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فإنه يشمل من يأتي بعدهما.

ولا يقتصر الأمر على البيت الحرام، بل يتعداه ليشمل جميع بيوت الله تبارك وتعالى، فعلى المسلم التأسّي بأبي البشر وابنه عليهما الصلاة والسلام وأن يحرص على تطهير بيوت الله تعالى ورعايتها.

وإنّ أعظم ما يكون به معنى الرعاية الحقيقية لبيوت الله تبارك وتعالى، هو عمارتها بما هي غايته، وهو إقامة الصلاة وذكر الله جل وعلا.

قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

وهذا المعنى يتجسّد فيه مقصد الإسلام من تزكية النفس وتطهيرها، وزيادة الإيمان وصفاء القلب، وبه يبني الإنسان حصنًا متينًا يردعه بإذن الله تعالى من ارتكاب الفواحش واقتراف الآثام، فيعيش طاهرًا عفيفًا، نقيًّا تقيًّا.

ثانيًا: محبة الله تعالى للمتطهرين:

ذكر الله تعالى حبّه لعباده المتطهرين صراحة في موضعين.

قال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٨٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ٩٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٤٠٥-٤٠٦.

﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

السّياق هنا حول طهارة المرأة من الحيض، وإتيانها من حيث أحل الله تعالى، ولاشك أنّ هذا من الطهارة الحسيّة، ولكن حين يكون التعقيب بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ نجد أن المسألة امتدت للبعد المعنوي، وهذا من أظهر الدلائل على وجود رابط وثيق بين الطهارتين: الحسية والمعنوية، فلا تكاد تنفك إحداهما عن الأخرى، فما الرابط بينهما في هذا الموضع؟

نهى الله سبحانه وتعالى عن إتيان النساء وقت الحيض، والمقصود أن الجماع في هذا الوقت محرّم، فعن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي عليه الصلاة والسلام، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

إلى آخر الآية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)[١].

وفي الآية أمرٌ بإتيان النّساء من حيث أمر الله تعالى، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: يعني الفرج[٢]. وليس أحدٌ معصومًا من الخطأ، والوقوع في ذلك وارد، ففتح الله تبارك وتعالى برحمته وفضله باب التوبة، بل رغّب فيه، وجعل التوابين صنفًا ممن يحبهم سبحانه.

وحتى لا يسوّل لأحد أن يقول: أعصي ثم أتوب؛ فالله تعالى يحب التوابين!، جاء التعقيب: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فلاشك أن منزلة الطهارة على أصلها، أرفع من أن يتلطّخ المرء بالذنب، ثم لا يدري: أيدرك التوبة، أم تسبقه المنيّة؟ وإن قدّمها -أي: التوبة- فهو لا يدري أتقبل منه أم ترد؟ ومع هذا، فلا يأس مع الرحمة الواسعة من الإله الكريم؛ لأنه غفور حليم، يحب ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ وهي من صيغ المبالغة، وفيها معنى تكرر التوبة لتكرر الذنب[٣]، ويحب سبحانه ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المتنزّهين عن الأقذار الحسية والمعنوية، فيدخل فيها المتطهّرون من الجنابة والأحداث، ويدخل فيها التطهّر بالتوبة من الذنب، سواءٌ كان هذا الذنب من إتيان النساء في أدبارهن، أو إتيانهن حال الحيض[٤].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله وطهارة سؤرها والاتكاء في حجرها، ١/ ٢٤٦، رقم ٣٠٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٥١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٩٣، التفسير الواضح، محمد حجازي ٢/ ١٣٢.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث...، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال الخسيسة»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨].

سورة التوبة من السور الفاضحة للمنافقين[(٢)]، وهنا يفضح الله تعالى سرًّا من أسرارهم، ويكشف لرسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة المسجد الذي بنوه؛ ذلك أنّ رجلًا من الخزرج يسمى أبا عامر الرّاهب، قد حمل في نفسه كل الحقد والكراهية للإسلام، وساءه قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرًا من مكة إلى المدينة، فوصل به الأمر أن كان في صف قريشٍ يوم أحد، وبعدها رحل مستنصرًا بهرقل ملك الروم فوعده بالنّصر، وبدأ يراسل المنافقين في المدينة، وأمرهم ببناء مسجدٍ يكون لهم مقرًا لتجمعهم، ومرصدًا يرصدون به أخبار المسلمين وتحركاتهم، وحتى يثبتوا شرعية مسجدهم -وليس له من اسم (المسجد) أدنى نصيب-، دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة فيه[(٣)].

ففضحهم الله تعالى من فوق سبع سماوات، وكشف خبثهم ومكرهم، ونهى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذهب إليهم، فما مسجدهم إلا رجسٌ ونجس، ومرتع لثلّة من الخبثاء -حاشا للمساجد أن تكون بؤرًا لدنس قوم كهؤلاء-، ثمّ يأتي الالتفات إلى منارة المتقين، ومورد المتطهرين، إنّه المسجد الذي أسّس على التقوى من أوّل يوم، قيل: هو مسجد قباء، وقيل: المسجد النبوي[(٤)].

وعلى أية حال فكلاهما بني على تقوى الله تعالى، بل انظر إلى المفهوم الأوسع.

يقول ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

«دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٧-٣٦٨.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥١٩.

والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتنزه عن ملابسة القاذورات»[1].

والمتأمّل في سياق الآية، ربّما يظنّ من الوهلة الأولى أن المراد بالطهارة هنا: هو طهارة القلب والنّفس؛ فالسياق يدور حول التحذير من مرتعٍ للمنافقين، والالتفات إلى ما هو خير منه، حيث المؤمنون الطاهرون، ولكنه التداخل الذي لا ينفك، من ارتباط الطهارة الحسية بالمعنوية.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (نزلت هذه الآية في أهل قباء) ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال: (كانوا يستنجون بالماء، فنزلت هذه الآية فيهم)[2].

وهذا لا يعني أن الطهارة المعنوية غير مرادة في الآية، بل دلالة السياق، والمعنى من حيث اللغة يحتمل الوجهين، قال أبو العالية: «إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهّرون من الذنوب»[3].

«ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لابد أن يسعى له، ويجتهد فيما يحب، فلابد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ، والأحداث؛ ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله»[4] عليه الصلاة والسلام.

ومعنى محبتهم للتطهر: أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء؛ فلذلك أحبهم الله وأحسن إليهم، كما يفعل المحب بمحبوبه[5].

ثالثًا: الثناء على أصحاب الطهارة:

أثنى الله تبارك وتعالى على رسله وأنبيائه، فهم دعاة الطهارة، وقدوة الناس فيها، فهذا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أطهر خلق الله تعالى، أثنى الله سبحانه وتعالى على خلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وأرسله الله سبحانه طاهرًا ومطهرًا، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
(٢) أخرجه أبو داود في صحيحه، كتاب الطهارة، باب في الاستنجاء بالماء، ١/ ١١، رقم ٤٤، والترمذي في سننه، أبواب التفسير، سورة التوبة، ٥/ ٢٨٠، رقم ٣١٠٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء بالماء، ١/ ١٢٨، رقم ٣٥٧.
قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».
وصححه الألباني في إرواء الغليل ١/ ٨٤-٤٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٠.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٢.
(٥) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢١٠.

﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: ١٦٤].

وقدّم سبحانه التزكية على التعليم لبيان أهميتها، والمقصود: «يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كان فيهم من دنس الجاهلية، أو من خبائث الاعتقادات»[(١)].

والصحابة الكرام رضي الله عنهم هم أكثر النّاس اطلاعًا على سنّته صلى الله عليه وسلم، وهم أكثر حرصًا على اتباعها، وقد ذكر الله تعالى كثيرًا من صفاتهم في كتابه، وأقف هنا مع آيتين كريمتين تبيّنان ما في قلوبهم رضي الله عنهم من الطهارة والسّلامة.

يقول جل ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[الحشر: ٩-١٠].

يذكر لنا الله تبارك وتعالى حال قلوب الأنصار الذين تبوؤا المدينة وسكنوها من قبل إخوانهم المهاجرين الذين أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم أموال الفيء، الذي امتن الله به عليهم من أموال بني النضير بعد أن أجلوهم من المدينة؛ وذلك إثر غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقضهم ميثاقه[(٢)].

وهم مع صفاء قلوبهم على إخوانهم المهاجرين، يؤثرونهم على أنفسهم مع ما بهم من الحاجة، والإيثار كما يقول القرطبي رحمه الله: «هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية؛ وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[(٣)].

يقول حجازي رحمه الله: «وهذا بلاشك يدل على صفاء النفس من أكدار المادة والدنيا، ويدل على قوة الروح، ومبلغ العزوف عنها، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لا غير، فالشح داء عضال لا يصدر عنه خير، وهو سبب الكثير من الجرائم»[(٤)].

ثم يعرّج الله تبارك وتعالى على الذين جاؤوا من بعد هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، وهم التابعون لهم بإحسان،

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٣٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٨/ ٤٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٨.

(٤) التفسير الواضح، ٢٨/ ١٩.

يتبعون آثارهم الحسنة، وأوصافهم الجميلة، ويدعون لهم في السر والعلانية(١).

ويؤكدون على معنى الطهارة القلبية من الحسد والغلّ تجاه إخوانهم المؤمنين، فمن دعائهم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا يدل على صفاء قلوبهم، وشدة حبهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا صدّيق الأمة: أبو بكر رضي الله عنه، أوّل من آمن من الرجال، وأول من صدّق حبيبه صلى الله عليه وسلم بخبر الإسراء والمعراج، جاد بنفسه قبل ماله، فاستحق ثناء ربّه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٤-٢١].

يقول ابن عطية رحمه الله: «ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بـ ﴿الْأَتْقَى﴾ إلى آخر السورة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات»(٢).

وأثنى الله تعالى على أهل قباء، فقاله سبحانه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

يقول ابن العربي رحمه الله: «هذا ثناء من الله تعالى على من أحب الطهارة، وآثر النظافة، وهي مروءة آدمية، ووظيفة شرعية»(٣).

ويثني الله تعالى على كل من يسعى لتزكية نفسه وتطهيرها من دنس المعاصي، ورذائل الأخلاق، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

يقول السعدي رحمه الله: «قد فاز وربح من طهّر نفسه، ونقّاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق»(٤).

رابعًا: وصف زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بالطهارة:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

هذه الآية العظيمة تتجلى فيها عناية الله سبحانه ببيت حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، وحتى نفهم ما في هذه الآية من المعاني العظيمة، والحكم الجليلة، لابد من تسليط الضوء على السياق الذي وردت فيه.

يقول تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٣.
(٢) المحرر الوجيز، ٥/ ٤٩٢.
(٣) أحكام القرآن، ٢/ ٤٥٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص٩٢١.

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾
وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ
فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ
يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ
وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ
لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا
تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ
قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ
فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٤].

وبعد هذا الخطاب والتوجيه بكل ما حواه من التشريف والتكليف، تتجلى حكمته، وتأتي ثمرته: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إنها العناية الخاصة من الله تعالى ببيت حبيبه صلى الله عليه وسلم، يتولى سبحانه أن يذهب كل ما من شأنه أن يخدش بطهارة هذا البيت وأهله الكرام، ويريد تعالى أن يطهّرهم تطهيرًا.

والرجس: «اسم يقع على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسات والنقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت»[(١)]، وفيه صورة بيانية؛ إذ «استعار للذنوب: الرجس، وللتقوى الطهر؛ لأن عرض المقترف للمقبحات يتلوّث بها، ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفّر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده، ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به»[(٢)].

والمراد بأهل البيت: أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين[(٣)].

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مرطٌ مرحلٌ[(٤)] من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٥)].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٤.
(٢) الكشاف، الزمخشري ص٨٥٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٦٣.
(٤) هو كساء عليه صور رحال الإبل.
انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم، النووي ٨/ ١٩٧-١٩٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تأتي هذه الآية ختامًا لما تقدم من الأوامر الإلهية لحفظ بيت النبوة وتطهيره؛ لينطلق منه النور، ويرسل شعاعه في العالمين، ينقل لهم ما نزل فيه من القرآن الكريم، وما نطق به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم من الحكمة، وهي: ما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحكام دين الله، ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة[1]، «وهذا التذكير يجيء كذلك في ختام الخطاب الذي بدأ بتخيير نساء النبي صلى الله عليه وسلم بين متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإيثار الله ورسوله والدار الآخرة، فتبدو جزالة النعمة التي ميّزهن الله بها؛ وضآلة الحياة الدنيا بمتاعها كله وزينتها»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ «إن الله كان ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة، خبيرًا بكن؛ إذ اختاركن لرسوله أزواجًا»[3].

وفي صورة أخرى من صور العناية الإلهية ببيت النبوة يأتي الأمر الإلهي للصحابة الكرام رضي الله عنهم: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والمتاع: عام في جميع ما يمكن أن يطلب على عرف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا[4].

و«تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم»[5].

«وفي هذا أدب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه»[6].

وما أحوجنا في هذا الزمن إلى الالتزام بهذه التعاليم السمحة، والأخلاق الراقية، وما فساد كثير من بيوت المسلمين اليوم إلا بسبب إهمال المرأة لأسرتها، وعدم اهتمامها ببيتها، بل أصبحت العناية بالتزين للخروج إلى السوق والعمل يشغل كثيرًا من النساء على حساب العناية بالزوج والتزين له، وأصبح كثير من الرجال تلاحق أنظاره المتبرجات من النساء، ولا يكتف بما أحل الله تعالى له في زوجته، فانعكست المفاهيم، وضاع كثير من البيوت، وتشتّت

فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ٤/ ١٨٨٣، رقم ٢٤٢٤.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٦٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٢.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٩٦.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٦٧.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٨٩.

الأسر، وغدت العيادات النفسية، ودور الشعوذة والدجل تعجّ بالتائهين الباحثين عن علاج لمشكلاتهم الأسرية، ولو أنهم عادوا إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام، لاستقرّت أوضاعهم، وعاشوا في سعادة وهناء، وطهارة ونقاء.

خامسًا: وصف نساء أهل الجنة بالطهاة:

الحور العين نعيمٌ أعدّه الله تعالى لأهل الجنة، وذكره في وصف الجنة ونعيمها في أكثر من موضعٍ في القرآن الكريم، وبيّن عددًا من صفاتهنّ وسماتهنّ، ومنها: طهارتهنّ، ووصفهنّ بالطهارة صراحةً جاء في مواضع ثلاثة:

١. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

٢. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

٣. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

عند تأمّل الآيات السابقة يلاحظ أن هذه الزوجات الطاهرات هنّ مكافأة وجزاء لأهل الطهارة في الدنيا المتقين؛ الذين رضوا بالله ربًّا، واستقاموا على عمل الصالحات، فاستحقوا بإذن ربهم زوجات طاهرات؛ جزاء لهم أن حفظوا عهود ربهم ومواثيقه عليهم، فالتزموا بالطهارة ظاهرًا وباطنًا، وبتأمل السياق لكل آية أجد أنّ لها جوها الذي يميزها، ومعطياتها التي تتفق مع حال المخاطبين وأحوالهم.

ففي سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥].

وقبل هذه الآية ذكر تعالى حال الكافرين، وقال عن مصيرهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

«لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من

الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة»[1].

«وهكذا جرت العادة في القرآن -غالبًا- متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب بالمؤمنين وما لهم وبالعكس؛ لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللطف والعنف؛ لأن من الناس من لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف، ومنهم من هو بالعكس»[2].

والبشارة: أصلها الخبر بما يسر المخبر به[3]، وسمّيت بذلك لما يظهر من أثر على البشرة بتغيرها[4].

وعند تأمّل هذه الآية نجد فيها: «ذكر المُبَشِّر والمُبَشَّر والمُبَشَّر به، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمُبَشِّر: هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومن قام مقامه من أمته، والمُبَشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمُبَشَّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة، على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب»[5].

وفي آية آل عمران نجد موازنة وتفاضلًا بين أمرين، بين ما في الدنيا من شهوات زائلة فانية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وبين النعيم الدائم في جنات الخلود: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

«وفي هذه الآية تسلية عن زخارف الدنيا، وتقوية لنفوس تاركها، وتشريف الالتفات من الغيبة إلى الخطاب؛ ولما قال: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ﴾ فأفرد، جاء ﴿بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡ﴾ فأفرد اسم الإشارة»[6].

وفي سورة النساء يأتي السياق بذكر أحوال أهل النار أعاذنا الله منها وما يلاقونه من أشد العذاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ٥٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٤.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ١١٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٢٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٧٥.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٣٩٩.

وكعادة القرآن في الوعد والوعيد يأتي بعد ذكر هذه الحال المخزية لمن تنجسّت قلوبهم بدنس الكفر بالله عز وجل، ذكر مآل المؤمنين الطاهرين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

روي عن بعض السلف أنّ معنى ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من النجاسات والقذارات الحسية، و«لكن ظاهر اللفظ يقتضي أنهن مطهرات من كل ما يشين؛ لأن من طهّره الله تعالى ووصفه بالتطهير كان في غاية النظافة والوضاءة»[(١)]. فلفظ ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة[(٢)].

وجاء وصف نساء أهل الجنة بالطهارة عمومًا، حتى يكون المعنى شاملًا جامعًا لما يتناوله من معان الطهارة «فلم يقل: (مطهّرة من العيب الفلاني) ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهّرات الأخلاق، مطهّرات الخلق، مطهّرات اللسان، مطهّرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعّل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهّرات الخلق أيضًا، بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهّرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح»[(٣)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ١١٨.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦-٤٧.

أنواع الطهارة

أولًا: الطهارة المعنوية:

الأصل أن تكون البداية مع المحسوسات؛ لأنها الطريق المؤدي لمعرفة الماديات وإدراكها، ولكن لما كانت الطهارة المعنوية هي الأصل، والطهارة الحسية فرعٌ منها بدأت بها، وهنا سأسلّط الضوء على الجوانب التي يشملها معنى الطهارة المعنوية:

١ . الطهارة من الشرك.

إن أعظم نجاسة يتلطخ بها المرء هي الإشراك بربه وقد خلقه ورزقه؛ ولذلك استحق المشركون بأن يصفهم الله تعالى بـ(النّجس) فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

«لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس؛ ولأنهم لا يتطهّرون، ولا يغتسلون، ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملابسة لهم، أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها»[1].

يقول سيد رحمه الله: «يجسّم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس، يستقذره الحس، ويتطهر منه المتطهرون! وهو النجس المعنوي لا الحسي في الحقيقة، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها، إنما هي طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم»[2].

ومع وجود الآيات والشواهد الدالة على وحدانية الله جل وعلا، نجد أكثر الناس أبى إلا كفورًا؛ ولذا حذرنا المولى تبارك وتعالى من الكفر والشرك أشد الحذر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فوصف الله تعالى الشرك: بالإثم العظيم، وفي موضع آخر وصفه بالضلال البعيد: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

ولذا كان الشرك من أعظم الموبقات، وأكبر الخطيئات التي تؤدي بصاحبها إلى الهلكات، ومنه حذرنا حبيبنا الرحيم بنا محمد صلى الله عليه وسلم، وجعله من السبع الموبقات المهلكات، وما ذاك إلا لخطورته وشناعته.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات)، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال

(١) الكشاف، الزمخشري ص٤٢٩.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦١٨.

اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلّظة، ونجاسة مخفّفة، فالمغلّظة الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، والمخفّفة الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به، وخوفه، ورجائه»[2].

وبيّن لنا الله تبارك وتعالى خطورة الشرك على الأعمال الصالحة، كيف أنه يمحقها، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ولذلك لا يقبل من أحدٍ عملًا مهما كان فيه من منفعة وإحسان إلا أن يكون لوجه الله تعالى خالصًا، من قلبٍ لا يشرك بالله أحدًا ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا لقمان الحكيم يوصي فلذة كبده، ويعطيه خلاصة الحكم والدروس، وعلى رأسها عبادة الله وحده لا شريك له، فيبدأ وصاياه ويستهلّها بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

و«وجه كونه عظيمًا أنه لا أفظع وأبشع ممن سوّى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كله، وسوّى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه...، وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده فذهب بنفسه الشريفة فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا»[3].

وهذا نبي الله عيسى ابن مريم الطاهر ابن الطاهرة عليه السلام يتولى الله تعالى تطهيره وتخليصه من دنس الكفر والكافرين: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

يقول ابن عطية رحمه الله: «حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه، واستعمل ذلك في السب والدعاوى والآثام وخلطة الأشرار ومعاشرتهم، تشبيهًا لذلك كله بالأدناس، فطهّر الله العظيم عيسى من دعاوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له»[4].

٢. الطهارة من المعاصي.

الراجح من عقيدة المسلمين أن الإيمان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، ٨/ ١٧٥، رقم ٦٨٥٧ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، ١/ ٩٢، رقم ٨٩.
(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٥٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٤٨.
(٤) المحرر الوجيز، ١/ ٤٤٤.



يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية[1].

والعاقل يدرك هذا المعنى، فتعظم في نفسه المعاصي، وتشتدّ عنده حرمتها، ولو كانت في أعين الغافلين هيّنةً صغيرة؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة كبيرة، والذنوب تأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون ما المفلس؟) **قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)**[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقالت اللوطية: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فأقرّوا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهّرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]»[3].

وفي سورة الإسراء يوجّه الله تبارك وتعالى مجموعة من الوصايا لعباده[4]، بدأها بإفراده سبحانه بالعبادة، وأردف مع التوحيد الوصية بالوالدين إحسانًا، وتوالت التعليمات والوصايا، وكان منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فلم يكتف الشارع بالأمر بترك الزنا فقط، أو تحريمه فحسب، بل منعنا الله تبارك وتعالى من مجرد الاقتراب منه.

يقول السعدي رحمه الله: «والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: **(من حام حول الحمى يوشك**

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العزّ ٢/ ٥١١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨١.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٥٣-٥٤.

(٤) من الآية ٢٢ إلى ٣٩.

أن يقع فيه»[1].

ووصف الله الزنا بأنه ﴿فَاحِشَةً﴾ أي: «إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد»[2].

يقول حجازي رحمه الله: «الزنا عادة تتنافى مع مبادئ الإنسانية الأولى، لم يقرّه شرع أبدًا، ولم يؤيده قانون، فيه هتك الأعراض، واختلاط الأنساب، وقضاء على الحرمات، وتقويض[3] دعائم الاجتماع والعمران، وما شاع الزنا في قوم إلا ابتلاهم الله بالأمراض والأوجاع، وسلّط عليهم الفقر والذل والهوان»[4].

ولشدة عظم هذه الكبيرة عند الله تبارك وتعالى جعل الاقتراب منها منهيًا عنه، سواء كان نظرًا أو خلوة، أو مصافحة، أو غيرها، ولو التزم أفراد المجتمع بهذه التعاليم الإلهية لطهرت بيوتهم، ولأمنوا على أعراضهم، فالزنا جريمة متعدية، وقد سبك الإمام الشافعي رحمه الله دررًا من شعره في التحذير منه، فقال[5]:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم
وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته
كان الزنا من أهل بيتك فاعلم

ومن الذنوب الكبيرة التي لها أثر عظيم في فساد النفوس وتلويثها: اللواط، وهي فعلة شاذة، حتى الحيوانات العجماوات التي لا عقل لها ولا حس لم يذكر فيها أن نزا فحل على آخر، ولكنّها النفوس المريضة من بني البشر، وها هم قوم لوط عليه الصلاة والسلام بعد أن استفحل فيهم الأمر واستهانوا به، صار عندهم عادة طبيعية، بل أكثر من ذلك!

فقد جرّموا نبي الله فيهم عليه السلام وآله الأطهار، وليت شعري بأي جريمة رموهم؟ إنها جريمة الطهارة! ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ضاعت عقولهم، وسلبت قلوبهم، فقلبوا الموازين، وتركوا ما أحل الله لهم من النساء، وفعلوا فعلتهم النكراء، فاستحقوا أن خسف الله بهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٤٥٧.

(٣) التقويض نقض من غير هدم، وقولهم: قاض البناء هدمه.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٦.

(٤) التفسير الواضح، ١٥/ ٢٣.

(٥) ديوان الإمام الشافعي ص١٠٣.

﴿عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

ويهدد الله القوي العزيز، كل من تسوّل له نفسه بتلك الجريمة البشعة، فيقول محذّرًا ومتوعّدًا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

٣. الطهارة من أمراض القلوب.

القلب وسلامته من الآفات والأمراض مطلب مهم، وغاية تسمو لها أرواح المؤمنين؛ لأنهم يدركون مدى أهمية تطهيره مما يشوبه من الأدناس والأرجاس، فبصلاحه صلاح النفس، وتفسد بفساده، قال صلى الله عليه وسلم: **(ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)**(١).

وقد بيّن الله تبارك وتعالى ما ينجّي العبد يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

فالقلب السليم الطاهر هو من يأتي يوم القيامة فائزًا.

وأمراض القلوب يدخل فيها الشرك والشهوات (المعاصي) وقد تقدم ذكرها، وهنا أقف على أنواع أخرى منها قد تعرّض لها القرآن الكريم، وبيّن لنا مدى خطرها على طهارة القلب وسلامته، وهي: النفاق والهوى والكبر والحسد والغلّ.

حذرنا الله تبارك وتعالى من مرض النفاق، وتوعّد المنافقين بالعذاب الشديد، فقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وخطورة المنافق أشد من خطر الكافر؛ لأنه يخفي عداوته، فيفسد في صفوف المسلمين، وينشر بينهم سمّه وخبثه، ولذا كان جزاؤهم أنهم ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[النساء: ١٤٥].

ومن الأمراض الخطيرة على القلب اتباع الهوى، فالله جل وعلا أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ووضع الأدلة والبراهين الدالة على الحق المبين، فيدركه الإنسان عقلًا ونقلًا، وأما إن صدّ عنه واتّبع هواه.

فقد توعّده الله جل في علاه ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وضرب الله تعالى لنا مثلًا فيمن جاءه الحق وعرفه، ولكنه أبى إلا أن يصد عنه ويتبع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ١/ ٢٠، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

هواه، فكان له مثل السوء: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

وفي المقابل بيّن الله تعالى جزاء المتقين، الذين لا يستجيبون لهوى نفوسهم إيثارًا لرضا ربهم، فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

ومن الأمراض التي تدنس القلب: الكبر، فقد خلق الله جل وعلا البشرية من ماء مهين، ولم يجعل لهم ما بأيديهم من نعمه عليهم، من المال والبنين، وغيرها، إلا لينفع بعضهم بعضًا: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢].

فليست هذه النّعم للتفاوت والتفاضل؛ لأن معيار التفاوت هو المسارعة في الخيرات، والتزود بالطاعات ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا قارون لما تكبّر على خلق الله، وتطاول على خالقه ومولاه، جعله الله عبرة وعظة: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [القصص: ٨١].

ومن خطورة هذا المرض: أن يعمي البصيرة، فيرى الإنسان أمامه الشواهد والدلائل، ولكنه لكبره يعرض عنها ويدبر ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [النمل: ١٤].

ومن حسرة أهل النار يوم القيامة أعاذنا الله منها يوم أن يروا العذاب قد أحاط بهم، فيندموا على ما فات من خبيث أعمالهم، ويقول قائلهم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩].

فهذا الشحّ الذي لطّخ قلوبهم، حملهم على أن تكبّروا على خلق الله، فلم تنفعهم تلك الأموال، بل دنست قلوبهم، وجعلتهم يتسلطون على الناس بغير حق، فاستحقوا العذاب من ربهم.

ومن أمراض القلوب الحسد، وهو داء خطير، وشرٌّ مستطير، به قتل الأخ أخاه، كما في قصة قابيل وهابيل، وبسببه عاند اليهود، فلم يؤمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، مع إيقانهم بصدق نبوته، بل لشدة حسدهم أرادوا أن يصدوا المسلمين عن دينهم ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وأما المؤمنون الطاهرون، فيسألون الله تبارك وتعالى أن ينزّههم عن هذا النجس فيقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

ثانيًا: الطهارة الحسية:

١ . الطهارة من النجاسات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٢٨].

هذه الآية وإن كان الراجح فيها أن النجاسة المرادة هي نجاسة الباطن بالشرك، إلا أن فيها معنى النجاسة الحسية؛ ذلك أن المشركين بعيدون عن شرع الله تعالى، وأحكام دينه المقتضية من عباده البعد عن النجاسات والتطهر منها، كما هو حال المسلمين مع الوضوء والاغتسال والاستنجاء وغيرها من الأمور التي يتحصّل بها التحرز من النجاسات والتطهر منها، وبهذا يصح أن يكون المراد بنجاسة المشركين هذا المعنى الحسيّ تبعًا على أن الأصل هو نجاستهم المعنوية.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

في هذه الآية، يأمر الله تبارك وتعالى حبيبه وصفيّه محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم، بتطهير الثياب، والمراد: تطهيرها حسًّا ومعنًى، وقد كان المشركون لا يتطهّرون، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتطهّر، وأن يطهّر ثيابه(١).

وقال بعضهم: المراد بالثياب: الجسم، وتنظيفه يكون عن النجاسة، وهو آكد وقت الصلاة، ومندوب في غيرها، والدليل على أنه التنظّف للصلاة قوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

وقيل: المراد بتنظيف الثياب: تقصيرها حتى لا تقع على النجاسات(٢).

يقول ابن القيم رحمه الله: «الآية تعم هذا كله، وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظًا؛ فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة...»، والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها»(٣).

ويؤكّد هذا المعنى الشيخ السعدي رحمه الله بقوله: «وإذا كان مأمورًا بتطهير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٩.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٢-٤٥، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١٣٢.
(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٥٠.

الظاهر فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن»[(١)].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما النجاسات التي أمرنا الله تعالى بالتطهر منها؟

النّجاسة: ضد الطهارة، وهي ضربان: ضرب يدرك بالحاسة، وضرب يدرك بالبصيرة، والثاني وصف الله تعالى به المشركين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

ونحن في هذا الباب يعنينا المعنى الحسيّ، ويشمل: الخبث والحدث، أمّا الخبث فهو العين المستقذرة، ويتعلّق: بالبدن والثوب والمكان، ومن أمثلته: البول والغائط، وأمّا الحدث: فهو وصف شرعي يحل في الأعضاء يزيل الطهارة، وهو نوعان: حدث أصغر وأكبر، وطهارة الأول: الوضوء، والثاني: الغسل، وعند تعذر استعمال الماء يستبدلان بالتيمم[(٢)].

ومن مرادفات النجاسة: الرجس، وهو الشيء القذر[(٣)].

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

الميتة: يراد بها الحيوان الذي فارقته الحياة بغير ذبح شرعي[(٤)].

والدّم المسفوح: هو الجاري الذي يسيل ويتدفّق من عروق المذبوح[(٥)].

ويستثنى منه ما كان في اللحم والعروق، وكذلك الكبد والطحال، وقد اتفق العلماء على نجاسة الدّم[(٦)].

وأما لحم الخنزير فهو معروف، ولا زال كثير من غير المسلمين يحرصون على أكله مع ما توصّلوا إليه بأنفسهم من نجاسته وقذره، وخطره على الصحة، فبيّنت الآية نجاسة كلٍّ من: الميتة والدّم ولحم الخنزير[(٧)].

ومن الأمور التي جاء في القرآن الكريم وصفها بالرجس: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

قال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ما هذه الأمور التي ذكرتها الآية؟ وما

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٩٥.
(٢) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ١/ ٢٠١.
(٣) المفردات، الراغب ص١١٨.
(٤) الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٢٠.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٧٧، الوسيط، الزحيلي ١/ ٦٢٠.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٤٧.
(٧) انظر: أحكام الإزالة في الفقه الإسلامي، فاطمة الفارس ص١١٤- ١١٨.

مدى نجاستها؟

بداية الخمر معروفة، والميسر هو: القمار، والأنصاب: حجارة كانت توضع عند الكعبة المشرفة، وكان المشركون يذبحون عندها قرابينهم، والأزلام، مثل: السّهام، وهي ثلاثة، مكتوب على الأول: نعم، وعلى الثاني: لا، والثالث لا كتابة عليه، وكانت توضع عند الأصنام أو الكهّان، وكانوا يستقسمون -يستهمون- بها عند إرادة فعل شيء أو سفر أو غيره، فكانوا يتفاءلون أو يتشاءمون بناءً على ما يظهر لهم منها، فبيّن الله تبارك وتعالى أنها: رجس، أي: نجس، ونجاستها معنوية؛ لما فيها من الإثم، وأمّا الخمر فهي نجس حسًّا ومعنى[1].

وعلاقة ذكر هذه الآية في هذا الباب: هي نجاسة الخمر، وأمّا بقية الأمور الواردة في الآية مع الخمر -المقصود شربها- فهي من المحرّمات التي من تلطخ بها يتلوث ويتنجس قلبه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

فهذه المحرّمات من شأنها أن تحول بين مقترفها وبين ذكر الله تعالى والصلاة، اللذين هم من أهم أسباب تطهير القلب والنّفس.

٢. التطهر من الجنابة.

قد ورد في القرآن الكريم معنى التطهر من الجنابة في ثلاثة مواضع، بإشارة مباشرة، وأمر صريح، وإشارة غير مباشرة:

أما الإشارة المباشرة ففي سورة النساء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

ينبّه الله تعالى عباده المؤمنين على التطهر من الجنابة بالاغتسال، أو التيمّم لمن تعذر عليه الغسل، وفي سورة المائدة، جاء الأمر مباشرًا صريحًا: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ [المائدة: ٦].

فهذا أمر صريح مباشر بالتطهر من الجنابة.

أما الإشارة غير المباشرة، ففي سورة الأنفال، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٤٧-١٤٨، الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٩٥-٤٩٦.

يتحدّث الله تعالى عن ما امتن به على أوليائه المؤمنين في غزوة بدر، وقد كان الكفار من قريش سبقوا إلى موضع الماء، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظمأ والنصب[1]، فأنزل الله تعالى عليهم المطر، «لأنهم كانوا أصبحوا يومئذٍ مجنبين على غير ماء؛ فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر؛ فذلك ربطه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم؛ لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة هشّاء فلبّدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئة من الله عز وجل لنبيه عليه السلام وأوليائه أسباب التمكن من عدوهم والظفر بهم»[2].

وأمّا عن الحكمة من الاغتسال من الجنابة، يقول ابن القيم رحمه الله: الغسل من المني من أعظم محاسن الشريعة، وما اشتملت عليه من الرحمة والحكمة والمصلحة، فإن المني يخرج من جميع البدن؛ ولهذا سماه الله سبحانه وتعالى ﴿سُلَالَةٍ﴾[3] لأنه يسيل من جميع البدن، وأيضًا فإن الجنابة توجب ثقلًا وكسلًا، والغسل يحدث له نشاطًا وخفة، وقد صرح أفاضل الأطباء بأن الاغتسال بعد الجماع يعيد إلى البدن قوته، ويخلف عليه ما تحلل منه، وأنه من أنفع شيء للبدن والروح، وتركه مضر، ويكفي شهادة العقل والفطرة بحسنه، وبالله التوفيق[4].

٣. التطهر من الحيض.

وصف الله تعالى الحيض بأنه: ﴿أَذًى﴾ لنتن ريحه وقذره ونجاسته[5].

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال قتادة: «فكان أهل الجاهلية لا تساكنهم حائض في بيت، ولا تؤاكلهم في إناء، فأنزل الله تعالى ذكره في ذلك، فحرّم فرجها ما دامت حائضًا، وأحل ما سوى ذلك: أن تصبغ لك رأسك، وتؤاكلك من طعامك، وأن تضاجعك في فراشك، إذا كان

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧٨-٢٧٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٣٢.
(٣) قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة:٨].
(٤) إعلام الموقعين، ابن القيم ٢/ ٧٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٦٩.

عليها إزار محتجزة[1] به دونك»[2].

والمقصود بالأذى أي: الشيء يستقذر منه، ويؤذي من يقربه نفرةً منه وكراهةً له[3] ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ المقصود الغسل ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ من المأتى الذي حلّله لكم وهو القبل[4].

ويلحق بالحيض النفاس في وجوب التطهّر منه، وهو ما يخرج من المرأة بعد الولادة، وإن كان القرآن الكريم لم يذكره؛ ولكنه ألحق بالحيض في الاغتسال منه؛ إذ إنه -أي: النفاس- دم حيض مجتمع[5].

ثالثًا: وسائل التطهير الحسية والمعنوية:

١. الماء.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾:

من أعظم نعم الله تبارك وتعالى علينا: نعمة الماء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨].

وصف الله تعالى الماء بأنه طهور على وزن (فعول) من صيغ المبالغة، أي: فهو طاهرٌ في نفسه، مطهّرٌ لغيره[6]، قال تعالى: عن المؤمنين في غزوة بدر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

يقول أبو السعود رحمه الله: «ووصف الماء به إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده؛ فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهّروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى»[7].

إذن فالماء لا يقتصر في كونه سببًا في طهارة الظاهر فحسب، بل هو سبب مهم في طهارة الباطن كذلك.

قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وصف الماء النازل من السماء بالبركة يفتح أمامنا آفاقًا كبيرة في سرّ هذه النعمة، فالبركة في اللغة: تعني النّماء والزيادة والسعادة[8].

يقول أبو حيّان الأندلسي رحمه الله: «﴿مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: كثير المنفعة»[9].

فالمطر كما نعلم سببٌ في سعادة

(١) احتجز بإزاره شده على وسطه، والحجزة معقد الإزار، وحجزه منعه، وكفه.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٥٧.
(٢) أخرجه الطبري في تفسير ٢/ ٤٦٨.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٢٩.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١١٥.
(٥) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ١/ ٤٥٨.
(٦) انظر: الكشاف، الزمخشري ص٧٤٨.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢١١.
(٨) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٨٣٩.
(٩) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٥٣١.

الكبار قبل الصغار، وبه يحيي الله تعالى الأرض، فتخرج بركاتها بإذن ربها، بل فيه شفاء بإذن الله تعالى، ومما يؤيد أنه سبب في طهارة الباطن الآية المتقدمة من سورة الأنفال: ﴿مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يقول السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

«يطهّر من الحدث والخبث، ويطهّر من الغش والأدناس، وفيه بركة، من بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام»[١].

بعد هذه الوقفة مع الماء في كونه سببًا في الطهارة يأتي الحديث عن طرائق التطهر به التي ذكرها القرآن الكريم، وهي: الوضوء والاغتسال.

❁ الوضوء.

والقرآن الكريم ذكر الوضوء في موضع واحد، وهو قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾

[المائدة: ٦].

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين، يأمرهم سبحانه بالوضوء للصلاة ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ والمراد: إذا أردتم الصلاة، وليس المقصود الوضوء عند القيام في الصلاة[٢]، والأمر بالوضوء عند القيام للصلاة واجب على المحدث، ومندوب للمتوضئ[٣].

ثم بدأ تبارك وتعالى يشرح كيفيته النية، وقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وقد نصّ النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب النية في كل عمل، وكونها شرطًا لقبوله.

في الحديث المتفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)**[٤].

ثم قال تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ والغسل: إسالة الماء على الشيء لإزالة ما عليه من وسخ وغيره[٥]، وحدّ الوجه: طولًا: من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٨٠.

(٣) الوسيط، الزحيلي ١/ ٤٣٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدأ الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/ ٦، رقم ١، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنية)، ٣/ ١٥١٥، رقم ١٩٠٧.

(٥) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٨١.

اللحيين -أسفل الذقن-، وعرضًا: من الأذن إلى الأذن الأخرى[1].

ثم غسل اليدين إلى المرفقين، قال تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فعطف الأيدي على غسل الوجه، فدل على أن فرضهما الغسل، ثم قال سبحانه: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ والمراد: مسح الرأس دون الوجه؛ لأنه قيّد الوجه بالغسل أولًا، ثم ذكر مسح الرأس؛ فدلّ على أنه -أي: الوجه- غير داخل في المسح، واختلف العلماء في المقدار الواجب في مسح الرأس، وخلافهم راجع إلى معنى حرف الجر (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ هل هي للتبعيض أم مؤكدة أم زائدة؟

والإجماع على أن من مسح رأسه كله فقد أحسن وفعل ما يلزمه[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ والمراد: غسلهما؛ لأنها منصوبة، فصارت معطوفة على المنصوب قبلها، وهو غسل الوجه واليدين، ولابدّ في هذه الأركان من الترتيب؛ بدليل أن الآية ذكرتها مرتبة، حتى أنها جعلت الممسوح -وهو الرأس- بين المغسول، فدل على وجوب الترتيب[3].

وهذه الأمور التي ذكرتها الآية هي فرائض الوضوء، ولا يصح الإخلال بها أو بأحدها، وهناك سنن بيّنتها السنة، ويمكن تلخيصها في حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو يعلّمنا كيف كان حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم يتوضأ، روى البخاري ومسلم أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعا بوضوء فتوضأ فغسل كفّيه ثلاث مرات، ثم مضمض واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قام فركع ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)**[4].

هذا الحديث يبيّن لنا مدى حرص الصحابة الكرام رضي الله عنهم على السنة، وأنهم كانوا يحرصون عليها أشد الحرص؛

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٥.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٧.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب الوضوء ثلاثًا ثلاثًا، ١/ ٤٣، رقم ١٥٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، ١/ ٢٠٤، رقم ٢٢٦.

لأنها سنة، بينما نحن اليوم يفرّط الكثير منّا فيها، ويتهاون بها لأنها سنّة!

والحديث كذلك يبرز مدى صلة الطهارة الحسية بالمعنوية، وعمق الترابط بينهما، فمن وسائل الطهارة المعنوية أداء ما افترض الله تعالى، وأعظم هذه الفرائض بعد الشهادتين الصلاة، والتي من شروطها الوضوء، الذي هو مع كونه طهارة حسية فهو طهارة معنوية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا توضأ العبد المسلم -أو المؤمن- فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء أو نحو هذا، و إذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقيًّا من الذنوب)[1].

❁ الغسل.

قدّ بيّن القرآن الكريم أنه يجب التطهر من الجنابة.

قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦].

والطهارة من الجنابة تكون بالاغتسال.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣].

ولم يبيّن القرآن كيفية الغسل، وبيّنته السنّة، وهو: إفاضة الماء على جميع البدن على وجه مخصوص.

٢. الصعيد الطاهر.

وقد شرع الله تعالى لنا في بعض الأحوال الانتقال من التطهّر بالماء -وهو الأصل- إلى التطهّر بالتراب، أو الصعيد سواءٌ كان ترابًا أو حجارة، أو سبخة ونحوه[2].

وهذه مزيّة اختصّ الله تعالى بها أمة حبيبه محمدٍ صلى الله عليه وسلم، حيث قال عليه الصلاة والسلام: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي) وذكر منها: (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)[3].

قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: اقصدوا الصعيد الطيب[4]، وفي الشرع: القصد إلى الصعيد الطيب لمسح الوجه، واليدين منه بنية استباحة الصلاة عند عدم الماء، أو العجز عن استعماله[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء، ١/ ٢١٥، رقم ٢٤٤.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، ١/ ٩٥، رقم ٤٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص٦٣٤.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١.

وذكر الله تعالى التيمّم في سورة المائدة بعد أن ذكر الوضوء والغسل.

فقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وذكر التيمم كذلك في سور النساء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

والآيتان السابقتان بيّنتا موجبات التيمم وكيفيته، ويمكن اختصارها فيما يأتي:

مسوّغات التيمّم:

١. المرض، يباح التيمّم للمريض الذي يخاف إن استعمل الماء زيادة المرض، أو تأخر الشفاء، وتيمم الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه لما خاف أن يهلك من شدة البرد، وأقرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

٢. السفر، والمقصود: السفر الذي لا يجد فيه صاحبه الماء، وكذلك المقيم الذي لا يجد الماء فإنه يتيمّم، وإنما خصّ سبحانه السفر بالذكر لأنه الغالب في عدم الماء، بخلاف المقيم فإنه من النادر أن يفقده[2].

٣. ووجود ناقض للوضوء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ المقصود بالغائط: ما انخفض من الأرض، وكان الناس يذهبون لقضاء الحاجة في هذه الأماكن المنخفضة لأجل الستر فلا يراهم أحد، ويراد به في الآية الكناية عن كل الأحداث التي تنقض الطهارة الصغرى، كزوال العقل، والخارج من السبيلين[3].

٤. ملامسة النساء: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بعد أن ذكر الله تعالى الغائط، وأن المراد منه الطهارة من الحدث الأصغر، ذكر الطهارة من الحدث الأكبر: ملامسة النساء، ويراد به الجماع، وهذا من لطافة القرآن الكريم وعنايته باختيار الألفاظ، ويدخل فيه كل ما يلزم منه الغسل، وهو الحدث الأكبر، من الجماع، والتطهّر

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٠.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٦١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٢-١٣٣.

من الحيض، وكذا النفاس[(١)].

والشرط المبيح للتيمّم في كل ما تقدّم، هو: فقد الماء، أو تعذّر استعماله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا﴾ والمقصود انعدام الماء، بعد طلبه والسعي في الحصول عليه، أو كان عنده، ولكن يتعذّر عليه استعماله لمرض أو خطر يهدّده، كوجود حيوان مفترس عند مصدر الماء، أو غيرها من الموانع، فعندها ينتقل من الوضوء أو الغسل إلى التيمّم[(٢)].

وصفته كما قال عز وجل: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ وفسّرته السنة النبوية.

فعن عمار بن ياسر رضي الله عنهما أنه قال: أجنبت فلم أصب الماء، فتمعّكت[(٣)] في الصعيد وصلّيت، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنما كان يكفيك هكذا)، وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفّيه الأرض، ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفّيه[(٤)].

ثم ختم الله تعالى الكلام حول الوضوء والغسل والتيمم بقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فليس المقصود من هذه التشريعات هو العنت والحرج على عباد الله تعالى، ولكن هي نعمة من الله تبارك وتعالى؛ ليطهّر بها الأرواح والنفوس، فتلتزم بأوامره وشرعه، وتحافظ على طهارة ظاهرها؛ فتكتمل فيها صورة الطهارة حسًّا ومعنى، فهذه الطهارة الحسية هي مقدّمات للوقوف بين يدي الله جل وعلا في الصلاة، حيث تسمو فيها الروح، وهي تعرج إلى بارئها، فكان لزامًا على هذا العبد وهو في موقفه العظيم بين يدي خالقه أن يكون طاهر الأعضاء والجوارح، احترامًا وتقديرًا وتقديسًا لوقوفه بين يدي مولاه.

«وقد شرع الإسلام الوضوء والغسل للمؤمن ليكون مظهرًا دالًّا على طهارة الظاهر، كما دعا إلى اجتناب المعاصي والآثام ليكون عنوانًا على طهارة الباطن، فالوضوء والغسل إنما يقصد منهما النظافة وهي «طهارة حسية» تعوّد الإنسان على حياة الطهر في النفس والخلق والدين...، إن الإسلام دين الطهارة وطهارة الظاهر فرع، وطهارة الباطن أصل، وطهارة الظاهر شرط

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ١٣٤-١٣٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣١.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٦٣.
(٣) يعني: تقلّب.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٥٨٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، باب المتيمم هل ينفخ فيهما، ١/ ٧٥، رقم ٣٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب التيمم، ١/ ٢٨٠، رقم ٣٦٨.

لصحة الصلاة، كما أن طهارة الباطن شرط لدخول الجنة ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وهما جميعًا سبب لمحبة الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]»[1].

وبهذا يتأكّد لنا معنى الرباط الوشيج بين الطهارة المادية والحسية، ويتأكّد لنا أن الأصل في الطهارة هو طهارة النفس، ومن ثم تكون طهارة الظاهر ثمرة لتلك الشجرة الطيبة.

٣. الإيمان والتقوى.

التقوى: خشية الله تعالى، وهي ثمرة العبادات التي شرعها الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ولذلك قال سبحانه وهو يذكر شرائع الحج والهدي: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

ومن الأمثلة على أن التقوى هي الهدف من وراء العبادات، ما ذكره الرازي رحمه الله وهو يتحدث عن سورة النساء، فيقول: «اعلم أن هذه السورة مشتملة على أنواع كثيرة من التكاليف؛ وذلك لأنه تعالى أمر الناس في أول هذه السورة بالتعطف على الأولاد والنساء والأيتام، والرأفة بهم، وإيصال حقوقهم إليهم، وحفظ أموالهم عليهم؛ وبهذا المعنى ختمت السورة...، وذكر في أثناء هذه السورة أنواعًا أخر من التكاليف، وهي الأمر بالطهارة والصلاة وقتال المشركين؛ ولما كانت هذه التكاليف شاقة على النفوس لثقلها على الطباع لاجرم افتتح السورة بالعلة التي لأجلها يجب حمل هذه التكاليف الشاقة، وهي تقوى الرب الذي خلقنا، والإله الذي أوجدنا»[2].

ومن النماذج العملية التي ذكرها الله تعالى في القرآن قصة يوسف عليه السلام الذي نشأ على الإخلاص لربّه، وتربى على خشيته تعالى، فبنى في نفسه قاعدة صلبة حفظته بحفظه لربه من الوقوع في نتن الفاحشة وخبثها.

قال سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

يوسف عليه السلام أمام هذه المحنة العظيمة أحاطت به الدواعي الكثيرة التي تغري الشاب الغريب، الممتلئ قوة واندفاعًا، وهو في حضرة امرأة العزيز، وقد تهيّأت له بالجمال، وغلّقت الأبواب، بابًا

(١) تفسير آيات الأحكام، الصابوني ١/ ٣٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٢.

وراء باب، ودعته لنفسها بلسان الحال قبل المقال، ولكنه قال بكل ثقة: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

يقول السعدي رحمه الله: «والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر»[(1)].

ولذا جعل الله تبارك وتعالى التقوى شعار الطاهرين، الذين يحبّهم ويرضى عنهم، ويتقبّل منهم أعمالهم.

قال سبحانه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

«ولما كان من شأن الأساس أن تطلب له صلابة الأرض لدوامه جعلت التقوى في القصد الذي بني له أحد المسجدين، فشبّهت التقوى بما يرتكز عليه الأساس»[(2)].

فإذا ما تحقّقت التقوى في قلب المؤمن، كان عمله صالحًا متقبلًا، وعاش طاهرًا نقيًّا، فالتقوى تحثه على التزام طاعة ربه، وخشيته جلا وعلا، وترك ما يكدر صفو إيمانه، من التلطخ برجس المعاصي ونتنها، فيعيش ملتزمًا بصراط الله المستقيم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٤. إخراج الزكاة والصدقات.

ومن العبادات التي افترضها الله تعالى علينا: الزكاة، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

ولا يقتصر أثر الزكاة على تطهير المال ونمائه فحسب، بل لها أثر عظيم في تربية النفس وتزكيتها، وتطهيرها من الذنوب والشّح؛ فنفس الغني تطهر من البخل، ونفس الفقير تطهر من الحسد، وتكسبه القناعة والرضا[(3)]، ولذلك حثّ الله تبارك وتعالى عباده على تأدية الزكاة، والتطوّع بالصدقات، وقد أثنى سبحانه وتعالى على ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٨].

فيحرص المؤمن على إخراج ماله في سبيله سبحانه، رجاء أن يطهّره الله بذلك من أمراض القلوب وأدرانها، وأن ينقيّه مما كان منه من الخطأ أو التقصير.

وأمر الله سبحانه بتقديم الصدقات عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومخاطبته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٣٩٦.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٥٤.
(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة باحثين ٣/ ٢٦٧- ٢٦٨.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «أمر تعالى عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته عليه الصلاة والسلام لأمرٍ من الأمور أن يتصدّقوا قبل هذه المناجاة تعظيمًا لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم ونفعًا للفقراء، وتمييزًا بين المؤمن المخلص، والمنافق المراوغ؛ فإن ذلك أزكى للنفوس، وأطهر للقلوب، وأكرم عند الله تعالى، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج»[(١)].

ومن حكمة الله تعالى في ندبه للصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم: تطهير قلوب المؤمنين، وتزكية نفوسهم «لما فيه من تعويدها على عدم الاكتراث بالمال، وإضعاف علاقة حبّه المدنّس لها، وفيه إشارة إلى أن في ذلك إعداد النفس لمزيد الاستفاضة من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند المناجاة»[(٢)].

فالصدقة هنا تطهّر القلب من الأدناس «التي من جملتها ترك احترام الرسول صلى الله عليه وسلم والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صلى الله عليه وسلم صار هذا ميزانًا لمن كان حريصًا على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول»[(٣)] صلى الله عليه وسلم.

وفي المقابل حرّم الله جلّ وعزّ الربا لشدة خطره وضرره على المجتمع، وكونه سببًا رئيسًا في تلويث القلوب بالأحقاد والحسد والغل، يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «الصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل...، والربا شحّ وقذارة ودنس وجشع وأثرة وأنانية...، فلا عجب إذًا أن يعده الإسلام أعظم المنكرات والجرائم الاجتماعية والدينية، وأن يعلن على المرابين الحرب ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

وذلك للأضرار الفادحة والمساوئ التي تترتب عليه»[(٤)].

٥. اتباع دين الله تعالى وأحكام شرعه.

من أعظم ما يطهّر النفس: اتباع أوامر الله تعالى، والتزام شرعه، والمسارعة في الأعمال الصالحة؛ لأنها «أهم وسائل التزكية العملية التي يعيش المسلم حياته معها، وبقدر ما يكثر منها يكون مزكيًا لنفسه، بشرط أن يأتي بها على وجهها الذي شرعه

(١) تفسير آيات الأحكام ٢/ ٣٩٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٢٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٤٧.
(٤) تفسير آيات الأحكام ١/ ٢٨٠ بتصرف يسير.

الله، ويخلص فيها لله»[1].

وأول أمر ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وهذا نداء عام لجميع الناس، فهو للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، والعبادة هنا تعني: توحيده تعالى، والتزام شرائع دينه[2].

وأعظم شرائع الدين بعد الشهادتين: الصلاة، وقد حثّ الله تبارك وتعالى عليها في مواضع عدّة، وأوصانا بها حبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم، وما ذلك إلا لعظم منزلتها وقدرها، وهذه الصلاة لها روحٌ، كما أن للجسد روحًا يموت بدونها، وروح الصلاة الخشوع، وهي التي ميّز الله بها المؤمنين، وأثنى عليهم بها، فقال سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

ومن حقّق الخشوع في الصلاة جنا ثمرتها، وتحقق له ما أراد الله منها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «تنهى من كان فيها، فتحول بينه وبين إتيان الفواحش؛ لأن شغله بها يقطعه عن الشغل بالمنكر؛ ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: من لم يطع صلاته لم يزدد من الله إلا بعدًا؛ وذلك أن طاعته لها إقامته إياها بحدودها، وفي طاعته لها مزدجر عن الفحشاء والمنكر»[3].

ومن العبادات التي تطهّر النفس: الصوم، وهو عبادة جليلة، فيه تربيّة النفس على العفو والتسامح، وقد بيّن الله تعالى الحكمة من افتراضه صوم شهر رمضان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ومن شرائع الله: الحج، وهو عبادة عظيمة، من أدّاها كما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، رجع منها وقد طهّر من ذنوبه وخطاياه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه)[4].

والحج يربّي النفس على التواضع

(١) التزكية على منهج النبوة، معاذ سعيد حوى ص٢٧.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٦٨.
(٣) جامع البيان، ٢٠/ ١٦٧.
(٤) أخرجه البخاري في كتاب الحج، باب قول الله تعالى: (الحج أشهر معلومات)، ٣/ ١١، رقم ١٨١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، ٢/ ٩٨٣، رقم ١٣٥٠.

والمساواة والعفو، ويطهر النّفس من أمراضها.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والرفث هو الفحش والقول القبيح، وقيل: هو جماع المرأة ومقدماته، والفسوق: المعاصي[1]، ولاشك أنّ الابتعاد عن هذه الأمور من أعظم ما يتطهر به القلب.

وفي سورة البقرة بعد أن ذكر الله تعالى جملة من أحكام الطلاق والعدّة قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

يقول حجازي رحمه الله: «ذلك أزكى لكم وأطهر من دنس الوقوع في المحرم، وهو أزكى نظام وأطهره»[2].

وفي سورة الأحزاب ذكر الله تعالى آية الحجاب، وبيّن فيها أدب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته، وفرض فيها الحجاب على أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وبيّن لنا الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهكذا في سائر العبادات، إذا ما التزم المسلم بها، وأخلص لربّه تعالى فيها، فإنها تؤتي أكلها في تطهير النفس والقلب، وبهذا يتبين لنا مدى أهمية التزام شرع الله تعالى في تطهير النفس وصفائها.

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٢٦.
(٢) التفسير الواضح، ٢/ ١٤١.

آثار الطهارة

أولًا: محبة الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿٢٢٢﴾.

المتطهر يحبه الله تعالى، ومن أحبّه الله عاش في ظلال رحمته، يقول حجازي رحمه الله: «أما محبة الله لهم فهذا شيء هو أعلم به إلا أنا نعرف من الحديث أن الله يحب من عباده الصالحين الموفّقين إلى الخير»[(١)].

وذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه)[(٢)].

ولهذه المحبة أثرها البالغ في نفس المؤمن؛ لأنه ما وصل إلى هذه المنزلة إلا بعد أن ترقّى في تطهير روحه، فسما بها في طاعة ربه، وتنزّه عمّا يلوث قلبه ونفسه وجسده ومحيطه من النجاسات الحسية والمعنوية، فعرفه الناس بتقواه وصدقه، فكتب له الله تعالى حبّهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانًا فأحبّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحبّوه. فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض)[(٣)].

فمحبّة الله تعالى -كما بيّن الحديث الشريف- تجلب محبة الخلق، والإنسان متى ما كان محبوبًا عند الله تعالى وعند الناس كان في سعادة وهناء، فمحبة الله تعالى تعني له حفظ الله سبحانه له وتوفيقه إيّاه، ومحبة الخلق تعني له حسن العشرة معهم.

ثانيًا: صحة العبادة:

من أعظم أركان الدّين، وأرفعها منزلة وقدرًا: الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

(١) التفسير الواضح، ١١/ ١٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥، رقم ٦٥٠٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ٤/ ١١١، رقم ٣٢٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، رقم ٢٦٣٧.

وقد أجمع العلماء على وجوب الطهارة لها[1]، «والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفًا على الطهارة، فلا يدخل المصلي عليه حتى يتطهر؛ وكذلك جعل الدخول إلى جنته موقوفًا على الطيب والطهارة، فلا يدخلها إلا طيّب طاهر، فهما طهارتان: طهارة البدن، وطهارة القلب»[2].

فالطهارة شرط للصلاة وغيرها من العبادات كالطّواف ومسّ المصحف الشريف، وهذا يجعل للطهارة منزلة عظيمة في الإسلام؛ إذ إنها شرط لأول أركان الدين بعد الشهادتين، والمسلم يصلي في اليوم والليلة خمس صلوات مكتوبات فضلًا عن الرواتب والمستحبات؛ وذلك يجعله على طهارة مستمرة، وهذه الطهارة لأداء الصلاة لا يقتصر أثرها في رفع الحدث وإزالة الخبث فحسب، بل ترتقي لتكون سببًا بإذن الله تعالى في محو الذنوب، وتكفير الخطايا. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء)، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: (فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا)**[3].

يبيّن لنا الحديث مدى أهمية الصلاة، وأثرها في طهارة الباطن والظّاهر، فالوضوء للصلاة سبب في النّقاء من الأدران، وهي: الأوساخ[4].

والصلاة تلو الصلاة سبب في النّقاء ممّا يتلوّث به الإنسان من أدران الخطايا.

ثالثًا: شكر النعمة ودوامها عليه:

من أعظم نعم الله تعالى على عباده: نعمة المال، وهو من ضروريات الحياة، ومن حصلت له هذه النعمة فعليه أن يشكر الله جل وعلا عليها؛ حتى تزيد وتدوم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ومن الأمور التي أوجبها الله تعالى علينا في المال: الزكاة، كما ندبنا الشّرع الحنيف إلى الصدقة، وهذه من أوجه الإنفاق التي لها أكبر الأثر في حصول البركة، وتزكية النفس.

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

الخطاب موجّه لأشرف الخلق محمد

---

(١) الإجماع، ابن المنذر ص٢٩.
(٢) إغاثة اللهفان، ابن القيّم ١/ ٥١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ١/ ١١٢، رقم ٥٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، ١/ ٤٦٢، رقم ٦٦٧.
(٤) مختار الصّحاح، الرازي ص١٩٣.

عليه السلام: «خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم من دنس البخل، وشحّ النفس، ولؤم الطبع، وقسوة القلب، وتزكيهم بها حتى تنمو نفوسهم على حب الخير، وتزرع في قلوبهم شجر العطف على الفقير والضعيف والمحتاج، بهذا تنمو النفس وترتفع»[(١)].

ومن أهم مقاصد الدّين: السمو بالنفس، والارتقاء بالإنسان في مراتب الإيمان، وهذا لا يكون مع نفس متعلّقة بحطام الدنيا الزائل، وديننا الحنيف يحثنا على الكسب الطّيب، إلا أنه حذّرنا أشد الحذر من أن تدخل شهوة المال شغاف قلوبنا، بل جعله وسيلة لتيسير أمور الحياة، وحتى يعيش المؤمن هذه المعاني شرع الله تعالى الصدقة والزكاة، فالزكاة: طهارة ونماء، والصدقة: دليل على صدق الإيمان، وتوافق الظاهر مع الباطن[(٢)].

وانظر وتأمّل في الآية الموالية للآية المتقدّمة، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

«التوبة تغسل الذنب وتمحوه، وتجدّد العهد وتقويه، ولذلك جاءت بعد الأمر بأخذ الصدقة لبيان السبب في الجملة»[(٣)].

فمجرد إخراج المال دون قلب مخلص، ولا نية صادقة لا يرقى إلى تزكية النفس والسمو بها، بل لابد معه من توبة نصوح، وإيمان وخضوع لله رب العالمين، حينها تكون الصدقة معراجًا للنفس للسمو بها في آفاق الطهارة القلبية والروحية.

وفي مقابل إخراج الزكاة وإنفاق المال في أوجه الخير فإن منعه سبب رئيسٌ في زوال النعمة، ونزول النقمة، فكم من أموال محقت، وتجارة كسدت؛ لمّا منع أصحابها حق الله تعالى فيها؛ ولك أن تتأمّل وأنت تتلو سورة (القلم) حين تصل إلى قصة أصحاب الجنّة التي أنعم الله عليهم بها بالخيرات والثمرات، ولكنهم حين أصاب قلوبهم مرض الشحّ، وبيّتوا النية على أن يحصدوا ثمارهم في الصباح الباكر احترازًا من أن يراهم الفقراء والمساكين؛ ليحرموهم منها من أيّ حظٍّ أو نصيب، فإذا بالجزاء يدركهم قبل أن يدركوا مرادهم، ويقطفوا ثمارهم، فبينما هم يمكرون إذ بطائف من ربك يمرّ على جنتهم وهم نائمون ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠].

أي: كالليل الأسود[(٤)]، والله تبارك وتعالى حين يقصّ علينا أنباءهم، يريد أن نتعظ ونتدبر، فالأيام دول، وقد عشنا قبل سنوات قليلة الأزمة المالية العالمية؛ وما

---

(١) التفسير الواضح، حجازي ١١/ ٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١١٨.
(٣) التفسير الواضح، حجازي ١١/ ١١.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٤٩.

ذاك إلا لمنع الزكاة والصدقات، والتعامل بالربا والجهر بالمحرمات، فمرضت القلوب، وتدنست بالذنوب، فجاء من ربك العذاب، ويتوب الله على من تاب.

رابعًا: جنّات النّعيم في الآخرة:

إن غاية ما يطلبه العارف بالله هو الوصول إلى رضاه جل وعلا، فبرضاه تهنأ بمحبته لك، وتفوز بجنته، فيضاعف لك الحسنات، ويمحو عنك السيئات، والطهارة بمفهومها الشامل تصل بالمؤمن إلى كل ذلك.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(الطهور شطر الإيمان)**[1].

والمقصود بالطهور هو: «أن يتطهر الإنسان طهارة حسية ومعنوية من كل ما فيه أذى»[2].

يقول ابن رجب رحمه الله: «إن خصال الإيمان من الأعمال والأقوال كلها تطهر القلب وتزكيه، وأما الطهارة بالماء فهي تختصّ بتطهير الجسد وتنظيفه، فصارت خصال الإيمان قسمين: أحدهما يطهّر الظاهر، والآخر يطهّر الباطن، فهما نصفان بهذا الاعتبار»[3].

وأوّل ما يحرص عليه المؤمن هو طهارة باطنه من الشرك ومن النفاق، ومن كل ما يخدش الإيمان من أمراض القلب والنّفس؛ لأنه يعلم عظم جرم الإشراك بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

ويعلم عاقبة المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

وحينئذٍ يحرص كل الحرص على تحقيق التوحيد الخالص لربه، ويسعى في عمل الصالحات لينال أعلى الدرجات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

بل كلما ترقّى المؤمن في درجات الإيمان صار قلبه أكثر نقاءً وصفاءً، فيكون حاله كحال عباد الرحمن الذين ذكر الله تبارك وتعالى صفاتهم في أواخر سورة الفرقان، وبيّن منزلتهم العالية، وكما وصفهم سبحانه -كذلك- في مستهلّ سورة المؤمنين، وذكر جزاءهم العظيم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

ويحرص المؤمن على طاعة الله تبارك وتعالى، واجتناب معاصيه يصل إلى رضاه سبحانه، فما غاية الأوامر والنواهي إلا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، ١/ ٢٠٣، رقم ٢٢٣.
(٢) شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ١/ ١٨٨.
(٣) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ص٤٩٦.

اختبار من الربّ لعباده؛ ليمحّصهم وينقّيهم، فيختبرهم بالأعمال والتكاليف ليظهر صدقهم، وليصلوا إلى مراد الله تعالى من تلك العبادات وهو التقوى.

قال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول الشيخ محمد علي الصابوني: «فلا شيء من هذا يصل إلى الله أو يرضيه، وإنما يرضيه جل وعلا امتثال الأوامر منكم وطاعته وتقواه، فلا يظن أحد أنه ينال ثواب الله باللحم يقطّعه وينشره، وإنما ينال ذلك بتقوى الله»[(١)].

يقول ابن القيم رحمه الله: «حرّم الله سبحانه الجنة على من في قلبه نجاسة وخبث، ولا يدخلها إلا بعد طيبه وطهره، فإنها دار الطيبين؛ ولهذا يقال لهم: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

فالجنّة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهرًا من نجاساته دخلها بغير معوّق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النّار من تلك النّجاسة، ثم يخرج منها»[(٢)].

والحرص على الطهارة كما هو سبب مهم في نيل رضا الله تعالى وضمان دخول جناته سبحانه وبحمده هو بالإضافة إلى ذلك رفعة للدرجات، وسبب لمحو الخطايا والسيئات.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقضي فريضة من فرائض الله كانت خطوتاه إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة**)[(٣)].

في هذا الحديث ربط عجيب بين مفهوم الطهارة الحسيّة والمعنويّة؛ فالمسلم وهو يمرّر الماء على أعضائه بنية الوضوء، ثمّ يذهب إلى المسجد، فإنّه في ذلك ينقّى بإذن ربّه من الأوساخ الظاهرة، والأدران الباطنة.

موضوعات ذات صلة:

الصلاة، مكة

(١) تفسير آيات الأحكام ١/ ٤٣٧.

(٢) إغاثة اللهفان ١/ ٥١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، ١/ ٤٦٢، رقم ٦٦٦.





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الطيبات

أولًا: المعنى اللغوي:

الطيب خلاف الخبيث، إلا أنه قد تتسع معانيه، فيقال: أرضٌ طيبة للتي تصلح للنبات، وريحٌ طيبة إذا كانت لينة ليست بشديدة، وطعمةٌ طيبة إذا كانت حلالًا، وامرأةٌ طيبة إذا كانت حصانًا عفيفة، وكلمةٌ طيبة إذا لم يكن فيها مكروه، وبلدةٌ طيبة، أي: آمنة كثيرة الخير، ونكهةٌ طيبة إذا لم يكن فيها نتن، وإن لم يكن فيها ريح طيبة كرائحة العود وغيرها، وطعامٌ طيب للذي يستلذ الأكل طعمه، والكلمة الطيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[1].

والطّيّب: الحلال. والطيب: ما يتطيب به، وقد تطيب بالشيء، وطيب الثوب وطابه، والطيب من كل شيء: أفضله، واستطبناهم: سألناهم ماء عذبًا[2].

وبهذا يتضح أن كلمة الطيب ليس لها معنى ثابت في الاصطلاح اللغوي، وإنما هي على حسب السياق الذي ترد فيه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يوجد هناك تعريف اصطلاحي خاص بالطيب، ولكن تختلف دلالته الاصطلاحية بحسب المضاف إلى الطيب، فمثلًا الرزق الطيب هو الحلال[3]. وأصل الطّيّب: «ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعام الطّيّب في الشّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طيّبًا عاجلًا وآجلًا لا يستوخم، وإلا فإنه -وإن كان طيّبًا عاجلًا- لم يطب آجلًا»[4].

«وقال الحسن: الحلال الطّيّب: هو ما لا يسأل عنه يوم القيامة، وقال ابن عبّاسٍ: الحلال الّذي لا تبعة فيه في الدّنيا، ولا وبال في الآخرة، وقيل: الحلال ما يجوّزه المفتي، والطّيّب ما يشهد له القلب بالحلّ»[5].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ١٧٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٢٨١.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٤٨، لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٦٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ١٩٠.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٧.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٠٠.



الطيبات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طيب) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٥٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣]
المصدر	١	﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٩]
الصفة المشبهة	٤٦	﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء:٢]

وقد أطلقت الطّيّبات في الاستعمال القرآني على عدة أمور، منها[٢]:

الأول: الذكر والدعاء: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

الثاني: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء:٧٠]. يعني: جميع رزق بني آدم: الخبز والعسل والسمن، ونحوه من أطايب الطعام، وجعل رزقهم أطيب من رزق البهائم والدواب والطير.

الثالث: الحلال: ومنه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء:١٦٠].وقد كانت لهم حلالاً في التوراة.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٧٢٧-٧٢٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٠-٣٢٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤١٨-٤١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخبائث:

الخبائث لغةً:

جمع خبيث، قال ابن فارس: «الخاء والباء والثاء أصلٌ واحد يدلّ على خلاف الطّيّب. يقال خبيثٌ، أي ليس بطيّب. وأخبث، إذا كان أصحابه خبثاء. ومن ذلك التعوّذ من الخبيث المخبث. فالخبيث في نفسه، والمخبث الذي أصحابه وأعوانه خبثاء»[(١)].

الخبائث اصطلاحًا:

قال الراغب: «الخبث والخبيث: ما يكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا»[(٢)].

الصلة بين الخبائث والطيبات:

لا شك أن العلاقة بينهما علاقة تضاد، فالطيب خلاف الخبيث، والخبيث خلاف الطيب.

٢ الحلال:

الحلال لغةً:

الحلال ضد الحرام، وهو من: حلّ يحلّ حِلًّا، بالكسر. وأحلّه الله، وحلّله، واستحلّه: اتّخذه حلالًا، أو سأله أن يحلّه له[(٣)].

الحلال اصطلاحًا:

هو ما أطلق الشرع فعله، أو هو كل شيء لا يعاقب عليه باستعماله[(٤)].

الصلة بين الحلال والطيبات:

الطيب: ما هو طيب في ظاهر الشرع سواء كان طيبًا في الواقع أم لا، والحلال: ما هو حلال وطيب في الواقع لم تعرضه النجاسة والخباثة قطعًا، ولم تتناوله أيدي المتغلبة أصلًا[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ٢/ ١٩٤.
(٢) المفردات، ص٢٧٢.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٨٦.
(٤) التعريفات، الجرجاني، ص٩٢.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص١٦٩.

٢ المحرمات:

المحرمات لغةً:

الحرام لغةً: الحرام من حرم، فالحاء والراء والميم أصل واحد، وجمع الحرام حرم، والحرام ضد الحلال، والحرام هو المنع والتشديد[١].

المحرمات اصطلاحًا:

الحرام: هو ما طلب الشارع من المكلف تركه على وجه الإلزام، بحيث يعاقب فاعله ويثاب تاركه[٢].

الصلة بين المحرمات والطيبات:

واضحٌ أن هناك فرقًا شاسعًا بينهما، فكل منهما ضد الآخر.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥.
(٢) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف ص١١٣.

الحث على ابتغاء الطيب

تنوعت أساليب القرآن على الحث على ابتغاء الطيب، وهذا ما سنتناوله فيما يأتي:

أولًا: أسلوب الطلب:

جاء الأمر في القرآن بابتغاء الطيبات في الحياة الدنيا، وأكد ربنا سبحانه وتعالى على ذلك في مواضع:

جاء الأمر بابتغاء الصعيد الطيب للتيمم.

فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ففي آية سورة النساء، يعني سبحانه: وإن كنتم جرحى أو بكم قروح أو كسر، أو علة لا تقدرون معها على الاغتسال من الجنابة، وأنتم مقيمون غير مسافرين، أو إن كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنب، أو جاء أحد منكم من الغائط، قد قضى حاجته وهو مسافر صحيح، أو لامستم النساء (وهو مختلف في تأويله بين الجماع أو مجرد اللمس) فطلبتم الماء لتتطهروا به فلم تجدوه بثمن ولا غير ثمن، فاقصدوا صعيدًا طيبًا لتتيمموا به. والصعيد: «هو وجه الأرض الخالية من النبات والغروس والبناء، المستوية»[١].

وقد أمر الله في آخر الآية بشكره على تصييره الصعيد طيبًا، وعلى نعمه.

قال الطبري: «وقوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. فإنّه يقول: ويريد ربّكم مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتكم إيّاه فيما فرض عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصّلاة بالماء إن وجدتموه، وتيمّمكم إذا لم تجدوه، أن يتمّ نعمته عليكم بإباحته لكم التّيمّم، وتصييره لكم الصّعيد الطّيّب طهورًا، رخصةً منه لكم في ذلك مع سائر نعمه الّتي أنعم بها عليكم أيّها المؤمنون ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]. يقول: تشكرون اللّه على نعمه الّتي أنعمها عليكم بطاعتكم إيّاه فيما أمركم ونهاكم»[٢].

وجاء الأمر بأكل الطيب من الرزق.

أمر الله الرسل بذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٠٨.
(٢) المصدر السابق ٨/ ٢١٨.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأمر الله المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧-٨٨].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

إن الله ينادي الذين آمنوا بالصفة التي تربطهم به سبحانه، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام، ويذكرهم بما رزقهم، فهو وحده الرازق، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبًا من الطيبات، وأنه إذا حرم عليهم شيئًا فلأنه غير طيب، لا لأنه يريد أن يحرمهم، ويضيق عليهم -وهو الذي أفاض عليهم الرزق ابتداء- ويوجههم للشكر إن كانوا يريدون أن يعبدوه وحده بلا شريك، فيوحي إليهم بأن الشكر عبادة وطاعة يرضاها الله من العباد، كل أولئك في آية واحدة قليلة الكلمات[1].

يقول الرازي: «قوله: لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ اللّه لكم يحتمل وجوهًا:

أحدها: لا تعتقدوا تحريم ما أحلّ اللّه تعالى لكم.

وثانيها: لا تظهروا باللّسان تحريم ما أحلّه اللّه لكم.

وثالثها: لا تجتنبوا عنها اجتنابًا شبيه الاجتناب من المحرّمات، فهذه الوجوه الثّلاثة محمولةٌ على الاعتقاد والقول والعمل.

ورابعها: لا تحرّموا على غيركم بالفتوى.

وخامسها: لا تلتزموا تحريمها بنذرٍ أو يمينٍ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

وسادسها: أن يخلط المغصوب بالمملوك خلطًا لا يمكنه التّمييز، وحينئذٍ يحرم الكلّ، فذلك الخلط سببٌ لتحريم ما كان حلالًا له، وكذلك القول فيما إذا خلط النّجس بالطّاهر.

والآية محتملةٌ لكلّ هذه الوجوه، ولا يبعد حملها على الكلّ واللّه أعلم»[2].

وأمر الله بني إسرائيل بذلك، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٦.

(٢) مفاتيح الغيب ١٢/ ٤١٧.

وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨١].

وأمر الله الناس جميعًا بذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

والمراد بالطّيّب هنا: ما تستطيبه النّفوس بالإدراك المستقيم السّليم من الشّذوذ، وهي النّفوس الّتي تشتهي الملائم الكامل أو الرّاجح بحيث لا يعود تناوله بضرٍّ جثمانيٍّ أو روحانيٍّ، وسيأتي معنى الطّيّب لغةً عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤].

وفي هذا الوصف معنًى عظيمٌ من الإيماء إلى قاعدة الحلال والحرام؛ فلذلك قال علماؤنا: «إنّ حكم الأشياء الّتي لم ينصّ الشّرع فيها بشيءٍ إنّ أصل المضارّ منها التّحريم، وأصل المنافع الحلّ، وهذا بالنّظر إلى ذات الشّيء، بقطع النّظر عن عوارضه، كتعلّق حقّ الغير به الموجب تحريمه؛ إذ التّحريم حينئذٍ حكمٌ للعارض لا للمعروض»[(١)].

كما جاء الأمر بإلقاء التحية الطيبة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١].

يأمر سبحانه وتعالى إذا دخلتم بيوتًا، وهو عام يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان فليسلم بعضكم على بعض (وهذا هو المشهور في تفسيرها) ثم مدح هذا السلام، فقال: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت (تحية من عند الله) قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم (مباركة) لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة (طيبة) لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٠٢.

وجلب مودة[1].

ثانيًا: الثناء على الطيبين:

جاء الثناء من الله عز وجل في قرآنه على عباده الطيبين، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣١-٣٢].

يقول تعالى ذكره: كذلك يجزي الله المتقين الذين تقبض أرواحهم ملائكة الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطهر الإسلام في حال حياتهم وحال مماتهم.

فالملائكة تقبض أرواح هؤلاء، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة، بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة.

وفي معنى طيّبين ستة أقوال:

أحدها: مؤمنين.

والثاني: طاهرين من الشرك.

والثالث: زاكية أفعالهم وأقوالهم.

والرابع: أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط.

والخامس: طيبة أنفسهم بالموت، ثقة بالثواب.

والسادس: طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله.

والآية هنا تحتمل كل هذه المعاني[2].

هذا حال الطيبين عند مماتهم، أما عن حالهم في الآخرة فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وسيق الذين اتقوا ربهم بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفدًا على النجائب إلى الجنة زمرًا، فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله، حتى إذا وصلوا لتلك الرحاب الرحيبة، والمنازل الأنيقة، وهبّ عليهم ريحها ونسيمها، وآن خلودها ونعيمها، وفتحت لهم أبوابها فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها، وقال لهم خزنتها تهنئة لهم وترحيبًا: سلام عليكم من كل آفة وشر حال، طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته، فبسبب طيبكم ادخلوها خالدين؛ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون[3].

وفي قوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ﴾ خمسة

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٧٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٩٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٥٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٠١.

(٣) تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٧٣٠.

أقوال:

أحدها: أنهم إذا انتهوا إلى باب الجنة وجدوا عند بابها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فيشربون من إحداهما، فلا يبقى في بطونهم أذى ولا قذى إلا خرج، ويغتسلون من الأخرى، فلا تغبر جلودهم، ولا تشعث أشعارهم أبدًا، حتى إذا انتهوا إلى باب الجنة، قال لهم عند ذلك خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ رواه عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه [(١)].

والثاني: طاب لكم المقام، قاله ابن عباس.

والثالث: طبتم بطاعة الله، قاله مجاهد.

والرابع: أنهم طيبوا قبل دخول الجنة بالمغفرة، واقتص من بعضهم لبعض، فلما هذبوا قالت لهم الخزنة: طبتم، قاله قتادة.

والخامس: كنتم طيبين في الدنيا، قاله الزجاج.

وفي هذه الآية أيضًا كل هذه المعاني محتملة [(٢)].

ثالثًا: امتنان الله على عباده بالطيبات:

امتن الله عز وجل على عباده في القرآن أن رزقهم بالطيبات، وأحلها لهم:

امتن الله على الناس جميعًا بذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠].

يقول الرازي: «قوله: ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وذلك؛ لأنّ الأغذية، إمّا حيوانيّةٌ، وإمّا نباتيّةٌ، وكلا القسمين إنّما يتغذّى الإنسان منه بألطف أنواعها، وأشرف أقسامها بعد التّنقية التّامّة، والطّبخ الكامل، والنّضج البالغ؛ وذلك ممّا لا يحصل إلّا للإنسان» [(٣)].

وقال ابن كثير: «أي: من زروعٍ وثمارٍ، ولحومٍ وألبانٍ، من سائر أنواع الطّعوم والألوان، المشتهاة اللّذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرّفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، ممّا يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد، ١/ ٥٠٨، رقم١٤٥٠، والطبري في تفسيره، ٢١/ ٣٣٩، والبيهقي في البعث والنشور، ص ١٧١، رقم٢٤٦ عن عاصم بن ضمرة عن علي.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٨.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٣٧٥.

من أقطار الأقاليم والنّواحي»[1].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وامتن الله عز وجل على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

قال الطاهر: «وأمّا رزقهم من الطّيّبات فبأن يسّر لهم امتلاك بلاد الشّام الّتي تفيض لبنًا وعسلًا كما في التّوراة في وعد إبراهيم والّتي تجبى إليها ثمرات الأرضين المجاورة لها، وترد عليها سلع الأمم المقابلة لها على سواحل البحر، فتزخر مراسيها بمختلف الطّعام واللّباس والفواكه والثّمار والزّخارف؛ وذلك بحسن موقع البلاد من بين المشرق برًّا والمغرب بحرًا، والطّيّبات: هي الّتي تطيب عند النّاس، وتحسن طعمًا ومنظرًا ونفعًا وزينة»[2].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي الطيبات أربعة أقوال:

أحدها: أنها الحلال، والمعنى: يحل لهم الحلال.

والثاني: أنها ما كانت العرب تستطيبه.

والثالث: أنها الشحوم المحرمة على بني إسرائيل.

والرابع: ما كانت العرب تحرمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[3].

يقول الإمام ابن القيم: «﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه، ولم يستفد طيب هذا وخبث هذا من نفس التحليل والتحريم لوجهين اثنين:

أحدهما: أن هذا علم من أعلام نبوته التي احتج الله بها على أهل الكتاب، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٩٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٥/ ٣٤٥.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٦٠.

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾

فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وهذا أيضًا باطل، فإنه لا فائدة فيه وهو الوجه الثاني.

فثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا»[(١)].

ونقل ابن كثير أن بعض العلماء قال: «كلّ ما أحلّ اللّه تعالى فهو طيّبٌ نافعٌ في البدن والدّين، وكلّ ما حرّمه فهو خبيثٌ ضارٌّ في البدن والدّين»[(٢)].

وقد بين الله الواجب علينا تجاه الطيبات التي امتن بها علينا.

أمر الله سبحانه وتعالى الصحابة أن يقابلوا فضله عليهم بالطيات، بأن يحققوا شكرها، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

المقصود بالطيبات في هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها الغنائم التي أحلها لهم، قاله السدي.

والثاني: أنها الخيرات التي مكنهم منها، ذكره الماوردي[(٣)].

وذكر أنه امتن عليهم بهذه النعم لشكره والقيام بعبادته.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يقول: «وأطعمكم غنيمتهم حلالًا طيبًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لكي تشكروا على ما رزقكم، وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم»[(٤)].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فمن ذا الذي يتأمل هذه النقلة البعيدة، ثم لا يستجيب لصوت الحياة الآمنة القوية الغنية، صوت الرسول الأمين الكريم، ثم من ذا الذي لا يشكر الله على إيوائه ونصره وآلائه، وهذا المشهد وذلك معروضان عليه، ولكل منهما إيقاعه وإيحاؤه؟

على أن القوم إنما كانوا يعيشون هذا المشهد وذاك كانوا يذكرون بما يعرفون من حالهم في ماضيهم وحاضرهم، ومن ثم كان لهذا القرآن في حسهم ذلك المذاق[(٥)].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن

(١) التفسير القيم ص٢٨٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٨٨.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٠٢.
(٤) جامع البيان، ١١/ ١١٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٧.

﴿كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

قال الطبري: «﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

يعني: أطعموا من حلال الرّزق الّذي أحللناه لكم، فطاب لكم بتحليلي إيّاه لكم ممّا كنتم تحرّمون أنتم ولم أكن حرّمته عليكم من المطاعم والمشارب.

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ يقول: وأثنوا على اللّه بما هو أهله منكم على النّعم الّتي رزقكم، وطيّبها لكم.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم منقادين لأمره، سامعين مطيعين، فكلوا ممّا أباح لكم أكله وحلّله وطيّبه لكم، ودعوا في تحريمه خطوات الشّيطان»[(١)].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: فكلوا أيها النّاس ممّا رزقكم اللّه من بهائم الأنعام الّتي أحلّها لكم حلالًا طيّبًا مذكّاةً غير محرّمةٍ عليكم.

﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يقول: واشكروا اللّه على نعمه الّتي أنعم بها عليكم في تحليله ما أحلّ لكم من ذلك، وعلى غير ذلك من نعمه.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ يقول: إن كنتم تعبدون اللّه، فتطيعونه فيما يأمركم وينهاكم»[(٢)].

والشكر يكون بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله[(٣)].

وإظهار اسم الجلالة في قوله: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مع أنّ مقتضى الظّاهر الإضمار؛ لزيادة التّذكير[(٤)].

(١) جامع البيان، ٣/ ٥٣.

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٣٨٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥١.
(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ٣٠٩.

صور الطيبات المعنوية

ذكر القرآن الكريم صورًا للطيبات المعنوية نبينها فيما يأتي:

أولًا: الاعتقاد:

أخبر سبحانه وتعالى أنه يختبر العباد ليتبين طيب القلب والاعتقاد من خبيثه، فقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

يقول تعالى ذكره: يحشر اللّه هؤلاء الّذين كفروا بربّهم، وينفقون أموالهم للصّدّ عن سبيل اللّه إلى جهنّم؛ ليفرّق بينهم وهم أهل الخبث، كما قال وسمّاهم ﴿الْخَبِيثَ﴾ وبين المؤمنين باللّه وبرسوله، وهم الطّيّبون، كما سمّاهم جلّ ثناؤه، فميّز جلّ ثناؤه بينهم بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جنّاته، وأنزل أهل الكفر ناره[(١)].

ويقول الرازي: «ليميز اللّه الخبيث من الطّيّب، وفيه قولان:

القول الأول: ليميز اللّه الفريق الخبيث من الكفّار من الفريق الطّيّب من المؤمنين، فيجعل الفريق الخبيث بعضه على بعضٍ، فيركمه جميعًا، وهو عبارةٌ عن الجمع والضّمّ حتّى يتراكموا، كقوله تعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن (١٩)].

يعني: لفرط ازدحامهم، فقوله: (أولئك) إشارةٌ إلى الفريق الخبيث.

والقول الثاني: المراد بالخبيث: نفقة الكافر على عداوة محمّدٍ، وبالطّيّب: نفقة المؤمن في جهاد الكفّار، كإنفاق أبي بكرٍ وعثمان في نصرة الرّسول عليه الصلاة والسلام، فيضمّ تعالى تلك الأمور الخبيثة بعضها إلى بعضٍ، فيلقيها في جهنّم، ويعذّبهم بها، كقوله تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]»[(٢)].

وفي آية أخرى يشير سبحانه إلى أنه وإن لم يفتضح ويتميز هؤلاء الذين يحملون خبيث الاعتقاد في الدنيا، ففي الآخرة لا بد أن يميز الله الخبيث من الطيب بأن يحشر هؤلاء الكافرون إلى النار ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦-٣٧].

وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: «ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء»، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال السدي، ومقاتل: «يميز

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ١٧٥.

(٢) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٨٢.

المؤمن من الكافر»، والثاني: «ليميز العمل الطيب من العمل الخبيث»، قاله أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، والثالث «ليميز الإنفاق الطيب في سبيله، من الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان»، قاله ابن زيد والزجاج[1].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السّعادة من أهل الشّقاء، وقال السّدّي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يحتمل أن يكون هذا التّمييز في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾[يونس: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩].

ويحتمل أن يكون هذا التّمييز في الدّنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون (اللّام) معلّلةً لما جعل اللّه للكفّار من مالٍ ينفقون في الصّدّ عن سبيل اللّه، أي: إنّما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنّكول عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران (١٧٩)].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٢].

ونظيرتها في براءة أيضًا.

فمعنى الآية على هذا: إنّما ابتليناكم بالكفّار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ليتميّز الخبيث من الطّيّب، فيجعل الخبيث بعضه على بعضٍ ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي: يجمعه كلّه، وهو جمع الشّيء بعضه على بعضٍ، كما قال تعالى في السّحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣].

أي: متراكمًا متراكبًا ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدّنيا والآخرة[2].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٤.

ثانيًا: الأعمال:

أكد سبحانه أنه مهما ارتفع خبيث الأعمال، ومهما كثر فلا بد أن يخزيه الله، ويتميز أهل العمل الطيب.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿قُل﴾ للناس محذرًا عن الشر، ومرغبًا في الخير ﴿لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئًا، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران، وفاتته الأرباح[(١)].

وقال في الظلال: «ثم تختم الفقرة بميزان يقيمه الله للقيم؛ ليزن به المسلم ويحكم، ميزان يرجح فيه الطيب، ويشيل الخبيث؛ كي لا يخدع الخبيث المسلم بكثرته في أي وقت، وفي أي حال! ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

إن المناسبة الحاضرة لذكر الخبيث والطيب في هذا السياق، هي مناسبة تفصيل الحرام والحلال في الصيد والطعام، والحرام خبيث، والحلال طيب، ولا يستوي الخبيث والطيب، ولو كانت كثرة الخبيث تغر وتعجب، ففي الطيب متاع بلا معقبات من ندم أو تلف، وبلا عقابيل[(٢)] من ألم أو مرض، وما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيب مثلها على اعتدالٍ، وأمن من العاقبة في الدنيا والآخرة، والعقل حين يتخلص من الهوى بمخالطة التقوى له ورقاقة القلب له، يختار الطيب على الخبيث، فيتنهي الأمر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾»[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٥.

(٢) العقبول: الشّديد من الأمور، وبقيّة العلّة، والعداوة والعشق، وما يخرج على الشّفة على أثر الحمى، جمعه عقابيل، والعقابيل الدّواهي.
انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦١٣.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٩٨٣.

ثالثًا: الأقوال:

ضرب الله عز وجل مثلًا للأقوال الطيبة والأقوال الخبيثة، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

يقول سبحانه: ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها، كشجرة طيبة، وهي النخلة، أصلها ثابت في الأرض، وفرعها منتشر في السماء، وهي كثيرة النفع دائمًا، تؤتي ثمرتها كل حين بإذن ربها، فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائمًا يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن، وينفع غيره، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ما أمرهم به، ونهاهم عنه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها، فقال: ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة المأكل والمطعم، وهي: شجرة الحنظل ونحوها، اجتثت هذه الشجرة من فوق الأرض ما لها من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة فهي ثمرة خبيثة؛ كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث، يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، فلا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره[1].

قال الإمام ابن القيم: «شبه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مُرْضٍ لله فهو ثمرة هذه الكلمة».

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كلمة طيبة: شهادة أن لا إله إلا الله، كشجرة طيبة وهو المؤمن، أصلها ثابت قول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، وفرعها في السّماء يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء».

وقال الربيع بن أنس: «كلمة طيبة: هذا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

مثل الإيمان، فإن الإيمان: الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه، وفرعها في السماء: خشية الله، والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًّا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين».

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة إلهيته التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفي تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، ومتصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته.

فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة ثمرتها كل وقت[(١)].

هذه هي صفة المؤمن كما بينها رب العالمين، والذي بين لنا في آية أخرى أنه يهدي هذا المؤمن دومًا إلى كل قول طيب، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

وجائز أن يكون هذا في الدنيا والآخرة،

(١) التفسير القيم ص ٣٤٠.

أما في الدنيا هو قول التوحيد، وشهادة الإخلاص، وأمّا في الآخرة كقوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

فهو القول الطيب الذي هدوا إليه.

وقال بعضهم: «قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو القرآن ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الإسلام وشرائعه».

وقال قتادة: «ألهموا التسبيح والتحميد كما ألهموا النفس».

وقال: «﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هو كل قول حسن»[(١)].

قال الإمام ابن كثير: «وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

فهدوا إلى المكان الّذي يسمعون فيه الكلام الطّيّب ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

لا كما يهان أهل النّار بالكلام الّذي يروّعون به، ويقرّعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢].

وقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى المكان الّذي يحمدون فيه ربّهم، على ما أحسن إليهم، وأنعم به، وأسداه إليهم، كما جاء في الصّحيح أنّهم: (يلهمون التّسبيح والتّحميد، كما تلهمون النّفس)[(٢)].

وقد قال بعض المفسّرين في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: القرآن، وقيل: لا إله إلّا اللّه، وقيل: الأذكار المشروعة ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: الطّريق المستقيم في الدّنيا، وكلّ هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم»[(٣)].

وهذا القول الطيب الذي يهدي الله المؤمنين إليه هو الذي يرفع إلى الله عز وجل، ويقبله، ويثني على صاحبه.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

يقول تعالى ذكره: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٠٠، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٤٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفات الجنة وأهلها وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا، ٤/ ٢١٨٠، رقم ٢٨٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٠٨.

﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ يقول: ويرفع ذكر العبد ربه إليه عمله الصالح، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه، والانتهاء إلى ما أمر به.

وفي قوله تعالى: ﴿يَرۡفَعُهُۥ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى الكلم الطّيّب، فالمعنى: «والعمل الصالح يرفع الكلم الطّيّب»، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

وكان الحسن يقول: «يعرض القول على الفعل، فإن وافق القول الفعل قبل، وإن خالف ردّ».

والثاني: «أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطّيّب»، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب.

فإذا قلنا: إن الكلم الطّيّب هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول أنه لا يقبل عملٌ صالح إلا من موحّد.

والثالث: أنها ترجع إلى الله عز وجل.

فالمعنى: «والعمل الصالح يرفعه الله إليه»، أي: يقبله، قاله قتادة[(١)].

وورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

قال: «الكلام الطّيّب: ذكر اللّه، والعمل الصّالح: أداء فرائضه؛ فمن ذكر اللّه سبحانه في أداء فرائضه، حمل عليه ذكر اللّه فصعد به إلى اللّه، ومن ذكر اللّه ولم يؤدّ فرائضه، ردّ كلامه على عمله، فكان أولى به»[(٢)].

يقول الرازي رحمه الله: «قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ تقريرٌ لبيان العزّة؛ وذلك لأنّ الكفّار كانوا يقولون: نحن لا نعبد من لا نراه، ولا نحضر عنده؛ لأنّ البعد من الملك ذلّةٌ، فقال تعالى: إن كنتم لا تصلون إليه فهو يسمع كلامكم، ويقبل الطّيّب، فمن قبل كلامه، وصعد إليه فهو عزيزٌ، ومن ردّ كلامه في وجهه فهو ذليلٌ، وأمّا هذه الأصنام لا يتبيّن عندها الذّليل من العزيز؛ إذ لا علم لها، فكلّ أحدٍ يمسها، وكذلك يرى عملكم، فمن عمل صالحًا رفعه إليه، ومن عمل سيّئًا ردّه عليه، فالعزيز من الّذي عمله لوجهه، والذّليل من يدفع الّذي عمله في وجهه، وأمّا هذه الأصنام فلا تعلم شيئًا، فلا عزيز يرفع عندها، ولا ذليل، فلا عزّة بها، بل عليها ذلّةٌ؛ وذلك لأنّ ذلّة السّيّد ذلّةٌ للعبد، ومن كان معبوده وربّه وإلهه حجارةً أو خشبًا ماذا يكون هو؟!

وفي قوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ وجوهٌ، أحدها: كلمة لا إله إلّا اللّه هي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٠٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٣٩.

الطّيّبة، وثانيها: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلّا اللّه، واللّه أكبر طيّبٌ، ثالثها: هذه الكلمات الأربع، وخامسةٌ وهي تبارك اللّه، والمختار: أنّ كلّ كلامٍ هو ذكر اللّه، أو هو للّه كالنّصيحة والعلم فهو إليه يصعد[1].

(١) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٢٦٦.

صور الطيبات الحسية

ذكر القرآن الكريم صورًا للطيبات الحسية نبينها فيما يأتي:

أولًا: المطعومات:

لقد بَيَّنَ الحق سبحانه وتعالى أنه أحل لنا من المطعومات الطيبات فقط، فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٤-٥].

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

أصل معنى الطيب معنى الطهارة والزكاء، والوقع الحسن في النفس عاجلًا وآجلًا، فالشيء المستلذ إذا كان وخمًا لا يسمى طيبًا؛ لأنه يعقب ألمًا أو ضرًّا؛ ولذلك كان طيب كل شيء: أن يكون من أحسن نوعه وأنفعه.

والطيبات هنا هي الحلال، وكل حرام فليس بطيب. وقيل: ما التذه آكله وشاربه، ولم يكن عليه فيه ضرر في الدنيا، ولا في الآخرة. وقيل: الطيبات الذبائح؛ لأنها طابت بالتذكية[1].

لذلك بيَّنَ سبحانه أن من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أنه يحل للناس الطيبات بأمر من ربه جل وعلا ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولهذا نهانا ربنا سبحانه وتعالى أن نحرم على أنفسنا هذه الطيبات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[المائدة: ٨٧].

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها، فتجمعون بذلك بين القول على الله بالكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حرامًا خبيثًا، فإن هذا من الاعتداء.

والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك.

والآية تردّ على المتقشفة؛ لأنه نهانا ألا نأكل طيبات ما أحل اللّه لنا، وهم يحرمون ذلك، ثم لا فرق بين تحريم ما أحل اللّه لنا من الطيبات، وتحليل ما حرم الله علينا من الخبائث، ثم يلزمهم أن يحرموا على أنفسهم التناول من الخبز والماء، وهما من أطيب الطيبات، ألا ترى أن المرء قد يمل ويسأم من غيرهما من الطيبات إذا كثر ذلك، ولا يمل ألبتّة من الخبز والماء، دل أنهما من أطيب الطيبات، إلا أن يمتنعوا من التناول من غيرهما، إيثارًا منهم غيرهم على أنفسهم لما يلحق القوم من المئونة في غيرهما من الطيبات، ولا يلحق في الخبز

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/١١١، تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢١.

والماء؛ لأنهما موجودان، يجدهما كل أحد ولا يجد غيرهما من الطيبات، إلا من تصل مؤنة عظيمة، فإن كان تركهم التناول منها لهذا الوجه فإنه لا بأس[1].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: يا أيّها الّذين صدقوا اللّه ورسوله، وأقرّوا بما جاءهم به نبيّهم صلى الله عليه وسلم أنّه حقٌّ من عند اللّه ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[المائدة: ٨٧].

يعني بالطّيّبات: اللّذيذات الّتي تشتهيها النّفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إيّاها، كالّذي فعله القسّيسون والرّهبان، فحرّموا على أنفسهم النّساء والمطاعم الطّيّبة، والمشارب اللّذيذة، وحبس في الصّوامع بعضهم أنفسهم، وساح في الأرض بعضهم.

يقول تعالى ذكره: فلا تفعلوا أيّها المؤمنون كما فعل أولئك، ولا تعتدوا حدّ اللّه الّذي حدّ لكم فيما أحلّ لكم، وفيما حرّم عليكم، فتجاوزوا حدّه الّذي حدّه، فتخالفوا بذلك طاعته، فإنّ اللّه لا يحبّ من اعتدى حدّه الّذي حدّه لخلقه فيما أحلّ لهم وحرّم عليهم»[2].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

يقول تعالى منكرًا على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيّق عليهم ما وسعه الله؟

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية: أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها[3].

ولهذا أمر الله عز وجل بالأكل من الطيبات:

أمر الله الرسل بذلك، فقال تعالى:

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٥٧٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٢.

(٢) جامع البيان ٨/ ٦٠٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٨٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وأمر الله المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨].

وأمر الله بني إسرائيل بذلك، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨١].

وأمر الله الناس جميعًا بذلك، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

يبين الله تعالى هنا أنه الرازق لعباده، وأنه هو الذي يشرع لهم الحلال والحرام، وهذا فرع عن وحدانية الألوهية -كما أسلفنا- فالجهة التي تخلق وترزق هي التي تشرع فتحرم وتحلل، وهكذا يرتبط التشريع بالعقيدة بلا فكاك.

وهنا يبيح الله للناس جميعًا أن يأكلوا مما رزقهم في الأرض حلالًا طيبًا -إلا ما شرع عليهم حرمته وهو المبين فيما بعد- وأن يتلقوا منه هو الأمر في الحل والحرمة، وألا يتبعوا الشيطان في شيء من هذا؛ لأنه عدوهم، ومن ثم فهو لا يأمرهم بخير، إنما يأمرهم بالسوء من التصور والفعل، ويأمرهم بأن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم، دون أمر من الله، مع الزعم بأن هذا الذي يقولونه هو شريعة الله، كما كان اليهود مثلًا يصنعون، وكما كان مشركو قريش يدعون.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

وهذا الأمر بالإباحة والحل لما في الأرض -إلا المحظور القليل الذي ينص عليه القرآن نصًا- يمثل طلاقة هذه العقيدة، وتجاوبها مع فطرة الكون، وفطرة الناس،

فالله خلق ما في الأرض للإنسان، ومن ثم جعله له حلالًا، لا يقيده إلا أمر خاص بالحظر، وإلا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد.

ولكن الأمر في عمومه أمر طلاقة واستمتاع بطيبات الحياة، واستجابة للفطرة بلا كزازة[1] ولا حرج ولا تضييق، كل أولئك بشرط واحد هو أن يتلقى الناس ما يحل لهم وما يحرم عليهم من الجهة التي ترزقهم هذا الرزق، لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير؛ لأنه عدو للناس بين العداوة، لا يأمرهم إلا بالسوء وبالفحشاء، وإلا بالتجديف على الله، والافتراء عليه، دون تثبت ولا يقين[2].

وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

في المقابل: يبين سبحانه أن هذه الطيبات حرمها الله عز وجل على بني إسرائيل بسبب ظلمهم وطغيانهم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

يخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرًا من الطيبات التي كانت حلالًا عليهم، وهذا تحريم عقوبة بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصدهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، ويأخذهم الربا وقد نهوا عنه، فمنعوا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصدد حلها، لكونها طيبة، وأما التحريم الذي على هذه الأمة فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم[3].

ثانيًا: الأموال:

جاء الحديث عن الأموال الطيبة في مواضع من القرآن:

أمر الله عز وجل الصحابة أن يتمتعوا بالأموال التي غنموها، والتي أحلها الله عز وجل، وجعلها طيبة لهم بعد أن كانت محرمة على الأمم السابقة.

فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩].

يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أهل بدر: فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين حلالًا بإحلاله لكم طيبًا، وخافوا الله أن تعودوا، أن تفعلوا في دينكم شيئًا بعد هذه من قبل أن يعهد فيه إليكم، كما فعلتم في أخذ الفداء، وأكل الغنيمة، وأخذتموهما من قبل أن يحلا لكم، إن الله غفور رحيم.

قال بعضهم: «قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾

---

(١) الكزازة والكزاز اليبس والانقباض. انظر: المحكم، ابن سيده ٦/ ٦٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢١٣.

واحد، كل حلال طيب، وكل حرام خبيث، وإنما يطيب إذا حل، ويخبث إذا حرم، ولكن يحتمل قوله: ﴿حَلَٰلًا﴾ بالشرع، ﴿طَيِّبًا﴾ في الطبع، وكذلك الحرام هو حرام بالشرع، وخبيث بالطبع، وإنما يتكلم بالحل والحرمة من جهة الشرع، والطيب والخبيث بالطبع.

والطيب: هو الذي يتلذذ به ولا تبعة فيه؛ لأن خوف التبعة ينغص عليه، ويذهب بطيبه ولذته. وجائز ما ذكر من الطيب -ها هنا- لما أن أهل الشرك كانوا يأخذون الأموال ويجمعونها من وجه لا يحل، وبأسباب فاسدة، فيكرهون التناول منها إذا غنموها لتلك الأسباب الفاسدة، فطيب قلوبهم بقوله: ﴿طَيِّبًا﴾ [(١)].

هذا عن الغنائم، كذلك مهر المرأة إذا تنازلت عنه يكون مالًا طيبًا ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[النساء: ٤].

لما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن، خصوصًا الصداق الذي يكون شيئًا كثيرًا، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحثهم على إيتاء النساء مهورهن عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تماطلوهن أو تبخسوا منه شيئًا. فإن طبن لكم عن شيء من الصداق بأن سمحن لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء منه، أو تأخيره، أو المعاوضة عنه فلا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة[(٢)].

هذا عن المال الطيب الذي يتحصل عليه الإنسان من طريق حلال، ومن هذه الطرق الحلال: الغنائم، وتنازل المرأة عن مهرها.

في المقابل يحذرنا سبحانه من المال الخبيث، وهو الذي يتحصل عليه الإنسان من طريق حرام، ومن ذلك: أكل مال اليتيم ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

أمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إلى اليتامى، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا كاملة موفرة، وأن لا يتبدلوا الخبيث الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق بالطيب، وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة، ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم.

ففيه تنبيهٌ لقبح أكل مالهم بهذه الحالة التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرّأ على هذه الحالة فقد أتى إثمًا عظيمًا، ووزرًا جسيمًا.

ومن استبدال الخبيث بالطيب: أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس[(٣)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٧٢، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٥/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.

(٣) المصدر السابق.

هذا عن ما يحصل عليه الإنسان من مال طيب وخبيث.

أما ما يخرجه الإنسان من مال صدقة لله عز وجل، فقد نهانا الله سبحانه أن نختار أخبث ما عندنا لنخرجه، وأمرنا أن نتصدق من أطيب الأموال، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[البقرة: ٢٦٧].

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما منّ عليكم بتسهيل تحصيله، فأنفقوا منه شكرًا لله، وأداءً لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه، ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فهو غني عنكم، ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة، والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب، وحياة النفوس، ونعيم الأرواح.

وفي المراد بالطيب ها هنا قولان:

أحدهما: «أنه الجيّد الأنفس»، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: «أنه الحلال»، قاله أبو معقل في آخرين[(١)].

ثالثًا: الأزواج:

أساس اختيار الرجل لزوجته أن تكون المرأة من الطيبات، وأساس قبول المرأة للرجل أن يكون الرجل من الطيبين.

قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[النور: ٢٦].

في معنى الخبيث والطيب أربعة أقوال:

أحدها: الكلمات الخبيثات لا يتكلم بها إلا الخبيث من الرجال والنساء، والكلمات الطيبات لا يتكلم بها إلا الطيبون من الرجال والنساء.

والثاني: الكلمات الخبيثات إنما تلصق بالخبيثين من الرجال والنساء، فأما الطيبات والطيبون فلا يصلح أن يقال في حقهم إلا الطيبات.

والثالث: الخبيثات من الأعمال للخبيثين من الناس، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال، وكذلك الطيبات.

والرابع: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والطيبات من النساء للطيبين

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٤١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ١١٥.

من الرجال[1].

والآية تحتمل كل هذه المعاني، لكن الآية واردة في وسط سياق تبرئة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، فأقرب المعاني: هو أن يكون حديث الآية عن الطيب والخبيث من الرجال والنساء.

والمقصود بالطيبات من النساء: هي صاحبة الدين، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (تنكح النساء لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك)[2].

يقول الطاهر: «والمراد بالخبث: خبث الصّفات الإنسانيّة كالفواحش، وكذلك المراد بالطّيّب: زكاء الصّفات الإنسانيّة من الفضائل المعروفة في البشر، فليس الكفر من الخبث، ولكنّه من متمّماته، وكذلك الإيمان من مكمّلات الطّيّب؛ فلذلك لم يكن كفر امرأة نوح وامرأة لوط ناقصًا لعموم قوله: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ فإنّ المراد بقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]. أنّهما خانتا زوجيهما بإبطان الكفر، ويدلّ لذلك مقابلة حالهما بحال امرأة فرعون ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]»[3].

وقد أحل الله عز وجل للرجال أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء، فيجمعوا بين اثنين أو ثلاثة أو أربعة في وقت واحد إذا استطاعوا العدل بينهن.

قال عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ما طاب لكم، ووقع عليهن اختياركم من ذوات الدين.

وفي هذه الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح، بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها؛ ليكون على بصيرة من أمره[4].

رابعًا: المسكن:

امتن الله عز وجل على أهل سبأ؛ لأنه رزقهم البلدة الطيبة، والمسكن الطيب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٨٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٧/ ٧، رقم ٥٠٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، ٢/ ١٠٨٦، رقم ١٤٦٦.
(٣) التحرير والتنوير ١٨/ ١٩٥.
(٤) تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.

﴿ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

يقول تعالى ذكره: لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامة بينة، وحجة واضحة على أنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها، حيث آتاهم الله عز وجل بستانين كانا بين جبلين، عن يمين من أتاهما وشماله، ثم أمرهم سبحانه: كلوا من رزق ربكم الذي يرزقكم من هاتين الجنتين من زروعهما وأثمارهما، واشكروا له على ما أنعم به عليكم من رزقه ذلك.

ثم ابتدأ الخبر عن البلدة فقال: هذه بلدة طيبة، ورب غفور لذنوبكم إن أنتم أطعتموه.

يحتمل ما ذكر من طيبها: هو سعتها، وكثرة ريعها ومياهها وألوان ثمارها وفواكهها، وقيل: غير سبخة، وقيل: طيبة ليس فيها هوام لطيب هوائها، وقيل: طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم[(١)].

ولقد ضرب الله عز وجل المثل في الدنيا بالمسكن الطيب والبلدة الطيبة.

قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

يقول سبحانه: والبلد الطيب، أي: طيب التربة والمادة إذا نزل عليه مطر يخرج نباته الذي هو مستعد له بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء حتى يأذن الله بذلك[(٢)].

هذا عن المسكن الطيب في الدنيا، أما في الآخرة فقد بشر الله عز وجل أهل الإيمان بالمساكن الطيبة في الجنة.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

والمساكن الطيبة الواردة في الآيتين تفسر بأنها مساكن قد زخرفت وحسنت، وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفًا في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٨٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٢.

فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح؛ لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها[(١)].

قال ابن كثير: «﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنّعيم المقيم في ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبدًا، ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: حسنة البناء، طيّبة القرار.

كما قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (جنّتان من ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من فضّةٍ آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدنٍ)[(٢)].

وبه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (إنّ للمؤمن في الجنّة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوّفة، طولها ستّون ميلًا في السّماء، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، لا يرى بعضهم بعضًا)[(٣)].

وفي الصّحيحين أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (من آمن باللّه ورسوله، وأقام الصّلاة، وصام رمضان، فإنّ حقًّا على اللّه أن يدخله الجنّة، هاجر في سبيل اللّه، أو جلس في أرضه الّتي ولد فيها).

قالوا: يا رسول اللّه، أفلا نخبر النّاس؟

قال: (إنّ في الجنّة مائة درجةٍ، أعدّها اللّه للمجاهدين في سبيله، بين كلّ درجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنّه أعلى الجنّة، وأوسط الجنّة، ومنه تفجّر أنهار الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن)[(٤)]»[(٥)].

خامسًا: الذرية:

قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ

---

(١) انظر المصدر السابق ص٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ومن دونهما جنتان)، ٦/ ١٤٥، رقم ٤٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ١/ ١٦٣، رقم ١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (حور مقصورات في الخيام)، ٦/ ١٤٥، رقم ٤٨٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين، ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي، ٤/ ١٦، رقم ٢٧٩٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٧٥.



﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

عند رؤية زكريا ما رأى عند مريم من رزق الله الذي رزقها، وفضله الذي آتاها من غير تسبب أحد من الآدميين في ذلك لها، ومعاينته عندها الثمرة الرطبة التي لا تكون في حين رؤيته إياها عندها في الأرض؛ طمع بالولد، مع كبر سنه، من المرأة العاقر فرجا أن يرزقه الله منها الولد، مع الحال التي هما بها، كما رزق مريم على تخليها من الناس ما رزقها من ثمرة الصيف في الشتاء، وثمرة الشتاء في الصيف، وإن لم يكن مثله مما جرت بوجوده في مثل ذلك الحين العادات في الأرض، بل المعروف في الناس غير ذلك، كما أن ولادة العاقر غير الأمر الجارية به العادات في الناس، فرغب إلى الله جل ثناؤه في الولد، وسأله الذرية الطيبة، وهي المباركة طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم[(١)].

من الآباء من أرّقهم عصيان وضياع أبنائهم، فتجدهم يبذلون الغالي والنفيس في سبيل استصلاحهم ودلالتهم على طرق الهدى، ومنهم من يتمنى أن يرزقه الله ذرية طيبة يأنس بهم في حياته، ويجتمع بهم في الجنة بعد مماته.

وحسبي من هذه اللفتة أن أشير إلى مفتاح عظيم من مفاتيح صلاح الذرية التي استعان بها الأنبياء بربهم لصلاح ذرياتهم: هو الدعاء، فزكريا عليه السلام يقول كما في كتاب ربنا عز وجل: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وإبراهيم عليه السلام كان يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠].

فاستجاب الله دعاءه ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات: ١٠١].

وكان يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

والتجأ إلى الله تعالى في موضع آخر في كتابه ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهذا منطلق لكل أب بأن يجعل أمر الدعاء لذريته ملازمًا له قبل الولادة أو بعدها؛ اقتداء بأنبياء الله.

إن من الأوصاف التي وصف الله بها عباده في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

إن على الآباء أن يمسكوا بزمام الدعاء لذريتهم اقتداء بأنبيائهم، وأن يتفطنوا لخطورة الدعاء عليهم، فبعض الآباء

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٥٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٢٩.

والأمهات يدعون على أبنائهم باللعنة والمرض وعدم التوفيق، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم)[1].

سادسًا: الريح:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

في الآية التي قبلها ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ثم يذكر حالة تؤيد ذلك، وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: هو الذي يسيركم في البر والبحر بما يسر لكم من الأسباب المسيرة لكم فيها، وهداكم إليها. حتى إذا كنتم في السفن البحرية، وجرين بهم بريح طيبة موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

وفرحوا بها، واطمأنوا إليها، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح عاصف شديدة الهبوب، وجاءهم الموج من كل مكان، وعرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين، ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين، فلما أنجاهم نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة؟!

والطيب: الموصوف بالطيب الشديد، وأصل معنى الطيب: الملاءمة فيما يراد من الشيء، ويقال: طاب له المقام في مكان كذا، ومنه سمي الشيء الذي له ريح وعرف طيبًا.

وكأنه سبحانه يتكلم هنا عن السفن الشراعية التي تسير بالهواء المتجمّع في أشرعتها، وإذا كان التقدم في صناعة السفن قد تعدّى الشراع، وانتقل إلى البخار، ثم الكهرباء، فإن كلمة الحق سبحانه: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ تستوعب كل مراحل الارتقاء، خصوصًا وأن كلمة (الريح) قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوة أيا كانت: من هواء، أو محرك يسير بأية طاقة[2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر، ٤/ ٢٣٠٤، رقم ٣٠٠٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٧، تيسر الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦١، تفسير الشعراوي ١٠/ ٥٨٥١.

سابعًا: الحياة:

بشر الله عز وجل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

يقول تعالى ذكره: من عمل بطاعة الله، وأوفى بعهود الله إذا عاهد من ذكر أو أنثى من بني آدم، وهو مصدّق بثواب الله الذي وعد أهل طاعته على الطاعة، وبوعيد أهل معصيته على المعصية، فلنحيينه حياة طيبة، ويجزيهم أجرهم في الآخرة بأحسن ما كانوا يعملون[١].

قال الطبري رحمه الله: «فلنحيينه حياة طيبة بالقناعة؛ وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظم فيها نصبه، ولم يتكدّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها، وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها.

وإنما كان ذلك أولى التأويلات في ذلك بالآية؛ لأن الله تعالى ذكره أوعد قومًا قبلها على معصيتهم إياه إن عصوه أذاقهم السوء في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٩٤].

فهذا لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم، فهذا لهم في الآخرة، ثم أتبع ذلك لمن أوفى بعهد الله وأطاعه»[٢].

إن الحياة الطيبة مطلب عظيم، وغاية نبيلة، بل هي مطلب كل الناس وغايتهم التي عنها يبحثون، وخلفها يركضون، وفي سبيلها يضحون ويبذلون، فما من إنسان في هذه الحياة إلا وتراه يسعى ويكدح ويضني نفسه ويجهدها كل ذلك بحثًا عن الحياة الطيبة، وطمعًا في الحصول عليها، والناس جميعًا على ذلك متفقون؛ ولكنهم يختلفون في سبل هذه الحياة الطيبة، وفي نوعها ومسالكها؛ وتبعًا لذلك فإنهم يختلفون في الوسائل والسبل التي توصلهم إلى هذه الحياة إن وصلوا إليها.

مختلفون على كافة مستوياتهم كانوا أممًا أو شعوبًا، أو مجتمعات صغيرة أو كبيرة، بل حتى الأسرة الواحدة تجد فيها ألوانًا شتى في فهم معنى الحياة الطيبة.

وللناس في كل زمان أفهام حول هذه الحياة الطيبة، وهم تبعًا لذلك أصناف، فمنهم من يرى الحياة الطيبة في كثرة المال وسعة الرزق، ومنهم من يراها في الولد أو في المنصب أو في الجاه.

لكن الله تعالى -ومن أصدق من الله حديثًا- قد حدد لنا مفهوم الحياة الطيبة،

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٩.

(٢) جامع البيان، ١٧/ ٢٩١.

وسبيلها في كتابه الكريم، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

حياة طيبة في الدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾، وحياة طيبة في الآخرة، وهي معنى قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فهذه الحياة الطيبة أساسها وقوامها على أمرين اثنين، أمرين عظيمين جليلين يسيرين على من يسرهما الله عليه:

الأمر الأول: الإيمان بالله تبارك وتعالى.

والأمر الثاني: عمل الصالحات وفق ما شرعه الله تبارك وتعالى، وما جاء عن رسوله [١]. ولله در من قال [٢]:

يا متعب الجسم كم تسعى لخدمته
أتعبت جسمك فيما فيه خسران
أقبل على الروح واستكمل فضائلها
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

وقد يظن بعض الناس أن الحياة الطيبة في كثرة الأموال والأولاد والتفاخر بالمناصب والرتب؛ ولذا فهو يحاول الحصول على هذه الأشياء بما شرع وبما لم يشرع.

إن السعادة أن تعيش
لفكرة الحق التليد
لعقيدة كبرى تحل
قضية الكون العتيد
هذي العقيدة للسعيد
هي الأساس هي العمود
من عاش يحملها ويهتف
باسمها فهو السعيد [٣]

فالحياة الطيبة هي التي يحقق المرء فيها السعادة الحقيقية، والتي يمثلها قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها) [٤].

وما السعادة في الدنيا لذي أمل
إنّ السعيد الذي ينجو من النار [٥]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٤/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.

(٢) البيتان لأبي الفتح البستي في ديوانه ص٨٣.

(٣) هذه أبيات من قصيدة السعادة، ليوسف القرضاوي، من ديوانه نفحات ولفحات ص١٠٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب منه، ٤/ ١٥٢، رقم ٢٣٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، ٢/ ١٣٨٧، رقم ٤١٤١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

(٥) البيت لجحدر بن معاوية العكلي.
انظر: منتهى الطلب من أشعار العرب، محمد بن المبارك البغدادي ص ١١٣.

آثار ابتغاء الطيبات المعنوية

بين لنا ربنا سبحانه في القرآن بعضًا من آثار ابتغاء الطيبات المعنوية، ومن ذلك:

١ . ابتغاء الطيبات سبب في القبول.

قال سبحانه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

جائز أن يكون هذا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: هو قول التوحيد، وشهادة الإخلاص.

وأمّا في الآخرة كقوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

فهو القول الطيب الذي هدوا إليه. و﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ هو كل قول حسن[1].

وهذا القول الطيب الذي يهدي الله المؤمنين إليه هو الذي يرفع إلى الله عز وجل، ويقبله ويثني على صاحبه.

ويشير ربنا سبحانه وتعالى إلى هذا المعنى في آية أخرى، فيقول جل ثناؤه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

٢ . ابتغاء الطيبات سبب في الثبات والتوفيق.

قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

يقول سبحانه: ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة (وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها) كشجرة طيبة (وهي النخلة) أصلها ثابت في الأرض، وفرعها منتشر في السماء، وهي كثيرة النفع دائمًا، تؤتي ثمرتها كل حين بإذن ربها، فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علمًا واعتقادًا، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة في السماء دائمًا يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ما أمرهم به ونهاهم عنه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن[2].

هذه هي صفة المؤمن الذي يبتغي الطيب ضرب الله عز وجل له مثلًا بالشجرة الثابتة

---

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٤٠٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢٤.

الأركان والأصول.

معادلةٌ ربّانية يسيرة إن حقّقها العبد تحقّقت له الحياة الطيبة، هذه المعادلة هي وعده عز وجل بالحياة الطيبة لمن عمل صالحًا وهو مؤمن.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فالآية الكريمة ذكرت طرفي المعادلة:

الطرف الأول: العمل الصالح والإيمان ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[النحل: ٩٧].

والطرف الثاني: الحياة الطيبة في الدنيا، بالإضافة إلى الجزاء الأخروي ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فالطرف الأول شرط لتحقّق الطرف الثاني، يقول ابن القيم في المدارج: «وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته.

فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧]»[(١)].

قال الشنقيطي في الأضواء في سياق تعليقه على الآية: «وفي الآية الكريمة قرينة تدلّ على أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيّبة، وتلك القرينة هي أنّنا لو قدّرنا أن المراد بالحياة الطيبة حياته في الجنة في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

صار قوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

تكرارًا معه؛ لأنّ تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم، بخلاف ما لو قدّرنا أنها في الحياة الدنيا فإنه يصير المعنى: فلنحيينه في الدنيا حياة طيّبة، ولنجزينّه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، وهو واضح»[(٢)].

(١) مدارج السالكين ٣/ ٢٤٣.

(٢) أضواء البيان ٢/ ٤٤١.

آثار ابتغاء الطيبات الحسية

بين ربنا سبحانه وتعالى أن ابتغاء الطيبات سبب في المغفرة في الدنيا، ودخول الجنة في الآخرة.

قال سبحانه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وقد سبق ذكر شيء من الآثار في المطلب السابق، ونقول:

إن الآثار الحسية والمعنوية لطلب الطيبات كثيرة معروفة، وهي متداخلة أيضًا.

يقول سيد قطب: «العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.

لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال، فقد تكون به، وقد لا يكون معها.

وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية:

فيها الاتصال بالله، والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.

وفيها الصحة والهدوء، والرضا والبركة، وسكن البيوت، ومودات القلوب.

وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة.

وليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله»[1].

موضوعات ذات صلة

الأكل، الحرام، الحلال، الخبيث، الشرب، الطعام

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣.





عناصر الموضوع

مفهوم الطير

أولًا: المعنى اللغوي:

الطّاء والياء والرّاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على خفّة الشّيء في الهواء،ثمّ يستعار ذلك في غيره وفي كلّ سرعةٍ، ومن ذلك الطّير: جمع طائرٍ، ثمّ يقال لكلّ من خفّ: قد طار[1]، والطيران: حركة ذي الجناح في الهواء بجناحه[2]، والطير: اسمٌ لجماعة ما يطير، مؤنّثٌ، والواحد طائرٌ، والأنثى طائرةٌ، وهي قليلةٌ، وقلّما يقولون طائرةً للأنثى[3]، وطائر الإنسان: عمله الذّي قلّده كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣].

والطّائر: من الزّجر في التّشؤُّم والتّسعُّد، وزجر فلانٌ الطّير فقال: كذا وكذا، أو صنع كذا وكذا، جامع لكلّ ما يسنح لك من الطّير وغيره[4]، وجمع الطير طيور وأطيار، مثل فرخ وفروخ وأفراخ[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكرنا في المعنى اللغوي أن الطير جمع طائر، والمعنى الاصطلاحي ليس ببعيد عن المعنى اللغوي، قال الراغب: «والطائر كل ذي جناح يسبح في الهواء»[6]، وعرفه ابن عاشور بأنه:«الحيوان الذي يرتفع في الجو بعمل جناحيه»[7].

والخلاصة في القول: أن الطير اسم لكل ذي جناح يسبح في الهواء.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣٥-٤٣٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٠٨
(٣) المصدر السابق ٤/ ٥٠٨
(٤) العين،، الفراهيدي ٧/ ٤٤٧
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٩٤
(٦) المفردات، الراغب الاصفهاني ص ٥٢٨
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٤٩



الطير في الاستعمال القرآني

وورد الجذر (ط ي ر) في القرآن (٢٩) مرة، والذي يخص منها الطير (٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام:٣٨]
اسم	٢٠	﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة:٢٦٠]

وجاء الطير في القرآن بمعناه في اللغة وهو: كل ذي جناح يسبح في الهواء[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٣٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٢٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدابة:

الدابة لغة:

كل ما دب على وجه الأرض، وقد غلب على ما يركب من الحيوان، وفي العرف يطلق على الخيل والحمار والبغل[(١)].

الدابة اصطلاحًا:

الحي الذي من شأنه الدبيب، وقيل: كل حيوان في الأرض، وإخراج البعض الطير من الدواب رد بالسماع، ولا يخرج المعنى اللغوي عن المعنى الاصطلاحي له[(٢)].

الصلة بين لفظ الدابة والطير:

الغالب في الطير أنه يسبح في الهواء، والدابة تمشي على الأرض، فتشمل الطير؛ لأن الطير يمشي إذا نزل[(٣)]، وهناك طيور لا تسبح في الهواء.

٢ الحيوان:

الحيوان لغة:

اسم يقع على كل شيء حي، ووصف الله عز وجل الدار الآخرة بأنها الحيوان، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]؛ أي: هي الحياة، والمعنى: أن من صار إلى الآخرة لم يمت ودام حيا فيها لا يموت، فمن أدخل الجنة حيي فيها حياة طيبة، ومن دخل النار فإنه لا يموت فيها ولا يحيى[(٤)].

الحيوان اصطلاحًا:

كل ذي روح من المخلوقات غير العاقلة[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٣٦٩-٣٧٠، الكليات، الكفوي ص ٤٣٨، تاج العروس، الزبيدي ٢/ ٣٩٢.

(٢) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٦٣، موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي، عبد اللطيف عاشور ص ١٨١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٩٧.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢١٤.

(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس ص ١٩٠.



الصلة بين الحيوان والطير:

الحيوان: كلّ ذي روح ناطقًا كان، أو غير ناطق مأخوذ من الحياة، والطير له روح، فيكون الطير صنفًا من أصناف الحيوان، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: (وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: في كلّ ذات كبدٍ رطبةٍ أجرٌ)[1]، فالطير من البهائم التي فيها الأجر، وتشمل كل حي من الحيوان، والطير.

٣ الحشرات:

الحشرات لغةً:

الحَشَرة واحدة الحشرات، وهي صغار دوّاب الأرض[2].

الحشرات اصطلاحًا:

صغار دواب الأرض وهوامها، ولا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي له[3].

وعند علماء الحيوان: هي كل كائن يقطع في خلقه ثلاثة أطوار، يكون بيضة فدودة ففراشة، وهي الهامة من هوام الأرض؛ كالخنافس، والعقارب، وتطلق أيضًا على الدابة الصغيرة من دواب الأرض كالفئران والضباب[4].

الصلة بين الحشرات، والطير:

أن الحشرات منها ما تطير كالذباب والجراد، ومنها ما لا تطير كالفأر والعقرب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب الآبار على الطرق إذا لم يتأذ منها، رقم ٢٤٦٦.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٨٢.

(٣) انظر: التوقيف، المناوي ص ١٤١.

(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ١٩٧.

الطير آية من آيات الله تعالى

أرشد الله تعالى عباده إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة الدالة على قدرته وعجائب صنعته من المخلوقات، حيث قال جل وعلا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت:٥٣].

ومن هذه المخلوقات: الطير ذلك المخلوق الضعيف، فخلق هذا الطير، وتسخيره في جو السماء، وتسبيحه - وإن كنا لا نفقه ذلك - لدلالة واضحة على كمال قدرته، وآية من آياته جل وعلا على بديع صنعه تبارك وتعالى، بل أن هذا المخلوق قد يكون جندًا من جنوده يرسله الله لإهلاك الظالمين، كما حصل لأصحاب الفيل، وسوف نتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل في النقاط الآتية:

أولًا: الإبداع الإلهي في خلق الطير:

لفت الله تعالى نظر العباد، وخاصة المعرضين المكذبين بآياته إلى خلقه، وكمال قدرته في الطير وتحليقه في جو السماء.

قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ۝١٩﴾ [الملك:١٩].

قال السمرقندي في هذه الآية: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾؟يعني: أولم يعتبروا في خلق الله تعالى كيف خلق الطيور؟ ﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ يعني: باسطات أجنحتها في الهواء، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ يعني: ويضممن أجنحتهن ويضربن بها، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ يعني: ما يحفظهن في الهواء عند القبض والبسط، ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعني: عالمًا بصلاح كل شيء»[(١)].

وفي هذا أكبر آية على قدرة الله تعالى، إذ أمسكها في الهواء على ثقلها وضخامة أبدانها[(٢)].

قال أهل المعاني: وإنما قيل ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ دون «قابضات» على نحو «صافات»؛ لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في كل منهما مد الأطراف وبسطها، والقبض طارئ على البسط لأجل الإعانة، فالمعنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض في بعض الأوقات، كما يكون من السابح[(٣)]، ولذلك قالوا: إن الهواء للطير بمنزلة الماء للسابح، فهو يسبح في الهواء بجناحيه، كما يسبح الإنسان في الماء بأطرافه[(٤)].

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه

(١) تفسير السمرقندي ٣/ ٤٧٧.
(٢) الوسيط، الواحدي ٤/ ٣٣٠.
(٣) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٢٩.
(٤) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٢.

الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فهو المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته[1].

وقد أكد الله تعالى على قدرته وعلمه، وسعة إحاطته بمخلوقاته، وإبداعه في الخلق.

قال جل ثناؤه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام:٣٨].

قال السعدي في تفسير هذه الآية: «أي: جميع الحيوانات، الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها، كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا، كما كانت نافذة فيكم»[2].

والمعنى: إنه لا يوجد نوع من أنواع الأحياء التي تدب على الأرض، ولا من أنواع الطير التي تسبح في الهواء إلا وهي أمم مماثلة لكم في أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم.

والغرض من ذكر ذلك، كما قال الزمخشري: «للدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان»[3].

وإنما خص ما في الأرض بذكر دون ما في السماء، وإن كان ما في السماء مخلوقًا؛ لأن الاحتجاج بالشاهد أظهر وأولى مما لا يشهد، وإنما ذكر الجناح في قوله تعالى: ﴿بِجَنَاحَيۡهِ﴾؛ للتوكيد»[4].

ولتوجيه الأنظار إلى الإبداع في الخلق مع جمال التكوين والقدرة، وفي ذلك بيان لقدرة الله تعالى[5]، وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل، فأعلمنا أن الطيران بالجناحين[6].

ثانيًا: تسخير الطير:

حث الله جل وعلا عباده إلى النظر في حالة الطير التي سخرها الله، وسخر لها الجو والهواء، وجعل أجسادهن وخلقتهن في حالة مستعدة للطيران، وهذا يدل على كمال قدرته وعظمته.

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٧.
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢١.
(٤) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١١٠.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٤٩١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤١٩.

﴿...أَللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل:٧٩].

قال ابن كثير: «نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك:١٩].

وقال هاهنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾»[1]، وجمع الآيات؛ لأن في الطير دلائل مختلفة: من خلقة الهواء، وخلقة أجساد الطير مناسبة للطيران في الهواء، وخلق الإلهام للطير بأن يسبح في الجو، وبأن لا يسقط إلى الأرض إلا بإرادته، وخصت الآيات بالمؤمنين؛ لأنهم بالإيمان قد ألفوا إعمال تفكيرهم في الاستدلال على حقائق الأشياء، بخلاف أهل الكفر، فإن الكفر مطبوع على النفرة من الاقتداء بالناصحين، وعلى مكابرة الحق[2].

ففي الآية دلالة واضحة ومظهر من مظاهر قدرة الله ووحدانيته، حيث جعل الطير قادرًا على التحليق والطيران في الجو - ما بين السماء والأرض - وهي مذللة لأمر الله تعالى، ما يمسكها إلا الله تعالى، وتلك علامات وعبر ودلالات على القدرة الإلهية، فلولا خلق الطير على وضع يمكنه الطيران، وخلق الجو على حالة يمكن الطيران فيه، لما أمكن ذلك[3].

وقال تعالى في هذه الآية: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل:٧٩].

وقال في موضع آخر: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك:١٩].

والحكمة في ذلك؛ لأن التسخير في جو السماء محض الإلهية، وأما صافات وقابضات فكان إلهامها كيفية البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن[4].

ثالثًا: تسبيح الطير:

ذكر الله جل وعلا تسبيح الطير في أكثر من موضع في محكم كتابه، ومن ذلك ما أنعم الله تعالى به على داوود عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٣٦.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٩٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٩٣، غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٢٩.

قال الطبري: «يسبحن معه إذا سبح»[1]، وقدمت الجبال على الطير؛ لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد، والطير حيوان ناطق[2].

وقال الشنقيطي: ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه سخر الجبال، أي: ذللها، وسخر الطير تسبح مع داود، وما ذكره جل وعلا من تسخيره الطير والجبال تسبح مع نبيه داود بينه في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ [ص:١٨-١٩].

وتسبيح الجبال والطير مع داود تسبيح حقيقي؛ لأن الله جل وعلا يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو جل وعلا ونحن لا نعلمها،كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

والتسبيح: هو تنزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، وفي قوله تعالى:﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾مؤكد لقوله تعالى:﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾والموجب لهذا التأكيد: أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذّب به الكفرة الجهلة[3].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ [النور:٤١].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى أنه يسبحه من في السموات والأرض، حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

وقوله: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾أي: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾»[4]، أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها شيء، وسيجازيهم بذلك، فيكون على هذا قد جمع بين علمه بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء[5].

وخص الطير بالذكر مع دخولها تحت من في السموات والأرض؛ لعدم استمرار

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٧٩.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٦٨، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤١٥.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣١-٢٣٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٢.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٠.

استقرارها في الأرض، وكثرة لبثها في الهواء، وهو ليس من السماء ولا من الأرض، ولما فيها من الصنعة البديعة التي تقدر بها تارة على الطيران، وتارة على المشي بخلاف غيرها من الحيوانات، وذكر حالة من حالات الطير، وهي كون صدور التسبيح منها حال كونها صافات لأجنحتها، أن هذه الحالة هي أغرب أحوالها، فإن استقرارها في الهواء مسبحة من دون تحريك لأجنحتها، ولا استقرار على الأرض من أعظم صنع الله الذي أتقن كل شيء»[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يقول أبو الطيب: «وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك أن صدور هذا التسبيح هو عن علم قد علّمها الله ذلك؛ وألهمها إليه لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه؛ وعظم شأنه من كونه جعلها مسبحة له، عالمة بما يصدر منها، غير جاهلة له»[(٢)].

رابعًا: الطير من جنود الله تعالى:

أخبر الله جل وعلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما جرى لأصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن يريدون هدم الكعبة، ومحو أثرها من الوجود، وكان رئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم، فأرسل الله عليهم جندًا من جنوده، فأبادهم، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل:٣].

قال الطبري: «وأرسل عليهم ربك طيرًا متفرقة، يتبع بعضها بعضًا من نواح شتَّى، وهي جماع لا واحد لها -أي: الأبابيل- مثل الشماطيط والعباديد ونحو ذلك»[(٤)].

وقال الزجاج في معنى الآية: «جماعات من هاهنا وجماعات من هاهنا، والمعنى: أرسل اللّه عليهم هذا الطير بهذه الحجارة من كل جانب»[(٥)].

وقد ورد تفسير كلمة الأبابيل بعبارات متعددة عن السلف منها ما ذكرناه آنفًا، وهذه الأقوال كما قال النحاس متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام، يقال: فلان يؤبل على فلان، أي يعظم عليه ويكثر، وهو مشتق من الإبل، وهو من الجمع الذي لا واحد له[(٦)].

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿طَيْرًا﴾ على التنكير؟

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٧-٤٨.
(٢) فتح البيان، القنوجي ٩/ ٢٤١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٠٥.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٦٣.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٠٥.

والجواب كما قال الرازي: «إما للتحقير، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر، أو للتفخيم كأنه يقول: طيرًا وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل»[(١)].

وقال أبو حيان: والظاهر أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، يذكر نعمته عليه، إذ كان صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام، وإرهاصًا بنبوته، إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكأن الله تعالى يقول له قد علمت ما فعل ربك بهؤلاء الذين قصدوا حرمه، ضلل كيدهم وأهلكهم بأضعف جنوده، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل[(٢)]، وهذه آيةٌ باهرةٌ دالةٌ على شرف الكعبة[(٣)].

وفي الآية رد على الملحدين الذين ذكروا في العذاب الذي أهلك الله به الأمم؛ كالزّلازل، والرياح، والصواعق، والخسف، أعذارًا ضعيفة، أما هذه الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، وليس في شيء من الطّبائع والحيل أن يعهد طير معها حجارة، فيقصد قومًا دون قوم فيقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنه كسائر الأحاديث الضعيفة؛ لأنه لم يكن بين عام الفيل، ومبعث الرسول إلا نيفًا وأربعين سنة، ويوم تلا رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم هذه الآية، كان قد بقي جمع شاهدوا تلك الواقعة، فلا يجري فيها تلك الأعذار، ولو كان النقل ضعيفًا لكذبوه، فعلمنا أنه لا سبيل للطّعن فيها[(٤)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٩١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ٥٤٣-٥٤٤.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٤٠٢.
(٤) انظر: المصدر السابق ٢٠/ ٥٠٠-٥٠١.

الطير في القصص القرآني

القصص في القرآن الكريم من أصدق القصص؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وذلك لتمام مطابقتها على الواقع، وأحسن القصص؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣].

وذلك لاشتمالها على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى، وأنفع القصص؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق، وقد ذكر الله جل وعلا من القصص في كتابه الكريم قصص الطير سواء مع بعض أنبيائه عليهم السلام، أو مع ابني آدم عليه السلام، وسوف نتحدث عن ذلك بشيء من التفصيل، مع بيان أهم الدروس والعبر من هذه القصص.

أولًا: قصة ابني آدم مع الغراب:

أخبر الله جل وعلا في محكم كتابه ما جرى بين ابني آدم لصلبه، وهما هابيل وقابيل، وهو قول جمهور العلماء[1]، وكيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيًا عليه وحسدًا له، فيما وهبه الله من النعمة، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة[2]، فقيض الله جل وعلا غرابًا لتعليم القاتل كيف يدفن أخاه.

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: ٣١].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: "﴿فَبَعَثَ﴾ أي: أرسل ﴿اللَّهُ غُرَابًا﴾ فجاء ﴿يَبْحَثُ﴾ أي: يحفر بمنقاره ورجله متعمقًا في الأرض، قال القتيبيّ: هذا من الاختصار، ومعناه: بعث غرابًا يبحث التراب على غراب ميت ﴿لِيُرِيَهُ﴾ الضمير إمّا لله تعالى أو للغراب، والظاهر للقاتل أخاه ﴿كَيْفَ يُوَارِي﴾ أي: يستر في التراب ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: جسده الميت، وسمّي سوأة؛ لأنه مما يسوء ناظره، ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا﴾ كلمة جزع وتحسّر، والويل الهلكة، ﴿أَعَجَزْتُ﴾ أي: أضعفت عن الحيلة ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ أي: الذي هو من أخسّ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨١-٨٢، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٧١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨١-٨٢.

الحيوانات، والاستفهام للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ أي: أغطي ﴿سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ﴾ أي: صار ﴿مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ أي: على حيرته في مواراته حيث لم يدفنه حين قتله، فصار أجهل من الحيوانات العجم وأضلّ منها وأدنى»[(١)]، قيل: لم يكن ندمه ندم توبة، بل ندم لفقده لا على قتله، وقيل غير ذلك[(٢)].

وقال الألوسي: «والغراب: طائر معروف، قيل: والحكمة في كونه المبعوث دون غيره من الحيوان: كونه يتشاءم به في الفراق والاغتراب، وذلك مناسب لهذه القصة»[(٣)].

وروى السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة: أن الله تعالى بعث غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾[(٤)]، وهو قول أكثر المفسرين[(٥)].

قال الراغب: «فتنبه قابيل لدفن أخيه، ووجه ذلك: أنه ما من صنعة يتعاطاها الإنسان بالتعلم إلا وقد سخر الله لمثل ذلك الصنعة حيوانًا يتعاطاه، وجعل الله تعالى ذلك سببًا لتعلم الناس ذلك منه، فمن الحيوان ما يسبح، ومنها ما يمشي، ومن عادة الغراب دفن الأشياء، فلما رأى قابيل ذلك تنبه لما يجب أن يفعل، فاستصغر نفسه لقصوره عن معرفة ما اهتدى إليه الغراب، فأخذ يتحسر، ويتولول وندم ندمًا لا يثنيه»[(٦)].

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنه قال: جاء غراب إلى غراب ميت فحثى عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه: ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[(٧)].

قال أبو زهرة: «وقد فهم بعض المفسرين من الآية أنه لم يكن ثمة غراب قد مات، أو قتله صاحبه، ولكنه رأى الغراب يبحث في الأرض عن شيء من الأشياء ليدفنه؛ لأن من عادة الغربان حفر الأرض لدفن الأشياء، فلما رأى قاتل أخيه الغراب يحفر الأرض اهتدى إلى حفر الحفرة التي ألقى فيها جثة أخيه القتيل.

والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث في الأرض، حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئًا أو طيرًا ميتًا، ولم تتعرض لكون المدفون طيرًا أو غير طير، ولا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١١١.
(٢) فتح البيان، القنوجي ٣/ ٤٠١.
(٣) روح المعاني، ٣/ ٢٨٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٢٥.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢١٣٢.
(٦) تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٣٢٩.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٢٦.

لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة المقصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذي يقتضيه بيان الغرض، والمغزى: هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر في الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئًا، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه»[(١)].

وفي الآية دلالة على أن الندم إذا لم يكن لقبح المعصية، لم يكن توبة، والآية أصل في دفن الميت[(٢)]، والله أعلم.

ثانيًا: قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الطير:

سأل إبراهيم عليه السلام ربه جل وعلا أن يريه كيف يحيي الموتى، فأجابه الله تعالى لما طلب، فكان هذا المشهد الذي حدثنا به الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة:٢٦٠].

ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام ربه جل وعلا أسبابًا منها:

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢١٣١- ٢١٣٢.

(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ١١٢ .

وهو قول أكثر المفسرين: أنه رأى جيفة بساحل البحر تتناولها السباع والطير ودواب البحر، ففكر كيف يجتمع ما قد تفرق من تلك الجيفة، وتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠][(٣)]، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك وابن عباس[(٤)].

وقال آخرون: بل كان سبب مسألته ربه ذلك: المناظرة والمحاجة التي جرت بينه وبين نمرود في ذلك، قاله ابن إسحاق[(٥)]، قال ابن كثير: لما قال إبراهيم عليه السلام لنمرود ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[(٦)].

وقد ذهب الجمهور إلى أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًّا في إحياء الموتى قط، وإنما طلب المعاينة لما جبلت عليه النفوس البشرية من رؤية ما أخبرت عنه[(٧)].

فاستجاب الله تعالى لإبراهيم عليه

(٣) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٣٧٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٨٥-٤٨٦، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٢/ ٥٠٧.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٨٦-٤٨٧ .

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٩.

(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٩٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٢٣ .

السلام لما طلب له، حيث أمره الله جل وعلا أن يأخذ أربعة من الطير فيذبحهن، ثم يخلط بين لحومهن وريشهن ودمائهن، وهو قول قتادة[(١)]، وإنما خص الطير؛ لأنه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواص الحيوان والطير[(٢)].

وجمهور المفسرين على أن الله أمر إبراهيم خليله بأن يذبح تلك الطيور ويقطع أجزاءها ويضع على كل مرتفع من الأرض جزءًا من تلك الأشلاء المتقطعة، ثم يدعوها فتكون طيرًا بإذن الله ويجيء إليه سعيًا، وعلى هذا النحو يكون ذلك العمل الحسي تقريبًا لمعنى الإحياء، وإن لم يكن بيانًا كاملًا للكيفية؛ لأن الكيفية عند الله العليم الخبير علمها، ويكون ذلك إظهارًا للإحياء بمظهر حسي، وإن لم يكن فيه بيان الكيفية[(٣)].

قال السعدي في تفسير الآية: «﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمهن، واذبحهن، ومزقهن ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ففعل ذلك، وفرق أجزاءهن على الجبال التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن طائرات على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك؛ لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن، وأيضًا أزال في هذا كل وهم ربما يعرض للنفوس المبطلة، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعًا، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهرًا علنًا، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيرًا، لئلا يظن أن يكون عاملا حيلة من الحيل، وأيضًا أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات، فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته، وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله»[(٤)].

وجيء بمن للتبعيض في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ﴾ للدلالة على أن الأربعة مختلفة الأنواع، والظاهر أن حكمة التعدد والاختلاف زيادة في تحقق أن الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عددت الأنواع، وفائدة الأمر بإدنائها في قوله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ حتى يتأمل أحوالها ويعلم بعد إحيائها أنها لم ينتقل جزء منها عن موضعه[(٥)]، والله أعلم.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٠٣ .
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٧ .
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٩٦٦ .
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٦ .
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٣٩-٤٠.

وناهيك بالقصة دليلًا على فضل الخليل، ويُمن الضراعة في الدعاء، وحسن الأدب في السؤال، حيث أراه الله تعالى ما سأل في الحال على أيسر ما يكون من الوجوه[1].

ثالثًا: يوسف عليه السلام وتأويل رؤيا الطير:

ذكر الله عز وجل ما جرى بين يوسف عليه السلام والفتيان اللذين كانا معه في السجن، حيث قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَىٰنِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَىٰنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف:٣٦].

قال قتادة: وكان الفتيان غلامين من غلمان ملك مصر الأكبر، أحدهما صاحب شرابه، والآخر صاحب طعامه[2].

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلامه، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تآلفا به وأحباه[3]، فسمياه محسنًا لذلك، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4]، وهو قول الضحاك وقتادة، وأولى بالصواب عند الطبري[5].

ثم إنهما رأيا منامًا، فرأى الساقي أنه يعصر خمرًا - يعني عنبًا - وقال الآخر - وهو الخباز -: ﴿إِنِّي أَرَىٰنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ والمشهور عند الأكثرين أنهما رأيا منامًا وطلبا تعبيره[6].

وفي قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال الماتريدي: وسمى التعبير تأويلًا؛ لأن التأويل: هو الإخبار عن العواقب؛ لذلك سموه تأويلًا، ثم خرج تأويل الذي كان خبازًا على ما ذكر، وهو إنما كان يخبز للناس، فلما رأى أنه حمل الخبز على رأسه، وأنه يأكل الطير علم أنه يخرج من الأمر الذي كان فيه، وخروجه يكون بهلاكه؛ لأنه كان من قبل يخبز للناس، فصار يخبز لغيرهم، فاستدل بذلك على خروجه من أمره وعمله، لكنه أخبر أنه يصلب؛ لأنه كان قائمًا متصبًا، فأول على ما كان من أمره، والله أعلم[7].

وكلام الماتريدي في هذه الآية يعتبر

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٧ .
(٢) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٤-٩٥ .
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٤) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٣٨.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٩٨-١٠٠.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٨٨.
(٧) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٣٩.

تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ [يوسف:٤١].

وفي هذه الآية يقول السعدي: «عبر عن الخبز الذي تأكله الطير بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله»[(١)].

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾: «لما تأول لهما الرؤيا قال الذي أنبأه بأنه يصلب أنه لم ير شيئًا، فأعلمه أن ذلك واقع به وإن لم ير، كما أعلمهما بخبر ما يأتيهما من الطعام»[(٢)]، بقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف:٣٧].

وذكر ذلك بعض أهل التأويل، كما قال الماتريدي، ثم رد على ذلك بقوله: لكن هذا لا يعلم: قالا ذلك أم لم يقولا، سوى أن فيه أنه عبّر رؤياهما، وكان ما عبّر لهما، وقد علم ذلك بتعليم من الله إياه بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٣٧][(٣)]، والتعبير عنه بـ(الأمر)، وعن طلب تأويله بـ(الاستفتاء) تهويلًا لأمره، وتفخيما لشأنه، إذ الاستفتاء إنما يكون في النوازل المشكلة الحكم، المبهمة الجواب[(٤)].

رابعًا: داود عليه السلام والطير:

أخبر الله جل وعلا بما أنعم على عبده ورسوله داود عليه السلام، وبما أتاه من الفضل العظيم، ومن ذلك تسبيح الطير معه إذا سبح، حيث قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ:١٠].

قال الزجاج: «﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ معناه رجعي معه، يقال: آب يؤوب، إذا رجع، ومعنى رجّعي معه: سبّحي معه ورجّعي التسبيح معه.

(والطيرَ) (والطيرُ)، فالرفع من جهتين: إحداهما: أن يكون نسقًا على ما في ﴿أَوِّبِي﴾، والمعنى ﴿يَٰجِبَالُ﴾ رجّعي التسبيح أنت ﴿وَالطَّيْرُ﴾.

ويجوز أن يكون مرفوعًا عل البدل، والمعنى: يا جبال ويا أيها الطير ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾»[(٥)].

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ قال: سبحي معه، قال: والطير أيضًا[(٦)].

والخلاصة في المعنى: أن الله أمر الطير تسبح مع داود عليه السلام إذا سبح.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١١١.
(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٢٤٢.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٧٨.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٤٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٥٨.

وأما ابن كثير فيقول في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود، صلوات الله وسلامه عليه، مما آتاه من الفضل المبين، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن، والجنود ذوي العدد والعدد، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم، الذي كان إذا سبح به تقف له الطيور السارحات، والغاديات والرائحات، وتجاوبه بأنواع اللغات، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف فاستمع لقراءته»[(١)]، ثم قال لأبي موسى: (لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود)[(٢)].

والتأويب في اللغة: هو الترجيع، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها، فمعنى قوله تعالى: ﴿أَوِّبِي مَعَهُ﴾ أي: رجعي معه مسبحة معه، والله أعلم[(٣)].

وفي هذا الأسلوب الذي نظمت عليه الآية من الفخامة، وجلالة الخالق، وعظم شأن داود، مع وفرة المعاني، وإيجاز الألفاظ، ما لا يخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الإلهية، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا وأذعنوا، وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعارًا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت، إلا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على إرادته سبحانه وتعالى[(٤)].

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص:١٨-١٩].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: مجموعة إليه، تسبّح الله معه ﴿كُلٌّ لَهُ﴾ في هاء الكناية قولان: أحدهما: ترجع إلى داود، أي: كلٌّ لداود أوّابٌ أي: رجّاعٌ إلى طاعته وأمره، والمعنى: كلٌّ له مطيع بالتسبيح معه، هذا قول الجمهور، والثاني: أنها ترجع إلى الله تعالى، فالمعنى: كلٌّ مسبِّحٌ لله»[(٥)].

وقال ابن كثير في هذه الآية: «كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، لا تستطيع الذهاب، بل تقف في الهواء وتسبح معه، ولهذا قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: محبوسة في الهواء، ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ أي: مطيع يسبح تبعًا له»[(٦)].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم ٢٣٦ .

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٧.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٣٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٥٦ .

(٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٦٤.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٧-

خامسًا: الطير من جند سليمان عليه السلام:

ورث سليمان عليه السلام أباه في علمه ونبوته وملكه، وزاده الله ملكًا عظيمًا لم يحصل لأحد قبله ولا بعده، فقد سخر الله له الريح تجري بأمره، والجن والشياطين يعملون له من الأعمال ما يشاء، ومن الجنود الإنس والجن والطير،وقد وصف الله تعالى جنوده وهم منتظمون في سيرهم واجتماعهم بتدبير عجيب ونظام غريب، ومن تلك الجنود المنتظمة الطير.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ [النمل:١٧].

قال الطبري: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسير لهم، فهم يوزعون، واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: فهم يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا، قال ابن عباس: جعل على كل صنف من يرد أولاها على أخراها، لئلا يتقدموا في المسير، كما تصنع الملوك، وهذا القول أولى بالصواب، وذلك أن الوازع في كلام العرب هو الكاف، يقال منه: وزع فلان فلانًا عن الظلم: إذا كفه عنه، وإنما قيل للذين يدفعون الناس عن الولاة والأمراء: وزعة؛ لكفهم إياهم عنه[١].

فكأن سليمان عليه السلام لا يدعهم أن ينتشروا ويتفرقوا، ولكن يسيرهم مجموعين على كل صنف منهم وزعة من النقباء ترد أولهم على آخرهم، لئلا يتقدموا في المسير، وذلك من سيرة الملوك وأمراء العساكر: أن يسيروا جنودهم مجموعة غير منتشرة ولا متفرقة[٢].

وقال السعدي: «جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة من بني آدم، ومن الجن والشياطين ومن الطيور، فهم متظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم وحلهم وترحالهم، قد استعد لذلك وأعد له عدته، وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره لا تقدر على عصيانه ولا تتمرد عنه»[٣].

وفي الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض، إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم[٤].

وأما ابن عاشور فيقول: وفي الآية بيان للجنود فهي ثلاثة أصناف: صنف الجن... وصنف الإنس... وصنف الطير، وهو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٣٨-٤٣٩.
(٢) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ١٠٥، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٤٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٢ باختصار.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٦٨.

٥٨.

من تمام الجند، لتوجيه الأخبار وتلقيها، وتوجيه الرسائل إلى قواده وأمرائه، واقتصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود، فلذلك لم يذكر الخيل وهي من الجيش، وفي قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ إشارة إلى أن جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك؛ ليكون الجنود متعهدين لأحوالهم وحاجاتهم، وليشعروا بما ينقصهم، ويتذكروا ما قد ينسونه عند تشوش الأذهان عند القتال وعند النفير[(١)].

ومن حسن نظامه عليه السلام وحزمه: أنه يتفقد الجنود بنفسه، حتى أنه تفقد الطير لينظر هل هي ملازمة لمراكزها وأماكنها أم لا، فقال تعالى مخبرًا عن ذلك: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ [النمل:٢٠].

قال الماتريدي مبينًا السبب في ذلك: «وتفقده الطير لما كان عليه حفظهم جميعًا، ومنعه إياهم عن الانتشار في الأرض والتفرق، لما على كل ملك وأمير حفظ رعيته وحاشيته، والتفقد عن أحوالهم وأسبابهم»[(٢)].

وقال السعدي: «والشاهد من الآية أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه، وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به، لكونه خفيًّا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟»[(٣)].

وهذا يدل على عظيم منزلة الهدهد، وأن غيبة غيره كانت بأمره عليه السلام[(٤)].

وفي الآية: استحباب تفقد الملك أحوال رعيته، وأخذ منه بعضهم: تفقد الإخوان[(٥)].

سادسًا: عيسى عليه السلام وخلق الطير:

أجرى الله عز وجل على يد عيسى عليه السلام الكثير من المعجزات والآيات الدالة على صدق رسالته، وأنه رسول الله تعالى إلى بني إسرائيل، وقد أخبر الله جل وعلا في محكم كتابه عن هذه الآيات، ومنها خلق الطير حيث كان يصنع من الطين شكلًا على هيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا حيًّا بإذنه سبحانه وتعالى.

قال جل شأنه حكاية عن عيسى عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٤٠.

(٢) تأويلات أهل السنة، ٨/ ١٠٨ باختصار.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٠٣ باختصار.

(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٤٩ .

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٩٥ .

قال البيضاوي: «﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾ أي: أقدر لكم وأصور شيئًا مثل صورة الطير، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيء المماثل ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فيصير حيًّا طيَّارًا بأمر الله، نبه به على أن إحياءه من الله تعالى لا منه»[1].

وفي الآية دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه، أجراه على يد عيسى عليه السلام[2].

وقال ابن كثير في هذه الآية: كان عليه السلام يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه، فيطير عيانًا بإذن الله عز وجل، الذي جعل هذا معجزة يدل على أن الله أرسله[3].

وأما أبو زهرة فقال في هذه الآية: «فهنا أعمال ثلاثة: اثنان منها لعيسى عليه السلام، والثالث لله تعالى جل جلاله وعظمت قدرته، أما اللذان لعيسى فهما: تصوير الطين كهيئة الطير، والنفخ فيه، وأما الثالث الذي هو من عمل الله تعالى وحده، فهو خلق الحياة في هذه الصورة التي صورها عيسى عليه السلام؛ ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بأمره وإعلامه، والكون كله بأمره سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

وهذا يدل على أنه لم يكن في عيسى ألوهية، ولا أي معنى من معانيها»[4].

وقد أكد الله جل وعلا هذه المعجزة في موضع آخر في كتابه الكريم، مخاطبًا عيسى عليه السلام، في معرض التذكير بنعمه التي أنعمها عليه، حيث قال جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة:١١٠].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ أي: فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيرًا ذا روح بإذن الله وخلقه»[5].

وهذه المعجزة باهرة قاطعة في أن الخالق لهذا الكون لا تحكمه الأسباب، إذ إن الناس يجدون أسباب الخلق هو التوالد بأن تحمل الأنثى من ذكر، وتلد، ثم يكون الحي من بعد ذلك، فيكون من خرق الأسباب أن يكون الحي بإجراء الحياة على يد مخلوق لله تعالى، فقد أذن لعيسى عليه السلام أن يصور من الطين كهيئة الطير، فمعنى (خلق) هنا: هو تصويره جسدًا من الطين، وجعله على شكل طائر، ثم نفخ فيه بإذنه سبحانه، فيكون طيرًا بإذن الله تعالى، وذكرت كلمة

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٨ باختصار.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣٩٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٤ بتصرف يسير.
(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٣٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٢٢٣.

﴿بِإِذْنِي﴾ عند تصوير شكل الطير، وعندما صار طيرًا؛ للإشارة إلى أن كل ذلك من عند الله، وأنه الخالق، وليس عيسى هو الخالق، ولكنه سبحانه وتعالى أجرى الخلق على يديه[1].

سابعًا: دروس من قصص الطير في القرآن:

ذكرنا في المطالب السابقة قصص الطير مع بعض الأنبياء عليهم السلام، ومع ابني آدم عليه السلام، ومما لا شك فيه أن القصص في القرآن الكريم حقائق ووقائع ثابتة، ومن فوائدها أخذ الدروس والعبر، فمن الدروس والعبر من قصص الطير ما يأتي:

١ . أن الطير جند من جنود الله تعالى.

قد يرسلها الله لإهلاك الظالمين المعتدين، كما حصل لأصحاب الفيل عندما أرادوا هدم الكعبة، فأرسل الله عليهم أضعف جنوده وهو الطير، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ [الفيل:٣].

أو قد تكون مسخرة لأنبياء الله عليهم السلام معجزة لهم وتصديقًا لرسالاتهم، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن داود عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٧٩].

وأخبر عن سليمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾ [النمل:١٧].

٢ . تعلم الإنسان من غيره من المخلوقات، ولو كان ممن هو أدنى منه[2].

وهذا دليل على عجز الإنسان وضعفه مهما كانت قوته وسلطانه وجبروته وبطشه، ومن ذلك: قصة الغراب مع ابني آدم، حيث بعث الله خلقًا من مخلوقاته وهو الغراب ليظهر للإنسان ضعفه ويعلمه كيف يدفن أمواته[3].

قال جل وعلا: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة:٣١].

فشاءت حكمة الله أن تضع القاتل أمام عجزه، فبالرغم من جبروته وقتله لأخيه إلا أنه عاجز عن أن يواري سوأته، عاجز عن أن يكون كالغراب في أمة الطير[4]، وكأن ربنا عزّ وجلّ يعلّمنا أيضًا الأدب وعدم

---

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٣٩٧ .

(٢) انظر: التربية الإسلامية، محمد منير مرسي ص ١٣٨ .

(٣) انظر: التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده، عباس محجوب ص ١٠٣ .

(٤) انظر: مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، علي أحمد مدكور ص ٢٤٦ .

الغرور[1].

ولذلك تحسر القاتل وتعجب وأظهر عجزه قائلًا: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١].

فكأنه يتحسر على ما أصبح فيه، وأن الغراب أعقل منه، وأكثر منه خبرة، وكأنه لم يقلها إلا بعد أن مرّ بمعنى نفسيّ شديد قاسٍ على وجدانه[2]، وكلّما كان المقرّع به أسفل كانت الموعظة في ذلك أبلغ[3]، فالله هو الذي أودع فيه هذه الغريزة، ليعلم الإنسان وليأخذ منه العظات والعبر، وليكون وسيلة أيضًا لبيان أحكام شرعية تتعلق بحماية الإنسان في الأرض[4].

ومن ذلك أيضًا: قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع الهدهد، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

هذا هو الهدهد، وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له: لقد عرفت ما لم تعرفه أنت، وكأن هذا القول قد جاء ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا، فهو يهب لمن دوننا ما يعلّمه لنا، وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه، وممن سخره الله له، وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبرًا لا بد أن يبلغه للأعلى، فتتحقق سيولة المعلومات، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب[5].

٣. مكانة العلم وشرفه.

ويتجلى ذلك أيضًا من قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام، فالهدهد مع أنه في نهاية الضعف، ومع أنه كان في موقف المعاتبة، حيث توعده سليمان عليه السلام لغيابه بدون علم، ولما كان ملكه مبنيًا على كمال العدل استثنى بقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ [النمل:٢١].

فلولا أن العلم أشرف الأشياء، وإلا فمن أين للهدهد أن يتكلم في مجلس سليمان بمثل هذا الكلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

ولذلك يرى الرجل الساقط إذا تعلم العلم صار نافذ القول عند السلاطين، وما ذاك إلا ببركة العلم[6].

٤. الحيوانات تعرف ربها وتسبّحه وتوحّده.

(١) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٢٩٢ .
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٨٤، و ١٤/ ٨٩٣٣ .
(٣) انظر: جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف ص ١٣٣ .
(٤) انظر: التربية في عصور ما قبل الإسلام وبعده، عباس محجوب ص ١٠٣ .
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ٩/ ٥٦٧٤-٥٦٧٥ .
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ٤٠٧، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٤٢ .

وتحب المؤمنين وتدين لربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، ويتجلى ذلك فيما حكاه الله عن الهدهد: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:٢٢-٢٦].

ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة، أخبر سليمان عن ملك الديار اليمانية، وأن ملكتهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل شيء يحتاج الملك إليه، وأن لها عرشًا عظيمًا، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضًا دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار[1].

الطير في المثل القرآني

أشاد الله سبحانه وتعالى بالأمثال في محكم كتابه الكريم، مبينًا أنه اشتمل على كل مثل من الحق يحتاجه الناس، وأن السبيل قد استبان بتلك الأمثال، وما بقي على الناس إلا أن يتفكروا بها ويتذكروا.

قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف:٥٤].

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

وقد بين جل وعلا أنه ضرب للناس أمثالهم التي يتعرفون بها على الهدى والضلال، والخير والشر، والحق والباطل، وما آل إليه أهلها من العواقب الحميدة، أو النهايات الوخيمة.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾﴾ [محمد:٣].

وقد ذكر الله الطير في المثل القرآني ليبين حال المشرك بالله في بعده عن الهدى وهلاكه، بالذي يهوي من السماء فتتخطفه الطير من كل جانب.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان، السعدي ص ٢٤٢-٢٤٣.

﴿فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج: ٣١].

قال الزجاج في هذه الآية: «وهذا مثل ضربه الله للكافر في بعده عن الحق، فأعلم اللّه أن بعد من أشرك به من الحق، كبعد من خرّ من السماء، فذهبت به الطير أو هوت به الريح في مكانٍ سحيق، أي: بعيدٍ»[1].

ولنستمع إلى ابن القيم وهو يصور لنا حال هذا المشرك الذي ارتكس في أوحال الوثنية، حيث قال رحمة الله في كلامه لبيان هذا المشهد في هذه الآية: فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله وتعلق بغيره، ويجوز لك في هذا التشبيه أمران:

أحدهما: أن تجعله تشبيها مركبًا، ويكون قد شبه من أشرك بالله برجل قد تسبب إلى هلاك نفسه هلاكًا لا يرجى معه نجاة، فحاله كحال من سقط من السماء فاختطفته الطير في الهواء ومزقته في حواصلها، أو عصفت به الريح فسقط في مكان عميق، وعلى هذا لا تنظر إلى كل فرد من أفراد المشبه ومقابله من المشبه به.

والثاني: أن يكون من التشبيه المفرق، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثَّل بالممثَّل به، فيكون قد شبه التوحيد في علوه وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه، فمنها هبط إلى الأرض، وإليها يصعد منها، وشبه تارك التوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين لما يجده من التضييق والشدة، وشبه الشياطين التي تؤزه وتتقاسم قلبه بالطير التي تتقاسم لحمه، وشبه هواه الذي ألقاه في التهلكة بالريح التي هوت به في مكان سحيق[2].

وقال السعدي في تفسير هذه الآية: «﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ بسرعة ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه»[3].

وذكر ابن عاشور أن الكافرين في هذه الآية قسمان: «قسم شركه ذبذبة وشك، فهذا مشبه بمن اختطفته الطير فلا يستولي طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر، فكذلك المذبذب متى لاح له خيال اتبعه وترك ما كان عليه، وقسم مصمم على الكفر مستقر فيه، فهو مشبه بمن ألقته الريح في واد سحيق، وهو إيماء إلى أن من المشركين من شركه

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٢٥ .

(٢) إعلام الموقعين، ١/ ١٣٨- ١٣٩ بتصرف واختصار.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٣٨ .

لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم من شركه قد يخلص منه بالتوبة، إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول»[1].

والخلاصة في القول: إن الطير في هذا المثل شبهت بالشياطين التي تتخطف المشرك بالله من كل جانب، فتسلبه دينه ودنياه، فهو هالك لا محالة.

الطير والتشاؤم

أخبر الله جل وعلا في محكم كتابه الكريم عن المكذبين لرسل الله ورسالاته المعرضين عن آياته، أنهم كانوا إذا أصابهم الخير والخصب والسعة في الأموال والأولاد، قالوا هذا من عند الله، أو نحن أحق بها، وإن أصابهم الفقر والمرض والجدب تطيروا وتشاءموا برسل الله وأنبيائه، ومن ذلك ماحكاه الله عن قوم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال جل وعلا: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨].

وكانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانت إذا أرادت سفرًا نفرت طائرًا، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالًا رجعت وتشاءمت[2]، والتشاؤم دأب الكفرة من قبل، حيث كانوا يتطيرون ويتشاءمون بالأنبياء والرسل عليهم السلام، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن قوم صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

قال الماتريدي في هذه الآية: «أي:

(١) التحرير والتنوير، ١٧/ ٢٥٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٤.

تشاءمنا منك وبمن معك، ولم يزل الكفرة يقولون لرسل اللّه عليهم السلام ولمن آمن منهم: اطيرنا بكم، إذا أصابتهم الشدة والبلاء يتطيرون بهم ويتشاءمون، ويقولون: إنما أصابنا هذا بشؤمكم، وإذا أصابهم رخاء وسعة قالوا: هذا لنا بنا ومن أنفسنا، وهو ما قال موسى، حيث قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ [الأعراف:١٣١].

وكذلك قال أهل مكة لرسول اللّه، حيث قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء:٧٨].

كانوا يتطيرون برسول اللّه ويتشاءمون بما يصيبهم من الشدة، وما ينزل بهم من البلاء، فأخبر اللّه رسوله، وأمره أن يقول لهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨]»[١].

قال أبو السعود: «فأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلم بأن يردّ زعمهم الباطل ويرشدهم إلى الحق ويلقمهم الحجر ببيان إسناد الكلّ إليه تعالى على الإجمال؛ إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عزّ وجلّ حيث قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: كلّ واحدةٍ من النعمة والبلية من جهة الله تعالى خلقًا وإيجادًا من غير أن يكون لي مدخل في وقوع شيء منهما بوجهٍ من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلًا، ووقوع الثانية بواسطة ذنوب من ابتلي بها عقوبةً»[٢].

وسمى التشاؤم تَطَيُّرًا؛ لأنه من قبل كان من دأبهم أنهم إذا خرجوا مسافرين فمروا بطائر زجروه، أي: رموه بحجر ونحوه، فإن مرّ سانحًا بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا به، وإن مر بارحًا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا منه[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال البغوي: «أي ما يصيبكم من الخير والشر عند الله بأمره وهو مكتوب عليكم، سمي طائرًا لسرعة نزوله بالإنسان، فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم، وقيل: طائركم، أي: عملكم عند الله، سمي طائرًا؛ لسرعة صعوده إلى السماء»[٤].

ثم بين الله تعالى سبب نزول الشر عليهم حيث قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

قال الشوكاني في هذه الآية: «أي: تمتحنون، وتختبرون... فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه»[٥].

وأخبر الله جل وعلا كذلك عن قوم فرعون، فقد تشاءموا بموسى عليه السلام ومن معه.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟

(١) تأويلات أهل السنة، ٨/ ١٢١-١٢٢.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٢/ ٢٠٥.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٩/ ١٤٧.
(٤) معالم التنزيل، ٣/ ٥٠٩ باختصار.
(٥) فتح القدير، ٤/ ١٦٥.

﴿يِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

قال البغوي: «﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، جدب وبلاء ورأوا ما يكرهون، ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ يتشاءموا، ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه»(١).

وهذا دليل على جهلهم وعنادهم.

قال أبو السعود: «وهذا كما ترى شاهدٌ بكمال قساوة قلوبهم، ونهاية جهلهم وغباوتهم، فإن الشدائد ترقّق القلوب، وتلين العرائك لا سيما بعد مشاهدة الآيات، وقد كانوا بحيث لم يؤثر فيهم شيءٌ منها، بل ازدادوا عتوًّا وعنادًا»(٢).

فرد الله تعالى عليهم بقوله:﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قال السعدي: «أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك»(٣).

ثم بين الله جل وعلا سبب تشاؤمهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم؛ للإشعار بأن بعضهم يعلمون أن ما أصابهم من الخير والشرّ من جهة الله تعالى، أو يعلمون أن ما أصابهم من المصائب والبلايا ليس إلا بما كسبت أيديهم، ولكن لا يعلمون بمقتضاه عنادًا واستكبارًا(٤).

وكذلك أخبر الله تعالى عن أصحاب القرية حيث تشاءموا كذلك برسلهم، قال جل شأنه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس:١٨-١٩].

قال النسفي: «تشاءمنا بكم، وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم، وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شيء مالوا إليه وقبلته طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك»(٥)، ودل هذا القول منهم على أنه قد نزل شيء من العذاب، والشدة حتى تشاءموا بهم ذلك، ولم يزل عادة الكفرة التطير بالرسل عند نزول البلاء بهم(٦).

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل، وأعيتهم الحجج، لم يكتفوا بما قالوا، بل لجئوا إلى التهديد والوعيد ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قال الطبري: لئن لم تنتهوا عما ذكرتم من أنكم أرسلتم إلينا بالبراءة من آلهتنا، والنهي عن عبادتنا لنرجمنكم، قيل: لنرجمنكم بالحجارة، قاله قتادة، وفي قوله تعالى:

(١) معالم التنزيل، ٢/ ٢٢٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٣/ ٢٦٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٠١.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٦٤.
(٥) مدارك التنزيل، ٣/ ١٠٠.
(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥١٠.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال: ولينالنكم منا عذاب موجع[1].

فأجاب الرسل عليهم دفعًا لما زعموه من التشاؤم بهم بقولهم: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

قال المراغي: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم، لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله، وارتكبتم المعاصي، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإنا لا ندعو إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: أمن جرّاء أنا ذكرناكم، وأمرناكم بعبادة الله، تقابلوننا بمثل هذا الوعيد؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسل الله في ذلك، فقد جعلتم أسباب السعادة أسبابًا للشقاء، ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ، وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرمانهم من الخيرات[2].

[انظر بحث التشاؤم: التشاؤم بالطيور]

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٠٢.
(2) تفسير المراغي ٢٢/ ١٥٢-١٥٣ بتصرف واختصار.

الطير في الجنة

الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله تعالى به عنها، وما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم يحير العقل ويذهله؛ لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه.

يقول الله عز وجل: **(أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)**[3].

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب.

قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها ما يشتهون، ومن ذلك لحوم الطير.

قال تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة:٢١].

قال الطبري: «من الطير الذي تشتهيه نفوسهم»[4].

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٤، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.
(4) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٠٥.

والاشتهاء: مصدر اشتهى، وهو افتعال من الشهوة التي هي: محبة نيل شيء مرغوب فيه من محسوسات ومعنويات، وجعل الاشتهاء للحم الطير؛ لأنه أعلق بالطعام، فلذة كسر الشهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه[1].

قال الماتريدي: «إن أهل الجنة إنما يتناولون ما يتناولون على الشهوة، لا على الحاجة وسد الجوع، وهو كما ذكر جل وعلا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١]»[2].

فيطوف الغلمان على أهل الجنة بألوان من المطاعم المختلفة، فيختارون منها ما تميل إليه نفوسهم، وبأنواع من لحوم الطير مما لذّ وطاب، فيأخذون منها ما يشتهون، وفيه يرغبون[3].

وأما السعدي فيقول في تفسير هذه الآية: «أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشويًا، أو طبيخًا، أو غير ذلك»[4].

وذكر لحم الطير؛ لأن لحوم الطير أنعم اللحوم وألذها[5].

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم: أن في الجنة طيرًا أعناقها كأعناق الجزر، فقال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أكلتها أنعم منها**[6].

والجزر: جمع جزور، وهو البعير[7].

موضوعات ذات صلة

التشاؤم، الحشرات، الحيوان، الطيبات

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٩٥.

(٢) تأويلات أهل السنة، ٩/ ٤٩١.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢٧/ ١٣٧.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٣.

(٥) تفسير الحجرات، الحديد، ابن عثيمين ص ٣٣٤.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٣٣٠٦، والترمذي في سننه، رقم ٢٥٤٢، والنسائي في سننه، رقم ١١٦٣٩، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٥١٤.

(٧) تحفة الأحوذي، المباركفوري ٧/ ٢١٢.







عناصر الموضوع

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الظل

أولًا: المعنى اللغوي:

الظاء واللام أصلٌ واحد، يدلّ على ستر شيءٍ لشيءٍ، وهو الذي يسمى الظل، والجمع: ظلالٌ وظلولٌ وأظلالٌ وأظلّةٌ وظللٌ، والظل: ضوء شعاع الشمس إذا استتر عنك بحاجز، فاستتار شعاع الشمس ظلّ، وظلٌّ ظليل: دائمٌ، ومن المجاز أن يقال: بتنا في ظل الليل، وأتانا في ظل الليل، أي: سواده، وظللت أعمل كذا بالكسر ظلولًا، إذا عملته بالنهار دون الليل، وإنما قيل ذلك؛ لأن ذلك شيءٌ يخص به النهار، وذلك أن الشيء يكون له ظلٌّ نهارًا، ولا يقال ظلّ يفعل كذا ليلًا؛ لأن الليل نفسه ظل، قال الخليل: لا تقول العرب «ظلّ» إلا لعملٍ يكون بالنهار[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرّف الجرجاني: «الظل: ما نسخته الشمس، وهو من الطلوع إلى الزوال»[2].

وذكر المفسرون «أن الظلّ: هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطًا فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئًا فشيئًا إلى الزوال، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب، ويسمى فيئًا»[3]، وهذه الحالة أطيب الأحوال؛ لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص: وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري، وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذن أطيب الأحوال هو الظل؛ ولذلك وصف الجنة به، فقال عز وجل: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]»[4].

فالعلاقة بين المعنيين: أن المعنى الاصطلاحي أخص من المعنى اللغوي؛ فاللغوي ستر شيء لشيء، بخلاف المعنى الاصطلاحي فهو خاص بستر ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦١، أساس البلاغة، الزمخشري ٢/ ٨٤، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٠٠، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ١/ ١٣٢٧.
(٢) التعريفات ١/ ١٨٦.
(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٢/ ٣٣٥.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٦٤.



الظل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظ ل ل) في القرآن الكريم(٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت كالآتي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾[البقرة:٥٧]
الاسم	٢٠	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان:٤٥]
صيغة المبالغة	٢	﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾[النساء:٥٧]

وجاء (الظّل) في القرآن بمعناه اللغوي، وهو الذي يدل على ستر شيء لشيء[٢]، ولم يخرج عن المعنى اللغوي.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾[النحل:٨١].

أي: جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالًا تستظلون بها من شدة الحر[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٤.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٢٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الظلمة:

الظلمة لغةً:

الظّلمة: ضدّ النّور، وجمع (الظّلمة): ظُلَم، وظُلَماتٌ، وظُلُماتٌ، وظُلْماتٌ، بضمّ اللّام وفتحها وسكونها. وقد أظلم اللّيل، والظّلماء: الظّلمة، وربّما وصف بها، يقال: ليلةٌ ظلماء، أي: مظلمةٌ[(١)].

الظلمة اصطلاحًا:

قال الجرجاني: «الظلمة: عدم الضوء فيما من شأنه أن يكون مضيئًا»[(٢)].

الصلة بين الظلمة والظل:

قال الكفوي: «الظل: هو ما يحصل من الهواء المضيء بالذّات كالشّمس، أو بالغير كالقمر، والظل في الحقيقة إنّما هو في ظلّ شعاع الشّمس دون الشعاع، فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة وليس بظل»[(٣)]. والظل يكون بالليل والنهار[(٤)]، أما الظلمة فليست إلا في الليل.

٢ الحر:

الحر لغةً:

خلاف البرد، يقال هذا يومٌ ذو حرٍّ، ويومٌ حارٌّ، والحرور: الريح الحارّة في النهار واللّيل[(٥)].

الحر اصطلاحًا:

عرّف المناوي الحرارة بقوله: «الحرارة: كيفية شأنها تفريق المؤتلفات، وجمع المتشكلات»[(٦)].

الصلة بين الحر والظل:

يتفق كل منهما في أنهما يكونان في الليل والنهار، ولكنهما يختلفان في درجة الحرارة، فالحر شديد الحرارة، والظل بارد، فهما ضدان.

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٩٧.
(٢) التعريفات ص١٤٤.
(٣) الكليات ص٥٩٥.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٤٠.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤.
(٦) التوقيف ص١٣٧.

الظل آية ونعمة

بيّن سبحانه وتعالى أن الظل من النعم العظيمة، والمنافع الجليلة، والآيات الكبرى.

قال جل وعلا: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل: ٨١].

فهذه الآية وردت في سورة النحل التي تسمى سورة النِّعم[١]، فعدّد الله في هذه الآية من نعمه ما شرح فيها، فمنها الظلال تقي من حر الشمس الذي لا تحتمله الأبدان، ولا يبقى معه ولا دونه الإنسان، من شجر وحجر وغمام، ومن جملتها الجبال[٢].

ففي الآية امتنان بنعمة الإلهام إلى التوقي من أضرار الحرّ والقرّ في حالة الانتقال، وأعقبت به المنة بذلك في حال الإقامة والسكنى، وبنعمة خلق الأشياء التي يكون بها ذلك التوقي باستعمال الموجود، وصنع ما يحتاج إليه الإنسان من اللباس؛ إذ خلق الله الظلال صالحة للتوقي من حر الشمس، وخلق الكهوف في الجبال ليمكن اللجأ إليها، وخلق مواد اللباس مع الإلهام إلى صناعة نسجها، وخلق الحديد لاتخاذ الدروع للقتال[٣].

وفي الآية بيان نعمة الله تبارك وتعالى بما هيّأه لعباده من الظل؛ فإن الظل عن الحر من نعم الله على العباد.

ولهذا ذكره الله عز وجل ممتنًا به على بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٥٧][٤].

وتظهر فائدة نعمة (الظل) أكثر في البلاد الحارة والبلاد الصحراوية، وخاصة في حالة السفر، يقول صاحب اللباب: «واعلم أن بلاد العرب شديدة الحرّ، وحاجتهم إلى الظلّ ودفع الحرّ شديدة؛ فلهذا ذكر الله تعالى هذه المعاني في معرض النّعمة العظيمة»[٥].

والقرآن إنما أنزل على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [النحل: ٨١].

وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال[٦].

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٢٦٩، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ١/ ١٩٣.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٥/ ٢١٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ١/ ٢٣٨٠.
(٤) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين ٣/ ١٣٨.
(٥) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٧٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٩١.

فهذه نعمٌ عدّدها الله عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم، وأنها الأشياء المباشرة لهم؛ لأن بلادهم من الحرارة، وقهر الشمس بحيث للظل غناء عظيم، ونفع ظاهر[(١)].

وأيضًا البلاد المعتدلة، والأوقات المعتدلة نادرة جدًا، والغالب إما غلبة الحر، أو غلبة البرد، وعلى كل التقديرات فلابد للإنسان من مسكن يأوي إليه، فكان الإنعام بتحصيله عظيمًا[(٢)].

وأما تفسير الظلال في هذه الآية بأنه ظلال أوليائه، كما قال الألوسي: «وأنه يستظل بهم المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليهم من قهر الطغيان»[(٣)]؛ لأنهم ظلال الله في أرضه، كما قيل: السلطان ظل الله في أرضه، يأوي إليه كل مظلوم، فهو تفسير غير صحيح، وليس عليه أثرة من علم، ولم يقل به أهل التأويل، بل يقول الطبري في تفسير الظلال في هذه الآية: «يقول تعالى ذكره: ومن نعمة الله عليكم أيها الناس: أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالًا تستظلون بها من شدة الحر، وهي جمع ظل، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٤)].

والمراد بقوله: ﴿ظِلَٰلٗا﴾ يدخل فيه ظلال الغمام، وظلال البيوت، وظلال الشجر، وظلال الجبال، وكل شيء له ظل من حائط وسقف وشجر وجبل، وغير ذلك[(٥)].

وإن اختلفت عبارات المفسرين في المراد بالظل هنا في هذه الآية إلا أنها ترجع إلى معنى واحد؛ فنلحظ أن كل واحد منهم ذكر عبارة تختلف عن عبارة الآخر؛ إلا أن ذلك من باب التمثيل لا التضاد؛ لأن الله قال: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ ولم يذكر شيئًا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال، والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكفّ وهج الشمس وحرارتها، والسحاب تظلل.

فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصطنعه الآدميون[(٦)].

وقد يقول قائل: إن هذه ظواهر طبيعية فما النعمة فيها؟ ونقول في الجواب عن ذلك: إنها نعم كبيرة تغمر الناس، ولا يحسّون بها، ولكن إذا حرموها يعرفون مقدار الإنعام، فهذه (الظلال) نعمة من الله تعالى يشعر بها أكثر أصحاب المناطق الصحراوية التي لا ماء يرطّب جوها، ولا نسيم عليل يطفيء

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٨٨.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٤٤.
(٣) روح المعاني، ١٠/ ٢٧١.
(٤) جامع البيان، ١٧/ ٢٦٩.
(٥) انظر: زاد المسير ٤/ ٤٧٧.
(٦) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٣/ ٣٩٤.

حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التي أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلدًا، وقوة احتمال؛ فكانت هذه نعمًا أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا، وأن ينعموا في خيراتها.

ولنعلم أن هناك فرقًا بين الظلال والأكنان؛ فإن الظلال يكون بالشجر ونحوه مما يظل ولا يكنّ، بخلاف ما في الجبال من الغيران فإنه يظل ويكنّ.

فقال: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١]؛ لأن الجبل يكنّ الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه، ليس مقصودها الاستظلال، بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال؛ ولهذا قرن بهذه ما في السرابيل من منفعة الوقاية، فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المتنقل مع البدن، ووقاية الظلال الثابتة على الأرض[(١)].

فهذا في الأمكنة.

ثم قال في اللباس: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾[النحل: ٨١].

واللباس والمساكن كلاهما تقي الناس ما يؤذيهم من حر وبرد وعدو، وكلاهما تسترهم عن أعين الناظرين[(٢)].

ومما يدل على أن الظل من النعم العظيمة: أن الله تعالى نفى التساوي بين الظل والحرور، فجعل الظل نعمة قارنها الله عز وجل بالفرق بين العمى والإبصار، وبين الظلام والنور، حيث قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١].

فأخبر تعالى في هذه الآية أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ فاقد البصر ﴿وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى[(٣)].

وهو مثل ضربه الله للمؤمنين، وهم الأحياء، وللكافرين، وهم الأموات[(٤)].

فكما لا يتساوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة كذلك لا يستوي أصحاب الجنة وأصحاب النار.

والحرور بمنزلة السموم، وهي الرياح الحارة، والحرور تكون بالنهار وبالليل، والسموم لا تكون إلا بالنهار[(٥)].

وأعيدت (لا) في ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾

---

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٤٢.
(٥) زاد المسير ٦/ ٤٨٣.

تأكيدًا لنفي الاستواء؛ لأن الاستواء لا يكتفي بواحد، أو تكون (لا) مؤسسة غير مؤكدة.

وكرّرت كلمة النفي بين الظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء الأموات، ولم تكرر بين الأعمى والبصير؛ وذلك لأن التكرير للتأكيد، والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة، فالظلمة تنافي النور وتضاده، والعمى والبصر كذلك، أما الأعمى والبصير ليس كذلك، بل الشخص الواحد قد يكون بصيرًا، وهو بعينه يصير أعمى، فالأعمى والبصير لا منافاة بينهما إلا من حيث الوصف، والظل والحرور والمنافاة بينهما ذاتية؛ لأن المراد من الظل عدم الحر والبرد، فلما كانت المنافاة هناك أتم، أكد بالتكرار[1].

وأفرد (الظل)، وجمع (الحر) فقال: (الحرور)؛ لأن الظل هو شيء واحد يضاد أنواع الحر: من السموم، ومن حر النار، ومن تصاعد الأبخرة من الأرض الكبريتية، إلى غير ذلك مما يتوهج به الجو، ويسخن به الهواء؛ فلذلك حسن إفراد الصيغة -يعني إفراد الظل-، وتخصيص الحرور بهذه الصيغة.

ومما يدل أيضًا على أن الظل من النعم الجليلة: أن الله تعالى جعل الظل ليستروح فيه بعد النصب والتعب، كما حدث مع نبي الله موسى عليه السلام بعد أن سقى للفتاتين.

قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

أي: بعد أن سقى موسى عليه السلام للمرأتين ماشيتهما، تولى، أي: رجع إلى ظل الشجرة التي كان جالسًا تحتها، فاستظلّ بها.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ دلالة على أنه سقى لهما في شمس وحر[2]. وفيه: دليل جواز الاستراحة في الدنيا، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة[3].

وقوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ إلى ظل شجرة، وذكر أنها سمرة[4]. وقيل: هو ظل جدار لا سقف له.

وعن عبد الله مسعود رضي الله عنه قال: «حثثت على جمل ليلتين حتى صبّحت مدين، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا شجرة خضراء ترف، فأهوى إليها جملي -وكان جائعًا- فأخذها جملي فعالجها ساعة، ثم لفظها، فدعوت الله لموسى عليه السلام، ثم انصرفت».

وفي رواية: «أنه ذهب إلى الشجرة التي كلّم الله منها لموسى»[5].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ٧٢.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٣٢.

(٤) النكت والعيون ٣/ ٢٧٠.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٧.

وعلى كلٍّ فقد آوى موسى عليه السلام «إلى الظل المادي البليل بجسمه، وآوى إلى الظل العريض الممدود، ظل الله الكريم المنان، بروحه وقلبه»[(١)].

وكذا جعل الله من نعمه على بني إسرائيل أنه سخّر لهم السحاب ليظلهم، ووفّر لهم أشهى المأكولات، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فلما عصوا ربهم، رفع الجبل من فوقهم، فبدا لهم كأنه ظلة.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١].

الحكمة من الظل

سبق وقلنا: إن الظل نعمة من نعم الله، يتقى بها من الحر، وهذه إحدى الحكم العظيمة من خلق الظل، والظلال.

أولًا: الظل والعبادة:

من المعلوم أن الله تعالى فرض على عباده خمس صلوات في اليوم والليلة، مؤقتة بأوقات اقتضتها حكمة الله تعالى؛ ليكون العبد على صلة بربه تعالى في هذه الصلوات مدة هذه الأوقات كلها، فهي للقلب بمنزلة الماء للشجرة، تسقى به وقتًا فوقتًا، لا دفعة واحدة، ثم ينقطع عنها.

ومن الحكمة أيضًا في تفريق هذه الصلوات في تلك الأوقات: أن لا يحصل الملل والثقل على العبد إذا أداها كلها في وقت واحد، فتبارك الله تعالى أحكم الحاكمين.

ونجد أن الله تعالى ربط بعض هذه الصلوات بحركة الظل، فيتم تحديد أوقات الظهرين، وأوقات فضيلتهما بقياس الظل الحادث بعد الزوال.

فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أوقات الصلوات بقوله: (**وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، ما لم يحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر**

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٤١٩.

الشمس)[1].

يقول ابن القيم: «وفي دلالة الشمس على الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضى من اليوم، وما بقي منه، وفي تحركه وانتقاله ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس، وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه»[2].

هكذا يربط النبي صلى الله عليه وسلم هذين الوقتين بحركة الظل، فبيّن أن ابتداء وقت الظهر: هو من زوال الشمس، والمقصود زوالها عن وسط السماء إلى جهة الغرب، وأما نهايته: فهو إلى أن يصير ظل كل شيء مثله -أي: طوله- بعد الظل الذي زالت عليه الشمس.

وأما ابتداء وقت العصر، فيكون بانتهاء وقت الظهر، أي: عند مصير ظل كل شيء مثله، وأما نهاية وقت العصر، فله وقتان:

وقت اختيار: وهو من أول وقت العصر إلى اصفرار الشمس؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ووقت العصر ما لم تصفر الشمس)[3]، أي: ما لم تكن صفراء، وتحديده بالساعة يختلف باختلاف الفصول.

وقت اضطرار: وهو من اصفرار الشمس إلى غروب الشمس؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر)[4].

والزوال: هو ميل الشمس عن كبد السماء بعد انتصاف النهار، وعلامته: زيادة الظل بعد تناهي نقصانه، وذلك أن ظل الشخص يكون في أول النهار طويلًا ممتدًا، فكلما ارتفعت الشمس نقص، فإذا انتصف النهار وقف الظل، فإذا زالت الشمس عاد الظل إلى الزيادة، فإذا أردت أن تعلم هل زالت، فانصب عصًا أو غيرها في الشمس على أرض مستوية، وعلّم على طرف ظلها، ثم راقبه، فإن نقص الظل علمت أن الشمس لم تزل، ولا تزال تراقبه حتى يزيد، فمتى زاد علمت الزوال حينئذٍ.

ويختلف قدر ما يزول عليه الشمس من الظل باختلاف الأزمان والبلاد، فأقصر ما يكون الظل عند الزوال في الصيف عند تناهي طول النهار، وأطول ما يكون في الشتاء عند تناهي قصر النهار[5].

وقد أشار الله تعالى لأوقات الصلوات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس، رقم ٦١٢.
(٢) التفسير القيم، ٢/ ٦٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب أوقات الصلوات الخمس، رقم ٦١٢.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك من الفجر ركعة، رقم ٥٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد باب من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة، رقم ٦٠٨.
(٥) انظر: المجموع ٣/ ٢٤.

في مواضع من القرآن، منها قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فأشار بقوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ وهو زوالها عن كبد السماء على التحقيق إلى صلاة الظهر والعصر، وأشار بقوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ -وهو ظلامه- إلى صلاة المغرب والعشاء، وأشار بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ إلى صلاة الصبح، وعبّر عنها بالقرآن بمعنى القراءة؛ لأنها ركن فيها من التعبير عن الشيء باسم بعضه.

وهذا البيان أوضحته السنة إيضاحًا كليًّا، ومن الآيات التي أشير فيها إلى أوقات الصلاة -كما قاله جماعة من العلماء- قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨].

قالوا: المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة، وأشار بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاة المغرب والعشاء، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى صلاة الصبح، وبقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاة العصر بقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى صلاة الظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

وأقرب الأقوال في الآية: أنه أشار بطرفي النهار إلى صلاة الصبح أوله، وصلاة الظهر والعصر آخره، أي: في النصف الأخير منه، وأشار بزلفٍ من الليل إلى صلاة المغرب والعشاء[(١)].

وكان الصحابة أيضًا يدللون على استعجالهم في صلاة الجمعة بالظل؛ فقد جاء في صحيح البخاري عن إياس بن سلمة بن الأكوع، قال: حدّثني أبي وكان من أصحاب الشجرة، قال: (**كنا نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة، ثم ننصرف وليس للحيطان ظل نستظل فيه**)[(٢)].

فقوله: (**وليس للحيطان ظل**) أي: يصلح لأن يستظل فيه، وهو دليل التعجيل بصلاة الجمعة أول الوقت.

وقيل: يحتمل أن تكون الحيطان في ذلك الوقت ليس لها علو ولا رف تقتضي الظل في أول الزوال، أو يكون خبر ابن سلمة عن حيطان معتدلة إلى الجنوب من دور المدينة وغيرها[(٣)].

والمقصود: أننا نجد أن بعض العبادات ارتبطت بحركة الظل، في تحديد دخولها وخروجها، وهذا من الحكم والمنافع للظل

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ١١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم ٤١٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الجمعة حين تزول الشمس، رقم ٨٦٠.
(٣) المنتقى شرح الموطأ، الباجي ١/ ١٣.

والظلال.

ثانيًا: الظل وتشبيه الدنيا به:

الدنيا سريعة الفناء، قريبة الانقضاء، تعد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيرًا عنيفًا، ومرتحلة ارتحالًا سريعًا، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها؛ ولهذا مثّلت بالظل؛ فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة، ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر، بل البصيرة الباطنة، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصري رحمه الله أنشد:

أحلام نوم أو كظل زائل
إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما يتمثل كثيرًا بقوله:

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها
إن اغترارًا بظل زائل حمق

ويقال: إن أعرابيًّا نزل بقوم فقدّموا إليه طعامًا فأكل، ثم قام إلى ظل خيمة لهم، فنام هناك، فاقتلعوا الخيمة، فأصابته الشمس فانتبه، فقام وهو يقول:

ألا إنما الدنيا كظل ثنية
ولابد يومًا أن ظلك زائل

وقال آخر[1]:

وإن امرأ قد عاش سبعين حجة
ولم يتزود للمعاد لجاهل
ودنياك ظل، فاترك الحرص بعدما
علمت؛ فإن الظل لابد زائل

وقال آخر:

وما دنياك إلا مثل فيءٍ
أظلك ثم آذن بالزوال

وقال آخر:

إنما الدنيا كظلٍّ زائلٍ
أو كضيفٍ بات ليلًا فارتحل

وقيل: مثل الدنيا مثل الظل، إن طلبته تباعد، وإن تركته تتابع.

وفى الحديث: (ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب قال في ظل شجرة في يوم حار، ثم راح وتركها)[2][3].

ثالثًا: إتيان الله في ظلل من الغمام والملائكة:

أخبر الله تعالى أنه يأتي يوم القيامة في ظلل من الغمام والملائكة، فقال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ١/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه أحمد، رقم ٣٧٠٩، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب منه، رقم ٢٣٧٧، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، رقم ٤١٠٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٤٣٩ و ٤٤٠.

(٣) بصائر ذوى التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٠٧٠.

﴿الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، والمعنى: ما ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون بعد قيام الأدلة البينة إلا أن يأتيهم الله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه في ظلل من السحاب يوم القيامة؛ ليفصل بينهم بالقضاء العادل، وأن تأتي الملائكة، وحينئذٍ يقضي الله تعالى فيهم قضاءه»، وإليه وحده ترجع أمور الخلائق جميعها.

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ بمعنى النفي، و﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: ينتظرون، أي: ما ينتظر هؤلاء المكذّبون الذين زلوا بعد ما جاءتهم البينات؟! سائقًا له في أسلوب الإنكار، وصيغة الغيبة مجردة عن الانفعال؛ تنبيهًا على أنهم في غاية البعد عن مواطن الرأفة والاستحقاق بمظهر الكبر والنقمة بإعراض الله عن خطابهم، وإقباله من عذابهم على ما لم يكن في حسابهم.

و﴿يَنظُرُونَ﴾ إن عدّيت بـ (إلى) فهي للنظر بالعين؛ وإن لم تعدّ فهي بمعنى الانتظار.

وإتيان الله في قوله: ﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ من الصفات الاختيارية التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، فتثبت على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف[1].

فوصف الله تعالى هنا بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمجيء في آيات أخر، ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه، أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقول في جميع ذلك من جنس واحد، وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها: فهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، والقول في صفاته كالقول في ذاته، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلو سأل سائل: كيف يجيء سبحانه ؟ أو كيف يأتي؟ فليقل له: كيف هو في نفسه؟ فإذا قال: لا أعلم كيفية ذاته! فليقل له: وكذلك لا تعلم كيفية صفاته!

فإن العلم بكيفية الصفة ينبع من العلم بكيفية الموصوف، وقد أطلق غير واحدٍ ممن حكى إجماع السلف منهم الخطابي: مذهب السلف أن صفاته تعالى تجري على ظاهرها، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها[2].

يقول شيخ الإسلام: «وكذلك ما ورد من نزوله يوم القيامة في ظلل من الغمام، ومن نزوله إلى الأرض لما خلقها، ومن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٩٤.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٢٠.

نزوله لتكليم موسى عليه السلام وغير ذلك، كله من باب واحد، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨][(١)].

فمثل هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يمرّ كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا[(٢)].

فيكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

أي: يأتيهم الله نفسه، هذا ظاهر الآية، ويجب المصير إليه؛ لأن كل فعل أضافه الله إليه فهو له نفسه، ولا يعدل عن هذا الظاهر إلا بدليل من عند الله.

ولأهل البدع في هذه الآية وجوهًا وتأويلات كلها باطلة، وهي خلاف منهج السلف في تفسير هذه الآية، أعرضنا عن ذكرها.

والمعنى الحق لها: هو إثبات إتيان الله عز وجل في ظلل من الغمام يوم القيامة للفصل بين عباده، وهو إتيان حقيقي يليق بجلاله، لا تعلم كيفيته، ولا يسأل عنها، كسائر صفاته، وما ذهب إليه أهل التعطيل من أن المراد بإتيان الله: إتيان أمره، فتحريف للكلم عن مواضعه، وصرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، إلا ما زعموه دليلًا عقليًّا، وهو في الحقيقة وهمي، وليس عقليًّا؛ فنحن نقول: الذي نسب فعل الإتيان إليه هو الله عز وجل، وهو أعلم بنفسه، وهو يريد أن يبيّن لعباده، كما قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

وإذا كان يريد أن يبيّن، وهو أعلم بنفسه، وليس في كلامه عيٌّ، وعجز عن التعبير بما أراد، وليس في كلامه نقص في البلاغة، إذًا فكلامه في غاية ما يكون من العلم، وغاية ما يكون من إرادة الهدى، وغاية ما يكون من الفصاحة والبلاغة، وغاية ما يكون من الصدق، فهل بعد ذلك يمكن أن نقول: إنه لا يراد به ظاهره؟! كلا، لا يمكن هذا إلا إذا قال الله هو عن نفسه أنه لم يرد ظاهره. إذًا المراد إتيان الله نفسه، ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

ومثل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]؛ لأننا نقول: إن هذا من أمور الغيب، والصفات توقيفية، فنتوقف فيها

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٤/ ١٧٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشوكاني ٧/ ١٥٢.

على ما ورد، فالإتيان الذي أضافه الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه، والإتيان الذي أضافه الله إلى أمره، يكون المراد به إتيان أمره؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله ما لا نعلم، بل علينا أن نتوقف فيما ورد على حسب ما ورد.

ومن احتج بنفي الظل عن الله تعالى بحجة أن إثبات الظل يلزم منه علو الشمس على الله تعالى، فقد أخطأ من جهتين:

الأولى: خطؤه على لغة العرب، وحصره الظل فقط بأثر الشمس للشاخص القائم، والظل في لغة العرب والقرآن يأتي لمعانٍ منها ما ذكرناه: وهو كل ما يكون فوقنا ويسترنا.

والثاني: توهّمه أن إثبات الظل لله تعالى يلزم منه تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو في الحقيقة غير لازم.

فإثبات الظل بهذا المعني -أي: بمعنى أنه يكون فوقنا- لا يخالف فيه أحد من أهل السنة والجماعة، فمن لوازم إثبات علو الله على خلقه إثبات فوقية الله تعالى، وهذا يكون عامًا لجميع الخلق، فالله تعالى فوق خلقه بذاته مستوٍ على عرشه، فهو بهذا المعنى يظلّهم ولا شك.

فالله تعالى بهذا المعنى العام يظلّ العرش وغيره، فهوتعالى مستوٍ على العرش، بائن من خلقه، لا يخرج عن ظله شيء، فالشمس تحت الله ولا شك، ومن قال بأنها فوق الله تعالى فهو كافر.

والظّلل في قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]: جمع (ظلّة)، كظلم جمع ظلمة، والغمام: اسم جنس جمعي لغمامة، وهي السحاب الرقيق، وسمي بذلك لأنه يغم، أي: يستر.

فالظلة: هي ما يستر من الشمس أو غيره، فهي في غاية الإظلام والهول والمهابة؛ لما لها من الكثافة التي تغم على الرائي ما فيها، وتدمّر ما أتت عليه إلى غير ذلك من أنواع المجد الذي لا يقدره حق قدره إلا الله.

و(الغمام) قالوا: إنه السحاب الأبيض الرقيق، لكن ليس كسحاب الدنيا، فالاسم هو الاسم، ولكن الحقيقة غير الحقيقة؛ لأن المسميات في الآخرة، وإن شاركت المسميات في الدنيا في الاسم، إلا أنها تختلف، مثلما تختلف الدنيا عن الآخرة.

وفي تنكير (ظلل) إثبات عظمة الله عز وجل؛ لأنها تدل على أنها ظلل عظيمة وكثيرة؛ ولهذا جاء في سورة الفرقان: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

يعني: تثور ثورانًا بهذا الغمام العظيم من كل جانب، كل هذا مقدمة لمجيء الجبار سبحانه وتعالى، وهذا يفيد عظمة الباري سبحانه وتعالى .

وفي قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾

[البقرة: ٢١٠].

إشكال؛ لاقتضائه الظرفية، وهي مستحيلة على الله تعالى.

لكن قد أجاب على هذا الإشكال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، حيث قال: «قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

(في) معناها (مع)، يعني: يأتي مصاحبًا لهذه الظلل، وإنما أخرجناها عن الأصل الذي هو الظرفية؛ لأنا لو أخذناها على أنها للظرفية صارت هذه الظلل محيطة بالله عز وجل، والله أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، ونظير ذلك أن نقول: جاء فلان في الجماعة الفلانية، أي: معهم، وإن كان هذا التنظير ليس من كل وجه؛ لأن فلانًا يمكن أن تحيط به الجماعة؛ ولكن الله لا يمكن أن يحيط به الظلل، وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي مجيء الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥].

فالسماء تشقق لا تنشق، كأنها تنبعث من كل جانب.

وقيل: إن (في) بمعنى الباء، أي: يأتيهم بظلل من الغمام، وهي ظلل تحمل العذاب من الصواعق، أو الريح العاصفة، أو نحو ذلك، فتكون كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢].

وهذا قول باطل؛ لمخالفته ظاهر الآية.

فيكون في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ وجهان:

الأول: أنه متعلقٌ بمحذوف؛ لأنه صفةٌ لـ(ظلل) التقدير: ظللٍ كائنةٍ من الغمام، و(من) على هذا للتبعيض.

والثاني: أنها متعلقةٌ بـ(يأتيهم)، وهي على هذا لابتداء الغاية، أي: من ناحية الغمام»[1].

وتجلي الملائكة في ظلل من الغمام أمر مألوف، منه ما في الصحيح عن البراء رضي الله عنه قال: **كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشطنين، فتغشّته سحابة فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال: (تلك السكينة تنزلت بالقرآن)**[2].

وعن أسيد بن حضير قال: **بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوط عنده؛ إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريبًا منها، فأشفق أن تصيبه،**

(١) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي ١/ ٧٦٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الكهف، رقم ٤٧٢٤، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم ١٨٩٢.

فلما اجترّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير)، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: (وتدري ما ذاك؟) قال: لا، قال: (تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم)[(١)(٢)].

وإسناد الإتيان إلى الملائكة؛ لأنهم الذين يأتون بأمر الله أو عذابه، وهم الموكل إليهم تنفيذ قضائه، فإسناد الإتيان إليهم حقيقة[(٣)].

ومتى يكون مجيء الملائكة؟ الظاهر أنه يوم القيامة، أو عند الموت[(٤)].

رابعًا: التظليل على بني إسرائيل في الصحراء:

لما ذكر الله تعالى ما دفعه عن بني إسرائيل من النِّقم، شرع يذكّرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ وورد ذلك في موضعين:

الأول: في سورة البقرة، حيث قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

والثاني: في سورة الأعراف حيث قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وهذا التظليل من النعم على بني إسرائيل، والمعنى: جعلنا الغمام ظلة عليكم من حرّ الشمس.

وهذا هو الإنعام السابع الذي ذكره الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى هذه الآية بهذه الألفاظ في سورة الأعراف، وظاهر هذه الآية يدل على أن هذا الإظلال كان بعد أن بعثهم[(٥)].

قال السعدي: «هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل...، ثم ذكر نعمته عليكم في التيه والبرية الخالية من الظلال، وسعة الأرزاق، فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ﴾ [البقرة: ٥٧].

وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، رقم ٤٧٣٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٤٥.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٥٧٧.
(٤) انظر: زاد المسير ١/ ٢٢٦.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢/ ١١٧.

وغير ذلك»[1].

وذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم...، فعوقبوا في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في خمسة فراسخ أو ستة، روي أنهم كانوا يمشون النهار كله، وينزلون للمبيت، فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس[2].

وجاء في تفسير ابن كثير: «أنه لما دخل بنو إسرائيل التيه، قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ها هنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ فكان يسقط على الشجر الزنجبيل، والسلوى، وهو طائر يشبه السماني أكبر منه، فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سمينًا ذبحه وإلا أرسله، فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب، فأين الظل؟ فظلّل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان، ولا ينخرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]»[3].

والظاهر أن الخطاب في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ لجميعهم...، وقيل: الذين ظللوا بالغمام بعض بني إسرائيل، وكان الله تعالى قد أجرى العادة فيهم أن من عبد الله ثلاثين سنة، لا يحدث فيها ذنبًا أظلته الغمامة، وكان فيهم جماعة يسمون أصحاب غمائم؛ فامتن الله تعالى لكونهم فيهم من له هذه الكرامة الظاهرة، والنعمة الباهرة[4]. والأول أصوب.

وإنما خاطب الموجودين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧].

وأراد به آباءهم، وهم قوم موسى عليه السلام، ولكن لما كان ذلك منّةً على الآباء الذين هم أصلٌ، صار كأنه واقع على الأبناء[5].

ومعنى قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ أي: جعلناه ظلًا عليكم، وكان ذلك في التيه حين تاهوا...، وما كان عندهم ماء ولا مأوى؛ ولكن الله تعالى رحمهم، فظلّل عليهم الغمام.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٥٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٠٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٢٧٢.
(٤) روح المعاني، الألوسي ١/ ٣٢٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩١.

فيكون ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ مفعول على إسقاط حرف الجر، أي: بالغمام، كما تقول: ظللت على فلان بالرداء، أو مفعول به لا على إسقاط الحرف، ويكون المعنى: جعلناه عليكم ظللًا، فعلى هذا الوجه الثاني يكون فعل فيه، بجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه، كقولهم: عدّلت زيدًا، أي جعلته عدلًا، فكذلك هذا معناه: جعلنا الغمام عليكم ظلة، وعلى الوجه الأول تكون (فعل) فيه بمعنى (أفعل)، فيكون التضعيف أصله للتعدية، ثم ضمن معنى فعلٍ يعدّى بـ (على)، فكان الأصل: وظللناكم، أي أظللناكم بالغمام...، ثم ضمن (ظلل) معنى كلل أو شبهه، مما يمكن تعديته بـ (على)، فعداه بـ (على)[(١)].

يقول في التبيان: «أي: جعلناه ظلًا، وليس كقولك: ظللت زيدًا بظل؛ لأن ذلك يؤدي إلى أن يكون الغمام مستورًا بظل آخر»[(٢)].

و﴿الْغَمَامَ﴾: هو ما غمّ السماء فغطّاها من سحاب وقتام، وكلّ مغطٍّ فهو غمام، ومنه: غمّ الهلال، أي: غطاه الغيم، فهو اسم جنس جمعي للغمامة، واسم الجنس الجمعي هو الذي يفرق بينه وبين مفرده بالتاء المربوطة، أو ياء النسب، مثل: روم ورومي، فتكاثف الغمام في الصحراء حتى صار كمظلة تظلهم أينما ساروا، فلا يحسون بوهج الحر يلفح وجوههم.

قال ابن عثيمين في تفسيره: «الغمام: هو السحاب الرقيق الأبيض.

وقيل: السحاب مطلقًا.

وقيل: السحاب البارد الذي يكون به الجو باردًا، ويتولد منه رطوبة، فيبرد الجو، وهذا هو الظاهر»[(٣)].

خامسًا: رفع الجبل فوق بني إسرائيل كأنه ظلة:

أخبر الله سبحانه وتعالى أنه رفع فوق بني إسرائيل الجبل كأنه ظلة، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

ونظيره: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣ - ٩٣].

ونظيره أيضًا: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام، رفع الله على رءوسهم جبلًا ثم ألزموا، فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم[(٤)].

(١) إعراب القرآن، ابن سيده ١/ ١٦٤.
(٢) التبيان في إعراب القرآن، العكبري ١/ ٦٥.
(٣) تفسير سورة البقرة، ابن عثيمين ٣/ ١٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٤٦.

والمعنى: واذكر -أيها الرسول- إذ رفعنا الجبل فوق بني إسرائيل كأنه سحابة تظلّهم، وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم يقبلوا أحكام التوراة.

و ﴿نَتَقْنَا﴾: النتق: الفصل والقلع، والجبل: الطور، والناتق الرافع، والناتق الباسط، والناتق الفاتق، وامرأة ناتق ومنتاق: كثيرة الولد، وأخذ ذلك من نتق السقاء، وهو نفضه حتى تقتلع الزبدة منه، ونتقنا الجبل: قلعه من أصله[1].

ويأتي النتق بمعنى: الرفع، فيكون معنى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ أي: رفعناه، وهو كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤].

وعن ابن عباس: رفعته الملائكة فوق رؤوسهم[2].

والتشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ أي: كهيئة الغمام، وجملة: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ حال من ﴿الْجَبَلَ﴾ في محل نصب[3].

وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفًا لهم؛ لتكون مذكرة لهم، فيعقب ذلك أخذ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، فكان رفع الطور معجزة لموسى عليه السلام؛ تصديقًا له فيما سيبلّغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمة ومداومة[4].

وقد ذكر الله في القرآن أشياء كثيرة من معجزات موسى عليه السلام...، منها هذه، وهي: إظلال الجبل ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١][5].

وقد قيل: إنما رفع الله تعالى الجبل فوقهم؛ إظلالًا لهم من الشمس؛ جزاءً لعهدهم، وكرامة لهم، ولا يخفى أن هذا خرق لإجماع المفسرين، وليس له مستند أصلًا[6].

وفي هذه الآية من الفوائد: عتوّ بني إسرائيل، حيث لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، فحينئذٍ آمنوا، وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكره الذي قيل له: إما أن تؤمن أو تقتل.

وبيان قوة الله عز وجل وقدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١].

فلا أحد من الخلق يستطيع أن يحمل ذلك الجبل، ويجعله ظلة لا يسقط عليهم إلا الله عز وجل؛ فالأحجار العظيمة الثقيلة الكبيرة أمسكها الله تعالى بقدرته.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٤٣٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٩٩.
(٣) مشكل إعراب القرآن، الخراط ١/ ١٧٣.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٦٦٩.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٤٣.
(٦) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٩٦.

سادسًا: انتقام الله من قوم شعيب بعذاب يوم الظلة:

بيّن الله تعالى أنه لما ظلم قوم شعيب عليه السلام، وكذّبوا رسولهم، وطفّفوا الكيل، وبخسوا الناس أشياءهم، انتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة، وبيّن أن عذاب يوم الظلة عذابٌ عظيم، والظلة: سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم نارًا، فأحرقتهم.

فقال تعالى في قوم شعيب عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب عليه السلام ذكر الله تعالى في (الأعراف) أنه رجفة، وذكر في (هود) أنه صيحة، وذكر في (الشعراء) أنه عذاب يوم الظلة.

فالجواب: ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسيره، حيث قال: «وقد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام منه»[١].

وقد وصف المفسرون عذاب يوم الظلة بأوصاف مختلفة، فيقول ابن عجيبة: «وذلك بأن سلّط عليهم الحر سبعة أيام بلياليها، فأخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولا شرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، وجدوا فيها بردًا ونسيمًا، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم نارًا فاحترقوا جميعًا، وقيل: رفع لهم جبل، فاجتمعوا تحته، فوقع عليهم، وهو الظلة، وقيل: لما ساروا إلى السحابة صيح بهم فهلكوا.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في الشدة والهول، وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة»[٢].

وقال السعدي: «أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين؛ لظلها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لا كرّة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا العمل، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون»[٣].

إلا أننا نجد أن الله تعالى لم يذكر كيفية عذاب يوم الظلة، حتى إن ابن عباس قال: من حدّثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب، وذكر في حديثها تطويلات[٤].

وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن لهم يومئذٍ عذابًا آخر غير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٩.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٤٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٥٩٧.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٢٨.

عذاب الظلة[1].

سابعًا: تشبيه موج البحر بالظلل:

شبّه الله تعالى موج البحر الذي يغشي المشركين بـ (الظلل)، فأخبر تعالى من حال المشركين أنهم إذا ركبوا السفن وعلتهم الأمواج من حولهم كالسحب والجبال، أصابهم الخوف والذعر من الغرق، ففزعوا إلى الله، وأخلصوا دعاءهم له، فلما نجاهم إلى البر فمنهم متوسط، لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، ومنهم كافر بنعمة الله جاحد لها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: إذا غشي المشركين موج، وهم على ظهر السفينة، فخافوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: دعوا الله وحده، ولم يذكروا آلهتهم.

والغشي والغشيان: الإحاطة من كل جانب، مأخوذ من الغشاء، بمعنى: الغطاء، فيقال: غشا الظلام المكان، إذا حل به[2].

وأصل الموج: الحركة والازدحام، ومنه قولهم: ماج البحر: إذا اضطرب وارتفع ماؤه[3].

وشبّه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع؛ لأن الموج يأتي شيء منه بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا كهيئة الظلل[4].

قال الشوكاني: «شبّه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرهما، وإنما شبّه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع؛ لأن الموت يأتي شيئًا بعد شيء، ويركب بعضه بعضًا، وقيل: إن الموج في معنى الجمع؛ لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة والازدحام، ومنه يقال: ماج البحر، وماج الناس»[5].

وقوله: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال، وقيل: كالسحاب، والظّلل: جمع ظلة، كغرفة وغرف، وهي ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما، وشبّه الموج بها في كثرتها وارتفاعها، كقول النابغة في صفة بحر[6]:

يماشيهن أخضر ذو ظلال
على حافاته فلق الدنان

وفي تشبيه الموج بالظل وجهان:

أحدهما: لسواده.

الثاني: لعظمه[7].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى أنه هو الذي سخّر البحر لتجري فيه

---

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٦٣.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٣٣٧٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٥٦.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٤٨.
(٦) الكشف والبيان، الثعلبي ١١/ ٥٣.
(٧) النكت والعيون ٣/ ٣٤٢.

الفلك بأمره، أي: بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت؛ ولهذا قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي: من قدرته، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء، شكور في الرخاء.

ثم قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ أي: كالجبال والغمام، ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]»[(١)].

ثامنًا: الظل الظليل في الجنة:

وصف الله تعالى ظل الجنة بأنه ظليل، فقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

ووصفه في آية أخرى بأنه دائم، فقال: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

ووصفه في آية أخرى بأنه ممدود، فقال: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وبيّن في موضع آخر أنها ظلال متعددة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

وذكر في موضع أنهم في تلك الظلال متكئون مع أزواجهم على الأرائك، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

فإن قلت: إذا لم يكن في الجنة شمس تؤذي بحرها، فما فائدة وصفها بالظل الظليل؟ وأيضًا يرى في الدنيا أن المواضع التي يدوم الظل فيها، ولا يصل نور الشمس إليها يكون هواؤها عفنًا فاسدًا، فما معنى وصف هواء الجنة بذلك؟

والجواب نقول: إن الواجب على المؤمن التصديق بوجود ظل في الجنة -كما أثبتت الآيات السابقة-، ولو لم يكن ثمة شمس ولا حر؛ لأن عالم الآخرة -ومنه الجنة- عالم غيبي، لا يعرف حقيقة ما فيه، ولا يتشابه مع ما في الدنيا إلا بالأسماء فقط، وقد ورد أن: (في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠])[(٢)]. في هذا الحديث رد على من يقول: إن الأشجار في الجنة لا ظل لها.

وقد سئل السبكي عن الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولًا إذا تراءت له شجرة يقول: (يا رب أدنني من هذه لأستظل في

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٥١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها، رقم ٢٨٢٦.

ظلها...) الحديث[1]، فمن أي شيء يستظل والشمس قد كوّرت؟

فأجاب بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وبقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]؛ إذ لا يلزم من تكوير الشمس عدم الظل؛ لأنه مخلوق لله تعالى، وليس بعدم، بل أمر وجودي له نفع بإذن الله تعالى في الأبدان وغيرها، فليس الظل عدم الشمس كما قد يتوهم[2].

أخبر الله عن ظل الجنة بأنه ظليل، فقال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

أي: وندخلهم ظلًا كثيفًا ممتدًا في الجنة، فوصف في هذه الآية الكريمة ظل الجنة بأنه ظليل، والظليل صفة مشتقة من لفظ الظل؛ للتأكيد[3].

دوام ظل الجنة:

قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] أي: ما يؤكل فيها دائم لا يفنى، وظلها دائم لا ينسخ، و﴿وَظِلُّهَا﴾ مبتدأ محذوف الخبر، وحذف منه الخبر بدليل الخبر السابق ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾، وفيه من البلاغة الإيجاز بالحذف.

يقول الطبري: «يعني: ما يؤكل فيها، يقول: هو دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية، وظلها أيضًا دائم؛ لأنه لا شمس فيها»[4].

ومشهد الظل الدائم، والثمر الدائم، مشهد تطمئن له النفس وتستريح.

الظل الممدود في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠].

أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس، بل هي ظل، وصفها بعض السلف بأنها كالنور الذي يكون قرب طلوع الشمس، تجد الأرض مملوءة نورًا، ولكن لا تشاهد شمسًا، فهو ظل ممدود في المساحة والزمن.

قال الطبري: «وهم في ظل دائم لا تنسخه الشمس فتذهبه...، وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار، وقال به أهل العلم»[5].

فيكون معنى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا نهاية له؛ لأن الجنة ليس فيها شمس، بل هي ظل، وكل ما لا انقطاع له فإنه ممدود، فالعرب تقول للدهر الطويل والعمر الطويل، وللشيء الذي لا ينقطع: ممدود[6]، كما قال لبيد[7]:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، رقم ٤٨١.
(٢) السراج المنير، الشربيني ١/ ٤٤٦٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٩٦٩.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٧٢.
(٥) جامع البيان، ٢٣/ ١١٤.
(٦) الكشف والبيان، الثعلبي ١٣/ ١٠١.
(٧) البيت للبيد نسبه إليه أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٥٠.

غلب البقاء وكنت غير مغلّب
دهرٌ طويلٌ دائم ممدود

وقيل الظل الممدود: المستوعب للزمان والمكان، فهو دائم الاستمداد، كما بين الإسفار وطلوع الشمس، لا فناء له، ولا نهاية[(١)].

وظاهر الآثار يقتضي أنه ظل الأشجار؛ فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرءوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠])[(٢)(٣)].

ظلال المتقين في الجنة:

أخبر سبحانه أن المتقين في الجنة في ظلال، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

والمراد بالظلال: ظلال الأشجار، وظلال القصور[(٤)].

قال السعدي: «﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية»[(٥)].

وفي قوله: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ هذه قراءة العامة، وقرأ الأعمش والزهري وطلحة والأعرج: ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظلّة، يعني في الجنة[(٦)].

الظلل التي تظل المؤمنين وأزواجهم في الجنة:

أخبر سبحانه أن المؤمنين وأزواجهم متنعمون بالجلوس على الأسرّة المزيّنة، تحت الظلال الوارفة، فقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يـس: ٥٦].

قال الطبري: «واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأه بعضهم: ﴿فِى ظُلَلٍ﴾ بمعنى: جمع ظلّة، كما تجمع الحلة حللًا، وقرأه آخرون: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾، وإذا قرئ ذلك كذلك كان له وجهان:

أحدهما: أن يكون مرادًا به: جمع الظّلل الذي هو بمعنى الكنّ، فيكون معنى الكلمة حينئذٍ: هم وأزواجهم في كنّ لا يضحون لشمس كما يضحى لها أهل الدنيا؛ لأنه لا شمس فيها.

والآخر: أن يكون مرادًا به جمع ظلّة، فيكون وجه جمعها كذلك نظير جمعهم الخلة في الكثرة: الخلال، والقلّة: قلال»[(٧)].

وعلى القراءتين فالمراد: الفرش والستور

(١) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٣٢٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٨٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها، رقم ٢٨٢٦.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٢٠/ ٢٢٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١٦٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص٩٠٥.
(٦) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٧.
(٧) جامع البيان، ٢٠/ ٥٣٨.

التي تظللهم كالخيام والحجال[(١)].

وفي قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ وجهان:

أحدهما: وأزواجهم في الدنيا من وافقهم على إيمانهم.

الثاني: أزواجهم اللاتي زوّجهم الله تعالى بهن في الجنة من الحور العين.

والمراد: أزواجهم المؤمنات، فأطلق حملًا على المقيد، في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

وذكر الأزواج إبلاغ في الوعيد والإنذار؛ لئلا يحسبوا أن النساء المشركات لا تبعة عليهن[(٢)].

وقوله: ﴿فِى ظِلَـٰلٍ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: في ظلال النعيم.

الثاني: في ظلال تسترهم من نظر العيون إليهم[(٣)].

وفسّر الظلال -جمع ظلة- بالملابس ونحوها من الأشياء التي تظل كالستور[(٤)].

دنو الظلال في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤].

والضمير في ﴿ظِلَـٰلُهَا﴾ عائد إلى ﴿جَنَّةً﴾[(٥)] أي: قريبة إليهم أغصانها[(٦)]، وقربت منهم ظلال أشجارها[(٧)].

وإذا دنت الظلال، ودنت القطوف، فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال[(٨)].

فدنو الظلال: قربها منه، وإذ لم يعهد وصف الظل بالقرب يظهر أن دنو الظلال كناية عن تدلي الأدواح التي من شأنها أن تظلل الجنات في معتاد الدنيا، ولكن الجنة لا شمس فيها فيستظل من حرها، فتعين أن تركيب: (دانية عليهم ظلالها) مثل يطلق على تدلي أفنان الجنة؛ لأن الظل المظلل للشخص لا يتفاوت بدنو ولا بعد، وقد يكون (ظلالها) مجازًا مرسلًا عن الأفنان بعلاقة اللزوم، والمعنى: أن أدواح الجنة قريبة من مجالسهم، وذلك مما يزيدها بهجة وحسنًا[(٩)].

قال صاحب روح البيان: «فتكون (دانية) من الدنو بمعنى القرب، إما بحسب الجانب، أو بحسب السمك، والضمير إلى الجنة، أو أشجارها، ومعناه: إن ظلال الأشجار في الجنة قربت من الأبرار من جوانبهم، حتى صارت الأشجار بمنزلة المظلة عليهم، وإن

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٣٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٥٥٨.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٤٩.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٣/ ٣٥.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٥٨.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٩١.
(٧) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٠٣.
(٨) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٤١٧.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٥٨.



كان لا شمس فيها مؤذية لتظللهم منها، ففيه بيان لزيادة نعيمهم، وكمال راحتهم، فإن الظل في الدنيا للراحة»[1].

تاسعًا: الظل من يحموم، والظل الذي لا يغني من اللهب:

وصف الله تعالى ظل أهل النار بقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣].

وهو دخان جهنم الأسود، الذي لا يقي حرًا، ولا يدفع عطشًا، ولا يجد المستظل به مما يشتهيه لراحته سوى شرر النار الهائل.

وتنوعت عبارات المفسرين في هذا الظل الذي هو من يحموم، فقال ابن كثير: «﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ قال ابن عباس: ظل الدخان، وكذا قال مجاهد وعكرمة وأبو صالح وقتادة والسدي وغيرهم»[2].

وقال السعدي: «﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: لهب نار، يختلط بدخان»[3].

قال في روح البيان: «ووصف اليحموم بأنه: دخان أسود بهيم، فإن اليحموم الدخان والأسود من كل شيء، كما في القاموس، تقول العرب: أسود يحموم، إذا كان شديد السود، قال الضحاك: النار سوداء، وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود؛ ولذا لا يكون في الجنة الأسود إلا الخال، وأشفار العين، والحاجب»[4].

وقد وصفه الله بأنه: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ يعني: ليس باردًا يقيهم الحر، ولا كريم حسن المنظر يتنعمون به ويستريحون فيه، فهو لا بارد كما هو الشأن في الظل، ولا كريم، أي: حسن المظهر؛ لأنه دخان كريه منظره، حار مخبره، نسأل الله العافية.

«وفي الأمور الثلاثة إشارة إلى كونهم في العذاب دائمًا؛ لأنهم إن تعرّضوا لمهب الهواء أصابهم السّموم، وإن استكنّوا كما يفعله الذي يدفع عن نفسه السموم بالاستكنان في الكنّ يكون في ظل من يحموم، وإن أراد التبرّد بالماء من حرّ السموم يكون الماء من حميم، فلا انفكاك له من العذاب».

أو يقال: إن السموم يعذّبه فيعطش، وتلتهب نار السموم في أحشائه، فيشرب الماء، فيقطع أمعاءه، فيريد الاستظلال بظل، فيكون ذلك الظل ظل اليحموم، وذكر السموم دون الحميم ودون النار تنبيهًا بالأدنى على الأعلى، كأنه قيل: أبرد الأشياء في الدنيا حار عندهم، فكيف أحرها؟!»[5].

وكذا قال ابن كثير في قوله: «﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾: أي: ليس طيب الهبوب، ولا حسن المنظر، كما قال الحسن وقتادة: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ١٠/ ٢٠٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٣٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٤.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٢٦٧.
(٥) اللباب في علوم الكتاب ١٥/ ٩٠.

أي: ولا كريم المنظر، وقال الضحاك: كل شراب ليس بعذب فليس بكريم»[(١)].

وقال السعدي: «﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ أي: لا برد فيه ولا كرم، والمقصود: أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه؛ لأن نفي الضد إثبات لضده»[(٢)].

وتأمل كيف سماه ظِلًّا ثم نفى عنه وصفة البرد والكرم! يعني: لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر؛ وذلك لأن فائدة الظل ترجع إلى أمرين:

أحدهما: دفع الحر.

والثاني: حسن المنظر، وكون الإنسان فيه مكرمًا.

وظل أهل النار بخلاف هذا؛ لأنهم في ظل من دخان أسود حار[(٣)]، فتسميته ظلاً هنا على التشبيه التهكمي.

قال ابن عاشور: «ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفي البرد عنه، ونفي الكرم فبرد الظل ما يحصل في مكانه من دفع حرارة الشمس، وكرم الظل ما فيه من الصفات الحسنة في الظلال، مثل سلامته من هبوب السموم عليه، وسلامة الموضع الذي يظله من الحشرات والأوساخ، وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك؛ إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه...، فوصف ظل اليحموم بوصف خاص، وهو انتفاء البرودة عنه، وأُتبعَ بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظلال عنه، ففي الصفة بنفي محاسن الظلال تذكير للسامعين بما حرم منه أصحاب الشمال، عسى أن يحذروا أسباب الوقوع في الحرمان، ولإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظل بالحرارة والمضرة إلى وصفه بنفي البرد، ونفي الكرم»[(٤)].

وهذا الظل ناتج من دخان جهنم، يعذّبون به؛ لأنه وصف الظل بأنه ﴿مِّن يَحْمُومٍ﴾؛ للإشعار بأنه ظل دخان لهب جهنم، والدخان الكثيف له ظل؛ لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس، وإنما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المعد لأصحاب اليمين، في قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحموم، وهذا من قبيل التهكم[(٥)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٥٣٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٨٣٤.
(٣) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٤١.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ٤٢٧١.
(٥) المصدر السابق.

دلالة الظل على قدرة الله وعظمته

ورد ذكر الظل والظلال في العديد من الآيات القرآنية على أنه نعمة على قوم، ونقمة على آخرين، ولعل في التدبر في ظاهرة الظل والظلال -كإحدى الظواهر اليومية التي يراها الإنسان في كل بقعة من بقاع الأرض- إدراكٌ لبعض جوانب قدرة الله وعظمته سبحانه وتعالى وإليك بيان ذلك.

أولًا: سجود الظلال بالغدو والآصال:

بيّن سبحانه وتعالى أن هذا الكون كله خاضع له، وأنه يسجد له أهل السموات والأرض طوعًا وكرهًا، وتسجد له ظلالهم بالغدو والآصال.

فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء؛ ولهذا يسجد له كل شيء طوعًا من المؤمنين، وكرهًا من المشركين، ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ﴾ أي: البكر، ﴿وَالْآصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار»[١].

وقال السعدي: «﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]»[٢].

وقال ابن الأنباري: «لا يبعد أن يخلق تعالى للظلال عقولًا وأفهامًا تسجد بها، وتخشع كما جعل للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيح الله، وظهر اسم التجلي فيها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]»[٣].

وقيل: سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب، وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له؛ لأنه خيال، فلا يمكن منه الإدراك.

قال في اللباب: «وقيل: المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب، وطولها بسبب انحطاط الشمس، وقصرها بسبب ارتفاع الشمس، وهي منقادة مستسلمة في طولها، وقصرها وميلها من جانب إلى جانب، وإنما خص الغدو والآصال بالذكر؛ لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين»[٤].

وذكر الرازي القولين، ثم قال: «وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر؛ لأن الظلال

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٤٤٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٤١٥.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٤١١.

(٤) المصدر السابق.

إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين»[١].

والصواب القول: إن الله جل وعلا قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكًا يسجد به لله تعالى سجودًا حقيقيًّا، والقاعدة المقررة عند علماء الأصول: هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها، إلا بدليل من كتاب أو سنة.

وحاصل القولين السابقين أمران:

أحدهما: أن السجود شرعي، وعليه فهو في أهل السموات والأرض من العام المخصوص.

والثاني: أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع، وعليه فهو باقٍ على عمومه.

والمقرر في الأصول: أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية، وهو التحقيق، خلافًا لمن قال بتقديم اللغوية، ولمن قال: يصير اللفظ مجملًا لاحتمال هذا وذاك، وعقد هذه المسألة صاحب (مراقي السعود) بقوله:

واللفظ محمول على الشرعي، إن لم يكن فمطلق العرفي[٢].

وإليك بعض عبارات المفسرين في سجود الظل:

قال الطبري: «وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

قال: وذلك هو فيئه بالعشي...، وقال ابن عباس: يسجد ظل الكافر حين يفيء عن يمينه وشماله»[٣]. وعن مجاهد: «﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

قال: ظل المؤمن يسجد طوعًا، وهو طائع لله، وظل الكافر يسجد كرهًا، وهو كاره»[٤].

وقال الشوكاني: «﴿وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ وظلالهم جمع ظل، والمراد به ظل الإنسان الذي يتبعه، جعل ساجدًا بسجوده حيث صار لازمًا له لا ينفك عنه...، فظل المؤمن يسجد لله طوعًا، وظل الكافر يسجد لله كرهًا، وخص الغدو والآصال بالذكر؛ لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما، وهما ظرف للسجود المقدر: أي ويسجد ظلالهم في هذين الوقتين...، وجاء بـ﴿مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تغليبًا للعقلاء على غيرهم، ولكون سجود غيرهم تبعًا لسجودهم، ومما يؤيد حمل السجود على الانقياد ما يفيده تقديم (لله) على الفعل من الاختصاص، فإن سجود الكفار لأصنامهم معلوم، ولا ينقادون لهم كانقيادهم لله

(١) مفاتيح الغيب، ٩/ ١٦٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٧٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٦٣٠.

في الأمور التي يقرون على أنفسهم بأنها من الله، كالخلق والحياة والموت ونحو ذلك»[1].

«والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ يعود على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: والله تعالى يخضع له من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا، ويخضع له أيضًا بالغدو والآصال ظلال من له ظل منهم؛ لأن هذه الظلال لازمة لأصحابها، والكل تحت قهره ومشيئته في الامتداد والتقلص والحركة والسكون»[2].

ثانيًا: تفيؤ الظلال عن اليمين والشمائل سجدًا لله:

أخبر تعالى أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال -أي: بكرة وعشيًّا- فإنه ساجد بظله لله تعالى.

فقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى في الآية السابقة عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين، وذات الشمال، أي: بكرة وعشيًا، فإنه ساجد بظله لله تعالى...، إذا زالت الشمس سجد كلّ شيء لله عز وجل، وقوله: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغرون»[3].

وقيل أيضًا: سجود كل شيء فيه، فالجبال: سجودها فيها، وقيل: أمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم[4].

ومعنى قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: تتميّل[5]. وتميل وتدور من جانب إلى جانب، فهي في أول النهار على حال، ثم تتقلص، ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى سجدًا لله، فميلانها ودورانها: سجودها لله عز وجل، ويقال للظل بالعشي: فيء؛ لأنه فاء، أي: رجع من المغرب إلى المشرق، فالفيء الرجوع، والسجود الميل، ويقال: سجدت النخلة إذا مالت[6].

ثالثًا: مد الظل، ثم جعل الشمس عليه دليلًا:

أخبر تعالى أنه بسط الظل ومدّه، وأنه جعله متحركًا تبعًا لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك.

فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ

(١) فتح القدير ٣/ ١٠٥.
(٢) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٢٣٧٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٧٥.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢١٦.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٢.

﴿الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥].

فقوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول، أي: تنظر إلى صنيع ربك جلَّ جلاله. ويجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم[(١)].

﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته أنه مدّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس[(٢)].

أي: بسطه حتى عمّ الأرض، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، في قول الجمهور؛ لأنه ظل ممدود، لا شمس معه ولا ظلمة، فهو شبيه بظل الجنة، وقيل: مدّ ظل الأشياء الشاخصة أول النهار من شجر، أو مدر، أو إنسان، ثم قبضها وردها إلى المشرق[(٣)].

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «من ها هنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾...، وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[(٤)].

وقال الحسن وغيره: «مدّ الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها، والأول أصح، والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة؛ فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد، وتطيب نفوس الأحياء فيها، وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب.

وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا، وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر»[(٥)].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: ثابتًا على حاله في الطول والامتداد، لا يقصر ولا يطول.

فمعنى جعله ساكنًا، أي: جعله دائمًا لا يزول، ممدود لا تذهبه الشمس، ولا تنقصه[(٦)]. فسكونه إما بسكون المظهر له والدليل عليه، وإما بسبب آخر[(٧)].

وقال ابن كثير في معنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾: «أي: دائمًا لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١-٧٢]»[(٨)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٠١.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١١٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٧٥.
(٧) التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ٦٤.
(٨) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ١١٣.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: علامة على وجوده؛ إذ لولا الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرف بأضدادها؛ إذ بضوئها يعرف، والمعنى: ثم جعلنا الشمس علامة يستدلّ بأحوالها على أحواله، ثم تقلّص الظل يسيرًا يسيرًا، فكلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصانه، وذلك من الأدلة على قدرة الله وعظمته، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقال قتادة والسدي: دليلًا يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله»[(١)].

وقال القرطبي رحمه الله: «أي: دللنا الشمس على الظل حتى ذهبت به، أي: أتبعناها إياه، فالشمس دليل، أي: حجة وبرهان، وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه، ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس؛ لأنه في معنى الاسم، كما يقال: الشمس برهان، والشمس حق»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٦].

يعني: الظل، يريد ذلك الظل الممدود.

(١) المصدر السابق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.

وقوله: ﴿إِلَيْنَا﴾ أي: إلى حيث إرادتنا[(٣)].

و﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: يسيرًا قبضه علينا، وكل أمر ربنا عليه يسير[(٤)].

وقيل: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: سريعًا[(٥)].

وقيل: أي: أزلناه بضوء الشمس على مهل، جزءًا فجزءًا حتى ينتهي.

فحسب سنته تعالى ففي خفاء كامل، وسرعة تامة، يقبض الظل نهائيًّا، ويحل محله الظلام الحالك[(٦)].

وعن قتادة: «﴿يَسِيرًا﴾ خفيًا، أي: إذا غابت الشمس قبض الظل قبضًا خفيًا، كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزء من الظلمة، وليس يزول دفعة واحدة»[(٧)].

فيكون معنى: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: على مهل قليلًا قليلًا، حسب ارتفاع دليله، وعلى حسب مصالح المخلوقات ومرافقها[(٨)].

والقبض: جمع المنبسط من الشيء، معناه: أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءًا فجزءًا، ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًّا[(٩)].

وتوالي الظل والشمس على الخلق الذي

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٠١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٥) المصدر السابق.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٦٢٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٧.
(٨) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٣٠١.
(٩) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٨٦.

يشاهدونه عيانًا، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار، وتعاقبهما وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام(١).

يقول ابن القيم وهو يبين دلالة قدرة الله تعالى في هذه الآية: «ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضًا يسيرًا، وهو شيء بعد شيء لم يقبضه جملة، فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته، وكمال حكمته، فندب الرب سبحانه عباده إلى رؤية صنعته وقدرته وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته، ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره، فلم ينتفع به أحد، فإن كان الانتفاع به تابعًا لمدّه وبسطه، وتحوله من مكان إلى مكان، ففي مدّه وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا من المصالح والمنافع ما لا يخفى ولا يحصى، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قبض دفعة واحدة لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمدّ الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس على ما قدّرت عليه من مصالح العالم...

وفي الآية وجه آخر: وهو أنه سبحانه مدّ الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة، ودحا الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنًا مستقرًا في تلك الحال، ثم خلق الشمس ونصبها دليلًا على ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها، وينقص ويمتد ويتقلص، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر: وهو أن يكون المراد: قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه.

وقوله تعالى: ﴿قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا﴾ كأنه يشعر بذلك، وقوله: ﴿قَبۡضٗا يَسِيرٗا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤٤].

وقوله: ﴿قَبَضۡنَٰهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك، كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

والوجه في الآية هو الأول»(٢).

وللرازي في هذا كلام ماتع، ننقله كما جاء، يقول: «ثم إن الناظر إلى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيئًا سوى الجسم وسوى اللون، ونقول: الظل ليس أمرًا ثالثًا، ولا يعرف به إلا إذا طلعت الشمس، ووقع ضوؤها على الجسم زال ذلك الظل، فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجودًا وماهية؛ لأن الأشياء

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٨٤.

(٢) التفسير القيم، ٢/ ٦٤.

إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل، ولولا الظلمة لما عرف النور، فكأنه سبحانه وتعالى لما طلع الشمس على الأرض وزال الظل، فحينئذٍ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون.

فلهذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: خلقنا الظل أولًا بما فيه من المنافع واللذات، ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده، بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلًا على وجود هذه النعمة ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أي: أزلنا الظل لا دفعة، بل يسيرًا يسيرًا، فإنّ كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب.

ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة، بل يسيرًا يسيرًا فكذا زوال الإظلال لا يكون دفعة، بل يسيرًا يسيرًا، ولأن قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح، ولكن قبضها يسيرًا يسيرًا يفيد معه أنواع مصالح العالم، والمراد بالقبض: الإزالة والإعدام، هذا أحد التأويلين»[1].

ووقت قبض الظل: إما عند طلوع الشمس يقبض الظل، وتجمع أجزاؤه المنبسطة بتسليط الشمس عليه حتى تنسخه شيئًا فشيئًا، أو يكون عند غروب الشمس تقبض أجزاء الظل بعد غروبها، ويخلف كل جزء منه جزءًا من الظلام[2].

رابعًا: ظل أهل النار:

تقدم معنا صفات ظل أهل الجنة، وهنا يذكر سبحانه وتعالى صفات ظل أهل النار، فيقول: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤].

ويقول: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].

وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

أما الآية الأولى فقد سبق الكلام عليها.

وأما الآية الثانية فمعناها: أنه يقال للكفار المكذّبين: سيروا إلى عذاب جهنم الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، سيروا فاستظلوا بدخان جهنم الذي يتفرع منه ثلاث قطع، لا يظل ذلك الظل من حر ذلك اليوم، ولا يدفع من حر اللهب شيئًا.

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى مخاطبًا للكفار المكذّبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠].

يعني: لهب النار إذا ارتفع وصعد

---

(١) مفاتيح الغيب، ٢٤/ ٤٦٥.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٩٣.

معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب، ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: ظل الدخان المقابل للهب، لا ظليل هو في نفسه، ولا يغني من اللهب، يعني: ولا يقيهم حر اللهب»[1].

فيقال لهم: ﴿انطَلِقُوٓا﴾ أي: سيروا، وهذا خطاب للمكذّبين في يوم الحشر، فهو مقول قول محذوف، دل عليه صيغة الخطاب بالانطلاق، دون وجود مخاطب يؤمر به الآن، والضمير المقدر مع القول المحذوف عائد إلى المكذبين، أي: يقال للمكذبين، والأمر بانطلاقهم مستعمل في التسخير؛ لأنهم تنطلق بهم ملائكة العذاب قسرًا[2].

والمراد بالظل: دخان جهنم، وسمي بذلك لشدة كثافته[3]، كقوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣].

أو سمي هذا الدخان العظيم الخانق بالظل على سبيل التهكم بهم؛ إذ هم في هذه الحالة يكونون في حاجة شديدة إلى ظل يأوون إلى برده.

وأفرد ﴿ظِلٍّ﴾ هنا؛ لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا متراصين تحته؛ لأن ذلك التراص يزيدهم ألمًا[4].

وصف الظل هنا بأنه ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي: من دخان جهنم، وكذلك شأن الدخان العظيم. فيقال لهم: كونوا فيه إلى أن يفرغ من الحساب، كما يكون أولياء الله تعالى في ظل عرشه.

وقيل: يخرج عنق من النار فيتشعب ثلاث شعب على رءوسهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم[5].

أو شعبة منه عن اليمين، وشعبة عن اليسار، وشعبة من فوق، قال الفخر: «وأقول: هذا غير مستبعد؛ لأن الغضب عن يمينه، والشهوة عن شماله، والقوة الشيطانية في دماغه، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان في عقائده وفي أعماله ليس إلا هذه الثلاثة»[6].

وقيل: إن هذه الآية في عبدة الصليب؛ لأنهم على ثلاث شعب، فيقال لهم: انطلقوا إليه.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نفي عنه أن يظلهم، كما يظل العرش المؤمنين، ونفي أيضًا أن يمنع عنهم اللهب[7].

والشّعب: اسم جمع شعبة، وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أي: ذي ثلاث طوائف، وأريد بها طوائف من الدخان، فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من

(١) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٢٩٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٦.
(٣) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٤٤١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٦/ ٢٠٦.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٧) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٢٧٠.

طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها[1].

وهو كقوله: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

والسرادق: الدخان، دخان النار، فأحاط بهم سرادقها، ثم تفرّق فكان ثلاث شعب، شعبة ها هنا، وشعبة ها هنا، وشعبة ها هنا[2].

ويحتمل في ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ ما ذكره بعد ذلك، وهو أنه غير ظليل، وأنه لا يغنى من اللهب، وبأنه يرمي بشرر[3]، فتكون الثلاث الشعب هو ما فسّره الله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ﴾ أي ثلاث صفات.

وقيل: إن الشّعب الثلاث من الضّريع، والزّقّوم، والغسلين[4]، أو شعبة من النار، وشعبة من الدخان، وشعبة من الزمهرير[5].

ومعنى قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: ليس كالظلّ الذي يقي حر الشمس، وهذا تهكم بهم، وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين، وأنه لا يمنع حر الشمس[6]، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٢) الدر المنثور، السيوطي ٨/ ٣٨٤.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٠.
(٤) المصدر السابق.
(٥) غرائب التفسير، النيسابوري ٢/ ١٢٩٤.
(٦) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٠.

وقوله: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أي: وغير مغنٍ عن حر اللهب شيئًا؛ لعدم البرودة فيه. والإغناء: جعل الغير غنيًّا، أي: غير محتاج في ذلك الغرض، وتعديته بـ﴿مِنَ﴾ على معنى البدلية، أو لتضمينه معنى: يبعد، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

وبذلك سلب عن هذا الظل خصائص الظلال؛ لأن شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر[7].

أما هذا فهو ظل الدخان اللافح الخانق، ظل ساخن لا روح فيه ولا برد.

فيكون سبحانه وتعالى قد وصف هذا الظل بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾.

والصفة الثانية: لذلك الظل قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، المعنى: أن ذلك الظل لا يمنع حر الشمس.

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾، يقال: أغن عني وجهك، أي: أبعده؛ لأن الغني عن الشيء يباعده، كما أن المحتاج يقاربه[8].

وأشار الشنقيطي وهو يتحدث عما حواه القرآن من العلوم، إلى لطيفة من هذه الآية، حيث قال: «وأما الهندسة: ففي قوله:

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٦٧٧.
(٨) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٢٦٥.

﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠-٣١].

فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له»[1].

وهكذا يقول السيوطي في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾: «الآية فيها عنوان علم الهندسة؛ فإن الشكل المثلث أول الأشكال، وإذا نصب في الشمس على أي ضلع من أضلاعه لا يكون له ظل لتحديد رءوس زواياه، فأمر الله تعالى أهل جهنم بالانطلاق إلى ظل هذا الشكل؛ تهكمًا بهم»[2].

وأما ظلل أهل النار التي من فوقهم ومن تحتهم، فقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

أخبر تعالى في هذه الآية بأن لأولئك الخاسرين يوم القيامة في جهنم من فوقهم قطع عذاب من النار، كهيئة الظّلل المبنية، ومن تحتهم كذلك، ذلك العذاب الموصوف يخوّف الله به عباده؛ ليحذروه، يا عباد فاتقوني، بامتثال أوامري، واجتناب معاصيّ، وهو كقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖ﴾[الأعراف: ٤١].

وكقوله: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وهذا يقابل ما أعده الله للمؤمنين، حيث قال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٢٠].

وهذه موعظة من الله بالغة، منطوية على غاية اللطف والرحمة، جعلنا الله من أهلها بمنّه وكرمه.

فجعل للمتقين غرف موصوفة بأنها فوقها غرف، وجعلت للمشركين ظلل من النار، وعطف عليها أن من تحتهم ظللًا؛ للإشارة إلى أن المتقين متنعمون بالتنقل في تلك الغرف، وإلى أن المشركين محبوسون في مكانهم، وأن الظلل من النار من فوقهم، ومن تحتهم لتتظاهر الظلل بتوجيه لفح النار إليهم من جميع جهاتهم[3].

و﴿لَهُم﴾ في قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ خبر الظلل، والضمير للخاسرين، و﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ حال من ﴿ظُلَلٞ﴾.

والظّلل: جمع ظلّة، كغرف جمع غرفة، وهي سحابة تظل كهيئة الصفة، أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم، كهيئة الظلل المبنية من النار.

والمعنى: للخاسرين ظلل من النار كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض، حال كون تلك الظلل من فوقهم، والمراد: طباق وسرادقات من النار ودخانها، وسمى النار ظلة؛ لغلظها

(١) أضواء البيان ١٧/ ٢٠٧.
(٢) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٢٥٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٣٦٨٠.

وكثافتها.

وفيه: إشعار بشدة حالهم في النار، وتهكم بهم؛ لأن الظلة إنما هي الاستظلال والتبرد، فإذا كانت من النار نفسها، كانت أحر، ومن تحتها أغمّ.

ويكون قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفة لـ﴿ظُلَلٌ﴾، والمراد: أن النار محيطة بهم من جميع الجوانب[1]. وتسمية النار بالظّل مجاز، من حيث إنها محيطةٌ بهم من كل جانب...، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥][2].

قال النيسابوري: «أي: أطباق من النار من ظلل الآخرين، فإن لجهنم دركات، كما أن للجنة درجات، وقال المفسرون: سمَّى النار ظلة بغلظها وكثافتها؛ ولأنها تمنع من النظر إلى ما فوقهم، فصارت محيطة بهم من جميع الجوانب، حائلة من النظر إلى شيء آخر»[3].

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ قال في التبيان: «لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل، فالظلل التي فوقهم لهم، والتي تحتهم لغيرهم، ممن تحتهم؛ لأن الظلل إنما تكون من فوق»[4].

وقال الخازن: «فإن قلت: الظلة ما فوق الإنسان، فكيف سمي ما تحته بالظلة؟! قلت: فيه وجوه:

الأول: أنه من باب إطلاق اسم أحد الضدين على الآخر.

الثاني: أن الذي تحته من النار يكون ظلة لآخر تحته في النار؛ لأنها دركات.

الثالث: أن الظلة التحتانية لما كانت مشابهة للظلة الفوقانية في الإيذاء والحرارة سميت باسمها؛ لأجل المماثلة والمشابهة»[5].

ويكون على هذا تسميتها ظللًا من باب المشاكلة، وقيل: هي ظلل لمن تحتهم في طبقة أخرى من طبقات النار، ولا يطرد في أهل الطبقة الأخيرة من هؤلاء الخاسرين؛ إلا أن يقال: إن للشياطين ونحوهم مما لا ذكر لهم هنا، وقيل: إن ما تحتهم يلتهب ويتصاعد منه شيء حتى يكون ظلة، فسمّي ظلة باعتبار ما آل إليه أخيرًا، وليس بذاك، والمراد أن النار محيطة بهم، ذلك العذاب الفظيع[6].

موضوعات ذات صلة

الآيات الكونية، الأرض، السحاب، الشمس، القمر

---

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ١٧٠.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٧٠.
(٣) غرائب التفسير، النيسابوري ٦/ ٣٩٩.
(٤) التبيان تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٣٦٢.
(٥) لباب التأويل، الخازن ٥/ ٣٠٨.
(٦) روح المعاني، الألوسي ٢٣/ ٢٥١.





عناصر الموضوع

المجلد الثاني والعشرون

مفهوم الظلم

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الظلم مشتق من ظلم يظلم مظلمة بفتح اللام وكسرها، وأصله وضع الشيء في غير موضعه»[(١)].

وقيل: هو الجور ومجاوزة الحد والميل عن القصد، والظّلمة: المانعون أهل الحقوق حقوقهم[(٢)].

ومن المجاز (ظلم الأرض) إذا حفرها في غير موضع حفرها، و(ظلم البعير) إذا نحره من غير داء، و(ظلم الوادي ظلمًا) إذا بلغ الماء منه موضعًا لم يكن بلغه قبل، ولا ناله فيما خلا. و(الظلمة) ذهاب النور، ومن المجاز أيضًا (شعرٌ مظلم) أي حالك شديد السواد، و(نبتٌ مظلم) يضرب إلى السواد من خضرته[(٣)].

فالظلم: الميل عن القصد، ووضع الشيء في غير موضعه الذي يختص به، سواء بزيادة أو نقص، أو بعدول عن وقته وزمانه، حسيًّا كان أو معنويًّا[(٤)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عبّر المفسرون عن الظلم في القرآن بمعانٍ متعددة: منها جعل العبادة في غير موضعها اللائق بها، يعني جعلها لغير الله سبحانه، أو التوجه بالعبادة لغير الله سبحانه، ومنها معاملة العباد بغير ما أنزل الله سبحانه، وعدم إعطائهم حقوقهم أو غير ذلك، وإذا تبيّن لك هذا فيمكن الوقوف على تعريف عام يشمل ما سبق هو أن الظلم يعني: الميل عن الصواب ووضع الشيء في غير موضعه الذي يختص به سواء بزيادة أو نقص أو بعدول عن وقته وزمانه حسيًّا كان أو معنويًّا بقصد أو بدون قصد[(٥)]، فمن حاد عن طريق الحق لابد وأن يكون قلبه حالكًا شديد السواد، وقد ذهب نور الإيمان منه؛ لأنه خالف شرع الله سبحانه، وفعل غير ما أراد الله عز وجل. فالمعنى اللغوي والاصطلاحي متفقان تمامًا.

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤٦٩.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٧٧، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٧٣.

(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٣٢.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ٣٢٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٨٣.

الظلم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظ ل م) في القرآن (٣١٥) مرة، يخص موضوع البحث منها (٢٨٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦٥	﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾[هود:١٠١]
الفعل المضارع	٤٥	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[يونس:٤٤]
المصدر	٢٠	﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]
اسم الفاعل	١٣٥	﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء:٨٧]
صيغة المبالغة	٧	﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[إبراهيم:٣٤]
اسم المفعول	١	﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء:٣٣]
أفعل التفضيل	١٦	﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم:٥٢]

وورد الظلم في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويستعمل في الذنب الكبير؛ كالشرك، والذنب الصغير؛ كصغائر الذنوب[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٤-٤٣٩، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٢٩-٧٣٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٢٦-٣٢٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٢٦-٤٢٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥٤٠-٥٤٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ البغي:

البغي لغة:

مصدر بغى يبغي بغيًا، إذا تعدى وظلم[١].

البغي اصطلاحًا:

طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرّى، تجاوزه أم لم يتجاوزه[٢].

الصلة بين الظلم والبغي:

يلاحظ هنا أن القاسم المشترك بين الظلم والبغي هو تجاوز الحد، لكن الظلم دائمًا مذموم، أما البغي فقد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا، وغالب الاستعمال القرآني لهذه المفردة على النوع الثاني، وهو المعنى القريب من معنى الظلم[٣].

٢ الطغيان:

الطغيان لغة:

تجاوز الحدّ في العصيان[٤].

الطغيان اصطلاحًا:

قال القرطبي: «الطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه؛ وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى»[٥].

الصلة بين الظلم والطغيان:

أن الظّلم ضررٌ لا يستحق ولا يعقب عوضًا سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما، وأصله نقصان الحق، أما الطغيان فهو مجاوزة الحد في المكروه مع غلبة وقهر[٦].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٧٧
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ١٣٦.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٧٤.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٤٥.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢٣٠.



٣ الجور:

الجور لغة:

الجيم والواو والرّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الميل عن الطّريق [١].

الجور اصطلاحًا:

قال السيوطي: الجور: الخروج عن الوسط بزيادة أو نقصان [٢]، وقال بعضهم: الجائر من الناس هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع [٣].

الصلة بين الظّلم والجور:

الجور خلاف الاستقامة في الحكم، تقول: جار الحاكم في حكمه والسّلطان في سيرته إذا فارق الاستقامة في ذلك، والظّلم ضرر لا يستحق، ولا يعقب عوضًا، سواء كان من سلطان أو حاكم أو غيرهما، وأصل الظّلم نقصان الحق، والجور العدول عن الحق، و نقيض الظّلم الإنصاف، وهو إعطاء الحق على التّمام، ونقيض الجور العدل، وهو العدول بالفعل إلى الحق [٤].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٢.
(٢) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص ٢٠٧.
(٣) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الإبياري ٨/ ١١٦.
(٤) انظر: معجم الفروق اللغوية، العسكري ٤٩٣.

تنزيه الله سبحانه عن الظلم

نزّه الله سبحانه نفسه عن الظلم في العديد من الآيات القرآنية -المكي منها والمدني-، ونفى أن يظلم سبحانه أحدًا، فكل ما نسب إلى الله سبحانه فهو خير، وإيجاد الله سبحانه للعقوبة على الذنب الذي يقترفه الإنسان لا يعدّ ظلمًا له، بل ذلك عدلٌ منه سبحانه، وقد تبرأ الله عن الظلم بأكثر من صيغة، ومن هذه الصيغ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ثلاث منها مكية، واثنتان مدنيتان، ومن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١].

قال الإمام القاسمي عند تفسيره لها: «ذلك إشارة إلى ما ذكر من الضرب والعذاب بما قدّمت أيديكم، أي: ما كسبتم من الكفر والمعاصي، وأن الله ليس بظلام للعبيد، أي: بأن يأخذهم بلا جرم، فإن قيل ما سر التعبير بـ(ظلام) بالمبالغة مع أن نفي نفس الظلم أبلغ من نفي كثرته، ونفي الكثرة لا ينفي أصله، بل ربما يشعر بوجوده، وبرجوع النفي للقيد.

وأجيب بأجوبة:

منها: أنه نفي لأصل الظلم وكثرته، باعتبار آحاد من ظلم، كأنه قيل: ظالمٌ لفلان ولفلان وهلم جرًّا، فلما جمع هؤلاء عدل إلى (ظلام) لذلك، أي لكثرة الكمية فيه.

ومنها: أنه إذا انتفى الظلم الكثير انتفى الظلم القليل، لأن من يظلم، يظلم للانتفاع بالظلم، فإذا ترك كثيره مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركًا.

ومنها: أن (ظلامًا) للنسب أي لا ينسب إليه الظلم أصلًا.

ومنها: أن كل صفة له تعالى في أكمل المراتب، فلو كان تعالى ظالمًا، كان ظلامًا، فنفى اللازم لنفي الملزوم.

ومنها: أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذّب بمثله ظلامًا بليغ الظلم متفاقمه.

فالمراد تنزيهه تعالى، وهو جدير بالمبالغة.

وأيضًا لو عذّب تعالى عبيده بدون استحقاق وسبب لكان ظلمًا عظيمًا لصدوره عن العدل الرحيم. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول: (إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)»[(١)][(٢)].

يتبين مما سبق أن جميع الأجوبة السابقة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٩٩٤.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٣٠٩.

تتناسب مع السر وراء التعبير بـ(ظلَّام) بالمبالغة.

ومن الصيغ التي ورد فيها نفي الظلم عن الله سبحانه في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ حيث إنها وردت في ثلاثة مواضع، ومن الأمثلة ما ورد عند قوله تعالى: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

قال الطبري: «وما أهلك الله هذه الأحزاب من هذه الأمم ظلمًا منه بغير جرمٍ اجترموه بينهم وبينه؛ لأنه لا يريد ظلم عباده ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم وخلافهم أمره»[(١)].

كما ورد نفي الظلم عن الله سبحانه في القرآن الكريم بصيغة (وما ظلمهم الله) قال الزحيلي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣].

«أي: إن ما وقع بهم من العذاب لم يكن بظلم من الله؛ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به، فعوقبوا وجوزوا بسوء عملهم، وأحاط بهم العذاب الأليم بما كانوا به يستهزءون أي يسخرون من الرسل حيث توعدوهم بعقاب الله»[(٢)].

وورد نفي الظلم عن الله سبحانه في القرآن الكريم بصيغة ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، وقال الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

«وقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ يقول جل ثناؤه: فما أهلك الله هذه الأمم التي ذكر أنه أهلكها إلا بإجرامها وظلمها أنفسها، واستحقاقها من الله عظيم العقاب، لا ظلمًا من الله لهم، ولا وضعًا منه جل ثناؤه عقوبة من غير من هو لها أهل؛ لأن الله حكيم لا خلل في تدبيره، ولا خطأ في تقديره، ولكن القوم الذين أهلكهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله، حتى أسخطوا عليهم ربهم فحقت عليهم كلمة العذاب فعذبوا»[(٣)].

يتضح من الأمثلة السابقة أن الله سبحانه قد نفى الظلم عن نفسه بأكثر من صيغة، وهذا يدل على أن الله سبحانه عدلٌ لا يظلم

(١) جامع البيان ٢١/ ٣٧٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٣٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٦.

أحدًا من مخلوقاته.

قال ابن القيم: «وقد اتفق أهل الأرض والسماوات على أن الله عدلٌ لا يظلم أحدًا حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرون له بالعدل، ومنزهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم معترفون بعدله كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١١].

وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فهو سبحانه قد حرّم الظلم على نفسه، وأخبر أنه لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون»[(١)].

الظلم طبيعة إنسانية

كرّم الله سبحانه الإنسان على كثير من مخلوقاته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وخلقه سبحانه في أحسن صورة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وميّزه بالعقل، وهداه إلى اختيار طريق الخير أو الشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

كما يمتاز الإنسان عن غيره من المخلوقات بالطبيعة الهادية له إلى الخير والتوحيد، فهو مؤمن بالله بطبيعته التي خلق عليها، وعهد الله سبحانه إليه قبل أن يخلق بشرًا سويًا.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فاتجاهه وميوله الداخلية تتجه إلى الإيمان والتوحيد بالله عز وجل.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة ص٢٣١.

ورغم كل هذا فقد ذكر الله سبحانه في القرآن الكريم طبائع ذميمة تتنافى مع طبيعة الإنسان التي فطر الله الناس عليها، والتي منها الظلم الذي أكد القرآن الكريم وجوده في الطبيعة الإنسانية.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

يقول الطبري: «إن الإنسان الذي بدّل نعمة الله كفرًا لظلوم، أي: لشاكر غير من أنعم عليه، فهو بذلك من فعله واضع الشكر في غير موضعه، وذلك أن الله هو الذي أنعم عليه بما أنعم، واستحق عليه إخلاص العبادة له فعبد غيره، وجعل له أندادًا ليضل عن سبيله، وذلك ظلمه»[(١)].

وقال السعدي في تفسيره للآية نفسها: «أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرئ على المعاصي مقصّر في حقوق ربه، كفارٌ لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه الله فشكر نعمه وعرف حق ربه وقام به»[(٢)].

كما ورد في القرآن الكريم سبع آيات ختمت فاصلتها بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وقال السعدي عند تفسيره لأحد هذه الفواصل القرآنية: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

أي: «وما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوها حقها التي هي بصدده، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم ينفعوها»[(٣)].

يتبين مما سبق: أن الظلم طبيعة في النفس البشرية، قد يظهر ويترعرع إذا وجد بيئة شيطانية ملائمة له، وقد ينقلب هذا الظلم إلى عدل إذا حدث العكس، وهو وجود بيئة إيمانية تطبق تعاليم الإسلام، وتسير على خطى الرسول صلى الله عليه وسلم، وحاكم يعين المظلوم على استرداد حقه من الظالم، وقد أكد ذلك أبو بكر رضي الله عنه بقوله: «ألا إن القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق، والضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق»[(٤)].

ويقول ابن خلدون في هذا السياق: «إن الطبيعة البشرية قد فطرت على الظلم

(١) جامع البيان ١٧/ ١٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٤٢٦.
(٣) المصدر السابق ٦٣١.
(٤) أخرجه البيهقي في سننه، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء، باب ما يكون للوالي، رقم ١٣٠٠٩، ٦/ ٥٧٤.

والعدوان، فيحاول كلٌّ أن يعتدي على أخيه، وأن ينتزع منه ما في يده، فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة والهرج وسفك الدماء؛ ولذلك استحال بقاء الجماعة فوضى دون حاكم يدفع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجلِ ذلك إلى الوازع، وهو واحدٌ منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحدٌ إلى غيره بعدوان»[(١)].

(١) تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٣٥.

أنواع الظلم

حذّر الشارع من الظلم ونهى عنه أشد النهي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**)[(٢)].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: (**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**)[(٣)].

وللظلم أنواع كثيرة في واقع الناس، وحقيقتها تعود إلى نوعين:

الأول: ظلم النفس:

فالإنسان يظلم نفسه، ويضع الأمور في غير موضعها، وله صور كثيرة، منها:

١ . ظلم الشرك.

فالشرك بالله أشد الظلم وأخطره؛ لأنه تجاوز للحد مع الله تعالى، إذ أمر الله الإنسان بتوحيده، لكن المشرك يتخذ معه شريكًا، وفي ذلك إرجاع الفضل لغير صاحبه، ولأنه يؤدي بصاحبه إلى الخلود في جهنم إن مات على الشرك، فيكون قد ظلم نفسه وأوردها المهالك؛ لذلك ابتدأ لقمان الحكيم وصاياه لابنه بعدم الشرك بالله؛ لأنه

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٨، ٤/ ١٩٩٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧، ٤/ ١٩٩٤.

رأس كل فتنة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

يقوم الشرك على مجرد التعصب للهوى، وتغليب المصلحة الفانية على الأخرى الباقية، ولا يقوم على أي دليل مقنع، وهو ظلم للنفس وللآخرين معًا، كما أنه انتقاص لحق الله سبحانه في التوحيد، وعدم تنزيهه عن مشابهة الخلق في حاجتهم إلى الشريك والمعين، لذلك توعّد الله سبحانه هؤلاء بشديد العقاب في الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

فالشرك أعظم أنواع الظلم، ولهذا كان جزاء صاحبه أن يخلد في النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومن الشرك: التقرّب إلى الموتى وأصحاب القبور من الأولياء والصالحين وغيرهم، وذلك بدعائهم والاستغاثة بهم، والذبح والنذر لهم، والطواف بقبورهم، والحلف بهم تعظيمًا لهم، واعتقاد النفع والضر فيهم، وأن لهم تصرفًا في هذا الكون، وقدرة على الدفع والرفع والضر والنفع والعطاء والمنع.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦][(١)].

٢. ظلم الكفر.

الكفر ظلمٌ أكبر يخرج من الملة، ويوجب الخلود في النار، ويحبط جميع الأعمال، ولا يغفره الله سبحانه إلا بالتوبة.

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

٣. ظلم النفاق.

النفاق الأكبر مخرج من الملة، وهو الذي يتعلق بالاعتقاد؛ كأن يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو أن يأتي الشخص بمكفِّرٍ من المكفرات كاستهزائه بالشريعة أو استهزائه بالرسول صلى الله عليه وسلم، أو استهزائه بالصحابة رضي الله عنهم، فهذا نفاق أكبر يخرج صاحبه من دين الإسلام وإن صلى وصام، وزعم أنه مسلم.

ومما يؤكد هذا النوع قوله تعالى:

(١) انظر: بيان حقيقة التوحيد، صالح الفوزان ص٤٥.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١][1].

٤. ظلم التعدي على حدود الله، واقتراف الكبائر.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومن ذلك: الصد عن مساجد الله سبحانه أن يذكر فيها اسمه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

ومن ذلك أيضًا كتم الشهادة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وكذلك الكذب على الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومعناه: اختلاق القول على الله تعالى، وتقوّل الأقوال عنه بإيرادها ابتداءً، أو بالتبديل والتحريف فيها[2].

الثاني: ظلم الغير:

وله صور كثيرة ومتنوعة، وهي منتشرة بصورة كبيرة في مجتمعاتنا، وقد عرض القرآن الكريم لنماذج متعددة، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. ظلم العباد بعضهم لبعض.

ويندرج تحته عدة أمور، منها:

الغيبة والنميمة والسباب والشتم والاحتقار والتنابز بالألقاب والاستهزاء والقذف ونحو ذلك مما تناولته سورة الحجرات.

وشهادة الزور، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر.. ألا وقول الزور)**[3].

وقتل النفس بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣].

أخذ أرض الغير أو شيء منها بغير وجه

(١) انظر: المصدر السابق ص ٢٥.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ٩٧٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في الكبائر، رقم ٨٧، ١/ ٩١.

حق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين)[1].

وأكل أموال الناس بالباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

والتعامل بالربا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١].

والغش في المعاملات، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا)[2].

ومماطلة من له حق عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مطل الغنى ظلم)[3][4].

٢. الظلم الواقع بين الأرحام.

عقوق الوالدين: يعدّ عقوق الوالدين من صور الظلم الاجتماعي، وقد أمر الإسلام بالإحسان إلى الوالدين، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

لكن هناك من يخالف شرع الله ويعقّ والديه، وقد ظهر العقوق بأشكال متنوعة، منها: أن يسبّ الرجل والديه، وقد بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)، قيل: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: (يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه)[5].

ومن صوره: منع النفقة عن الآباء، رغم حاجة الآباء إلى النفقة مع قدرة الأبناء، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهم قال، قال صلى الله عليه وسلم: (أنت ومالك لأبيك)[6].

ومنه: ميل الوالد لبعض أولاده، ويكون ذلك بعدم العدل بينهم في الهدية والعطية؛ وبالتالي فإن هذا يؤدي إلى العقوق، وكراهية بعضهم لبعض، ودافع للعداوة بين الإخوة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا، رقم ١٦١٠، ٣/ ١٢٣٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، رقم ١٠١، ١/ ٩٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحوالات، باب الحوالة وهل يرجع في الحوالة، رقم ٢٢٨٧، ٣/ ٩٤.

(٤) انظر: مفاتح الغيب، الرازي ١/ ٢٢٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، رقم ٥٩٧٣، ٨/ ٣.

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب مال الرجل من مال والده، رقم ٢٢٩٢، ٢/ ٧٦٩.

وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن ابن ماجة ٥/ ٢٩١، رقم٢٢٩١.

وقد روي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أمه بنت رواحة سألت أباه بعض الموهوبة من ماله لابنها، فالتوى بها سنة، ثم بدا له، فقالت: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما وهبت لابني، فأخذ أبي بيدي وأنا غلام فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: إن أم هذا بنت رواحة أعجبها أن أشهدك على الذي وهبت لابنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا بشير ألك ولد سوى هذا؟ قال: نعم، فقال: أكلهم وهبت له مثل هذا؟ قال: لا، قال: فلا تشهدني إذًا فإني لا أشهد على جور)[(١)].

وأكل حقوق النساء في الميراث، فقد جاء الإسلام ليبطل ما فيه ظلم وجور من توريث الأبناء دون البنات في الجاهلية، وحدد لكل مستحق من التركة حقه.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

والمتأمل في الواقع يجد أن أكثر ذلك الظلم يقع على الأخوات من أقرب الناس إليهن، وهم إخوتهن، وكثيرًا ما نسمع ونرى من المشاكل التي أدت إلى قطع الأرحام والعداوات بين الأقارب، والتي كان سببها تعطيل قسمة الفرائض والجور فيها، وقسمتها على غير ما أمر الله سبحانه.

ومنه أيضًا قطيعة الرحم، وقد فشى في مجتمعات المسلمين، ومن أخطرها من لا يعرف الناس قرابته بصلة، ولا بمال ولا بأي شيء، تمضي الشهور وربما الأعوام وما قام بزيارتهم، ولا تودد إليهم بصلة أو هدية، ولا دفع عنهم حاجة أو أذية، بل ربما أساء إليهم بالقول أو الفعل أو بهما معًا، وقد قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة قاطع)[(٢)(٣)].

والحاصل أن الظلم الاجتماعي له صورٌ متعددة ذكرنا بعضًا منها، والواجب على المسلم أن يحاسب نفسه، ويتأمل تعاملاته مع أقربائه وجيرانه وزملائه، ويجب أن يعلم أن حبه لأحد لا يقتضي الغلو والمبالغة فيه وعدم نصحه، كما أن بغضه أو عدم ارتياحه لأحدٍ لا يسوّغ له ظلمه، أو التعدي عليه، أو ترك ما يجب له من التكريم والصلة، وهذا هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وأمر به الشرع، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب العدل بين الأولاد في العطاء، رقم ١٦٢٣،٣/ ١٢٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم ٥٩٨٤، ٨/ ٥.

(٣) انظر: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ٢/ ٧٣٢.

أسباب الظلم

للظلم أسباب كثيرة ومتعددة، تؤدي إليه، وتوقع الإنسان به، وبيان هذه الأسباب متمثلة في المطالب الآتية:

أولًا: الكفر:

إن الكفر بنعم الله سبحانه وجحودها من أبرز أسباب الظلم، وقد أكد ذلك القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

قال الطبري في تفسيرها: «فإنه يعني تعالى ذكره بذلك والجاحدون لله المكذبون به وبرسله هم الظالمون، يقول: هم الواضعون جحودهم في غير موضعه، والفاعلون غير ما لهم فعله، والقائلون ما ليس لهم قوله»(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون؛ لأن معنى الآية أن كل كافر ظالم، وليس كل ظالم كافرًا.

ولو قال: (الظالمون هم الكافرون) لكان قد حكم على كل ظالم -وهو من يضع الشيء في غير موضعه- بالكفر(٢).

(١) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٨٤.
(٢) انظر: الوسيط، الزحيلي ١/ ١٤٥.

ثانيًا: اتباع الهوى واتباع الظن:

الظلم ليس وليد نفسه، بل له منابع وأسباب، ومن هذه الأسباب: تسلّط الأهواء والغرائز على الظالمين حكامًا أو محكومين، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩].

ومعنى الآية: أن أولئك الظالمين اتبعوا أهواءهم جهلًا منهم لحق الله عليهم، فأشركوا الآلهة والأوثان في عبادته، ولو قلّبوا وجوه الرأي، واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق، ووصلوا إلى الرشد، ولكن أنى لهم ذلك(٣).

ثالثًا: الاستكبار والترف:

من الناس من ينعم الله سبحانه عليه بالنعم الكثيرة، ولكنه لا يدرك قدرها، فيستخدمها في غير ما خلقت له، ومثال ذلك: نعمة الصحة والمال، فيتكبّر ويتجبّر، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦- ٧].

ومعنى ذلك: أن أمر هذا الإنسان عجيب، فإنه متى أحس من نفسه قدرة وثروة خرج من الحد الذي يجب أن يكون عليه، واستكبر عن الخشوع لربه، وتطاول بأذى الناس، وعدّ نفسه فوقهم جميعًا، وقد كان من حقه أن يكون وإياهم أعضاء

(٣) انظر: تفسير المراغي ٢١/ ٤٤.

أسرة واحدة، يتعاونون في السراء والضراء، ويحب الخير لهم كما يحبه لنفسه[(١)].

ومن الأمثلة التي ساقها القرآن الكريم عن أولئك الذين طغوا بسبب النعم: قصة النمرود بن كنعان، الذي أعطاه الله الملك ثم بعد ذلك ادعى الربوبية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وكذلك فرعون الذي آتاه الله الملك والسلطان فكان ذلك سببًا لادعاء الربوبية.

قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ١٧-٢٤].

رابعًا: الحسد:

إن الحسد من الأسباب المؤدية إلى الظلم، فهو الذي أخرج إبليس -لعنه الله- من رحمة ربه، حيث حسد آدم على مكانته عند ربه، فامتنع عن السجود تكبرًا وعصيانًا لأمر الله سبحانه عندما أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا إلا إبليس استكبر.

وقال الله عنه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وبالحسد سفك أول دم حرام على وجه الأرض، حيث حسد ابن آدم قابيل أخاه هابيل؛ لأن الله سبحانه تقبّل قربان هابيل الذي قدمه؛ لأنه طيب، ومن نفس طيبة، أما قابيل فلم يقبل منه؛ لأنه أسوأ حالة، ولم يجد بها إلا مكرهًا، وكانت علامة القبول نزول نار فتحرق المقبول، وتترك الذي لم يقبل، فحسد قابيل أخاه فقتله، فأصبح من الخاسرين، وكان عليه وعلى الشيطان كفلٌ من يقتل ظلمًا إلى يوم القيامة[(٢)].

خامسًا: الولاء للأعداء:

حذر القرآن الكريم من موالاة الظالمين ومساندتهم بأي صورة كانت.

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومعنى الآية: أنه يجب عليكم أيها المؤمنون ألا تستندوا إلى الذين ظلموا، وهم المشركون وغيرهم، فتجعلوهم ركنًا لكم تعتمدون عليه، فتقرونهم على ظلمهم، وتوالوهم في شئونكم الحربية وأعمالكم الدينية، فإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، وخلاصة ذلك لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضيتم على أعمالهم، فإن فعلتم ذلك أصابتكم النار التي هي جزاء الظالمين، بسبب ركونكم إليهم، والاغترار بهم،

---

(١) انظر: المصدر السابق ٣٠/ ٢٠٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٠٦.

والاعتماد عليهم، والركون إلى الظلم وأهله ظلم[١].

كما أكد القرآن على عدم موالاة الكافرين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم بطانة وأصدقاء، تفشون إليهم أسراركم، وتطلعونهم على عورة الإسلام وأهله، وتؤثرون المكث بين أظهرهم على الهجرة إلى دار الإسلام ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، يقول: إن اختاروا الكفر بالله، على التصديق به والإقرار بتوحيده ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يقول: ومن يتخذهم منكم بطانة من دون المؤمنين، ويؤثر المقام معهم على الهجرة إلى رسول الله ودار الإسلام ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يقول: فالذين يفعلون ذلك منكم، هم الذين خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره»[٢].

كما حذّر القرآن الكريم من موالاة اليهود والنصارى؛ لأن في موالاتهم نصرة لهم على الدين وأهله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

سادسًا: ترك التوبة:

إن من يفعل المعاصي ويستمر في فعلها دون الرجوع إلى الله سبحانه والإنابة إليه، يستمرئ هذه المعاصي، ويزيد فيها حتى تصبح ديدنه، فلا زاجر له ولا رادع، ويكون قد ظلم نفسه وغيره؛ لأن التوبة تعتبر رادعًا للظالم عن ظلمه، وقد حذّر القرآن الكريم من عدم التوبة للعاصي، ووسم من يفعل ذلك بالظلم، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ومعنى ذلك: أن من لم يتب من شروره ومعاصيه فهو ظالم؛ لأنه ظلم الناس بالاعتداء عليهم، وظلم نفسه بأنه رضي لها عقوبة الآخرة مع التمكن من الإقلاع عن ذلك، فكان ظلمه شديدًا جدًّا؛ لذلك جيء له بصيغة قصر الظالمين عليهم، كأنه لا ظالم غيرهم، لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا[٣].

فالتوبة واجبة من كل ذنب، وكل من تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله سبحانه يقبل

---

(١) انظر: تفسير المراغي ١٢/ ٩٣.
(٢) جامع البيان ١٤/ ١٧٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٥٠.

توبته، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

وقد وردت هذه الفاصلة القرآنية بعد الحديث عن عقوبة السارق، وبيّنت أن من تاب من بعد سرقته، وأناب إلى الله سبحانه، ورجع عن فعلته، ورد أموال الناس، وأصلح نفسه، وزكاها بأعمال التقوى والبر، وكانت توبته بنية صادقة، مع العزم على ترك العود، فإن الله يقبل توبته، فلا يعذبه في الآخرة[1].

سابعًا: اتباع الشهوات:

إن حرمات الله سبحانه هي جميع ما حرّم الله سبحانه من حقوق الخالق وحقوق المخلوقين من أشخاص وأزمان وأمكنة، وقد حذّرنا الله سبحانه في أكثر من آية من انتهاك حرماته والتعدي عليها، وجعل ذلك من أكبر الكبائر، واعتبر كل من ينتهك حرمات الله سبحانه ظالمًا، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قال الطبري في تفسيرها: «يعني تعالى ذكره تلك معالم فصوله بين ما أحل لكم وما حرم عليكم أيها الناس، فلا تعتدوا ما أحل لكم من الأمور التي بينها وفصّلها لكم من الحلال إلى ما حرم عليكم، فتتجاوزوا طاعته إلى معصيته»[2].

ومما يؤدي إلى انتهاك حرمات الله سبحانه اتباع الشهوات قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فمتّبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم وينهمكون فيها، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة، أما اللذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره، لا اتباع شهواتهم، ولا الجري وراء لذاتهم[3]، لذا لابد من تقوى الله سبحانه والابتعاد عن انتهاك حرماته؛ لأن ذلك من أسباب الظلم المؤدية إلى نار جهنم.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٨٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٥٨٣.

(٣) انظر: تفسير المراغي ٥/ ١٤.

سبل الوقاية من الظلم وطرق العلاج

أولًا: سبل الوقاية من الظلم:

إن الوقاية من الظلم لها سبل متعددة، تؤدي إلى تحقق هذه الوقاية، فإن أخذنا بها اتقينا الظلم، ومن هذه السبل ما يأتي:

١ . إشاعة العدل في كل شيء.

يعدّ العدل من العوامل الرئيسة والآداب السامية التي تؤدي إلى الوقاية من الظلم والطغيان، وذلك بنشر العدل بين الناس وعدم التفريق بينهم، فالمظلوم أو المقهور إن لم يستطع نيل حقه بالطرق المشروعة فقد يعلن عن غضبه بقيامه برد الظلم بمثله، ومن هنا ينتشر الظلم المضاد، لذلك كان أمر الله سبحانه بالعدل صريحًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

قال ابن كثير: «فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم بل الزموا العدل على أي حال»[١].

٢ . صيانة الروابط الاجتماعية من عوامل البغضاء والشحناء.

تحتل الروابط الاجتماعية مكانة مهمة في الإسلام، ولهذا سعى الإسلام إلى العمل على صيانتها، ومعالجة العوامل التي تهدد تماسكها وترابطها، وتقود إلى الشقاق والمنازعات والعداوة والبغضاء، ومن أهم هذه العوامل التي تؤثر سلبًا في العلاقات الاجتماعية: الإشاعة، وهي بث الأخبار بقصد الإفساد بشكل مباشر أو غير مباشر، ولهذا وضع الإسلام منهاجًا خاصًّا لتلقي الأخبار، وذلك لأن الشائعات تفسد بين القلوب، وتحدث الفوضى، وقد تكون سببًا في حدوث كوارث ونكبات في المجتمع بين أفراده.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

قال الشوكاني: «والمراد من التبين التعرف والتفحص والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر»[٢].

٣ . التحكم في الغضب الذي يدفع الناس إلى الظلم.

وجّه الإسلام إلى عدم الغضب، والبعد عن أسبابه، لما له من آثار سلبية على علاقة

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٣٣.
(٢) فتح القدير ٥/ ٧١.

الناس بعضهم ببعض، ولما يسببه من شحناء وبغض قد يكون سببًا في انتشار الظلم في المجتمع، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

فمن أجاب داعي الغيظ وتوجه بعزيمة إلى الانتقام لا يقف عند حد الاعتدال، ولا يكتفي بالحق، بل يتجاوزه إلى البغي، ومن ثم كان من التقوى كظمه[(١)].

٤. الإنكار على الظالم ومنعه من الظلم.

إذا كان الظلم سببًا في هلاك الأمة، فمن الواجب شرعًا الإنكار على الظالم، ومنعه من الظلم، وعدم السكوت عن ظلمه.

عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[(٢)].

أي: إذا لم تمنعوه من ظلمه مع القدرة على منعه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه، ومن الواضح أن الظالم يجب منعه من الظلم والإنكار عليه، ويشمل ذلك الحاكم وغيره من الظلمة.

٥. عدم الركون إلى الظالمين.

وهذا سبيل من سبل الوقاية من الوقوع في الظلم، أو شيوعه وانتشاره، وما يترتب على ذلك من العقاب أو الهلاك بالأمة، وهو عدم الركون إلى الذين ظلموا بأي نوع من أنواع الركون إليهم، حتى يعجزوا أو يضعفوا عن ارتكاب الظلم، لا سيما الحكام الظلمة؛ لأنهم لا يرتكبون المظالم إلا بأعوانهم، وبسكوت أهل الحق عنهم، أو بركونهم إليهم.

قال تعالى محذِّرًا من الركون إلى الذين ظلموا: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومعنى الآية: لا تميلوا إلى قول هؤلاء الذين كفروا بالله فتقبلوا منهم، وترضوا أعمالهم، فتمسكم النار بفعلكم ذلك[(٣)].

وقال الزمخشري: «والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم في مجالسهم، وزيارتهم ومهادنتهم والرضا بأعمالهم والتشبه بهم، والتزيي بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم،

(١) انظر: تفسير المراغي ٤/ ٧١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، رقم ٣٠٥٧، ٥/ ٢٥٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٠٠.

وذكرهم بما فيه تعظيم لهم»[1].

٦. عدم إعانة الظالم على ظلمه.

إن أعوان الظالم هم ظلمة مثله، فلا يجوز إعانة الظالم؛ لأنه إذا كان الركون بجميع أشكاله وأنواعه لا يجوز، فما يكون فيه إعانة للظالم أولى أن لا يجوز، والواقع أن الحاكم الظالم إنما يتمكن من ظلمه بمعاونة أعوانه وأتباعه، وليس بنفسه فقط، فالمعاونة له بأي شكل من أشكالها لا تجوز، لأنها تقوية له ومساعدة له لتنفيذ ظلمه، ولهذا إذا نزل العذاب بالحاكم الظالم نزل بأعوانه أيضًا، لأنهم مثله ظالمون، كما حصل لفرعون وأعوانه.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

أي جمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعًا في البحر[2].

ثانيًا: طرق علاج الظلم:

إن علاج الظلم له طرق ووسائل متعددة، تؤدي إلى علاجه، فإن أخذنا بها فقد عالجنا هذا المرض العضال، ومن هذه الطرق والوسائل ما يأتي:

(١) الكشاف ٣/ ٤٣٥.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٠/ ٦١.
وانظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص١٢٠.

١. معايشة القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وذلك لأن القرآن أسهب في الحديث عن الظلم والظالمين، وبيّن جرائمهم وعواقب هذه الجرائم، وكذلك سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم، وحسبنا أن الرسل والرسالات كانت من أجل رفع الظلم عن المظلومين، أو مداواة الظالمين أو تخويفهم عاقبة ظلمهم، وإقامة الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

معنى ذلك: أن كثيرًا من أهل القرى أهلكناهم بكفرهم بالله وتكذيبهم رسله، ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أممًا أخرى سواهم[3].

٢. التوبة النصوح.

وذلك بالإقلاع الفوري عن الظلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٤٣.

وقد أمر الله سبحانه بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات، والفوز والفلاح حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه ويتمتعون بروحه وراحته، والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله[1].

وشروط التوبة أربعة:

١. الإقلاع عن الذنب.

٢. الندم على ما مضى.

٣. العزم على ألا يعود إليه.

٤. رد الحقوق إلى أهلها[2].

٣. التذكير بعواقب وآثار الظلم وأخذ العبرة والعظة.

إن تذكير الظالمين بعواقب وآثار الظلم قد يؤدي إلى رجوعهم عن ظلمهم، وقد حث القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومعنى الآية: أن الله سبحانه أمر بني إسرائيل أن يعظّموه ويحترموه ولا يصيدوا يوم السبت صيدًا فابتلاهم الله وامتحنهم، وانقسموا في ذلك ثلاث فرق، معظمهم اعتدوا وتجرؤوا على مخالفة أمر الله تعالى، وفرقة أنكرت عليهم ونهتهم عن ذلك، وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا لهم: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيحة، بل استمر في اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله إما بإهلاك أو عذاب شديد، فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم لنعذر فيهم، ولعلهم يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما أثر فيهم هذا الوعظ واللوم، وهذا هو المقصود الأعظم من إنكار المنكر، ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي[3].

٤. تربية ملكة المراقبة لله في السر والعلن.

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

والمراد: أن الذي يخاف ربه، ويقوم على أوامره فيترك ما نهى عنه، ويفعل ما يؤمر، له جنتان من ذهب، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهيات، والأخرى على فعل الطاعات[4].

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٤.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٨/ ٢٧٧.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٦.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٨٣١.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

٥. الدعاء.

وهو أهم علاجٍ في رفع الظلم، وهو الباب الواسع الذي لا يقفل، فلا بد للمظلوم أن يلتجئ إلى الله بالدعاء والدعوة على الظالم؛ إذ ليس بينها وبين الله سبحانه حجاب، وقد وعد الله سبحانه له بنصرها عاجلًا أو آجلًا.

قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

يقول ابن كثير في تفسير الآية: «أي إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك»[١].

فالدعاء سلاح يقصم به الله ظهر المتجبّرين، ويزلزل به عروش المتعالين، وينسف به صولة المتطاولين، ولكن إذا تأخرت إجابة دعوة المظلوم فما هي إلا فرصة متاحة للظالم لكي يراجع نفسه، ويحاسبها على فعلته هذه، حتى يعيد للمظلوم حقه، ويعتذر إليه عما بدر منه، ويتوب إلى الله من هذا العمل.

آثار الظلم وعاقبته في الدنيا

إن للظلم آثارًا وعواقب تعصف بالمجتمع، وتجلب له ما يسؤوه في جميع الميادين، وتظهر تلك الآثار السلبية من خلال ما يأتي:

أولًا: ذهاب الأمن.

حيث إن الظالم يعيش ليله ونهاره بخوف وقلق دائم خوفًا من انتقام المظلومين، فيعمل على تأمين نفسه خوفًا من بطشهم، وهو جاهل بأن العدل هو الذي يجلب الأمن لا الظلم، وقد أكد ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد جاء لفظ (بظلم) نكرة في سياق النفي بـ(لم) وفي ذلك دلالة على أنها تعم جميع أنواع الظلم، فكل من كان مبتعدًا عن الظلم فله نصيب من هذه العاقبة، وهي الأمن والاهتداء، فإذا كان العبد ممن يخلط ظلمًا بصلاحٍ وعدلٍ، كان الأمن عنده في داخله، أو في مجتمعه بقدر انتفاء الظلم، ولهذا كلما كثرت الكبائر والخبث ومخالفة دين الله سبحانه، كلما انتزع الأمن من العباد[٢].

ثانيًا: الجدب والقحط.

وهذا ما بيّنته سورة النحل عند قوله

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٧٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧ ٣٣٣.

تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

يقول الزحيلي: «ذكر الله صفة قرية للعبرة، كانت بأهلها آمنة من العدو، مطمئنة لا يزعجها خوف، يأتيها رزقها الوافر رغدًا: أي: هنيئًا سهلًا واسعًا من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، (أي: جحدوا) بها، فعمهم الله بالخوف والجوع، وبدلوا بأمنهم خوفًا، وبغناهم فقرًا، وبسرورهم ألمًا وحزنًا، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته بسبب أفعالهم المنكرة، وجاءهم رسولٌ من جنسهم فكذبوه فيما أخبرهم به، مع أنه رسولٌ إليهم، مبلّغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه، ويشكروه على النعمة، وتمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذّبوا بعذاب الاستئصال الشامل حال كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسل، متلبسين بالظلم وهو الكفر والمعاصي، وما ظلمهم الله أبدًا»[(١)].

ثالثًا: الحرمان من الهداية والفلاح واستحقاق اللعنة.

بيّن القرآن أن الظالمين لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة، ولا تتخلّف سنة الله عنهم، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

ومعنى الآية: أن الله سبحانه لا يرشد للصواب، ويوفق للإيمان قومًا جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد تصديقهم إياه، وإقرارهم بما جاء به من عند ربه، وبعد أن أقروا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى خلقه حقًّا، وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بصحة ذلك، والله لا يوفق للحق والصواب كل الظلمة، الذين بدّلوا الحق إلى الباطل، فاختاروا الكفر على الإيمان[(٢)].

رابعًا: تحريم الطيبات.

إن حياة الظالمين تنقلب من السعة والطمأنينة، والأمن إلى الضيق والخوف، والهلع والجزع والقلق، ولم يحدث هذا إلا بسبب ظلمهم، وقد بيّن القرآن الكريم نماذج للاعتبار.

ومن ذلك: ما حصل مع اليهود حيث قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا

(١) التفسير المنير ١٤/ ٢٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ٥٧٦.

﴿أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠- ١٦١].

والمعنى: أنه بسبب ظلمهم استحقوا تحريم طيبات كانت محللة لهم ولمن قبلهم، عقوبة وتربية لهم، لعلهم يرجعون عن ظلمهم، وأبهم الظلم الذي كان سببًا في العقوبة ليعلم أن أي نوعٍ فيه يكون سببًا للعقاب في الدنيا قبل الآخرة، والعقاب إما دنيوي: كالتكاليف الشاقة زمن التشريع، والجزاء الوارد في الكتب على الجرائم كالحد والتعزير، وما اقتضته السنن التي سنها الله في نظم الاجتماع من كون الظلم سببًا لضعف الأمم وفساد عمرانها، واستيلاء الأمم الأخرى عليها، وعذاب أخروي من العذاب في النار[1].

خامسًا: خراب البيوت.

إن الله سبحانه يخرّب بيوت الظالمين وديارهم بسبب ظلمهم.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٢].

فبسبب ظلمهم أنفسهم أنزل الله العذاب بهم، فأصبحت مساكنهم خالية، وفي هذا العقاب عبرة وموعظة لأناسٍ أهل معرفة وعلم، يعلمون بسنة الله في خلقه، وبأن النتائج مرتبطة بالأسباب، فالويل كل الويل لمن كفر بالله وكذب رسله، ولم يقلع عن طغيانه وعناده وكفره[2].

ومن خراب البيوت أيضًا: أن يسلّط الله سبحانه على الظالمين من يظلمهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ومعنى ذلك: أن الله يسلّط بعضهم على بعض، يسلّط ظالمًا على ظالمٍ سابق فيهلكه ويذلّه، وهذا تهديد للظالم إذا لم يمتنع عن ظلمه بأن يسلّط الله عليه ظالمًا آخر، ويدخل في هذه الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الناس[3].

سادسًا: سقوط دولة الظلم.

قصّ القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم العديد من قصص الأمم السابقة التي خالفت أنبياءها، فظلمتهم وظلمت نفسها، فما كان من الله سبحانه إلا أن انتقم منهم، وأهلكهم بسبب أفعالهم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ

(١) انظر: تفسير المراغي ٦/ ١٧.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٩/ ٣٢٠.

(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٤٦.

﴿لَمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢]

ومن النماذج القرآنية التي تدلّل على ذلك: ما حصل لقوم نوح وعادٍ وثمود وقوم لوط وشعيب وفرعون وجنوده، وغير ذلك من النماذج التي بيّنت أن دولة الظلم إلى زوال، وسنعرض لبعض هذه النماذج بشيء من البيان، وهي كما يأتي:

❁ قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٥].

ذكر الله سبحانه حال المكذّبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدي عنهم شيئًا، ونوح عليه السلام هو أول رسول بعثه الله سبحانه إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وعبادته، فلم يزدهم هذا الدعاء إلا عنادًا واستكبارًا، وقدحًا في نبيهم، وانصرفوا عما جاء به، واعتبروه جهلًا وضلالًا لا يصدر إلا عن المجانين، وعنّفه قومه وزجروه وآذوه، وهذا حال جميع الرسل مع أقوامهم، فعند ذلك دعا نوح عليه السلام ربه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، حيث التقى ماء السماء الذي كان ينزل بشكل خارق للعادة مع الماء المتفجر عيونًا من الأرض، ونجى الله نوحًا عليه السلام ومن آمن معه، ومن حملهم معه من أصناف المخلوقات برعايته سبحانه، ولقد ترك الله سبحانه قصة نوح عليه السلام مع قومه آية، يتذكر بها المتذكرون على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعذاب شديد[(١)].

❁ قوم لوط عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٣٥.

﴿... لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ
عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ
بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

بيّن القرآن الكريم ما حصل مع هؤلاء القوم الذين خالفوا السنن الإلهية، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، فأنكر عليهم نبيهم لوط عليه السلام ذلك موبخًا لهم: أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت الغاية في القبح والفحش، ما عملها أحد قبلكم في أي زمان، بل هي من مبتدعاتكم في الفساد، فأنتم فيها أسوة وقدوة فتبوءون بإثمها وإثم من اتبعكم فيها إلى يوم القيامة.

وكل ذلك لأن ما اجترحوه من السيئات مخالف لمقتضيات الفطرة، فلما جاء عذاب الله سبحانه أمطر عليهم حجارة من طين متحجر، يرسل بعضه إثر بعض، ليرجموا رجم الزناة، وهذا يتناسب مع فعلتهم التي فعلوها، فالجزاء من جنس العمل، وهذه الحجارة يستحقها هؤلاء بسبب ظلمهم ومخالفتهم لفطرة الله التي فطر الناس عليها[1].

- قصة صالح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ
نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ
أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا
قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟
ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ
﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى
دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٨].

أرسل الله سبحانه صالحًا عليه السلام إلى ثمود، ومعه حجة واضحة على صدق نبوته، وهي ناقة الله سبحانه التي خلقها لتكون علامة على صدق رسالة صالح عليه السلام، وهي حجة على قومه إن حفظوها وأطلقوا لها رعيها وسقياها حفظوا، وإن غدروا بها أهلكوا، ولذا قال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: بضرب ولا بطرد ولا بشيء من الأذى إكرامًا لآية الله سبحانه، ولو أصابها سوء سيأخذكم عذاب أليم في

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٢٥.

الدارين، لجرأتكم على آيات الله، فرفضوا الانصياع لصالح عليه السلام، ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي نحروها، واستكبروا عن امتثال أوامره، وهو عبادته وحده، وعدم مس الناقة بسوء، وزادوا في الاستهزاء، وطلبوا من صالح عليه السلام أن يأتيهم بما وعدهم من العذاب جزاء عقر الناقة، فأخذتهم الصيحة التي يحصل منها الزلزلة الشديدة، فأصبحوا في دارهم جاثمين، ساقطين على وجوههم، هامدين لا يتحركون، ميتين بسبب ما فعلوه من قتل الناقة، وهذه الصيحة والزلزلة التي حدثت لهم من آثار الريح المرسلة التي كانت رحمة، فانقلبت عذابًا، وهكذا يكون جزاء الظالمين[1].

عاقبة الظلم في الآخرة

إن الظلم ينعكس على نفس الظالم، حيث إنه يسبّب له ولأتباعه العديد من العقوبات الأخروية، ومن هذه العقوبات ما يأتي:

١ . الكرب والهوان عند سكرات الموت.

فقد بيّن الله سبحانه صورة الظالمين، وما يحل بهم عند سكرات الموت من كرب وهوان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

يقول السعدي: «لما ذم الله الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي شدائده وأهواله الفظيعة وكربه الشنيعة لرأيت أمرًا هائلًا، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لأولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم، وقلقها وتعصيها للخروج من الأبدان ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ١٢٥.

أي العذاب الشديد الذي يهينكم ويذلكم، والجزاء من جنس العمل»[(١)].

٢. المهانة والذلة يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١].

والمعنى: لو ترى أيها الرسول فظاعة حالهم يوم القيامة، وما هم فيه من مهانة وذلة، يحاور بعضهم بعضًا، ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال، والسبب الذي أوقعهم في هذا النكال والوبال، لرأيت العجب العاجب، والمنظر المخزي للظالمين وأتباعهم[(٢)].

٣. العذاب المستمر المقيم بلا انقطاع ولا توقف.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا العذاب في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

قال السعدي: «أي في سوائه ووسطه منغمرين لا يخرجون منه أبدًا»[(٣)].

٤. منع الافتداء من العذاب.

وقد بيّن الله سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٧- ٤٨].

والمعنى: أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم لو أن لهم ما في الدنيا من أموالها وزينتها ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مضاعفًا ليقبل ذلك منهم عوضًا من أنفسهم، لفدوا بذلك كله أنفسهم عوضًا من عذاب الله الذي أعده لهم، ولم يكونوا قبل ذلك يحتسبون أنه أعده لهم[(٤)].

٥. تمني الرجوع إلى الدنيا من شدة العذاب.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

والمعنى: أن هؤلاء الظالمين لما رأوا منظر العذاب فظيعًا صعبًا شنيعًا أظهروا الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل لنا من طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، فنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن حدوثه[(٥)].

٦. اقتطاع حق المظلوم من الظالم.

إن الله سبحانه يقتص للمظلوم من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٦٤.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٨٥
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٠٢.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦١.

الظالم يوم القيامة، وقد أكد ذلك ما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها من قبل أن يؤخذ من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه)[1] .

يقول ابن حجر: «يقتص للمظلوم من الظالم حتى يأخذ منه بقدر حقه، وهذا متفق عليه»[2] .

موضوعات ذات صلة

الاستكبار، الإنصاف، البخس، الطغيان، العدل، العفو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٤، ٨/ ١١١.

(٢) فتح الباري ٨/ ١١١.





عناصر الموضوع

مفهوم الظلمات

أولًا: المعنى اللغوي:

ظلم: الظّاء واللّام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضّياء والنّور، والآخر- وضع الشّيء غير موضعه تعدّيًا، فالأول: الظّلمة، والجمع ظلماتٌ، والظّلام: اسم الظّلمة، وقد أظلم المكان إظلامًا، والأصل الآخر: ظلمه يظلمه ظلمًا، والأصل الثاني: وضع الشّيء في غير موضعه.

والظّلمة: ضدّ النّور، وضمّ اللّام لغةٌ، وجمع الظّلمة: ظُلَمٌ وظُلْماتٌ وظُلَماتٌ وظُلُماتٌ، بضمّ اللّام وفتحها وسكونها، وقد (أظلم) اللّيل، والظّلماء: الظّلمة، وربّما وصف بها، يقال: ليلةٌ ظلماء، أي: مظلمةٌ، وأظلم القوم دخلوا في الظّلام[1].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الظلمة: عدم الضوء فيما من شأنه أن يكون مضيئًا»[2]، والظلمة هي: «ما يظلم عليك من الأفق، أو المكان، أو الأمر»[3].

وبالتأمل يلحظ أنه يوجد تلازم وصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، مختار الصحاح، الرازي١/ ١٩٧.
(٢) التعريفات ص١٤٤.
(٣) تفسير غريب القرآن، كاملة الكواري ص٤٥٧.



الظلمات في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظلم) في القرآن على صيغ متعددة، بلغت(٣١٥) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة:٢٠]
اسم الفاعل	٢	﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾[يونس:٢٧]
الجمع	٢٣	﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة:١٧]

وجاءت الظّلمات في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[٢]:

الأول: أهوال البر والبحر، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٦٣]. يعني: أهوال البرّ والبحر.

الثاني: الظّلمات المعروفة، وهي ضد النور، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[الزمر:٦]. يعني: ظلمة البطن والرّحم والمشيمة.

الثالث: الشرك، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. يعني: من الشرك إلى الإيمان.

الرابع: الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١]. يعني: جعل الليل والنهار.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٧٢٩-٧٣٥.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٧٢، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٤٢٣-٤٢٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ النور:

النور لغةً:

قال ابن فارس: «النون والواو والراء أصلٌ صحيح يدلّ على إضاءةٍ واضطراب وقلّة ثبات، منه النور والنار، سمّيا بذلك من طريقة الإضاءة، ولأنّ ذلك يكون مضطربًا سريع الحركة»[(١)].

النور اصطلاحًا:

قال الراغب: «النّور: الضّوء المنتشر الذي يعين على الإبصار»[(٢)].

الصلة بين النور والظلمات:

هما ضدان فلا يجتمعان، فالنور ضوء يعين على رؤية الأشياء، والظلمة ليس فيها كذلك، كما أن النور واحد لا يتعدد، والظلمات كثيرة ومتعددة.

٢ الضياء:

الضياء لغةً:

هو جمع ضوء كسوط وسياط، أو مصدر ضاء ضياءً كقام قيامًا، والضَّوء والضُّوء بالضّمّ، وضاءت النّار تضوء ضَوءًا وضُوءًا، وأضاءت غيرها، فالفعل يكون لازمًا ومتعديًا[(٣)].

الضياء اصطلاحًا:

هو: «اسم لهذه الكيفيّة إذا كانت كاملة تامّة قويّة»[(٤)]، وقال الراغب: «الضّوء: ما انتشر من الأجسام النّيّرة»[(٥)].

الصلة بين الضياء والظلمات:

هما ضدان فلا يجتمعان، فالضياء شدة الإنارة، والظلمات شدة العتمة.

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٢٩٤.
(٢) المفردات ص٨٢٧.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص١٨٦.
(٤) الكليات، الكفوي ص٥٧٨.
(٥) المفردات ص٥١٤.

٣ الليل:

الليل لغةً:

هو ضدّ النّهار وخلافه[١]، وهو الظلام الذي يحلّ فيه[٢]، وتبتدئ فترته الزّمنيّة من غروب الشمس إلى طلوعها.

الليل اصطلاحًا:

هو «من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق»[٣].

الصلة بين الليل والظلمات:

هناك علاقة اقتران بين الظلمة والليل، فالظلام مقترن بالليل، كالضياء مقترن بالنهار.

(١) تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٣١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٢٥، لسان لعرب، ابن منظور، ٨/ ١٧٨.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣١٨، لسان لعرب، ابن منظور ٨/ ١٧٨.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٨٢٠.

أنواع الظلمات

تنقسم الظلمات إلى ظلمات حسية وظلمات معنوية، نتناول بيانها فيما يأتي:

أولًا: الظلمة الحسية:

١ . ظلمات البر والبحر.

قال عز وجل الهادي للسّير في الظّلمات بما خلق في الإنسان من المدارك، وبما خلق في السماء والأرض من دلائل: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

أي: بما خلق من الدّلائل السّماويّة والأرضيّة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧][(١)].

«والناس –ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن– يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم، ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم، ويهتدون، فمن يهديهم؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون، وطاقاتهم بأسراره؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات؟ من؟ أإله مع الله؟»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ظلمات الأرض بطونها، وقيل: الصّخرة الّتي هي أسفل الأرضين السّابعة[(٣)]. «أي: في الأمكنة المظلمة»، وقيل: «في بطن الأرض»[(٤)].

«وقيل: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملكٌ موكّل، يأتي اللّه بعلمها، رطوبتها إذا رطبت، ويبوستها إذا يبست»[(٥)].

وقيل: «وما تسقط من حبّةٍ بفعل فاعلٍ مختارٍ في ظلمات الأرض كالحبّ الّذي يلقيه الزّرّاع في بطون الأرض يسترونه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٥٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٥.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٤٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ٢١١.

بالتّراب فيحتجب عن نور النّهار، والّذي تذهب به النّمل وغيرها من الحشرات في قراها وجحورها»[١].

وقيل: «وفي ظلمات الأرض صفةٌ لـ(حبّةٍ) أي: ولا حبّةٍ من بذور النّبت مظروفةٍ في طبقات الأرض إلى أبعد عمقٍ يمكن»[٢].

وقد عبر بـ(في الظّلمات) الدّالّة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسّسه فيه.

وقال تعالى للمشركين: أعبادة ما تشركون بالله خير أم الذي يرشدكم في ظلمات البر والبحر إذا ضللتم فأظلمت عليكم السبل؟! قال تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣].

وقال تعالى آمرًا رسوله: قل أيها الرسول للمشركين: من تدعون إذا أخطأتم الطّريق وخفتم الهلاك؟ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأنعام: ٦٣].

روى الطبري بسنده عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «يقول: إذا أضلّ الرّجل الطّريق دعا اللّه ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]»[٣].

وظلمات البرّ والبحر يراد به: شدائدهما، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظلمة حقيقية، وما كان بغير ظلمة، والعرب تقول: عام أسود، ويوم مظلم، ويوم ذو كواكب ونحو هذا، يريدون به الشدة، قال قتادة رحمه الله: «المعنى من كرب البر والبحر»[٤].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ ظلمة اللّيل الّتي يلتبس فيها الطّريق للسّائر، والّتي يخشى فيها العدوّ للسّائر وللقاطن، أي: ما يحصل في ظلمات البرّ من الآفات.

و(ظلمات البحر) يخشى فيها الغرق والضّلال والعدوّ، وقيل: أطلقت الظّلمات مجازًا على المخاوف الحاصلة في البرّ والبحر، كما يقال: يومٌ مظلمٌ إذا حصلت فيه شدائد»[٥].

فحيثما «وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين، إن الفطرة تتعرى حينئذٍ من الركام، فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها، حقيقة الألوهية الواحدة، وتتجه إلى الله الحق بلا شريك؛ لأنها تدرك حينئذٍ سخافة فكرة الشرك، وتدرك انعدام الشريك»[٦].

(١) المنار، رشيد رضا ٧/ ٣٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٧٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٩٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٠٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٨١.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٢٤.

٢. ظلمات البطون.

قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ «يعني بالظلمات الثلاث: بطن أمه، والرحم، والمشيمة»[١].

قال سيد قطب رحمه الله عن الظلمات الثلاث: «ظلمة الكيس الذي يغلّف الجنين، وظلمة الرحم الذي يستقر فيه هذا الكيس، وظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم، والله يخلق هذه الخلية الصغيرة خلقًا من بعد خلق، وعين الله ترعى هذه الخليقة وتودعها القدرة على النمو، والقدرة على التطور، والقدرة على الارتقاء، والقدرة على السير في تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدّر لها بارئها.

وتتبّع هذه الرحلة القصيرة الزمن، البعيدة الآماد، وتأمّل هذه التغيرات والأطوار، وتدبّر تلك الخصائص العجيبة التي تقود خطى هذه الخلية الضعيفة في رحلتها العجيبة، في تلك الظلمات، وراء علم الإنسان وقدرته وبصره.

هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشري إلى رؤية يد الخالق المبدع، رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاخصة، والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر في طريقة الخلق والنشأة، فكيف يصرف قلب عن رؤية هذه الحقيقة؟»[٢].

ظلمات البطون في العلم الحديث:

يقول العلماء: «يحاط الجنين في داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هي من الداخل إلى الخارج كما يلي: غشاء السلي أو الرهل (amnion)، والغشاء المشيمي (chorion)، والغشاء الساقط (decidua)، وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة، فتجعله في ظلمة شاملة هي الظلمة الأولى، ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم، وهو جدار سميك يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الكاملة الثانية حول الجنين وأغشيته.

والرحم المحتوي على الجنين وأغشيته في ظلمتين متتاليتين، يقع في وسط الحوض، ويحاط إحاطة كاملة بالبدن المكون من كل من البطن والظهر، وكلاهما يحدث الظلمة الثالثة»[٣].

ظلمات بطن الحوت: قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٥٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٠.

(٣) الموقع الشخصي للدكتور زغلول النجار: www.elnaggarzr.com.

﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «معترفًا بذنبه، تائبًا من خطيئته»[(١)]، وعن قتادة رحمه الله قال: «ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»[(٢)].

روى الترمذي بسنده عن سعدٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النّون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنّه لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطّ إلّا استجاب اللّه له)[(٣)].

٣. ظلمات السحاب.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يعني بالظلمات: الأعمال، وبالبحر اللجّي: قلب الإنسان، قال: ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾، قال: ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر»[(٤)].

ونور الله هدى في القلب، وتفتح في البصيرة، واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض، والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض.

فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها، وفي مخالفة لا أمن فيها، وفي ضلال لا رجعة منه، ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب؛ لأنه لا عمل بغير عقيدة، ولا صلاح بغير إيمان، إن هدى الله هو الهدى، وإن نور الله هو النور[(٥)].

قال ابن القيم رحمه الله: «ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلًا بالسّراب، ومثلًا بالظّلمات المتراكمة؛ وذلك لأنّ المعرضين عن الهدى والحقّ نوعان...، النّوع الثّاني: أصحابٌ مثل الظّلمات المتراكمة، وهم الّذين عرفوا الحقّ والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضّلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطّبع، وظلمة النّفوس، وظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم، فصاروا جاهلين، وظلمة اتّباع الغيّ والهوى، فحالهم كحال من كان في بحرٍ لجّيٍّ لا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٦/ ٣٨٤.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٨/ ٥١٧.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب منه، ٥/ ٤٠٩، رقم ٣٥٠٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٣٧، رقم ٣٣٨٣.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ١٩٨.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢١.

ساحل له، وقد غشيه موجٌ، ومن فوق ذلك الموج موجٌ، ومن فوقه سحابٌ مظلمٌ، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السّحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظّلمات الّتي لم يخرجه اللّه منها إلى نور الإيمان.

وهم أيضًا أصحاب العلم الّذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة؛ ولهذا مثّل لحالم في تلاطم أمواج الشّكوك والشّبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنّها أمواجٌ متراكمةٌ من فوقها سحابٌ مظلمٌ، وهكذا أمواج الشّكوك والشّبه في قلوبهم المظلمة الّتي قد تراكمت عليها سحب الغيّ والهوى والباطل.

وأخبر سبحانه أنّ الموجب لذلك أنّه لم يجعل لهم نورًا، بل تركهم على الظّلمة الّتي خلقوا فيها فلم يخرجهم منها إلى النّور؛ فإنّه سبحانه وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور»[(١)].

وفي هذا المعنى روى عبد اللّه بن عمر أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ اللّه خلق خلقه في ظلمةٍ، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النّور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ؛ فلذلك أقول: جفّ القلم على علم اللّه)[(٢)].

(١) إعلام الموقعين ١/ ١٢٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، ٤/ ٣٢٣، رقم ٢٦٤٢. وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٣٧، رقم ١٠١.

٤ . ظلمة الليل.

أقسم سبحانه وتعالى بالليل عندما يغطي الأرض فيكون ما عليها مظلمًا، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١].

وأقسم بالليل إذا سكن بالخلق، واشتد ظلامه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢].

ولقّن سبحانه وتعالى بـ(قل) التلقينية الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول للناس: أخبروني -أيها الناس- إن جعل الله عليكم الليل دائمًا إلى يوم القيامة، من إله غير الله يأتيكم بضياء تستضيئون به؟ أفلا تسمعون سماع فهم وقبول؟

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ثانيًا: الظلمات المعنوية:

العبد إذا سدّ أمام أذنه وعينه وقلبه أنوار الهدى، عاش في ظلمات الكفر والنفاق والجهل.

١ . ظلمة الكفر والنفاق.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ

﴿نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

هذه الآيات نزلت في المنافقين، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد نارًا في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفأ ورأى ما حوله، فاتّقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، فبقي في ظلمة خائفًا متحيرًا؛ فكذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم، وأولادهم، وناكحوا المؤمنين، ووارثوهم، وقاسموهم الغنائم، فذلك نورهم، فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف»(١).

شبّه سبحانه وتعالى في الآية «أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا؛ لتضيء لهم، وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم وما يضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا، وعرفوا طفئت عنهم تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدّت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب، مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها،

وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، نزّلوا منزلة من لا سمع له، ولا بصر، ولا عقل، والقولان متلازمان»(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ حذف مفعول ﴿يُبْصِرُونَ﴾ إيذانًا بالعموم، أي: لا يبصرون مسلكًا من مسالك الهداية، ولا يرون طريقًا من طرقها؛ لأنّه صرف عنايته عنهم بتركهم سنّته، وإهمالهم هدايته، ووكلهم إلى أنفسهم.

وقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبّه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم من النور والحياة بنصيب أصحاب الصيّب، وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل من علو إلى سفل، فشبّه الهدى الذي هدى به عباده بـ (الصيب)؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وشبّه نصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك، مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد، والشجر والدواب، فإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٣.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص١٢٠.

الانتفاع بذلك الصيب.

فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق، ولوازم ذلك: من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يئول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل، لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صفت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق، والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يئول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون.

وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبلغ الرجال العقلاء الألبّاء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود»[1].

وتأمل قول سيد قطب في تصوير مشهد هؤلاء رحمه الله: «إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء.

صيِّبٌ من السماء هاطل غزير ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[البقرة: ١٩].

قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠].

أي: وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون! وهم مفزعون: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾[البقرة: ١٩].

إن الحركة التي تغمر المشهد كله من الصيب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عند ما يخيم الظلام، إن هذه الحركة في المشهد لترسم -عن طريق التأثر الإيحائي- حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون، بين لقائهم للمؤمنين، وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة، ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور، وما يفيئون إليه من

(١) المصدر السابق ص١٢٤.

ضلال وظلام، فهو مشهد حسي يرمز لحالة نفسية، ويجسم صورة شعورية.

وهو طرف من طريقة القرآن العجيبة في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس، وعندما يتم استعراض الصور الثلاث يرتد السياق في السورة نداء للناس كافة، وأمرًا للبشرية جمعاء أن تختار الصورة الكريمة المستقيمة، الصورة النقية الخالصة، الصورة العاملة النافعة، الصورة المهتدية المفلحة»[(١)].

وفي الآية: أن لضرب الأمثال شأنًا في إبراز خبيئات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتّى تريك المتخيّل في صورة المحقّق، والمتوهّم في معرض المتيقّن، والغائب كالمشاهد، فليكثر منه العلماء والمربون.

٢. ظلمة الجهل.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلّة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصمّ، وهو الّذي لا يسمع، أبكم وهو الّذي لا يتكلّم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق؟ أو يخرج مما هو فيه؟[(٢)].

«إن الذين كذّبوا بآيات الله هذه المبثوثة في صفحات الوجود، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن إنما كذبوا؛ لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطّلة، إنهم صُمٌّ لا يسمعون، بُكْمٌ لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون! إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيونًا وآذانًا وأفواهًا، ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل! وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها، لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك! وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحًا لحياة الهدى، ولم يعد أهلًا لذلك المستوى الراقي من الحياة»[(٣)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٢٨.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠٨١.

وسائل النجاة من الظلمات الحسية

بيّن القرآن وسائل النجاة من الظلمات الحسية، وسوف نتناولها بالشرح فيما يأتي:

أولًا: ضوء النهار:

أقسم سبحانه وتعالى بالشمس ونهارها، وإشراقها ضحى، وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى، في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش، وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقيظها، فالشمس في الضحى في أروق أوقاتها وأصفاها، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١].

وابتدئ بالشّمس لمناسبة المقام إيماءً للتّنويه بالإسلام؛ لأنّ هديه كنور الشّمس لا يترك للضّلال مسلكًا، وفيه إشارةٌ إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشّمس في الأفق[1].

وقد أخبر سبحانه أنه جعل الشمس مصباحًا مضيئًا يستضيء به أهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وأخبر سبحانه على نفوذ مشيئته، وكمال قدرته في إزالة الضياء الذي طبّق الأرض فيبدله ظلامًا، وكذلك يزيل الظلمة التي عمتهم وشملتهم فتطلع الشمس فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، فقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

وفي الآيات تنبيه على عظم خلق الشمس، وكثرة منافعها الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظّم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي جعل الشمس مضيئة نهارًا، والقمر منيرًا ليلًا.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

قال العلماء: «عند مرور ضوء الشمس في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض يتعرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشتت والانعكاس على كل من هباءات الغبار، وقطيرات الماء وبخاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عالٍ نسبيًا في هذا الجزء من الغلاف الغازي للأرض، فيظهر بهذا اللون الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار، كذلك يتعرض ضوء الشمس للعديد من عمليات التشتت والانعكاس عندما يسقط على سطح القمر المكسو

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٦٧.

بالعديد من الطبقات الزجاجية الرقيقة والناتجة عن ارتطام النيازك بهذا السطح، والانصهار الجزئي للصخور على سطح القمر، بفعل ذلك الارتطام، فالقمر-غيره من أجرام مجموعتنا الشمسية- هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها، ولكنها يمكن أن ترى لقدرتها على عكس أشعة الشمس فيبدو منيرًا[1].

ثانيًا: النجوم:

أخبر سبحانه أنه جعل للناس النجوم علامات، يعرفون بها الطرق ليلًا إذا ضلوا بسبب الظلمة الشديدة في البر والبحر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

قال بعض السّلف رحمه الله: «من اعتقد في هذه النّجوم غير ثلاثٍ فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أنّ اللّه جعلها زينةً للسّماء، ورجومًا للشّياطين، ويهتدى بها في الظلمات البرّ والبحر»[2].

روى البغوي في سننه عن عمر رضي الله عنه أنّه قال: «تعلّموا من النّجوم ما تعرفون به القبلة والطّريق، ثمّ أمسكوا»[3].

قال ابن رجب رحمه الله: «والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرّم، قليله وكثيره»[4].

وروى أحمد بن حنبل بسنده عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما اقتبس رجلٌ علمًا من النّجوم، إلا اقتبس بها شعبةً من السّحر، ما زاد زاد)[5].

«فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها، كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم، فالاهتداء هو الاهتداء في الظلمات الحسية الواقعية، وفي ظلمات العقل والضمير، والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى، وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم»[6].

ودلت الآية على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالّها الذي يسمى علم التسيير،

(١) السماء في القرآن الكريم، زغلول النجار ص٣٩٥-٥٠٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٧٣.
(٣) شرح السنة، البغوي ١٢/ ١٨٣.
(٤) فيض القدير ٣/ ٢٥٦.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٥٤، رقم٢٠٠٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٧٩٣.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١١٥٩.

فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

وأخبر سبحانه أنه خلق للإنسان النجوم؛ ليهتدي بها بالليل في البراري أو في البحار، قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قال العلماء: «يقع النجم القطبي على امتداد محور دوران الأرض حول نفسها تمامًا، وبذلك يحدد لنا اتجاه الشمال الحقيقي، ويتعامد على هذا الاتجاه يمينًا شرق الأرض ويسارًا غربها، أي: اتجاه الشرق الحقيقي والغرب الحقيقي بالنسبة للأرض ككوكب، ويتضح من ذلك جانب من جوانب الحكمة الإلهية المبدعة بخلق هذه العلاقة حتى يبقى النجم القطبي بمثابة البوصلة الكونية المعلقة في السماء الدنيا؛ لإرشاد أهل الأرض إلى الاتجاهات الأربعة الأصلية»(١).

ثالثًا: الدعاء والالتجاء إلى الله:

بيّن سبحانه وتعالى للناس في كتابه أنهم إذا ادلهمت بهم الخطوب في البر والبحر لجأوا إليه مخلصين في الدعاء، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ

(١) الأرض في القرآن الكريم، زغلول النجار ص٤٨٧-٥٠٢.

دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

عن قتادة رحمه الله قال: «إذا مسّهم الضّرّ في البحر أخلصوا له الدّعاء»(٢).

ومعنى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ممحضين له العبادة في دعائهم(٣).

وكان صلى الله عليه وسلم يعلّم الصحابة اللجأ إلى ربهم؛ ليخرجهم من الظلمات بأنواعها، روى أبو داود في سننه بسنده عن عبد الله رضي الله عنه قال: «وكان يعلّمنا كلماتٍ ولم يكن يعلّمناهنّ كما يعلّمنا التّشهّد: (اللّهمّ ألّف بين قلوبنا، وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السّلام، ونجّنا من الظّلمات إلى النّور)»(٤).

وأخبر سبحانه أنه يرحم عباده المؤمنين، ويثني عليهم، وتدعو لهم ملائكته؛ ليخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الإيمان والهداية.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «لمّا

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٤٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٣٨.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب الركوع والسجود، باب التشهد، ١/ ٢٥٤، رقم ٩٦٩. وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود رقم ١٧٢.

نزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾[الأحزاب: ٥٦].

قال المهاجرون والأنصار: هذا لك يا رسول الله خاصة، وليس لنا فيه شيء، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية».

وهذه نعمةٌ من اللّه تعالى على هذه الأمّة من أكبر النّعم، ودليلٌ على فضلها على سائر الأمم، والصّلاة من اللّه على العبد: هي رحمته له وبركته لديه، وصلاة الملائكة: دعاؤهم للمؤمنين، واستغفارهم لهم، كما قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧][1].

ونور الله واحد متصل شامل وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف، وما يخرج الناس من نور الله إلا ليعيشوا في ظلمة من الظلمات، أو في الظلمات مجتمعة، وما ينقذهم من الظلام إلا نور الله الذي يشرق في قلوبهم، ويغمر أرواحهم، ويهديهم إلى فطرتهم، وهي فطرة هذا الوجود، ورحمة الله بهم، وصلاة الملائكة ودعاؤها لهم، هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور حين تتفتح قلوبهم للإيمان[2].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ١٩٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٨٧٢.

وسائل النجاة من الظلمات المعنوية

بيّن القرآن الكريم وسائل النجاة من الظلمات المعنوية، وسوف نتحدث عنها فيما يأتي:

أولًا: الإيمان بالله عز وجل وطاعته:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٢٢].

هذا مثلٌ ضربه اللّه تعالى للمؤمن الّذي كان ميتًا، أي: في الضّلالة هالكًا حائرًا، فأحياه اللّه، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفّقه لاتّباع رسله، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك! وكيف يتصرّف به!

والنّور: هو القرآن، كما رواه العوفيّ، وابن أبي طلحة عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه، وقال السّدّيّ: «الإسلام»، والكلّ صحيحٌ. ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الجهالات والأهواء والضّلالات المتفرّقة. ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذٍ، ولا مخلصٍ ممّا هو فيه[3].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور، وهم

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٦.

في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل، فضلوا ولم يهتدوا للطريق، وآخر معه نور يمشي به في الطريق ويراها، ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي بنوره، فهم يقتبسون فيه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم[(١)].

«فالأول: هو المؤمن، استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره، والآخر: هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته، والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور، والشقاء كل الشقاء في فواته.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعل النور في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله، وخلفه وأمامه، حتى يقول: (واجعلني نورًا)[(٢)]، فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة، وأن يجعله محيطًا به من جميع جهاته، وأن يجعل ذاته وجملته نورًا»[(٣)].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في سجوده فيما روي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: (اللهمّ اجعل في قلبي نورًا، وفي سمعي نورًا، وفي بصري نورًا، وعن يميني نورًا، وعن شمالي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، واجعل لي نورًا) أو قال: (واجعلني نورًا)[(٤)].

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور في قلب عبده مثلًا لا يعقله إلا العالمون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور: ٣٥].

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: «مثل هداه في قلب المؤمن كما يكاد الزّيت الصّافي يضيء قبل أن تمسّه النّار، فإذا مسّته النّار ازداد ضوءًا على ضوءٍ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى على

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٣٠١.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٢٨، رقم ٧٦٣.
(٣) الوابل الصيب، ابن القيم ص٥٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ١/ ٥٢٨، رقم ٧٦٣.

هدًى»[1].

«وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره، وهو نوره الذي أنزله إليهم فأحياهم به، وجعلهم يمشون به بين الناس، وأصله في قلوبهم، ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم، بل ثيابهم ودورهم، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر.

فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور، وصار بإيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا»[2].

وفي هذا المعنى ورد عن عبد اللّه رضي اللّه عنه: «فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النّخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتّى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرّةً، ويطفئ مرّةً، فإذا أضاء قدمه، وإذا طفئ قام، فيمرّ ويمرّون على الصّراط، والصّراط كحدّ السّيف، دحض مزلّةٍ، فيقال: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرّ كالطّرف، ومنهم من يمرّ كالرّيح، ومنهم من يمرّ كشدّ الرّجل، ويرمل رملًا، فيمرّون على قدر أعمالهم حتّى يمرّ الّذي نوره على إبهام قدمه»[3].

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نور فقراء المهاجرين يوم القيامة، روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، كنّا عند رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يومًا آخر حين طلعت الشّمس، فقال: **(سيأتي ناسٌ من أمّتي يوم القيامة، نورهم كضوء الشّمس)** قلنا: ومن أولئك يا رسول اللّه؟ قال: **(فقراء المهاجرين الّذين يتّقى بهم المكاره، يموت أحدهم، وحاجته في صدره، يحشرون من أقطار الأرض)**[4].

«إن هذه العقيدة تنشيء في القلب حياة بعد الموت، وتطلق فيه نورًا بعد الظلمات، حياة يعيد بها تذوّق كل شيء، وتصوّر كل شيء، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة، ونورًا يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديدًا كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي نوّره الإيمان، إن الإيمان اتصال، واستمداد، واستجابة،

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٣٠٣.
(٢) الوابل الصيب، ابن القيم ص٥٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة مريم، ٢/ ٤٠٨، رقم ٣٤٢٤.
قال الحاكم: «على شرط البخاري ومسلم».
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٣٠، رقم ٦٦٥٠.
قال محقق المسند: حديث حسن لغيره.

فهو حياة، وإن الإيمان تَفَتُّحٌ ورؤية، وإدراك واستقامة، فهو نور بكل مقومات النور، وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة، وظل ممدود، ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فتتكشف له حقائق الوجود، وحقائق الحياة، وحقائق الناس، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس.

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضوح في كل شأن، وفي كل أمر، وفي كل حدث، يجد الوضوح في نفسه، وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته، ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة!

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه!

ويجد الراحة في باله وحاله ومآله!

ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها، وفي استقبال الأحداث واستدبارها!

ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة، وفي كل حين!»[1].

ثانيًا: اتباع الرسول وطاعة أمره:

قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥].

يعني بالنور: محمدًا صلى الله عليه وسلم الذي أنار الله به الحقّ، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك، فهو نور لمن استنار به يبيّن الحق[2].

وأخبر سبحانه وتعالى أن الذين يتبعون الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعونه هم المفلحون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أي: آمنوا بمحمّدٍ صلى الله عليه وسلم واتّبعوه فيما جاء به من الشّرائع، وعظّموه ووقّروه، ومنعوه من عدوّه، وقاموا بنصره على من يعاديه، واتّبعوا القرآن المنزّل إليه مع اتّباعه بالعمل بسنّته ممّا يأمر به، وينهى عنه، أولئك هم الفائزون بالخير والفلاح لا غيرهم من الأمم[3].

قال ابن القيم رحمه الله: «إن الخارجين عن طاعة الرسل يتقلّبون في عشر ظلمات:

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٠١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٤٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٨٨.

ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاث.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلّبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة ونبيها صلى الله عليه وسلم من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيّها صلى الله عليه وسلم من النور ما ليس لنبي غيره»[(١)].

ثالثًا: اتباع شرع الله وكتابه المنزل:

سمّى سبحانه وتعالى وحيه وأمره الذي أنزله على رسوله روحًا؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسمّاه نورًا لما يحصل به من الهدى، واستنارة القلوب والفرقان بين الحقّ والباطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال جل وعلا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فأحياه سبحانه وتعالى بروحه الّذي هو وحيه وهو روح الإيمان والعلم، وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظّلمة كما يمشي الرّجل بالسّراج المضيء في الظّلمة.

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل كتابه على رسوله لغاية ومقصد إخراج البشر من الضلال والغيّ إلى الهدى والنور، وهو الإسلام بتوفيق من الله، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

أي: بالكتاب، وهو القرآن، أي: بدعائك إليه، من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وهذا على التّمثيل؛ لأنّ الكفر بمنزلة الظّلمة، والإسلام بمنزلة النّور، وقيل: من البدعة إلى السّنّة، ومن الشّكّ إلى اليقين، والمعنى متقاربٌ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقه إيّاهم، ولطفه بهم، والباء في ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بـ﴿لِتُخْرِجَ﴾ وأضيف الفعل إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم لأنّه الدّاعي والمنذر الهادي[(٢)].

فالمقصد من إنزال الكتاب: إخراج البشرية من الظلمات، ظلمات الوهم والخرافة، وظلمات الأوضاع والتقاليد، وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة، وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين؛ لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور، النور الذي يكشف هذه الظلمات،

(١) المصدر السابق ٢/ ٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٣٨.

يكشفها في عالم الضمير، وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد.

والإيمان بالله نور يشرق في القلب، فيشرق به هذا الكيان البشري، والإيمان بالله نور تشرق به النفس، فترى الطريق واضحة إلى الله، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام، وضباب الخرافات، أو غبش الشهوات، وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة، فإذا الناس كلهم عباد متساوون، تربط بينهم آصرتهم في الله، وتتمحض دينونتهم له دون سواه، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة، وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة، معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه، فإذا هم في سلام مع الكون وما فيه ومن فيه.

والإيمان بالله نور، نور العدل، ونور الحرية، ونور المعرفة، ونور الأنس بجوار الله، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته في السراء والضراء، ذلك الاطمئنان الذي يستتبع الصبر في الضراء والشكر في السراء على نور من إدراك الحكمة في البلاء[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

أي: «حججًا واضحاتٍ، ودلائل باهراتٍ، وبراهين قاطعاتٍ؛ ليخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادّة إلى نور الهدى واليقين والإيمان»[2].

وقال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

يعني: من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الشّبهة إلى نور الحجّة، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم[3].

وعن غاية إرسال موسى عليه السلام بالآيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «من الضّلالة إلى الهدى»[4].

يخبر تعالى أنه أرسل موسى عليه السلام بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٥.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٦٥.
(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٩٤.

رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه[(١)].

وقد حثّ صلى الله عليه وسلم على كتاب الله ورغّب فيه، فقال: (أمّا بعد: ألا أيها النّاس فإنّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم ثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنّور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به)[(٢)].

وفي هذا المعنى ورد عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنّه سمع خطبة عمر رضي الله عنه الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفّي النّبيّ صلى الله عليه وسلم، فتشهّد وأبو بكرٍ رضي الله عنه صامتٌ لا يتكلّم، قال: «كنت أرجو أن يعيش رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حتّى يدبرنا، -يريد بذلك- أن يكون آخرهم، فإن يك محمّدٌ صلى الله عليه وسلم قد مات، فإنّ اللّه تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به، هدى اللّه محمّدًا صلى الله عليه وسلم»[(٣)].

والمقصود بالنور الذي قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو القرآن العظيم؛ لأن فيه الهدى والنور، فمن عمل بما فيه كان على الصراط المستقيم وعلى الحق المبين[(٤)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٢١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٤/ ١٨٧٣، رقم ٢٤٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف ٩/ ٨١، رقم ٧٢١٩.

(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٢٠٩، إرشاد الساري، القسطلاني ١٥/ ١٨٠.

عاقبة البقاء في الظلمات

وضّح القرآن الكريم عاقبة البقاء في الظلمات؛ ليتجنبها العباد، وسوف نبيّنها فيما يأتي:

أولًا: تعطيل الطاقات البشرية:

أخبر عز وجل أن الإنسان مسئول عما استعمل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإذا استعملها في الخير نال الثواب، وإذا استعملها في الشر نال العقاب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالعلوم مستفادة من هذه الحواس، فإنّ الإنسان إذا سمع شيئًا ورآه فإنّه يرويه ويخبر عنه، وإلى العلوم التي تعتمد على التفكير أشار بذكر الفؤاد.

فهذه الكلمات القليلة -في الآيات- تقيم منهجًا كاملًا للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثًا جدًّا، ويضيف إليه استقامة القلب، ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة!

فالتثبت من كل خبر، ومن كل ظاهرة، ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم[1].

لكن يوجد صنف من الناس عطّلوا هذه الحواس التي تستعمل في اقتباس العلوم النافعة، فأصبحوا كأنهم كائنات ميّتة، وإن بدت حيّة في صورة الأحياء، وأظلمت قلوبهم وعقولهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلّة علمهم، وعدم فهمهم كمثل أصمّ، وهو الّذي لا يسمع، أبكم وهو الّذي لا يتكلّم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فالآية «استعارةٌ عن عدم الانتفاع الذّهنيّ بهذه الحواسّ»[2].

إن الذين كذّبوا بآيات الله هذه المبثوثة في صفحات الوجود، وآياته الأخرى المسجلة في صفحات هذا القرآن إنما كذّبوا لأن أجهزة الاستقبال فيهم معطّلة، إنهم صم لا يسمعون، بكم لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون!

إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيونًا وآذانًا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٠٥.

وأفواهًا، ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل ولا تنقل!

وإنه لكذلك فهذه الآيات تحمل في ذاتها فاعليتها وإيقاعها وتأثيرها لو أنها استقبلت وتلقاها الإدراك!

وما يعرض عنها معرض إلا وقد فسدت فطرته، فلم يعد صالحًا لحياة الهدى، ولم يعد أهلًا لذلك المستوى الراقي من الحياة[(١)].

إن ترقي الحياة يحتاج ابداعات وانطلاقات أصحاب العقول النيرة والفطر السليمة؛ لكي يوظّفوها في صناعة الحياة، صناعة تعود بالمخلوق الضعيف إلى الخالق العظيم، صناعة تترقى بحواس الإنسان، وترقّي هي حواس الإنسان، أما إذا كانت حواس الإدراك معطّلة فقد تعطلت الطاقات التي أودعها الله فيها، والقدرات التي وهبها الله إياها، وعاش الناس في ظلمات منغمسين فيها، فلا تجد تطورًا في الطب ينقذ الإنسان من أمراض فتاكة، ولا تجد تطورًا في اقتصاد ينقذ الإنسان من جوع قاتل، ولا تجد تطورًا في الحياة يحفظ إنسانية الإنسان المكرّم عند خالقه سبحانه.

ثانيًا: عدم الإفادة من المدّخرات الكونية:

إن الله أودع في الكون مدّخرات مسخّرة للإنسان بقدرته وتدبيره، فيها عبرة لمن ينظر إليها بالقلب المفتوح، والحس البصير، ويتدبر ما وراءها من حكمة ومن تقدير، ومن منافع للناس لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وقد كثر ورود لفظ سخّر في القرآن؛ ليتنبه لها الإنسان وليتفكر فيها؛ فيعود بعد التفكر والتدبر؛ ليقول بقلبه قبل لسانه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ثم يوظّف هذه المدخرات في مصالح العباد.

ففي تسخير الفلك لتسير في البحر بأمره عز وجل؛ لمنافعكم أيها الناس، وذلّل لكم الأنهار؛ لسقياكم، وسقيا دوابكم وزروعكم وسائر منافعكم.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وفي تسخير الشمس والقمر والليل والنهار؛ لتتحقق المصالح بهما، وذلّل لكم الليل؛ لتسكنوا فيه وتستريحوا، والنهار؛ لتبتغوا من فضله، وتدبّروا معايشكم.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٠٨١.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وفي تسخير البحر؛ لتأكلوا مما تصطادون من سمكه لحمًا طريًا، وتستخرجوا منه زينة تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان، وترى السفن العظيمة تشق وجه الماء تذهب وتجيء، وتركبونها لتطلبوا رزق الله بالتجارة والربح فيها.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

وهذا التسخير لغاية ذكر نعمه، وحمده عليها.

قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣].

ثالثًا: عدم استواء الأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور في الفطر السليمة:

فهل يستوي البصير الذي يرى بالنور الذي ألهمه الله إياه، فتكشفت له حكمة ربه في المدّخرات الكونية، واستعملها في منافع الخلق، كمن في الجهل منغمس فيه؟

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦].

«يقول تعالى ذكره: وهل تستوي الظّلمات الّتي لا ترى فيها المحجّة فتسلك، ولا يرى فيها السّبيل فيركب، والنّور الّذي يبصر به الأشياء ويجلو ضوءه الظّلام؟ يقول: إنّ هذين لا شكّ لغير مستويين، فكذلك الكفر باللّه، إنّما صاحبه منه في حيرةٍ يضرب أبدًا في غمرةٍ لا يرجع منه إلى حقيقةٍ، والإيمان باللّه صاحبه منه في ضياءٍ يعمل على علمٍ بربّه، ومعرفةٍ منه بأنّ له مثيبًا يثيبه على إحسانه، ومعاقبًا يعاقبه على إساءته، ورازقًا يرزقه، ونافعًا ينفعه»(١).

وبنظرة فاحصة لحال الغرب الذين اتّجهوا إلى تحصيل المعارف عن الكون والإنسان فاستكشفوا الأرض وباطنها، والفضاء وأرجاءه، والبحار وأعماقها، ووقفوا على سنن التسخير والقوانين التي أودعها الله في الطبيعة، وبرّزوا في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطبّ والهندسة وغيرها، وفجّروا الذرّة، وغاصوا في أسرار الخلايا والجينات، ودرسوا خبايا جسم

(١) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩٤.

الإنسان وخفاياه، ووسّعوا نطاق العلوم الإنسانية والاجتماعية، وأحدثوا اكتشافات واختراعات مذهلة بهرت العقول، وغيّرت مجرى حياة البشر في جميع الميادين، لكن نتج عن هذا التفوّق العلمي مشكلتان أساسيّتان:

الأولى: استخدام هذا العلم فيما يهلك الإنسان والبشرية والحياة، كالأسلحة الفتّاكة والتصرّف الجنوني في الخلايا والجينات لتغيير خلق الله، فنتج عن ذلك أمراض غريبة كجنون البقر، وانفلونزا الطيور، وانفلونزا الخنازير، تنذر بالمزيد ممّا يهدّد النوع البشري والكون كلّه.

الثانية: الغرور والغطرسة، حتى توهم بعض هؤلاء أنه مستقل بنفسه غير محتاج إلى الله سبحانه وتعالى، أو إلى دين يقوده ويوجهه.

إنّ الغرب ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧].

فهو شديد الافتخار والاغترار بإنجازاته، وهي إنجازات لا ينكرها أحد، ولا يكابر فيها، بل امتدّ نفعها إلى البشريّة كلّها، لكن المشكلة تكمن في غرور الغربيّين بذلك حتّى أنساهم خالقهم وحدود آدميّتهم، ومال بهم إلى الاستخفاف بالله والدين والغيب؛ لاعتقادهم أنّ العلم الّذي يمتلكون ناصيته يغنيهم عن كلّ ذلك؛ لأنّه -في نظرهم- يجيب عن كلّ الأسئلة، ويحلّ جميع المشكلات، فلا يترك موضعًا لدين ولا وحي ولا نبوّة، وذلك هو الاستغناء الممقوت الذي لا يفسد العلاقة بالله فحسب، بل يلقي بظلاله على البشريّة في هذه الحياة، فالغرب أبدع في الماديات، وأفلس في الروحيات، وعظّم من شأن العقل، وأهمل القلب، واعتنى بجسم الإنسان طبيًّا ورياضيًّا ومعيشيًّا وجماليًّا إلى حدّ الإسراف، وأهال التراب على الروح، بل ازدراها وقلّل من شأنها، ووضعها في خانة الأوهام، فجلب الشقاء لنفسه وكان قدوةً سيّئةً للبلدان والشعوب، وقد أضحت بلاد الازدهار هي مرتع الانتحار، وانتشرت هناك العيادات النفسية، وتكاثرت بشكل عجيب عساها تخلّص الإنسان من نفسه بعد سيطرة الأمراض النفسية والقلق والاضطرابات والانهيارات العصبيّة عليه رغم علمه وثرائه، ورغد عيشه.

قال سيّد قطب رحمه الله: «العلم -بغير إيمان- فتنة، فتنة تعمي وتطغي؛ ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهريّ يوحي بالغرور؛ إذ يحسب صاحبه أنه يتحكّم بعلمه هذا في قوى ضخمة، ويملك مقدّرات عظيمةً، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها!

وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها، وهي

موجودة في هذا الكون، ولا سلطان له عليها، بل لا إحاطة له بها، بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة؛ وبذلك ينتفخ فيأخذ أكثر من حقيقته، ويستخفّه علمه، وينسى جهله، ولو قاس ما يجهل إلى ما يعلم، وما يقدر عليه في هذا الكون إلى ما يعجز حتّى عن إدراك سرّه لطامن من كبريائه، وخفّف من فرحه الذي يستخفّه»[1].

ونحن لا ننكر وجود علماء قادتهم المعرفة إلى الإيمان؛ لاتصافهم بالتجرّد والتواضع، لكنّهم قلّة نوعية، بينما تتمادى الأغلبية في خطّ عام ينحو منحى الغرور والاستغناء: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحجّ: ٤٦].

إنّ الحلّ يكمن في بديل تنتجه الأمّة الشاهدة يعيد للعلم وجهه الحقيقي، يسير بمعيّة الإيمان، فيكتسب التواضع والخشوع؛ لينفع ولا يضرّ، ويوفّر سعادة الدنيا والآخرة معًا.

قال سيد قطب رحمه الله: «ولو اتصلت العلوم الكونية التي تبحث في تصميم الكون، وفي نواميسه وسننه، وفي قواه ومدخراته، وفي أسراره وطاقاته بتذكر خالق هذا الكون وذكره، والشعور بجلاله وفضله؛ لتحوّلت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة، ولاستقامت الحياة -بهذه العلوم- واتجهت إلى الله.

ولكن الاتجاه المادي الكافر يقطع ما بين الكون وخالقه، ويقطع ما بين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأبدية، ومن هنا يتحول العلم -أجمل هبة من الله للإنسان- لعنة تطارد الإنسان، وتحيل حياته إلى جحيم منكرة، وإلى حياة قلقة مهددة، وإلى خواء روحي يطارد الإنسان كالمارد الجبار!

إن الذين يكتفون بظاهر من الحياة الدنيا، ويصلون إلى أسرار بعض القوى الكونية بدون الاتصال بخالق الكون يدمّرون الحياة، ويدمّرون أنفسهم بما يصلون إليه من هذه الأسرار، ويحوّلون حياتهم إلى جحيم نكد، وإلى قلق خانق، ثم ينتهون إلى غضب الله وعذابه في نهاية المطاف»[2].

رابعًا: التخلف عن ركب الحضارة:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

فمن أراد الانتفاع بعقله فيما ينفعه وينفع الخلق فعليه بالتأمل والتفكر في آيات الله المسطورة في كتابه، وآيات الله المبثوثة في كونه فهما مفتاحا التحضر في الدنيا والسعادة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٠١.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٤٥.

في الآخرة؛ لأن ظلمات العقل وفساده أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن.

فإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

علم أنه من معرفة اللّيالي تعرف الأشهر، ومن معرفة الأشهر تعرف السّنة، وفي ذلك رفقٌ بالنّاس في ضبط أمورهم وأسفارهم ومعاملات أموالهم وهو أصل الحضارة، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى أنّ معرّفة ضبط التّاريخ نعمةٌ أنعم اللّه بها على البشر[١].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

علم أن ذلك من معجزات القرآن الغيبيّة العلميّة، وأنّها إيماءٌ إلى أنّ اللّه سيلهم البشر اختراع مراكب هي أجدى عليهم من الخيل والبغال والحمير[٢].

ويعلم أيضًا أن اللّه ألهم النّاس لاختراعها، فهو سبحانه وتعالى الّذي ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذّكاء والعلم، وبما تدرّجوا في سلّم الحضارة، واقتباس بعضهم من بعضٍ إلى اختراعها، فهي بذلك مخلوقةٌ للّه تعالى؛ لأنّ الكلّ من نعمته[٣].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

علم نعمة الإلهام إلى اتّخاذ المساكن، وذلك أصل حفظ النّوع من غوائل حوادث الجوّ من شدّة بردٍ أو حرٍّ، ومن غوائل السّباع والهوام، وهي أيضًا أصل الحضارة والتّمدّن؛ لأنّ البلدان ومنازل القبائل تتقوّم من اجتماع البيوت، وأيضًا تتقوّم من مجتمع الحلل والخيام[٤].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قصة داود عليه السلام اعتبر بما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة، وحفظ الله لملكه؛ لأنه كان كثير الرجوع إلى ما يرضي الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وإذا قرأ أو استمع ثم تفكر في قصة سبأ اعتبر بما بلغ ملكها من عظمة الحضارة،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٩٦.
(٢) المصدر السابق ١٤/ ١١١.
(٣) انظر: المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق ١٤/ ٢٣٧.

لكنها عوقبت بزوالها؛ لأنهم كفروا نعمة الله عليهم، فمن لم يشكر النّعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥-١٩].

فقد أتم الله عليهم النعمة بتوطيد أسس الحضارة باقتراب المدن، وتيسير الأسفار، فلمّا تمّت النّعمة بطروها، فحلّت بهم أسباب سلبها عز وجل عنهم.

ومن ذلك يتضح أن الظلمات تسد منافذ التفكر والتأمل في العقول، فلا يعترف الباحث في مدخرات الكون بالخالق، فيحرم إلهامه له بما ينفعه وينفع الخلق.

وهو عند إيمانه بالله وخروجه من الظلمات الكثيفة يلهمه الله الابتكارات والاختراعات النافعة للبشر؛ لترتقي بحياتهم إلى الكمال الإنساني الذي قدره الله لهم متعبّد لله بأجل العبادات؛ لأن الله أثنى على أصحاب العقول النيرة، والفطر المستقيمة في كتابه في أكثر من ستة عشر موضعًا، تارة بأولي الألباب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وتارة بأولي النهى، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤].

وتارة بذي حجر، قال تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

خامسًا: التعاسة في الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

قال ابن القيم رحمه الله: «وفسّرت المعيشة الضّنك بعذاب القبر، والصّحيح أنّها في الدّنيا وفي البرزخ، فإنّ من أعرض عن ذكره الّذي أنزله، فله من ضيق الصّدر،

ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدّة الحرص والتّعب على الدّنيا، والتّحسّر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام الّتي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب؛ لسكرته، وانغماسه في السّكر، فهو لا يصحو ساعةً إلّا أحسّ وشعر بهذا الألم، فبادر إلى إزالته بسكرٍ ثانٍ، فهو هكذا مدّة حياته، وأيّ عيشةٍ أضيق من هذه لو كان للقلب شعورٌ؟»[1].

فمن اتبع هدى الله «فهو في أمان من الضلال والشقاء، والشقاء ثمرة الضلال، ولو كان صاحبه غارقًا في المتاع، فهذا المتاع ذاته شقوة، شقوة في الدنيا وشقوة في الآخرة، وما من متاع حرام إلا وله غصة تعقبه، وعقابيل[2] تتبعه، وما يضل الإنسان عن هدى الله إلا ويتخبط في القلق والحيرة والتكفؤ والاندفاع من طرف إلى طرف، لا يستقر ولا يتوازن في خطاه، والشقاء قرين التخبط، ولو كان في المرتع الممرع!

ثم الشقوة الكبرى في دار البقاء، ومن اتبع هدى الله فهو في نجوة من الضلال والشقاء في الأرض، وفي ذلك عوض عن الفردوس المفقود، حتى يثوب إليه في اليوم الموعود»[3].

سادسًا: العذاب في الحياة الآخرة:

أخبر سبحانه عن مصير من أعرض عن النور الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن له عذاب البرزخ الذي هو أول منازل الآخرة، وعذاب دار البوار في الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

أي: تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ فهذا في البرزخ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

فهذا في القيامة الكبرى، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فقول الملائكة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٢٣.
(٢) يقال العقبول، والجمع عقابيل، وهو باقي المرض في الجسم، يقال: بفلان عقابيل من مرضه إذا كانت به بقيّة منه.
انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ١١٢٧، تاج العروس، الزبيدي ٣/ ٤٢١.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٥٥.

﴿الْهُونِ﴾ المراد به: عذاب البرزخ الّذي أوله يوم القبض والموت، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

فهذه الإذاقة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة.

فهذا مصير من أعرض عن نور الله إلى ظلمات الضلال.

وروى مسلم بسنده عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: كنت قائمًا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء حبرٌ من أحبار اليهود فقال: السّلام عليك يا محمّد، فدفعته دفعةً كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله، فقال اليهوديّ: إنّما ندعوه باسمه الّذي سمّاه به أهله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ اسمي محمّدٌ الّذي سمّاني به أهلي) فقال اليهوديّ: جئت أسألك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أينفعك شيءٌ إن حدّثتك؟) قال: أسمع بأذنيّ، فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعودٍ معه، فقال: (سل)، فقال اليهوديّ: أين يكون النّاس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هم في الظّلمة دون الجسر)[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا الظلم، فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة)[2].

ظاهر الحديث: «أن الظالم يعاقب يوم القيامة بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]»[3].

موضوعات ذات صلة:

الكفر، الليل، النور

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما، ١/ ٢٥٢، رقم ٣١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٦، رقم ٢٥٧٨.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي ٦/ ٥٥٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الظن

المعنى اللغوي:

الظن لغةً: الظاء والنون أصل صحيح يدل على معنيين مختلفين: يقين وشك، فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظنًا، أي: أيقنت، والأصل الآخر: الشك، يقال: ظننت الشيء، إذا لم يتيقنه، ومن ذلك الظنة: التهمة. والجمع: الظنن [(١)].

وبعض أهل اللغة لا يرتضي جعل اليقين المطلق من معاني مادة الظن وإنما يقيده بأنه اليقين الذي لم يتيقن عيانًا ويسمى يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه إلا علم [(٢)]، فقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر: أظن هذا إنسانًا، وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد، كقوله تعالى: ﴿فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣] [(٣)].

كما نجد أن في بعض المعاجم اللغوية كلمات تعود إلى مادة (ظن) غير الشك واليقين، ففي تهذيب اللغة: «الظنون من النساء التي لها شرف تتزوج وإنما سميت ظنونًا لأن الولد يرتجى منها» [(٤)].

وبالنظر إلى جميع المفردات اللغوية التي ترجع إلى مادة ظن نجد أنها ترجع إلى التخمين والحدس [(٥)]

المعنى الاصطلاحي:

هناك تعاريف عديدة للظن عند علماء التفسير في ثنايا تفسيرهم لآيات الظن، بينها عوامل مشتركة وإن كان فيها اختلاف في بعض الألفاظ [(٦)]. فمنهم من عرفه بأنه: تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر. وقيل: الظن ميل النفس إلى أحد معتقدين متخالفين، دون أن يكون ميلها بحجة، ولا برهان [(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٢، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٦٠.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢٧٢.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣٨.
(٤) تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٣٦٤.
(٥) القطع والظن عند الأصوليين، سعد الشثري ١/ ٨١.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٧.
(٧) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ١٥٦.



ويذكر ابن عطية أن الظن قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه [1].

وكثر إطلاقه في القرآن على الاعتقاد الباطل كقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام:١١٦].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٣٨.

الظن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ظنن) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(٩٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	٢٦	﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن:٧]
التثنية	١٥	﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين:٤]
الجمع	٢١	﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨]
الصفة المشبهة	١	﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح:٦]

وورد الظن في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الشك والحسبان: ومنه قوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢] يعني: ما نشك إلا شكًّا ولسنا على يقين من قيام الساعة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾ [الانشقاق: ١٤]. أي: حسب أن لن يرجع بعد موته لشكه في البعث.

الثاني: اليقين: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]. يعني: يوقنون.

الثالث: التهمة: ومنه قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. يعني: تتهمون الاتهامات الباطلة السيئة.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٣٩-٤٤٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الطاء ص٧٣٥-٧٣٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣٣٣، الوجوه والنظائر، العسكري، ص٣٣٢-٣٣٣، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي، ٣/ ٥٤٥-٥٤٧، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٤٢٤-٤٢٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الشك:

الشك لغة:

قال ابن فارس رحمه الله في معنى الشك في اللغة: «الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض وهو يدل على التداخل، ومن هذا الباب الشك الذي هو خلاف اليقين، إنما سمي بذلك لأن الشاك كأنه شك له الأمران في مشك واحد وهو لا يتيقن واحدًا منهما، فمن ذلك اشتقاق الشك»[١].

الشك اصطلاحًا:

هو اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين، أو لعدم الأمارة فيهما[٢]. وقال الجرجاني رحمه الله: «الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، وقيل: الشك ما استوى طرفاه، وهو الوقوف بين الشيئين لا يميل القلب إلى أحدهما، فإذا ترجح أحدهما ولم يطرح الآخر فهو ظن، فإذا طرحه فهو غالب الظن وهو بمنزلة اليقين»[٣].

الصلة بين الشك والظن:

أن الظن شك مع ميل إلى أحد معتقديه[٤]؛ فالنسبة بين الشك والظن هي نسبة العموم والخصوص المطلق، العموم في طرف الشك، والخصوص في طرف الظن، فالشك يساوي عدم القطع، إذ كل علم غير قطعي فهو مشوب بالشك، أمّا الظن فلا يطلق إلا بشأن العلم غير القطعي المستند إلى أمارة. لذا بوسعنا أن نسمّي كلّ ظن شكًا، ولكن ليس كل شكٍ بظن.

٢ اليقين:

اليقين لغة:

هو العلم و زوال الشك. يقال منه: يقنت الأمر يقنًا، وأيقنت، واستيقنت، وتيقّنت، كلّه بمعنًى. وأنا على يقين منه. وإنّما صارت الياء واوًا في قولك: موقنٌ؛ للضمة قبلها. وإذا

(١) مقاييس اللغة ١/ ٥٢٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٦٥.
(٣) التعريفات ص ١٦٨.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٧٦. وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي ١/ ١٦١؛ فتح القدير، الشوكاني ١/ ٧٩.

صغّرته رددته إلى الأصل وقلت: مييقنٌ. وربّما عبّروا عن الظنّ باليقين، وباليقين عن الظنّ[١].

اليقين اصطلاحًا:

هو العلم بالشيء عن نظر و استدلال، أو بعد شك سابق. ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر؛ فيكون أخص من الإيمان ومن العلم[٢]. وقيل: هو العلم الذي لا يقبل الاحتمال. وقد يطلق على الظن القوي إطلاقًا عرفيًا؛ حيث لا يخطر بالبال أنّه ظن، ويشتبه بالعلم الجازم فيكون مرادفًا للإيمان والعلم[٣].

الصلة بين اليقين والظن:

إن ثمّة صلة بين الظن واليقين تحسن الإشارة إليها في هذا الموضع، فإطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير، وقد ورد ذلك في كتاب الله، والعرب تطلق الظن بمعنى اليقين ومعنى الشك[٤] أيضًا، فبعض الظن يطلق مرادًا به اليقين، وأما اليقين فلا يطلق على الظن.

٣ الحسبان:

الحسبان لغة:

بكسر الحاء بمعنى الظن[٥]. وحسب بكسر السين: ظن، مضارعه بالفتح والكسر، وحسب بالفتح من العدد ومضارعه بالضم، ومنه الحساب والحسبان...[٦].

الحسبان اصطلاحًا:

أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله فيحسبه، ويعقد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك[٧]. وقيل: «هو قوة أحد النقيضين على الآخر كالظن، بخلاف الشك فهو: الوقوف بينهما، والعلم فهو القطع على أحدهما[٨].

الصلة بين الحسبان والظن:

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٣٠٠، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٥٧.
(٢) قيل: ولذلك لا يوصف الباري سبحانه، بأنه متيقن. ولا يقال: تيقنت أن السماء فوقي. فكل يقين علم، وليس كل علم يقينًا. انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٧٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٣٧.
(٤) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص ١٧.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ص٢٦٣.
(٦) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٨.
(٧) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ١٥٤.
(٨) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٥٠.



الظّن ضرب من الاعتقاد، وقد يكون حسبان لكن ليس باعتقاد. قال أبو هلال: «أصل الحسبان من الحساب، تقول: أحسبه بالظّن قد مات. كما تقول: أعدّه قد مات. ثمّ كثر حتى سمي الظّن: حسبانًا على جهة التّوسع، وصار كالحقيقة بعد كثرة الاستعمال»[(١)]. وقد فسرت آيات الحسبان بالظن في القرآن، كما جاء التجوز عن الظن بالحسبان في بعض الآيات؛ مما يشير إلى أن هناك صلة بين المعنيين.

٤ العلم:

العلم لغة:

العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، من ذلك العلامة، وهي معروفة، والعلم: الراية، والجمع: أعلام، والعلم: نقيض الجهل، وتعلمت الشيء: أخذته، وتعلمت أي: علمت[(٢)].

العلم اصطلاحًا:

الاعتقاد الراجح المانع من النقيض.

وقيل: إدراك الشيء بحقيقته[(٣)].

الصلة بين العلم والظن:

العلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقادًا راجحًا، إلا أنّ العلم راجح مانع من النقيض، والظن راجح غير مانع من النقيض. فلمّا اشتبها من هذا الوجه؛ صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر[(٤)]. والعرب تستعمل الظن في موضع العلم فيما كان من علم أدرك من جهة الخبر أو من غير وجه المشاهدة والمعاينة، فأما ما كان من علم أدرك من وجه المشاهدة والمعاينة فإنها لا تستعمل فيه الظن.

٥ الوهم:

الوهم لغة:

وهم إلى الشيء بالفتح يهم وهمًا، إذا ذهب وهمه إليه وهو يريد غيره، ووهم يوهم وهمًا - بالتحريك - إذا غلط[(٥)].

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ٣٤٣.
(٢) انظر: مقاييس االلغة، ابن فارس ٤/ ١٠٩، مجمل اللغة، ابن فارس ١/ ٦٢٤.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ١/ ٥٠٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٧.
(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/ ٢٠٤٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ٢٣٤؛ لسان

الوهم اصطلاحًا:

هو الطرف المرجوح غير الجازم من المترددين، وهو أضعف من الظَّنّ وكثيرا ما يستعمل في الظَّنّ الفاسد [1].

الصلة بين الوهم والظن:

الوهم أضعف من الظن بل وأضعف من الشك، كما جاء ذلك في تعريف ابن جزي رحمه الله حيث قال: «الظن: ترجيح أحد الاحتمالين، وقد يقال الظن بمعنى الشك، وبمعنى الوهم الذي هو أضعف من الشك» [2].

العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٣.

(١) انظر: الكليات، الكفوي ص٩٤٣؛ مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٢، ٦٣.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١/ ١٦٣.



أنواع الظن

تختلف الظنون في القرآن الكريم مابين حسن وآخر سيئ، فالظن مصدر يقع على الكثرة مع إفراد لفظه، لكن المصادر قد تجمع إذا اختلفت ضروبها، فقوله تعالى: ﴿ٱلظُّنُونَا﴾ يدل على اختلاف الظنون، وقد أشار إلى ذلك المعنى غير واحد من المفسرين عند تفسيرهم لقوله سبحانه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب:١٠][1].

أخرج الطبري عن قتادة قال:« الظن ظنّان: فظن منج، وظن مرد قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦]. قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ [الحاقة:٢٠] وهذا الظن المنجي ظنًّا يقينًا، وقال ها هنا: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت:٢٣] هذا ظن مرد[2].

وهذا في ذات الله، أما ما كان من ظن بين الناس، فقد قال سبحانه: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقل: اجتنبوا الظن كله؛ لأن الظن ينقسم إلى قسمين؛ القسم الأول: ظن خير بالإنسان، وهذا مطلوب أن تظن بإخوانك خيرًا ماداموا أهلًا لذلك، وهو المسلم الذي ظاهره العدالة، فإن هذا يظن به خيرًا، ويثنى عليه بما ظهر لنا من إسلامه وأعماله. القسم الثاني: ظن السوء، وهذا يحرم بالنسبة لمسلم ظاهره العدالة، فإنه لا يحل أن يظن به ظن السوء[3].

مما سبق يتبن أن الظنون تتنوع، وفيما يلي بيان لها:

أولًا: الظن الحسن:

ليس أريح لقلب العبد في هذه الحياة،

(١) فقد ظن المؤمنون النصر، وظن المنافقون أن يستأصل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته.
انظر: معالم التنزيل، البغوي ص١٠٣١؛ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٩٣؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٥٣؛ فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٢٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٠.

(٣) كما صرح بذلك العلماء، فقالوا رحمهم الله: «يحرم ظن السوء بمسلم ظاهره العدالة. أما ظن السوء بمن قامت القرينة على أنه أهل لذلك، فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به، ولهذا من الأمثال المضروبة السائرة: احترسوا من النّاس بسوء الظنّ، ولكن هذا ليس على إطلاقه، كما هو معلوم، وإنما المراد: احترسوا من الناس الذين هم أهل لظن السوء فلا تثقوا بهم، والإنسان لابد أن يقع في قلبه شيء من الظن بأحد من الناس لقرائن تحتف بذلك، إما لظهور علامة في وجهه، بحيث يظهر من وجهه العبوس والكراهية في مقابلتك وما أشبه ذلك، أو من أحواله التي يعرفها الإنسان منه أو من أقواله التي تصدر منه فيظن به ظن السوء، فهذه إذا قامت القرينة على وجوده فلا حرج على الإنسان أن يظن به ظن السوء. انظر: تفسير سورة الحجرات، ابن عثيمين ص ٣٢،٣٤.

ولا أسعد لنفسه من حسن الظن؛ فبه يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذي النفس، وتكدر البال، وتتعب الجسد. ومن خلال تعريف الظن وهو: ترجيح أحد الاحتمالين، نستطيع أن نعرّف حسن الظن بأنه: ترجيح لاحتمال الخير على احتمال الشر، سواء أكان ذلك في ذات الله أم بين الناس.

إن حسن الظن بالله عبادة قلبية جليلة؛ تتحقق بظن ما يليق به سبحانه، وما تقتضيه أسماؤه الحسنى وصفاته العلى، مما يؤثر في حياة المؤمن على الوجه الذي يرضي الله عز وجل.

ولحسن الظن بالله متعلقان:

الأول: بالنسبة لما يفعله سبحانه في هذا الكون فيجب حسن الظن بالله عز وجل فيما يفعله في هذا الكون، وأن ما فعله إنما هو لحكمة بالغة، قد تصل العقول إليها وقد لا تصل، وبهذا تتبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شيئا في الكون فعله لإرادة سيئة، حتى الحوادث والنكبات لم يحدثها الله لإرادة السوء المتعلق بفعله، أما المتعلق بغيره بأن يحدث ما يريد به أن يسوء هذا الغير فهذا واقع كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾[الأحزاب:١٧].

الثاني: متعلق بالنسبة لما يفعله سبحانه بالإنسان فيجب أن يظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن يعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص و الظن بأن الله يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لن يقبل منه، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب، فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، ولا يسيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه. وأما إن كان الإنسان مفرطا في الواجبات فاعلا للمحرمات، وظن بالله ظنا حسنا فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله إذ إن حكمة الله تأبى مثل ذلك[(١)].

تحسين الظن بالله تعالى أن يظن العبد أن الله فارج همه، وكاشف غمه، وذلك بتدبر الآيات والأحاديث الواردة في كرم الله وعفوه، وما وعد به أهل التوحيد. قال النووي رحمه الله: « قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى: أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه[(٢)].

وقد أمرنا سبحانه بإحسان الظن، فقد أخرج الثعلبي عن فضيل بن عياض في قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة:١٣٢] أي: محسنون بربكم الظن[(٣)].

وجاء في معنى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٢/ ٢٧٩.
(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ٢١٠.
(٣) الكشف والبيان ١/ ٢٤٦.

﴿الْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥] أحسنوا بالله الظن[١].

ولا شك أن لفظ الآية عام يتناول كل ما ذكر في تفسير هذه الآية والمخصّص يفتقر إلى دليل[٢].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (يقول اللّه تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خيرٍ منهم، وإن تقرّب إليّ بشبرٍ تقرّبت إليه ذراعًا، وإن تقرّب إليّ ذراعًا تقرّبت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[٣].

وفي الحديث النبوي الصحيح، عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاثة أيام يقول: (لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ باللّه عزّ وجلّ)[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (حسن الظنّ من حسن العبادة)[٥].

وكان السلف الصالح يكثرون من سؤال الله حسن الظن أمثال عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير[٦].

فحسن الظن بالله زاد المؤمن في طريقه

(١) وهو قول عكرمة. كما في: تفسير القرآن، الثوري ١/ ٥٩؛ تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٣٣٣؛ الدر المنثور، السيوطي؛ ١/ ٢٠٨؛ جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٠٦.

(٢) الجواهر الحسان، الثعالبي ١/ ١٥١. وقال الثعالبي: قيل في معنى ﴿وَأَحْسِنُوٓا﴾: أحسنوا في أعمالكم بامتثال الطاعات، روي ذلك عن بعض الصحابة، وقيل المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم.

(٣) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، رقم ٧٤٠٥؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم ٢٦٧٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم ٢٨٧٧، ٤/ ٢٢٠٥.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الظن حديث رقم ٤٩٩٣، ١٤/ ٣٢٩، والترمذي في الدعوات كما في تحفة الأحوذي، رقم ٣٨٤٣ من طريق شتير بن نهار عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعند أبي داود قال: سمير.
وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه.
وصحّحه ابن حبان ٦٣١، والحاكم ٤/ ٢٤١.
لكن شتير هذا ذكره البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحًا ولا تعديلًا، وجهله الدارقطني كما في سؤالات البرقاني رقم ٢١٢. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٢٣٤: نكرة؛ ولذا ضعف الألباني الحديث في الضعيفة، رقم ٣١٥٠.

(٦) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي ٤/ ٣٢٥ مصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٢٧٢؛ المعجم الكبير، الطبراني ٨/ ٦٥؛ حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا ص٤٥.

إلى ربه، وفي سلوكه مدارج السالكين إلى رب العالمين، فهو شحنة إيمانية يتعلق بها القلب بالرب.

ومن صور حسن الظن بالله التوكل عليه والثقة به سبحانه، فإذا عظمت ثقة الإنسان بربه، كانت له قوة معنوية تدفع عنه عوامل اليأس والقنوط، وهو من أعظم الأسباب التي يتحقق بها المطلوب و يندفع بها المكروه وتقضى الحاجات، وكلما تمكنت معاني التوكل من القلوب تحقق المقصود أتم تحقيق، و هذا حال جميع الأنبياء والمرسلين. فإبراهيم عليه السلام لما قذف في النار، روي أنه أتاه جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: «أمّا إليك فلا»[(١)]. فكانت النار بردًا و سلامًا عليه، ومن المعلوم أنّ جبريل كان بمقدوره أن يطفئ النار بإذنه سبحانه، ولكن ما تعلق قلب إبراهيم عليه السلام بمخلوق في جلب النفع و دفع الضر، بل قال بعزة الواثق بالله: «حسبنا الله ونعم الوكيل»[(٢)]، فجاء الأمر الإلهي: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء:٦٩].

والله يفعل و يقدّر ما يشاء؛ ولذلك يجب التوكل عليه سبحانه وحسن الظن به. ونفس الكلمة ردّدها الصحابة الكرام يوم حمراء الأسد، وذلك حينما أبلغهم الركب المارّ بهم بما قال أبو سفيان من أنه سيجمع الكرّة ليستأصل الرسول وأصحابه[(٣)]. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

إنّ أمر الله نافذ على أية حال، غير أن المتوكل على الله المحسن الظن به يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا. فالعبد إذا توكل على الله في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك، فإن الله كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له[(٤)].

وهذا ما لمحناه في قصة يعقوب عليه السلام وفقده الطويل ليوسف، وأمله الكبير في لقاءه حين يقول لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف:٨٧].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٧/ ٤٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، رقم ٤١٩٧، ٤/ ١٦٦٢.
(٣) الرحيق المختوم، المباركفوري ص٢٧٩.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦٩.

فلم ييأس من روح الله، بل أحسن الظن وعلّق كل ثقته به سبحانه في أنه سيردهم له، ويقر عينه بالاجتماع بهم، على الرغم مما يتعرض له من المصائب المتتالية[1].

وموسى عليه السلام لما خرج من المدينة هائمًا على وجهه، فاتفق أن كان مسيره في طريق يؤدي إلى أرض مدين حينئذ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القصص:٢٢].

توكل على الله فكفاه وكفّاه، فأبعده عن شر فرعون وما كان يهم به من قتل، ويسّر له أسباب رزقه. قال ابن عباس رضي الله عنه: (خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظن بربه)[2].

وتجلى أيضًا حسن الظن لدى موسى عليه السلام لمّا جاءه فرعون وجنوده، وأجمعوا كيدهم وبغيهم وظلمهم وعدوانهم فأسقط في يد ضعفاء النفوس، و قال بعض من مع موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء:٦١].

لا محالة هالكون، سيدركنا فرعون؛ قلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظًا وحنقًا، ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه؛ لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون فهي لابد كائنة. والله هو الذي يوجهه ويرعاه ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء:٦٢] فانفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون، ومضت آية في الزمان، تتحدث عنها القرون، فهل آمن بها الكثيرون ؟ [3].

وها هو القرآن الكريم يقصّ علينا أنّ ذا النون يونس عليه السلام كان قوي الثقة بأن الله لن يضيق عليه في شدته، فحقق الله ما أمّله، ونجاه من همه، وأزال غمه. ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء:٨٧].

ونبينا صلوات ربي وسلامه عليه خير من أحسن الظن بربه في موقف من أصعب المواقف. وفي ذلك يقول سبحانه عنه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة:٤٠].

(١) المصدر السابق ص٣٥٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٧٣.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٥٩٨؛ تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧.

هذا الموقف آية من آيات الله، اثنان أعزلان يتحديان قريشًا بكاملها بعددها وعددها، فيخرجان تحت ظلال السيوف، ويدخلان الغار في سدفة الليل، ويأتي الطلب على فم الغار، بقلوب حانقة، وسيوف مصلتة، وآذان مرهفة، حتى يقول الصديق رضي الله عنه: (يا رسول اللّه لو أنّ أحدهم رفع قدمه رآنا. فيقول صلى الله عليه وسلم وهو في غاية الطمأنينة ومنتهى السكينة: (ما ظنّك باثنين اللّه ثالثهما) [(١)].

وكما أنه يجب إحسان الظن بالخالق فكذلك الخلق، فلابد من حمل المسلم على الصلاح -حيث الأصل-، وأن لا يظن به إلا خيرًا، وأن يحمل ما يصدر منه على أحسن الوجوه، وإن بدا ضعفها، تغليبًا لجانب الخير على جانب الشر.

والله سبحانه وجّه عباده لهذا الخلق حين قال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢﴾ [النور:١٢].

فالمعنى أنه كان ينبغي للمؤمنين والمؤمنات أن يقيسوا ذلك الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد في حقهم، فهو في حق عائشة أبعد؛ لفضلها[(٢)]. وروي أن هذا النظر وقع لأبي أيوب الأنصاري فقال لزوجته: أكنت أنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك، وإنما هذا كذب، وإفك باطل [(٣)].

لقد أوجب الإسلام على المسلم أن يحسن الظن بإخوانه المسلمين، فلا يحل لأحد منهم أن يتهم غيره بفحش، أو ينسب إليه فجورًا، أو يسند إليه الإخلال بالواجب، أو النقص في الدين أو المروءة، أو أي فعل من شأنه أن ينقص من قدره، أو يحطّ من مكانته. بل قد أمر الله بالتثبت، ونهى عن تصديق الوهم، والأخذ بالحدس والظن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات:٦].

فالأصل في الإنسان العاقل أن يبني أحكامه ومواقفه على العلم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ثاني اثنين إذ هما في الغار) رقم ٤٢٩٥، ٤/ ١٧١٢.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ١٧٨. فإن قيل: لم قال: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ بلفظ الخطاب ثم عدل إلى لفظ الغيبة، في قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: (ظننتم)؟ فالجواب: أن ذلك التفات، قصد به المبالغة في التوبيخ، والتصريح بالإيمان الذي يوجب أن لا يصدق المؤمن على المؤمن شرًا. التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٦١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٥٦.

ثانيًا: الظن السيئ:

من خلال تعريف الظن وهو ترجيح أحد الاحتمالين، نستطيع أن نعرف سوء الظن بأنه: اعتقاد جانب الشر، وترجيحه على جانب الخير في ما يحتمل الأمرين معًا[(١)].

وقيل: هو الاتهام بغير دليل. أو كما قال البعض: هو غيبة القلب، يحدث نفسه عن أخيه بما ليس فيه. أو هو: حمل التصرفات، قولًا وفعلًا، على محامل السوء والشكوك[(٢)].

وسوء الظن بالله أبلغ في الذنب من اليأس والقنوط، وكلاهما كبيرة، وذلك لأنه يأس وقنوط وزيادة؛ لتجويزه على الله تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده، فهو أعظم إثمًا وجرمًا[(٣)].

قال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾[آل عمران: ١٥٤].

فالذي يظن به جل وعلا أنه يفعل الأشياء لا عن حكمة، فإنه قد ظن به ظن النقص، وهو ظنّ السوء الذي ظنّه أهل الجاهلية. وهو أيضًا ظن المنافقين: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح:٦].

سوء الظن بالله هو ظن ما لا يليق به تعالى وبحكمته، و بوعده الصادق. فمن ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، فذلك ظن السوء[(٤)].

فظنّ السّوء آفة الآفات، وأصل البليّات، فما كفر كافر ولا أشرك مشرك ولا ابتدع مبتدع بدعة في العقائد كالقدرية، والجبرية، والخوارج، والمرجئة، وغيرها إلا وأصل ذلك ظنّ السّوء. وكل هذا من ظلم النفس الذي هو صورة من صور سوء الظن فملكة سبأ حينما رأت الصرح حسبته لجة؛ فظنت أن سليمان يريد أن يغرقها، ثم لما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير، علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٤﴾ [النمل:٤٤].

فهي تعني بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ

(١) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم، مجموعة مؤلفين، ١٠/ ٤٦٥٢.

(٢) تصنيف الناس بين الظن واليقين، بكر أبو زيد ص٣٢.

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر، ابن حجر الهيتمي ١/ ٢٢٩.

(٤) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٢٩.

﴿نَفْسِي﴾ الظن الذي ظننت بسليمان عليه السلام[١].

إن سوء الظن بالمسلمين كبيرة من كبائر الذنوب، فهو محرم بنص قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات:١٢].

وسبب تحريمه: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لنا أن تعتقد في غيرنا سوءًا إلا إذا انكشف لنا بعيان لا يقبل التأويل[٢]. ثم إننا نلحظ أنه عز وجل قال: ﴿ٱجْتَنِبُواْ﴾ بلفظ الأمر، ولم يقل:(لا تظنوا) بلفظ النهي، مع أن اجتناب المنهي أشد من فعل المأمور، لقوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيءٍ فدعوه»[٣].

والنهي عند الأكثرين للتحريم بخلاف الأمر؛ فإن فيه خلافا. فالجواب: أنه لو قيل: لا تظنوا كان النهي عاما في جميع الظن، والمراد إنما هو بعض الظنون، فأتى فيه بلفظ الأمر وفي ضمنه النهي، لأن مادة الاجتناب تدل عليه، وعلق النهي بأكثر الظن لا بجميعه.

وتتضح حرمة سوء الظن بمقياسها الكبير بالدم والعرض والمال مما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث تثبت ذلك، فعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ويقول: (ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والّذي نفس محمّدٍ بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند اللّه حرمةً منك، ماله ودمه وأن نظنّ به إلاّ خيرًا)[٤].

فالحديث نص على اقتران ظن السوء بالاعتداء على الآخرين بالدم والمال والعرض، مع أن سوء الظن هو جريمة معنوية، بخلاف الدم والمال والعرض فهم جريمة مادية.فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو البيّنة، فإذا لم يكن كذلك، وخطر لك وسواس سوء الظن، فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر.

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٩٦. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢١٣.

(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة ٦/ ٢٦٥٨، الحديث رقم ٦٨٥٨، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله تعالى، والإمام مسلم في صحيحه ٢/ ٩٧٥ الحديث رقم ١٣٣٧، باب فرض الحج مرة في العمر.

(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن، باب حرمة دم المؤمن، حديث رقم ٣٩٣٢؛ وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ٣٤٢٠؛ و صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم ٢٤٤١.

وسلم من هذا النوع من الظن، فقال: (**إيّاكم والظّنّ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث**)[1].

لا شك أن الكذب كبيرة من الكبائر، والرسول صلى الله عليه وسلم جعل الظن من أكذب الكذب وأكبره؛ لأن من ظن ظنّ السوء حملته نفسه على أن لا يرى إلا السوء، ولا يحمل القول ولا يرى في الفعل إلا جانب السوء، فيكون قد جمع من المساوئ ما هو أعظم من الكذب. وأمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان، فينفر عنه نفورًا ما ويستثقله، ويفتر عن مراعاته، وتفقده، وإكرامه، والاغتمام بسببه. فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه، فلا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل ولا في القلب ولا في الجوارح. أما في القلب: فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح: فبالعمل بموجبه.

وفي التاريخ الإسلامي نجد أنّ حادثة الإفك ما هي إلا سوء الظن، حيث ظن المنافقون وغيرهم الظنون السيئة في عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنة خليله رضي الله عنهما، والتي عظمها سبحانه وجعلها من البهتان العظيم؛ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾[النور:١٦].

إن المنافقين لمّا فشلوا في محاولاتهم التخذيلية، وخابت آمالهم في هزيمة المسلمين عبر صراعهم مع الوثنين واليهود، تحولوا إلى حلقة جديدة من سلسلة الإيذاءات والمحن التي نالها منهم المسلمون، وذلك من خلال أسلوب التخريب الداخلي بنشر الإشاعات المغرضة الهدّامة، التي من شأنها أن تزلزل بنيان المجتمع الإسلامي وتشل حركته. ولكن حادث الإفك كان خيرًا في الآجل والعاجل؛ من حيث فوائده العظيمة، وصدق الله إذ قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور:١١].

فمن فوائده: أن الله أراد أن يضرب بوقوعه المثل للمؤمنين بأن الاتهام الكاذب (سوء الظن) لم يبرأ منه سيد البشر وأفضل الناس، والمؤمن قد يبتلى بشيء من سوء ظن أو إشاعة تمس دينه، أو عرضه؛ فلا يتسرع في مواجهة مثل هذه الحوادث، بل يجب على من ابتلي بشيء من ذلك؛ أن يتجمّل بالصبر، ويتصرّف بحكمة وروية، فالمنافقون موجودون إلى وقتنا الحالي، وصفاتهم مازالت وستبقى كما بيّنها لنا

---

(١) سبق تخريجه.
ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: « إيّاكم والظّنّ » أي احذروا اتّباع الظن، أو احذروا سوء الظن. والظن: تهمة تقع في القلب بلا دليل. وليس المراد ترك العمل بالظن الذي تناط به الأحكام غالبًا، بل المراد ترك تحقيق الظن الذي يضر بالمظنون به.
انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داوود، عبد العظيم آبادي ١٠/ ٤٤٥.

القرآن الكريم. وهذا لا يعني أن نتمنّى وقوع الشر طمعًا أن يتولّد منه الخير، ولكن إن وقع فتفاؤلنا يغرينا أن نتحسس في طوايا المحن منحًا، فالفأل الحسن منعة لنا بإذن الله من أن يغلبنا التشاؤم فنستسلم للشر. على أنه ينبغي أن لا نفرط في التفاؤل فيؤول بنا إلى أن نهوّن من غوائل الشر و نهمل مواجهته، فيصبح التفاؤل نفسه شرًا لنا لأننا أفرطنا فيه. ومن حادثة الإفك علم الناس من هم المنافقون الذين يعملون على خلخلة المجتمع المسلم، والعمل على هز أركانه ؟! كما علم المسلمون كيف يواجهون مثل هذه الإشاعات؟! وعلموا أن الله يدافع عن الذين آمنوا، ويفضح كل خوان كفورٍ. فسوء الظن أمره خطير، وخطره على المسلمين أعظم منه على المنافقين أنفسهم. وحسبنا أن نعلم أن مصيبة أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهزائمها في هذه الأيام جاءت من منافقيها الذين تسللوا داخل صفوفها، فأفسدوا تراثها، وأعملوا معاولهم في عقيدتها، حتى إذا نخرت دوحة الأمة من داخلها؛ يسر على العدو الخارجي من الصهاينة كسرها في سهولة [(١)].

(١) من لطائف التفسير بتصرف، أحمد فرح عقيلان ١/ ٥٢.

الظن اليقيني

قد يعبر بالظن عن اليقين؛ لأن في الظن طرفًا منه [(٢)]. ولعل هذا الطرف هو الرجحان. فبين الظن و اليقين- قدرًا مشتركًا وهو: الرجحان وتأكد الاعتقاد، فيتجوّز بالظن عن اليقين.

فالظن يقع موقع اليقين في الأمور المحققة، وعندما نتتبع الآيات التي ورد فيها الظن بمعنى اليقين في كتاب الله نجد أنه في معناه أقوى من اليقين فهو علم مالم يعاين؛ بدليل أن ما بعده لا يحتمل الشك أبدًا أو تشوبه ريبة في صحته؛ لأنه من ثوابت العقيدة التي لا مجال فيها للشك والارتياب.

وقد ذكر القرآن صورًا لهذا الظن اليقيني منها:

أولًا: ملاقاة الله:

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦].

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٩].

نلحظ ورود فعل الظن فيها جزءًا من سياق الحديث عن عقيدة البعث واستقرارها في نفوس المؤمنين، وهذه الأمور متعلقة بالآخرة، وكما جاء عن مجاهد رحمه الله: إن ظن الآخرة يقين، بينما ظن الدنيا

(٢) بحر العلوم، السمرقندي ١/ ٧٦.

شك (١). كما نلحظ أن مفعول الظن في هذه الآيات، يحدّد دلالة اللفظ نفسه، فالمدح الذي استحقه أولئك الظانون أنهم ملاقوا الله لم يستحق لهم إلا بموجب هذا المفعول، فهو الذي ضمهم إلى فئة دون الأخرى أو بعبارة أدق (هو الذي حدد الفئة التي سيضمون إليها) ولو أنهم ظنوا أنهم (غير مبعوثين) مثلًا، لما كان تصنيفهم على ما هو عليه الآن في هذه الآيات، ولضمّوا بالوصف أو غيره من أدوات اللغة إلى الفئة المذمومة لا المحمودة (٢). والقراءات في هذه الآية تؤكد هذا الظن اليقيني، حيث قرئت ﴿يَظُنُّونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٦].

يعلمون أنه لا بد من لقاء الجزاء؛ فيعملون على حسب ذلك. وأما من لم يوقن بالجزاء، ولم يرج الثواب كانت عليه مشقة خالصة فثقلت عليه كالمنافقين والمرائين بأعمالهم (٣).

وقد فسّر الظن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن:١٢].

كذلك على معنى اليقين للأسباب السابقة نفسها؛ إذ وردت الآية - بما فيها لفظ الظن - في سياق حديث الجن الصالحين عن إيمانهم، جاعلين جزءًا من هذا الإيمان ظنّهم أنهم لن يعجزوا الله في الأرض ولن يعجزوه هربًا. ولو أنّ فاعل الظن كان من الجن غير الصالحين، أو أن المفعول كان ذا دلالة متنافية مع مفهوم الإيمان الصحيح في الإسلام، أو كلاهما معًا؛ لفسّر الظن على غير معنى اليقين كما في مواضعه الأخرى من السورة نفسها (٤).

ثانيًا: ملاقاة الحساب:

إن المؤمن يوقن ويعلم أن الموت ليس نهاية المطاف؛ بل بعده أمور جسام وهو على يقين أن الله يبعث هذه الأجساد من قبورها للعرض والحساب في يوم القيامة، فبعد مجيء الربّ تبارك وتعالى لفصل القضاء تعطى الكتب فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ كتابه بشماله فأما من أوتي كتابه الذي ضم حسناته بيمينه فيقول في فرح عظيم خذوا كتابي فاقرؤه، ويعلل لسلامة كتابه من السيئات فيقول: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١٨/ ٢٣٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا ص١٠٥.

(٣) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٢؛ وانظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ١٦٣.

(٤) وهي: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ انظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا. بتصرف يسير ص١٠٥.

﴿حِسَابِيَةْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:٢٠]، أي علمت أني ملاقٍ حسابية لا محالة [(١)]، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:٢٠].

يقول: أيقنت. ويكون المعنى: أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب، لأنه تيقن أن الله يحاسبه، فعمل للآخرة [(٢)].

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين. ومن الكافر فهو شك.

ثالثًا: وقوع العذاب يوم القيامة:

في يوم القيامة تنكشف الحقائق، فيحصل للكفار العلم بها لا يخالجهم في ذلك شك، كما قال تعالى عنهم أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].

وقال: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢] [(٣)].

ومن الآيات التي ورد فيها ظن وقوع العذاب يوم القيامة: قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة:٢٥]، وقوله: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت: ٤٨].

عندما نقرأ الآيات في سياقاتها نجد أنّ السياق الموضوعي للآيات واحد يتضمّن وصفًا لأحداث في وقوعها، ووصفًا لأحوال الأشخاص حاضري هذه الأحداث في أثناء وقوعها كذلك.

ففي الآية الأولى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف:٥٣] رؤية عينية ترتب عليها الظن، فالفعل (رأى) متعد لواحد (النار)، وترتب على الرؤية هذا الظن بموجب دلالة الفاء الرابطة بين الجملتين، وسابق على الرؤية يأس يقيني من نجدة الشركاء والآلهة التي آمنوا بها من دون الله الواحد ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ ثم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف:٥٢].

فلا يمكن مع الرؤية العينية، والإدراك العقلي السابق على الرؤية واللاحق بها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، لا يمكن مع نظرتحقق هذين الأمرين أن يكون (ظنّ) الكافرين مجرد شك، وأين إذن يكون اليقين بعد الرؤية العينية ؟! فالظن هنا إذن (معنى وفعلًا) له قوة الرؤية العينية المصاحبة

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٤/ ٥٤٣.
(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٩٩؛ معالم التنزيل، البغوي ص ١٣٤٤.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٩.

لإدراك عقلي وتأكيدها، ألا وهو اليقين التام.

وفي الآية الثالثة: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾ [فصلت:٤٨] لدينا الإدراك العقلي نفسه، بعد تخلي الشركاء تخليًا إراديًا مقصودًا ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾﴾ [فصلت: ٤٧].

ثم تأكيد لهذا التخلي بجملة تعقيبية لا تدع مجالًا للشك أو الاحتمال، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ بما في ذلك الفعل الماضي من قطعية المضي وحتمية الانقضاء، لتكون النتيجة بعد ذلك، اكتمال هذا الإدراك العقلي وتيقنه، أنه: (ما من محيص)[1].

قال الشنقيطي رحمه الله: «الظن هنا بمعنى اليقين؛ لأن الكفار يوم القيامة إذا عاينوا العذاب، وشاهدوا الحقائق، علموا في ذلك الوقت أنهم ليس لهم من محيص، أي ليس لهم مفر ولا ملجأ»[2].

وقال البغوي في قوله تعالى: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة:٢٥]: «تستيقن أن يعمل بها عظيمة من العذاب، والفاقرة: الداهية العظيمة، والأمر الشديد يكسر فقار الظهر. قال سعيد بن المسيب: قاصمة الظهر. قال ابن زيد: هي دخول النار. وقال الكلبي: هي أن تحجب عن رؤية الرب عز وجل»[3].

رابعًا: حصول الهلاك:

إذا تتبعنا الآيات التي جاء فيها ظن الهلاك وجدنا أن الظن فيها يقينيًا كما في قوله: ﴿وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧١].

فبنو إسرائيل لما رأوا الجبل فوقهم أيقنوا أنه سيقع عليهم؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو، ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن؛ لأنه لم يقع متعلقة وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها؛ فرفع الله الطور فوقهم[4]. وكذلك الحال في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

لقد ظهرت علامات الهلاك دفعة واحدة ثم إنه قد أحاط بهم وأحدق من كل جانب، يقول الرازي: رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود،

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا ص١٠٦.
(٢) أضواء البيان ٧/ ٩٣.
(٣) معالم التنزيل ص ١٣٦٧.
(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٢٩٩؛ تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ابن الجوزي ص١٩٢.

حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة؛ فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة. وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب. وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة، ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب، والخوف"[1].

وإنما كان ظن الهلاك يقينيًا في هذه الآيات لأمور منها: ماقرّره الزركشي من أن كل ظن يتصل به أن المشددة فهو يقين[2]، وما يحيط بهذا الظن من دلائل تنبئ عن تحقق وقوع هذا الهلاك.

خامسًا: اللجوء إلى الله:

من الآيات التي تبيّن هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص:٢٤][3]، وقوله جل جلاله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة:١١٧-١١٨].

إن لفظ الظن في هذه الآيات ورد في أمر من الأمور الثابتة في عقيدة المسلم مما يؤكد أنه ظن يقيني، ثم لو تأملنا سياق الآيات لوجدنا أن أشخاص القصتين من عباد الله الصالحين الذين يقعون فيما يقع فيه العبد الصالح من ذنب أو تفريط، ويهيئ الله لهم برحمته أن يروا من الآيات ما ينبههم إلى ذنبهم، فيتوبون عنه وتقبل توبتهم. كما نجد أن الموضوع الأساسي للقصتين هو قبول التوبة إذ يقول سبحانه في قصة الثلاثة: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة:١١٧-١١٨].

ويقول في قصة داود عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٧٠.
(٢) انظر: ص٦-٧ من هذا البحث.
(٣) قال الشنقيطي رحمه الله واعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح منه شيء. أضواء البيان ٧/ ١٧، ١٦.

﴿لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢٤-٢٥] فالظن في القصتين وقع على أمر صحيح، ودليل هذا قبول التوبة؛ وإلا كيف تقع التوبة على أمر لم يقع، فقد كان الظن إذن ظنًا بما هو حق.

ففي قوله تعالى في قصة داود: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ دليل على صدق ظن داود عليه السلام، وعمله من استغفار وركوع وإنابة دليل على استقرار هذا الظن في نفسه بما يقربه إلى اليقين. ولو أن الظن هنا بمعنى الحسبان؛ لورد في السياق تصديق هذا الظن وتأكيده، أو نفيه وتبرئة النبي عليه السلام منه، بدلًا من ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾، الذي هو استجابة لعمله (الاستغفار) المبني على إدراكه الفتنة وتيقنه منها، اللذين عبر عنهما بلفظ (ظن). وفي آية التوبة يكون قبول الله توبتهم، دليلًا على صدق التوبة وتمكنها من نفوسهم، وأنهم قد تابوا حقًا، أي أن ظنهم ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ ليس شكًا بل يقينًا وعملًا، اقتضى لهم المغفرة كما وعد الله سبحانه كل تائب صادق من عباده [(١)].

سادسًا: لحظة الفراق (الموت):

في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ [القيامة:٢٨].

فسر الظن بمعنى اليقين؛ لأنه إن كانت الروح قد بلغت التراقي واستبعد وجود الراقي، فلا بد أن الإنسان في هذه الحال قد أدرك بل علم واستيقن أنها آخر ساعة وهي ساعة الفراق، فتضافر الجملتين ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة: ٢٦-٢٧] واستحال النجاة، يجعلنا كل هذا نميل إلى وجاهة معنى اليقين هنا في لفظ الظن، وهي ساعة لا يخطئها إنسان، إذ يكون أقرب إلى الآخرة فيها منه إلى الدنيا [(٢)].

وقال المفسرون: «المراد أنه أيقن بمفارقته الدنيا، ولعله إنما سمي اليقين ههنا بالظن، لأن الإنسان ما دام يبقى روحه متعلقا ببدنه، فإنه يطمع في الحياة؛ لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [القيامة: ٢٠] ولا ينقطع رجاؤه عنها فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة، أو لعله سماه بالظن على سبيل التهكم [(٣)].

(١) الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، سلوى العوا ص١١٢.

(٢) المصدر السابق ص١٠٧.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٢٣١.

أوهام مظنونة

إن الطريق إلى المعرفة الصحيحة هو العلم الراسخ، فهو كالإيمان الذي يفتح القلب للنور، أما العلم السطحي واتباع الظنون فإنهما يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة. والبشر حينما يتركون هدي ربهم، سيجدون أنفسهم منغمسين في ظنون لا تغني عن الحق شيئًا.

فالاعتقادات التي لم يقم عليها أي دليل، هي ظنون مجردة من العلم، قائمة على الهوى، مخالفة للشرع، وكلها أوهام؛ وفيما يلي صورًا منها في القرآن:

أولًا: عدم قيام الساعة:

الحياة في نظر المشركين هي ما يرونه في الدنيا رأي العين، جيل يموت وجيل يحيا وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد بالموت، إنما هي الأيام تمضي، والدهر ينطوي فإذا هم أموات، فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم، ويلحق بأجسامهم الموت فيموتون[1] ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧].

وقد ظن الجن كما ظنت الإنس أن الله لن يبعث أحدًا، على قول من قال إن المقصود في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾[الجن:٧] هو البعث بعد الموت. يظنون ظنًا غامضًا واهيًا، لا يقوم على تدبر، ولا يستند إلى علم، ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور، ولا ينظرون إلى ما وراء ظاهرتي الحياة والموت من سر يشهد بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان، وبسبب آخر غير مرور الأيام[2].

إن المشركين لا يؤمنون ببعث ولا نشور، بل هم في شك ووهم وعمى من ذلك، ويعدونه من الأساطير والسحر، لعظمه واستحالته في تصورهم وما هذا إلا لجهلهم وسفههم. يقول الله مخبرًا عن حالهم بأسلوب بديع يبين لنا اضطرابهم في هذا الأمر: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل:٦٦ – ٦٨].

ويقول عز وجل: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٣٢.

(٢) المصدر السابق ٥/ ٣٢٣٢.

[هود:٧].

وقد رد الله عليهم ظنهم وزعمهم الباطل بأن هذا يسيرٌ عليه سبحانه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن:٧].

وقال: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ [القيامة:٣-٤].

بل قد نزّه نفسه سبحانه عما يترتب على هذا الوهم والظن من العبث في الخلق؛ فقال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾[المؤمنون:١١٥، ١١٦].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾: «أي: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثًا، بلا قصد، ولا إرادة منكم، ولا حكمة لنا. وقيل: للعبث. أي: لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم، لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل. ﴿وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ أي:لا تعودون في الدار الآخرة. كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾ [القيامة: ٢٦] يعني هملًا»[١].

فمن ظن بالله أن يترك خلقه سدى معطلين عن الأمر والنهي، ولا يرسل إليهم رسله ولا ينـزل عليهم كتبه بل يتركهم هملًا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء[٢]. قال ابن القيم رحمه الله واصفًا هذا الظن: «من ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء»[٣].

وقد أنكر سبحانه على من وهم وشك في ذلك؛ فالبعث من أمور العقيدة الغيبية ويحتاج إلى يقين؛ قال سبحانه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾ [المطففين: ٤-٥].

ومجيء الآيات بأسلوب الاستفهام الاستنكاري دليل على أن ظنهم في منتهى السوء الذي قد يوصل للكفر، بل عدّه سبحانه من الاستكبار حيث قال: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩﴾ [القصص:٣٩].

وهو من ظلم النفس كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف:٣٦-٣٥].

ففي قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٦٠.

(٢) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٣٠.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ٦٢.

قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذكره: هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب، دخل جنته -وهي بستانه- وهو ظالم لنفسه، وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكّه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه[(١)].

ثانيًا: دوام الدنيا ونعيمها:

هذه الدنيا التي يستغرق فيها بعض الناس، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع، ظانين دوامها؛ لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار. وقد ضرب سبحانه المثل لحالها بسرعة تقضيها وزوال نعيمها؛ فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: الآية ٢٤].

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم؛ اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها[(٢)].

لقد بين الله لنا حقيقة الدنيا، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال وهي نافعة لمن أعمل فكره وعقله وهداه الله، وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، بل يتعلق بأوهام ظانًا دوام هذه الدنيا، وأن نعيمها لن يزول.

ويظلم نفسه بهذا الظن كما أخبر سبحانه عنه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

فصاحب البستان قد ظلم نفسه؛ وذلك لسوء ظنه بالله تعالى وشكه في إبادة جنته (بستانه)، وقيام الساعة[(٣)].

(١) جامع البيان ١٥/ ٢٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣١٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٤٦.

ثانيًا: الشك في قدرة الله[1]:

إن الإيمان بكمال الله وقدرته على كل شيء من أمور العقيدة التي لا بد أن تبنى على اليقين، فهذا الخلق العظيم يحمل دلالة طلاقة قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. إلا أن بعض الناس قد ساقهم كبرياؤهم و ظنونهم السيئة إلى التعالي على الله والشك في قدرته سبحانه حتى على أنفسهم وهذا ما يفيده قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾ [البلد:٥].

فالإنسان في نفسه وقوته يظن أن لن يقدر عليه أحد، لأنه في عنفوان شبابه وقوته وكبريائه وغطرسته، فيقول لا أحد يقدر علي، أنا أعمل ما شئت، ومنه قوله تعالى في قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[فصلت: ١٥].

حتى الرب عز وجل يظنون أنه لا يقدر عليهم، وهذا لا شك بالنسبة للكافر، أما المؤمن فإنه يعلم أن الله قادر عليه، وأنه على كل شيء قدير فيخاف منه[2].

وكذلك الحال في يهود بني النضير حينما ظنوا أن حصونهم ستمنعهم من الله، فالمسلمون ظنوا عدم خروجهم من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزهم فيها، وهذا حسبان في محله. لكنهم هم تمادوا في ظنهم فأعجبوا بحصونهم وقوتها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها

(١) أثيرت شبهة حول القرآن يتهم النبي يونس بأنه شك في قدرة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].والجواب عن هذه الشبهة: أن القارئ لن يجد كتابًا عند أمة من الأمم يعظم الأنبياء كما عظمهم القرآن الكريم، فهو الكتاب الوحيد الذي ينزه الأنبياء عن الكبائر والنقائص، فضلًا عن الكفر والشرك بالله تعالى، فقد فضل الله يونس مع إخوانه الأنبياء على العالمين: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:٨٦] وإنما أتي القائل لهذه الشبهة من سوء فهمه للآية، فليس مقصودها أن يونس ظن أنه معجز الله بهربه، بل المعنى أنه ظن أن الله لن يقدر عليه، أي لن يضيق عليه ويلومه في ترك قومه حين لم يستجيبوا لدعوته، فهي كقول الله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧]: أي ضيّق عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وهذا المعنى منقول عن ابن عباس رضي الله عنه وعن غيره من التابعين. وحفاظًا على منزلة يونس بن متى في قلوب المؤمنين؛ نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيل المرء نفسه على هذا النبي الكريم بقوله: (**لا ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن متى**). أخرجه البخاري رقم ٣٣٩٦، وفي رواية: (**من قال: أنا خير من يونس بن متى؛ فقد كذب**). أخرجه البخاري رقم ٤٦٠٤، فثبت بذلك براءة القرآن من فرية الإساءة إلى يونس عليه السلام.
انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص٤٠٨.

(٢) تفسير القرآن الكريم، جزء عم، ابن عثيمين ص٢١٧.

أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

ومن الشك في قدرة الله الظن بأن الله محتاج إلى الولد أو الشريك، يقول ابن القيم رحمه الله «ومن ظن بأن لله سبحانه ولدًا أو شريكًا أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، أو أنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه فيدعونهم ويحبونهم كحبه، ويخافونهم كخوفه فقد ظن به أقبح الظن وأسواه»[1].

لقد نزّه الله نفسه عن الولد وبيّن أنّه في غنى، فقال عز وجل: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس:٦٨].

ففي قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهًا لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصوّر، فهو الغني بكل معاني الغنى عن كل ما يخطر وما لا يخطر على البال مما يقتضي وجود الولد. والمقتضيات هي التي تسمح بوجود المقتضيات، فلا يوجد شيء عبثًا بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية. له ما في السماوات وما في الأرض فكل شيء ملكه، ولا حاجة به سبحانه لأن يملك شيئًا بمساعدة الولد، فالولد إذن عبث، تعالى الله عن العبث![2].

ثم إنّ الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله والشك في قدرته سبحانه؛ فلما واجه إبراهيم عليه السلام الصّابئين[3] المشركين من قومه، ذكّرهم بما أوقعهم في شركهم، وهو ظن السّوء بربّ العالمين.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الصافات ٨٥-٨٧].

يقول ابن القيم رحمه الله في تقرير ذلك: «كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٠٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨٠٦.

(٣) الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون. فالأولون هم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢]. أما المشركون فهم الذي كانوا يعبدون الكواكب. الرد على المنطقيين، شيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٨٨.

لولا تعطيل كلامه سبحانه أو بعضه وظن السوء به ما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الصافات: ٨٦-٨٧].

أي: فما ظنكم به أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟ وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بهم كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على الاستقلال بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاسٍ فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟»(١).

إنّ المشرك إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم... ؛ وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده،... أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا؛ وهذا أصل شرك الخلق(٢).

(١) مدارج السالكين ٣/ ٣٤٧.
(٢) انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٦٢.

ثالثًا: عدم نصر الله لأنبيائه وأوليائه:

لا يتمّ للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان. وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية النافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده(٣).

ففي غزوة أحد لما حصل ما حصل من هزيمة المسلمين، وكان من المنافقين من انخذل من الجيش فرحوا بذلك أشدّ الفرح، وظنوا أنه لا قائمة للإسلام بعد ذلك: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

عن ابن جريج قال: «قيل لعبد الله بن أبي: قتل بنو الخزرج؟ قال: وهل لنا من

(٣) القول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي ص١٢٢.

الأمر من شيء [1]. وقال الزّبير رضي الله عنه: «لقد رأيتني مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حين اشتدّ الخوف علينا، أرسل اللّه علينا النّوم، فما منّا من رجلٍ إلا ذقنه في صدره، قال: فواللّه إنّي لأسمع قول معتّب بن قشيرٍ، ما أسمعه إلا كالحلم: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قتلنا ها هنا، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل اللّه: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ لقول معتّبٍ» [2].

فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر ورد الأمر كله إلى الله، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى لما ذمّوا عليه، ولما حسن الرد عليه بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية.

ولهذا قال غير واحد من المفسرين: «إن ظنهم الباطل ها هنا هو التكذيب بالقدر وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعًا لهم يسمعون منهم؛ لما أصابهم القتل ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم الله عز وجل في هذا الظن الباطل، الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء فكذّبهم الله بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وأنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه» [3].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه وطائفة منكم أيها المؤمنون قد أهمتهم أنفسهم. يقول: هم المنافقون لا همّ لهم غير أنفسهم، فهم من حذر القتل على أنفسهم وخوف المنية عليها في شغل قد طار عن أعينهم الكرى [4]، يظنون بالله

(1) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبدالرحمن آل الشيخ ص٦٨٠.

(2) تفسير ابن أبي حاتم ٣/ ٢٣٠؛ جامع البيان، الطبري ٤/ ١٤٣؛ لباب النقول، السيوطي ص٥٩؛ الصحيح من أسباب النزول، عصام الحميدان ص٩٧؛ الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي ص٥٠.

(٣) زاد المعاد، ابن القيم ٣/ ٢٢٩.

(٤) الكرى هو النعاس، فلقد جعل الله النعاس يغشى المؤمنين المقاتلين في غزوة بدر ليزيل شعورهم بالخوف، وأحد ليزيل شعورهم بالغم، حيث قال سبحانه عن تثبيت المؤمنين في بدر: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ [الأنفال:١١]، فالأمنة هي شعور المجاهد بالأمان والطمأنينة أثناء خوض المعركة، لكن أسباب الخوف ما زالت موجودة لأنه على أرض المعركة. أما الأمن فهو الطمأنينة بعد زوال سبب الخوف. فسبحان منزل هذا الكتاب المعجز بألفاظه.
انظر: لطائف قرآنية، صلاح الخالدي

الظنون الكاذبة ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله؛ شكًا في أمر الله وتكذيبًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ومحسبة منهم أن الله خاذلٌ نبيه، ومعلٍ عليه أهل الكفر به»[(1)].

فالمقصود بـ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ المنافقين. وهم: معتّب بن قشير[(2)] وأصحابه، وكانوا خرجوا طمعًا في الغنيمة، وخوف المؤمنين؛ فلم يغشهم النعاس. وجعلوا يتأسفون على الحضور، ويقولون الأقاويل[(3)].

ثم لما كانت غزوة الخندق عاود المنافقين ظنّهم السيء وقالوا مقولاتهم المرجفة: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١٢].

قال الحسن رحمه الله: «ظنون مختلفة، ظن المنافقون أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون»[(4)]. لقد ظهر نفاق المنافقين؛ لأن ظنهم السيء هداهم إلى أن دعوة الإسلام على مشارف الانتهاء والاضمحلال، وأخذوا يشككون في وعد الله ورسوله، حتى قال قائلهم: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط!»[(5)]. وخيب الله ظنهم، فحفظ المؤمنين، ورد الكافرين على أعقابهم لم ينالوا خيرًا ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ويتواصل الظن السيء مع المنافقين؛ لأن قلوبهم قد مردت على النفاق، فتكون غزوة الحديبية التي ما خرج فيها مع المؤمنين أحد من المنافقين؛ لأنهم لا يحبون أن يراهم المشركون متلبسين بأعمال المسلمين، مظاهرين لهم، وكانوا يحسبون أن المشركين يدافعون المسلمين عن مكة، وأن النصر سيكون للمشركين.

لقد ظنوا أن الله تعالى لم يعد رسوله صلى الله عليه وسلم بالفتح، ولا أمره

ص١٠٣.

(١) جامع البيان ٤/ ١٤١.

(٢) بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد التاء فوقها نقطتان، معتب بن قشير بن مليل بن زيد بن العطاف بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف الأنصاري. شهد بدرًا وأحدًا، وكان قد شهد العقبة. يقال: إنه كان منافقًا وإنه الذي قال يوم أحد: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. وقيل: إنه تاب. انظر: الاستيعاب، ابن عبد البر ٣/ ١٤٢٩؛ الإصابة، ابن حجر ٦/ ١٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٤٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٣٥.

(٥) المصدر السابق ٣/ ٧٣٥.

بالخروج إلى العمرة، ومن ثم لن ينصر لقلة أتباعه وقوة أعدائه؛ فسجل القرآن عليهم هذا الظن السيئ، وجعل عليهم دائرة السوء ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح:٦].

وتمادى بهم ظنهم السيئ، وامتلأت به قلوبهم، وزينه لهم شياطينهم؛ حتى اعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يرجع من الحديبية سالمًا، وهذا هو شأن العقول الواهية، والنفوس الهاوية أن لا تأخذ من الصورة التي تتصور بها الحوادث إلا الصورة التي تلوح لها في بادئ الرأي والتي تهواها وتحبها[١].

وما أحقر المنافقين: يعيشون بين المؤمنين، وينعمون بحمايتهم، وتبادل المنافع معهم، وهم يودون لهم الشر والهلاك. تخلفوا عن الحديبية ثم جاؤوا بأعذار كاذبة، وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم؛ لكن القرآن كان أسرع في تنزله؛ إذ راحت آياته تفضحهم وتبين مخازيهم: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٢﴾ [الفتح: ١٢].

إنهم تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظنوا أن أهل مكة سيقتلون محمدًا وصحبه، ويستأصلون شأفتهم، ويبيدون خضراءهم؛ فلا يرجع منهم مخبر حتى كانوا يقولون: إن محمدًا وأصحابه أكلة رأسٍ لا يرجعون. وذلك كناية عن القلة، أي: يشبعهم رأس بعير من قلتهم، فما هم بالنسبة لقريش والأحابيش وكنانة ومن في حلفهم؟![٢]. هكذا ظنوا وتمنوا ولكن الله خيب ظنهم، ونكس أمانيهم فعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية سالمًا مظفرًا، وقد فات المنافقين شرف صحبته، وفضل بيعة الرضوان.

وفي قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص:٥٧].

يخبر تعالى أنّ المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعناك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن باللّه

(١) التحرير والتنوير، بن عاشور ٢٦/ ١٥٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٧٣٥؛ التحرير والتنوير، بن عاشور ٢٦/ ١٥٣.

تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق[١]. ولقد نهى سبحانه عن هذا الظن والحسبان فقال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

ورد على من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه سيضمحل بقوله: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج: ١٥].

وهذه الآية الكريمة فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ولرسوله وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأييس الكافرين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم[٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه؛ فإن الله ناصره لا محالة، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: ٥١-٥٢][٣].

إن الظن السيئ بالله هو نتاج قلب فاسد جاهل به سبحانه وأسمائه وصفاته، خالٍ من ذكر الله وتعظيمه. وهكذا كان حال المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتعلقون بأي شيء فيه إضعاف للحق، وإرجاف بين المؤمنين؛ رجاء أن يزول هذا الحق الذي لا يريدونه، وتكررت منهم الظنون السيئة في مواقف كثيرة، سجل القرآن منها ظنونهم في أحدٍ والأحزاب والحديبية، واستمر المنافقون منذ ذلك الوقت إلى اليوم على هذا المنهج الفاسد، تدفعهم إليه قلوبهم المريضة.

ومع بالغ الأسف فإن كثيرًا من المسلمين يقعون في الظن الفاسد الذي هو من خصال المنافقين من حيث لا يعلمون، فقد ينظر بعض المسلمين إلى أحوال الأمة الإسلامية، وما أصابها من الضعف والهوان؛ فيصيبه اليأس من صلاح أحوالها؛ فيقعد عن العلم والدعوة، ويتخلف عن الخير والصلاح. يظن ظنًّا سيئًا أنه لا صلاح يرجى، ولا خير ينتظر. ويبصر البعض الآخر الكفار وما يملكون من أسلحة متطورة، وصناعة متقدمة، وقوة ضاربة، ويقارن ذلك بأحوال المسلمين، الذين يقتلون ويشردون ويمنعون أبسط الحقوق الضرورية للعيش على الأرض!! فلربما يقدح الشيطان في قلوبهم أن تلك القوة عند الكفار دليل على

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢١.
(٢) المصدر السابق ص٥٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢١١.

الحق، وأن ذلك الضعف عند المسلمين دليل على الباطل، فيطلقون لأنفسهم العنان في هذه الأوهام الفاسدة، والظنون السيئة؛ حتى ربما خرجوا من الإسلام وهم لا يشعرون.

ثالثًا: عدم علم الله لما يسرون:

قد أنكر الله في كتابه من ظن ذلك الظن، فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

ويقول عز من قائل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت:٢٢].

وسبب نزول الآية كما ذكر ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ: قرشيّان وثقفيٌّ أو ثقفيّان وقرشيٌّ، قليلٌ فقه قلوبهم، كثيرٌ شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللّه يسمع ما نقول؟ وقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا! وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل اللّه عزّ وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت:٢٢][1].

أي: الخفيات من أعمالكم، وهذا الظن كفر وجهل بالله وسوء معتقد يؤدي إلى تكذيب الرسل والشك في علم الإله[2].

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك: «من ظن أنه سبحانه لا سمع له ولا بصر، ولا علم له ولا إرادة، وأنه لم يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدًا، وأنه ليس فوق سماواته على عرشه بائنًا من خلقه، أي بلا كيف، وكما وصف الله به نفسه، فقد ظن به أقبح الظن وأسواه»[3].

رابعًا: كذب الرسل:

إنّ من أسس العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الرسل والأنبياء عليهم السلام وبما جاؤا به من عند الله، فالمؤمنون يعتقدون إيمانًا راسخًا ثابتًا لا يتزعزع بالرسل والأنبياء عليهم السلام. وقد وصف القرآن الكريم إيمان المؤمنين حيث قال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فما من نبي دعا قومه إلى الله إلا وجاءهم ببيّنة على صدقه في دعواه من حجة عقلية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٤٨١٦، ١٦/ ٨٧؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصفات، رقم ٢٧٧٥، ص٢١٤١.

(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٧٢.

(٣) انظر: زاد المعاد ٣/ ٢٣٢.

وآية كونية. فمن شكّ أو ظنّ في صدق الرسل وبما جاؤوا به فقد أساء الظن بالله وبرسله إساءة توردِه الهلاك في الدنيا والآخرة[1].

ولا يخفى ما حلّ بالأقوام السابقة من العذاب العظيم حينما أساءوا الظن برسلهم وشكوا بهم فكذبوهم. فمن قوم نوح عليه السلام من كذب وشك فيما فضّله الله به عليهم، يقول الله عز وجل مخبرًا عنهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧].

وقال سبحانه عن قوم هود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦].

قد تشابهت أقوال قوم هود وأقوال قوم نوح في تكذيب الرّسل؛ لأنّ ضلالة المكذّبين متّحدة، وشبهاتهم متّحدة، كما قال عز وجل: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:١١٨].

فكأنّهم لقّن بعضهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات:٥٣][2]. وقال سبحانه عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

ونجد أن قوم شعيب عليه السلام عندما دعاهم إلى الله ظنوه كاذبًا، ولم يقفوا عند ذلك بل طلبوا بأنفسهم العذاب إن كان صادقًا، فقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء:١٨٥-١٨٧].

وقوم موسى عليه السلام اختلفوا وشكّوا فيما جاءهم به ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠].

ثمّ إنّ فرعون ظنّ أنه حين دانت له البلاد، وذلّ له العباد، استحق ما ليس له فقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، وأراه الآيات العظام على يد موسى عليه السلام فكذب وعصى، وقال في حق موسى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٧].

وفي آية أخرى أراد أن يحقق ظنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ١٧٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥ / ٣٤٨.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: ٣٨].

كذب موسى، وادّعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ، الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٦.

غلبة الظن في الأحكام الشرعية

كثير من المسائل الفقهية ظنية: إما لخفاء الدليل، أو خفاء الدلالة؛ فليس كل مسألة في الفقه يقول بها الإنسان على سبيل اليقين أبدًا، بل بعضها يقين وبعضها ظن، والظن إذا تعذر اليقين مما أحل الله، ومن نعمة الله أنه إذا تعذر اليقين رجعنا إلى غلبة الظن، فليس كل ظن منكرًا، لكن الظن الذي ليس له أصل يبنى عليه منكر. فهؤلاء الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى لا علم لهم بذلك بل هو ظن مبني على وهم، وربما يكون مبنيًا على أهواء، يعني لم يطرأ على بالهم أنهم إناث، ولكن تبعوا آباءهم، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨].

أي: هذا الظن المبني على الوهم لا على القرائن لا يغني من الحق شيئًا، أي لا يفيد شيئًا من الحق، لأنه وهم باطل، والوهم الباطل لا يمكن أن يفيد[(٢)].

إن مسائل الشريعة التي لا يمكن الوصول فيها إلى درجة اليقين؛ لا بد فيها من الاستناد إلى الظن الغالب. والمقصود بالظن الغالب هنا هو الظن الذي يغلب الظنون الأخرى، فالظّن ضربٌ من أفعال القلوب، يحدث عند بعض الأمارات، وهو رجحان أحد طرفي

(٢) تفسير القرآن [جزء الذاريات]، ابن عثيمين ص ٢٢٣.

التّجوّز، وإذا حدث عند أمارات غلبت وزادت بعض الزيادة، فظنّ صاحبه بعض ما تقتضيه تلك الأمارات، سمي ذلك: غلبة الظّن [(١)].

وهذا المعنى هو المصطلح عليه عند علماء أصول الدين وأصول الفقه. وهو العلم المستند إلى دليل راجح مع احتمال الخطأ احتمالًا ضعيفًا. وهذا الظن هو مناط التكليف بفروع الشريعة.

وغلبة الظن تنزل منزلة اليقين والعلم في الأحكام الشرعية، قال الشاطبي: «الحكم بغلبة الظن أصل في الأحكام» [(٢)] بل عدّ الجصّاص الاقتصار على غالب الظن وإجراء الحكم عليه واجب [(٣)].

وإنما أجري الظن مجرى العلم؛ لأنّ الظن الغالب يقوم مقام العلم في العادات والأحكام؛ ولأنّ ما يدرك بالاجتهاد قلّما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون؛ فجاز إطلاق لفظ الظن عليها؛ لما لا يخلو عنه [(٤)].

والمشهور من مذهب مالك أن الغالب مساوٍ للمحقق في الحكم [(٥)]. وقد دل على ذلك قوله تعالى في شأن المهاجرات: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ومعلوم أنه لا سبيل إلى العلم اليقيني بإيمانهن، وإنما المقصود حصول غلبة الظن بأنهن مؤمنات، وقد سمى الله حصول هذه الغلبة علمًا، وفي الصحيح من حديث أم سلمة مرفوعًا: «عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه سمع خصومةً بباب حجرته فخرج إليهم، فقال: (إنّما أنا بشرٌ وإنّه يأتيني الخصم، فلعلّ بعضكم أن يكون أبلغ من بعضٍ، فأحسب أنّه صادقٌ فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحقّ مسلمٍ، فإنّما هي قطعةٌ من النّار فليأخذها، أو ليتركها)» [(٦)]. فقوله: فأحسب أنه صادق دليل على العمل بالظن الغالب.

قال البيضاوي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠] «إن كان في ظنهما أنهما يقيمان ما حدده الله وشرعه من حقوق الزوجية. وتفسير الظن بالعلم هاهنا غير سديد؛ لأن عواقب الأمور (غيب) تظن ولا تعلم؛ ولأنه لا يقال: علمت أن يقوم زيد؛ لأن (أن الناصبة) للتوقع، وهو ينافي العلم» [(٧)].

ولعل البيضاوي أراد غلبة الظن بقوله:

(١) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ١/ ٣٤٣.
(٢) الاعتصام ٢/ ١٤.
(٣) أحكام القرآن ٣/ ٥٣٩.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٢٧٥.
(٥) القواعد، المقري ١/ ١٤١.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام «باب من قضي له بحقّ أخيه فلا يأخذه.. حديث رقم ٦٦٧٢.
(٧) أنوار التنزيل ١/ ٥٢٠.

(في ظنهما) والذي هو دون العلم والله أعلم.

آثار الظن

أولًا: آثار حسن الظن:

١. المبادرة بالتوبة إلى الله.

إذا أحسن العبد ظنه بربه؛ فإنه يسعى للمبادرة إلى طلب عفوه، ورحمته، ورجائه، ومغفرته، ليطرق بعد ذلك العبد باب ربه منطرحًا بين يديه، راجيًا مغفرته، تائبًا من معصيته مستحضرًا قول النّبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ اللّه عزّ وجلّ يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل حتّى تطلع الشّمس من مغربها)[(١)].

حسن الظن بالله من أقوى ما يدفع به القنوط؛ فالمؤمن حين يصيبه الغم والهم من ذنب اقترفه، يعلم بحسن ظنه أنه لا يغفر الذنوب إلا الله فيبادر بالتوبة، وهذا ماحصل للثلاثة الذين خلفوا؛ إذ يقول سبحانه عنهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة:١١٨].

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، حديث رقم ٤٩٥٤.



﴿الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ جاءت هذه الجمل في كنف(إذا) في غاية الحسن والترتيب.ذكر أولًا: ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم، ونبوة الناس عن كلامهم. وثانيًا: وضاقت عليهم أنفسهم وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم، حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع. فذكر أولًا ضيق المحل، ثم ثانيًا ضيق الحال فيه؛ لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة...ثم ثالثًا: لما يئسوا من الخلق علقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة ولا يفرجها إلا هو تعالى [(١)].

ولاشك أن نبي الله داود عليه السلام كان حسن الظن بالله تعالى حينما أيقن أنه سبحانه سيغفر له ذنبه، فبادر عليه السلام في الإنابة له والاستغفار، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤)﴾ [ص:٢٤].

٢. حسن العمل.

إنّ من أحسن الظن أحسن العمل. فنبي الله إبراهيم عليه السلام قد لاقى ما لاقى من أبيه ومع ذلك قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم:٤٧].

فقد أحسن الظن والعمل مع والده بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فلم ييأس منه ويتركه. وأحسن الظن بربه حينما قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: لطيفًا، يجيب الدعاء. قال الحسن البصري رحمه الله: «إنّ المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل»[(٢)].

ونلحظ هذا الأثر في قوله سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

ومن أحسن الظن بربه فأيقن صدق وعده، وتمام أمره، وما أخبر به من نصرة الدين والتمكين في الأرض للمؤمنين؛ اجتهد في العمل لهذا الدين العظيم، والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله بماله ونفسه [(٣)]. فالعبد إنّما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه.

٣. الشعور بالطمأنينة.

إنّ المؤمن حين يحسن الظن بربه لا يزال قلبه مطمئنًا ونفسه آمنة تغمرها سعادة الرضا بقضاء الله وقدره وخضوعه لربه سبحانه. فها هم المؤمنون بعد غزوة أحد أخذهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١١٣.

(٢) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ٦٩؛ جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٠؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٥٠؛ فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٥٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٤/ ٩٦.

نوم مريح، وغلبهم نعاس هانئ ولذيذ، وهم في عدة الحرب، في الوقت الذي كان فيه المنافقون وضعاف الإيمان والجبناء يعانون من كابوس الأوهام والوساوس طوال الليل، ولم يذوقوا لذة النوم، فكانوا -من حيث لا يشعرون ولا يقصدون- يحرسون المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا يستريحون في تلك النومة الطارئة اللذيذة -إن صح التعبير-، وإلى هذا كلّه يشير الكتاب العزيز في الآية الحاضرة إذ يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أجل، إنّ المنافقين والجبناء وضعاف النفوس والإيمان لم يزرهم النوم ولا حتى النعاس في تلك الليلة خوفًا على نفوسهم، وعلى أرواحهم، وجريًا وراء الوساوس الشيطانية، والمخاوف التي هي من طبيعة ولوازم النفاق وضعف اليقين ووهن الإيمان، بينما المؤمنون الصادقون يستريحون في ذلك النعاس اللذيذ، وتلك النومة الطارئة الهانئة، وهذا هو أحد آثار حسن الظن وثماره المهمة البارزة، فإن المؤمن يحظى بالراحة والطمأنينة حتّى في هذه الدنيا، على العكس من غير المؤمنين من الكفار أو المنافقين أو ضعاف الإيمان، فإنهم محرومون من الطمأنينة والراحة اللذيذة تلك.

وها هي هاجر زوج إبراهيم عليه السلام عندما تركها ووليدها إسماعيل في الصحراء لا أنيس ولا جليس، وقليل من الزاد ثم ولى عنها، نادته:لمن تتركنا هنا. فلم يرد عليها فقالت: آللّه الّذي أمرك بهذا؟، قال: نعم، فقالت: إذن لا يضيّعنا[1].

أحسنت الظن بالله فاطمأنت، فكان ما كان من أمر زمزم والبيت الحرام. فالعبد إذا أحسن الظن بالله فإنّ الاطمئنان والسكينة تعمران قلبه، وتنفيان كل دواعي الخوف والوجل من المخاليق الضعفاء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن أن يملكوا شيئًا من ذلك لغيرهم، ويبقى مطمئنًا إلى حسن اختيار الله له، يستشرف رحمة ربه وخيره في كل ما يقضيه الله عليه؛ ولو ظهر في هذا المقضي من الشر والألم ما ظهر، فمن يدري؟! فلعل في طيات المحنة منحة ونعمة.

٤. النجاة من الشدائد.

لن يجد المؤمن في أوقات الشدة مثل حسن الظن بالله؛ ينير له طريق الأمل والثبات والغلبة، فالذي يحسن الظن بربه- وخاصة في الملمات- يعلم أنه سبحانه لن يضيعه مهما طال الوقت، و بذلك لن يكون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، رقم ٣١١٣.

أمامه إلا الصبر ليظفر بالنصر. فهاهي الفئة التي آمنت مع طالوت أحسنت الظن بالله؛ فصبرت وأيقنت بأن الله معها؛ ففرج الله كربتها وانتصرت على عدوها: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)﴾ [البقرة:٢٤٩].

فثمرة حسن الظن بالله تجلّت في قوله سبحانه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ويعقوب عليه السلام عندما اشتدت عليه الكربة قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف:٨٣].

وإنما قال يعقوب هذه المقالة؛ لأنه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته؛ علم أن الله سيجعل له فرجًا ومخرجًا عن قريب؛ فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله عز وجل؛ لأنه إذا اشتد البلاء وعظم؛ كان أسرع إلى الفرج[(١)].

ونبي الله يونس عليه السلام كان حسن الظن بالله، وهو في أحلك أوقات الحرج والضيق، فكان له من حسن ظنه مخرج من ضيقه، ونجاة من حرجه، ويسر من عسره، وفرج من كربته، ونور في ظلمته، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء:٨٧].

لقد ظلّ يونس في بطن الحوت بعض الوقت، وظن أن الله لن يضيق عليه فيه، ولا مانع من عروض هذا الظن للكل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه[(٢)]، ظلّ يسبح الله ويدعوه أن ينجيه من هذا الكرب، فاستجاب له الله ونجّاه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ [الأنبياء:٨٨].

حيث أمر الله الحوت أن يقذفه على الساحل، ثم أنبت عليه شجرة ذات أوراق عريضة تظلله وتستره وتقيه حرارة الشمس[(٣)].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ١/ ٥٢٩.

(٣) إذا قيل: ما الفائدة في إنبات شجرة اليقطين عليه دون غيرها؟ فالجواب: أن يونس -عليه السلام- خرج من بطن الحوت ضعيفًا مريضًا وهزيلًا في بدنه وجلده، فأدنى شيء يمر به يؤذيه. وفي ورق اليقطين خاصية وهي أنه إذا ترك على شيء لم يقربه ذباب، فأنبته الله على يونس ليغطيه ورقها ويمنع الذباب ريحه أن يسقط عليه فيؤذيه. وفي إنبات القرع عليه حكم كثيرة منها: أن ورقه في غاية النعومة،

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦﴾ [الصافات:١٤٥-١٤٦].

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ الذي تصيبه مصيبة أو شر ثم يدعو بدعاء يونس عليه السلام، يفرّج الله عنه، فقال صلى الله عليه وسلم: (دعوة ذي النّون إذ دعا وهو في بطن الحوت، لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين. فإنّه لم يدع بها رجلٌ مسلمٌ في شيءٍ قطّ إلاّ استجاب اللّه له)[(١)]. كلمات بسيطة أولها توحيد، وأوسطها تسبيح، وآخرها استغفار.قال بعض الصالحين: «استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل في كشفها؛ فإن ذلك أقرب إلى الفرج»[(٢)]. إنّ حسن ظن المؤمن بالله ويقينه بأن الله يدفع عنه ما يخطر بباله من الخواطر الشيطانية التي تثبّطه عن التقوى؛ يحقق وعد الله إياه بأن يجعل له مخرجًا. والمتأمل في قصة نبي الله يوسف عليه السلام يجد أثر ذلك واضحًا فلقد أحسن الظن بالله في أنه سيخلصه من الشر الذي أراد به أخوته إلى خير عميم حين قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف:٩٠].

فمن أحسن الظن بربه؛ وتوكل عليه حق توكله؛ جعل الله له في كل أمره يسرًا، ومن كل كرب فرجًا ومخرجًا. ولقد بيّن سبحانه ذلك الأثر جليًا في حق رسله- وهم أحسن عباده ظنًا به-حين قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف:١١٠][(٣)].

وأهمية تظليل ورقه عليه؛ لكبره ونعومته، ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره ومطبوخًا وبقشره وببذره أيضًا، وقد ثبت أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأكل منه.

(١) أخرجه الترمذي في السنن، باب ما جاء في عقد التّسبيح باليد حديث رقم ٣٥٠٥، ٥/ ٥٢٩؛ والنسائي في السنن الكبرى، باب ذكر دعوة ذي النون، حديث رقم ١٠٤٩٢، ٦/ ١٦٨. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه. ووافقه الذهبي. انظر: المستدرك على الصحيحين ٢/ ٦٣٧.

(٢) الفرج بعد الشدة، التنوخي ١/ ٧٦.

(٣) في قوله تعالى: ﴿كُذِّبُوا۟﴾ قراءتان بالتشديد وبالتخفيف: قرأ أهل الكوفة وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي ﴿كُذِبُوا۟﴾ بالتخفيف من قولك: كذبتك الحديث: أي لم أصدقك. وفي التنزيل: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٩٠]، أي لم يصدقوا مع الله ورسوله. وفيها وجهان من التفسير: أحدهما:حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظنّ قومهم أن الرسل قد كذبوا، بمعنى أخلفوا ما وعدوه من النصر، جاء الرسل نصرنا، فجعلِ الضمير في ظنوا للقوم، وجعل الظن موافقا لفظه ومعناه. الوجه الآخر: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم فيما أخبروهم به

آثار سوء الظن:

١. الوقوع في العقوبة والإثم.

إن سوء الظن بالله قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، ولا شك أن سوء الظن بالناس في حقيقته إيذاء للمظنون بهم، ويشتد الأمر سوءًا إذا كان المساء بهم الظن ممن لهم شأن ونفع لمجتمعهم؛ لأنه بذلك قد يحرم نفسه وغيره من الانتفاع به، إضافة إلى وقوعه في الإثم والعقوبة. ثم إنه قد يؤدي سوء الظن بصاحبه حين يريد أن يتحقق أو يتأكد من صحة ما ظن أن يقع في سلسلة طويلة من المعاصي والسيئات من غيبة وتجسس ونحوه. والله يقول: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

فالإثم هو الذنب الذي يستحق فاعله العقوبة عليه، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي[1].

ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٨].

ولا يخفى ما حل بالأقوام السابقة من العذاب، حين ظنوا برسلهم وشكوا فيما جاؤهم به فكان عقابهم كما قال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

لقد كذب كل هؤلاء الأقوام رسلهم الكرام وظنوا بهم سوءًا، فوجب العقاب الإلهي لهم، جزاء وفاقا.

وأخبر سبحانه عن أصحاب الإفك، أن لكل منهم ما اكتسب من الإثم: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النور: ١١].

وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي صلى الله عليه وسلم منهم جماعة[2].

٢. التنافر والتدابر بين أفراد المجتمع.

بعض الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة

من أنهم إن لم يؤمنوا بهم نزل بهم العذاب. وقرأ أهل الحجاز والبصرة والشام وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (كُذِّبوا) بالتشديد. وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ [الأنعام:٣٤]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ [سبأ:٤٥]، وجعلوا الضمير في ظنوا للرسل، والظن بمعنى اليقين. والأولى أن يجعل الضمير للرسل فيكون الفعلان للرسل، ويصير كلامًا واحدًا. ومعنى الآية: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أن قد كذبوهم جاءهم نصرنا، أي جاء الرسل نصرنا.
انظر: حجة القراءات. ابن زنجلة ص٣٦٦.

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٤٥.
(٢) المصدر السابق ص٥١٢.

المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرًا من اعتداء مظنون ظنًا باطلًا، كما قالوا: (خذ اللص قبل أن يأخذك)[1].

فالانسياق وراء الظنون والشكوك له آثار مدمرة على المجتمعات، فهي تعمل على توهين الصف المسلم بنشر الإشاعات، وأحيانًا تكون هذه الإشاعات موجهة إلى رموز الخير ممن لهم في النفوس مكانة وتقدير؛ فتحدث البلبلة، والشقاق، وعندها يرقص الشيطان؛ فرحًا على أشلاء وحدتنا؛ وتضعف الثقة في أهل الدعوة وأهل الإصلاح والتوجيه.

وصدق الشاعر[2] إذ قال:

فلا تتبع الظنّ إنّ الظنون
تريك من الأمر ما لم يكن

وهذا يدل على أن الظان لن يكتفي بما في نفسه من الحديث والخطرات بل سيتبعها بالتجسس والغيبة؛ ولذلك يقول سبحانه بعد الأمر باجتناب الظن والتحذير منه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ فقد اشتملت الآية الكريمة على الأمر باجتناب الظن باجتناب أثره، ثم النهي عن طلب تحقيق ذلك الظن بقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ثم النهي عن ذكر ما عسى أن يكون المتجسس قد وقف عليه ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، فهذه ثلاثة مترتبه: ظنّ، فعلم من طريق التجسس، فاغتاب[3]. كذلك من حكم بشرّ على غيره بمجرد الظن، حمله الشيطان على احتقاره، وعدم القيام بحقوقه والتواني في إكرامه، بل وإطالة اللسان في عرضه. وكل ذلك من شأنه الفرقة والتنافر بين أفراد المجتمع؛ لذا نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اتبع النهي عن الظن والتحذير منه بقوله: (وكونوا عباد اللّه إخوانا) في حديث: **(إيّاكم والظّنّ؛ فإنّ الظّنّ أكذب الحديث. ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد اللّه إخوانا)**[4].

٣. الخسارة.

يالخسارة من وقع في الأوهام والظنون السيئة؛ لقد أردتهم تلك الظنون وجعلتهم يخسرون كل شيء حتى أنفسهم، وسوف يخسرون منازلهم في الجنة يرثها عنهم المؤمنون، ويرثون هم المؤمنين منازلهم في النار ذلك هو الخسران المبين. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٥.
(٢) ديوان ابن مقبل ص ١٤٣.
(٣) تفسير آيات الأحكام، السايس ص٧١٣.
(٤) سبق تخريجه ص ٢٠.

﴿ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ٢٢-٢٣].

قال ابن كثير رحمه الله: « هذا الظن الفاسد -وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون- هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم[1]؛ لأنكم من أجل هذا الظن؛ اجترأتم على محارم الله فقدمتم عليها، وركبتم ما نهاكم الله عنه؛ فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة[2]. ثم إن الله تعالى بيّن أن الكفار الذي أضلّهم قرناؤهم من الشياطين يظنون أنهم على هدى، فهم يحسبون أشد الضلال أحسن الهدى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[الزخرف: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الأعراف:٣٠].

وبيّن سبحانه أنهم بسبب ذلك الظن هم أخسر الناس أعمالًا في قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤][3].

٤. الوقوع في الهاوية والعذاب الشديد.

من أعظم الذنوب عند الله: إساءة الظن به؛ ولهذا توعد الله سبحانه الظانّين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

[الفتح: ٦].

فدائرة السوء[4] والعذاب تحيط بهم من كل جانب في الدنيا والآخرة، إضافة إلى غضب الله، ولعنته، واستحقاق جهنم.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٩٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٣.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٨.
(٤) وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (دائرة السوء) بالضم. والفرق بينه وبين(السوء)بالفتح، على ما في الصحاح: أن المفتوح مصدر، والمضموم اسم مصدر بمعنى المساءة. وقال غير واحد: هما لغتان بمعنى كالكره والكره عند الكسائي. وكلاهما في الأصل مصدر، غير أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه، والمضموم جرى مجرى الشر. ولما كانت الدائرة هنا محمودة وأضيفت إلى المفتوح في قراءة الأكثر تعيّن على هذا أن يقال: إن ذاك على تأويل أنها مذمومة بالنسبة إلى من دارت عليه من المنافقين والمشركين. واستعمالها في المكروه أكثر، وهي مصدر بزنة اسم الفاعل أو اسم فاعل، وإضافتها على ما قال الطيبي من إضافة الموصوف إلى الصفة للبيان على المبالغة. وفي [الكشف]: الإضافة بمعنى [من] على نحو: دائرة ذهب. فتدبّر. والكلام إما إخبار عن وقوع السوء بهم، أو دعاء عليهم. انظر: الكشاف، الزمخشري ٦/ ٣٤١؛ روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ٩٥؛ تفسير أبي السعود ٦/ ١٦٦.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق: ١٠ - ١٤].

وقعت هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ موقع التعليل لمضمون جملة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾.وحرف(إنّ) فيها مغنٍ عن فاء التعليل، فالمعنى: يصلى سعيرًا لأنه ظن أن لن يحور، أي لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، أي لأنه يكذّب بالبعث[1].

والله هدّد الكفار على ظنهم السيئ بالويل من النار، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧].

وقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [يونس: ٦٠].

موضوعات ذات صلة:

الشك، العلم، اليقين

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٠٠.

فهرس المحتويات